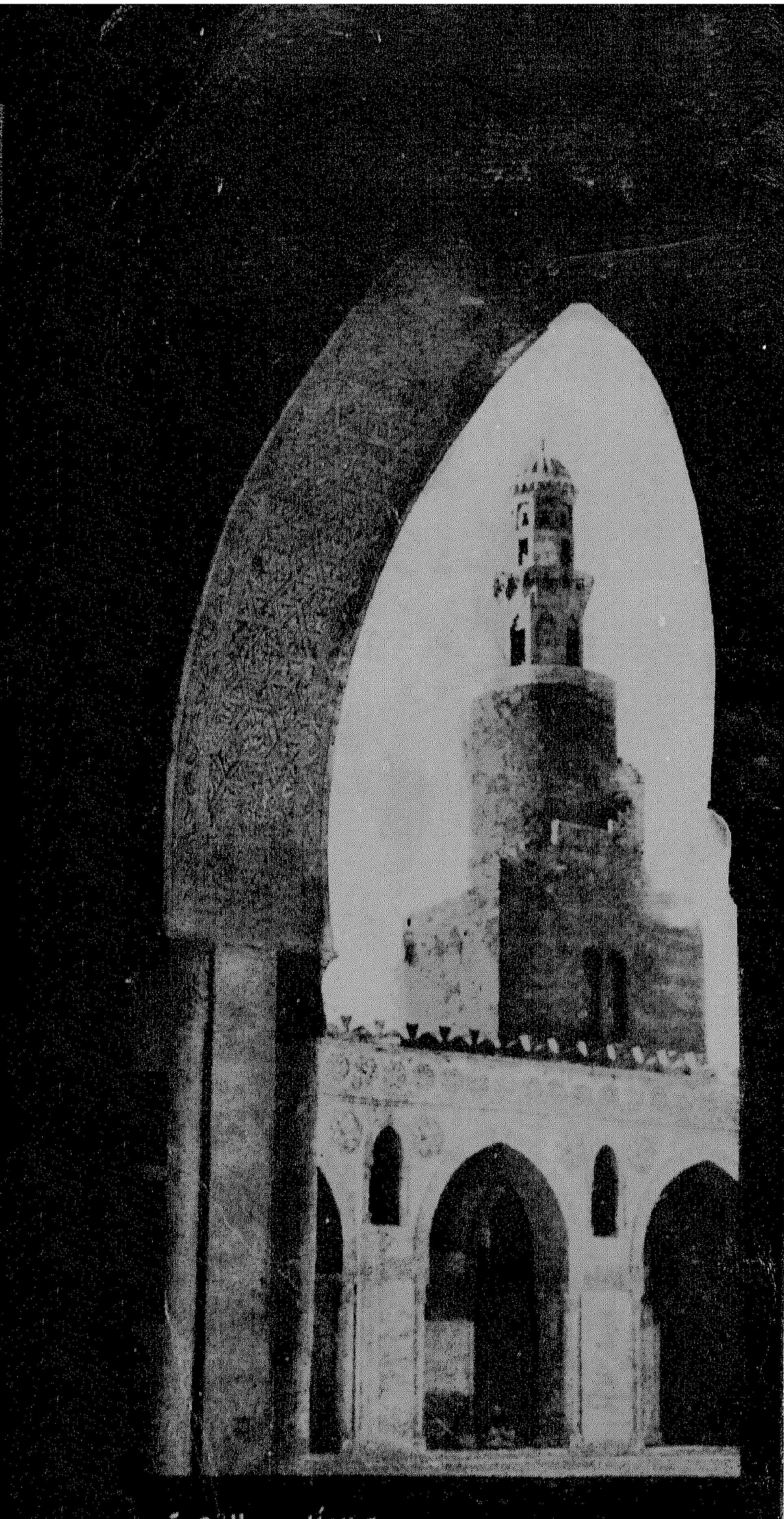


القاهرة

تاريخها وآثارها

(٩٦٩ - ١٨٢٥)

من جوهر القائد
إلى الجبرتي المؤرخ

تأليف
دكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

القاهرة

نصر

تاريخها وآثارها (٩٦٩ - ١٨٢٥)

من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

دار الطباعة الحديثة

٩ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش

ت ٩٠٨٢١٨ - س. ت ٨٩٦٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ انطلاق العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين ، لم يكتفوا بسكنى المدن الساسانية أو البيزنطية التى وقعت تحت أيديهم ، ولكنهم شيدوا مدناً جديدة ، اتخذوها قواعد عسكرية فى عصر الحروب الإسلامية ، ليستقر فيها المقاتلون ، فلا يلبثون أن يلحق بهم أفراد أسرهم . ولما انتهى عصر الفتوح وأخلد الخلفاء إلى الطمأنينة والاستقرار ، لم تتجاوز رغبتهم تشييد القصور والمساكن لهم ولحاشيتهم فى مكان خاص على مقربة من جامع المدينة ، وسرعان ما قامت حوالها مدينة كبيرة .

فمنذ صدر الإسلام رأينا العرب يخططون الأمصار والقصبات والمدن ، وينشئونها ، وقد اندثر بعضها أو قلت أهميته ، فى حين ازدهر بعض آخر وتطور إلى مدن كبرى ، وأصبحت منائر إشعاع للحضارة الإسلامية . ففى غرب آسيا ، شيد عتبة بن غزوان فى خلافة عمر بن الخطاب مدينة البصرة (١٤هـ/٦٣٥م) ، ثم أسس أبو الهياج الأسدى مدينة الكوفة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) ، كما بنى الحجاج الثقفى فى أيام عبد الملك ابن مروان مدينة واسط (٨٣ / ٨٤ هـ — ٧٠٢ / ٧٠٣م) ، ثم أسس أبو جعفر المنصور مدينة السلام أو بغداد ١٤٥ هـ / ٧٦٢) ، فأصبحت أعظم مركز للحضارة العربية عرفه العالم حتى قضى المغول عليها .

أضف إلى ذلك ، عشرات المدن التى بناها العرب أو جددوها فى إيران وشمال الهند ، كقزوين التى مصرها سعيد بن العاص (٢٩ / ٣٤ هـ — ٦٤٩/٦٥٤) فى خلافة عثمان بن عفان ، وأسد أباد فى نيسابور التى أسسها أسد بن عبد الله القشرى فى أيام هشام بن عبد الملك (١٢٠ هـ / ٧٣٨ م) ، والمنصورة بالهند التى بناها منصور بن جمهور الكلبى (١٢٦ هـ / ٧٤٣ م) .

فإذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا ، قابلتنا الفسطاط أولى المدن العربية الأفريقية ، وقد أسسها عمرو بن العاص (٢١ هـ / ٦٤١م) بمعاونة بعض قادته الذين قاموا بتخطيطها . ثم بنى صالح بن على العباسي على أيام السفاح « العسكر » فى شمال الفسطاط (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)، وشيد أحمد بن طولون « القطائع » (٢٥٦هـ/٨٧٠م)، ثم أنشأ جوهر القائد الفاطمى ، مدينة القاهرة (٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م) ، التى أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية .

إن المدن التى أسسها العرب فى الشمال الإفريقى يضمها فى الواقع ثبت ضخم ، نذكر منها القيروان بتونس التى شيدها عقبة بن نافع (٥٠ هـ / ٦٧٠م) ، والمنصورية بالقرب منها (٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) ، ورقادة ثم

تونس التى شيدها حسان بن النعمان ، والمهدية الفاطمية (٣٠٣ هـ / ٩١٥) ، والمحمدية ، ثم فاس التى بناها الأدارسة (١٩٢ هـ / ٨٠٨م) ، ووهران (٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م) ، ومراكش التى شيدها يوسف بن تاشفين (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م) ، والرباط التى أسسها السلطان الموحدى عبد المؤمن فى القرن الثانى عشر .

أما ما شيده العرب والبربر فى الأندلس من المدن ، فكثير ، ألم يستقروا هناك حوالى ثمانمائة سنة ؟ نشروا فى خلالها دينهم ولغتهم وحضارتهم ؟ لقد أعادوا إنشاء قرطبة من جديد ، وبنى عبد الرحمن الثالث مدينة الزهراء بالقرب منها (٣٢٥ هـ / ٩٣٦م) ، وشيدت قلعة « أيوب» وتطيلة ، ومرسية والزاهرة وغيرها .

فالعرب إذن بناءون . نعم ابتنوا مدنا كبيرة ، استقر فيها دينهم وحضارتهم على مر الزمن ، وما زالت تلك المدن حتى اليوم ، فى طليعة مدن العالم الزاهرة ، تتحدث كلها عن ماض تليد وتراث علمى خالد ، وهى اليوم ذات حاضر مزدهر ، وترنو إلى مستقبل وضاء .

وشهر بين رجالات العرب ، علماء كثيرون ألفوا عن المدن : فكتب عن البصرة : ابن شبه ، وألف عن بغداد : طيفور (٨١٩ــ٨٩٣) وابنه والسرخسى والخطيب ، وألف عن الكوفة : الهيثم بن عدى ، وعن المدينة : المدائنى وابن شبه وعبيد الله بن أبى سعيد الوراق ، وعن مكة : الواقدى والأزرقى ، وكتب ابن عساكر عن دمشق ، ولأحمد بن عيسى مصنف عن حمص ، وللزهراوى عن قرطبة ، وألف عن القيروان أبو العرب الصنهاجى ، وغيرهم كثيرون .

أما عن كتاب الخطط ، فحدث كثيراً ، ولاسيا بين علماء مصر ، نذكر منهم : ابن عبد الحكم « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، والكندى « الخطط » ، وابن زولاق « الخطط » ، والمسبحى « أخبار مصر » ، والقضاعى « المختار فى ذكر الخطط » ، وابن عبد الظاهر « الروضة البهية الزاهرة » ، وابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، وعميد كتاب الخطط تقى الدين المقريزى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ؛ والسيوطى « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، وغير هؤلاء من المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب الذين تناولوا فى مؤلفاتهم وصف المدن وخططها وأحوالها .

* * *

لقد صحبت القاهرة منذ سنوات طويلة ، وجعلت من دراسة تاريخ خططها ومبانيها وتطورها هوايتى. فكنت أسعى إلى كل مسجد أو مدرسة أو وكالة أو سبيل برفقة زملائى أو بصحبة نفسى لأبحث نقشاً مكتوباً أو أصعد مئذنة أو برجاً لأشاهد شيئاً قد يكون مستوراً خلف بيت قديم أو خان خرب . وقد شجعنى هذا على أن أعنى بدراسة الآثار الإسلامية دراسة علمية صحيحة ، فرحلت إلى شتى المدن فى العالم

العربى لأرى بعينى ما خلفته تلك الحضارة الخالدة من عمائر وفنون ، جعلتنى أقابل بينها وبين ما يوجد منها فى بلدنا . ودفعنى هـذا إلى مطالعة الـكتب المتصلة بآثار المدن الغربية وأقتنيها . ثم حاولت أن أكتب عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها وعمائرها ، فوفقت فى بعضها . وصدر لى أول كتاب عن القاهرة بجزئيه (١٩٣٢ — ١٩٣٥) . ولـما عزمت بمشيئة الله ، بعـد أكثر من ثلاثين سنة ، على أن أكتب مرة أخرى تاريخ القـاهرة ، وجدت نفسى مضطراً لأن أتبع نفس المنهج التاريخى الذى ألفته وألفه غيرى من المؤلفين .

فإنى فى هذا الـكتاب ، أتابع تاريخ القاهرة منذ وضع القائد جوهر أساس أسوار المدينة العتيدة فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ . ثم أتبعها ببناء الجامع الأزهر (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ) ، الذى قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حيـاتها المديدة ، وأن يبقى أثراً خالداً فى العالم الإسلامى . ومنذ ذلك العصر الفاطمى ، أصبحت القاهرة قاعدة امبراطورية واسعة ، ولا سيما بعد أن ضمت إليها العواصم الإسلامية الأولى : الفسطاط والعسكر، والقطائع، على أيام دولة صلاح الدين الأيوبى ، ذلك السلطان العظيم الذى جعل القاهرة عاصمة للبلاد بعد أن كانت مدينة لا يسكنها إلا الحـكام ، ثم شيد حولها سوراً وتوجها بقلعته المنيعة فوق جبـل المقطم ، ثم عنى أحفاده ببناء مدارس العلم فيها .

وفى أيام حـكم المماليك ، ازدهرت القاهرة وامتدت فى اتجاه الشمال وإلى الغرب ، وتنافس الحـكام والأمراء فى بناء المساجد والمدارس ودور الـكتب والقصور . والواقع أن ما نشاهـده اليوم فى القاهرة من الآثار الرائعة فى جميع أحيائها الأصلية هو شاهد حق ، على ما اتسمت به المدينة من الازدهار والروعة وجمـال الذوق فى أثناء العصور الوسطى ، حينما وفد إليها طائفة من الرحالة العرب والأجانب ، فأجادوا صفة ما شاهدوه فيها . أما القاهرة فى أيام العثمانيين ، فلم يطرأ عليهـا تغيير يذكر سواء فى اتساعها أو امتدادها ، فلقد بقيت بحدودها المملوكية . فـكان باب الحديد أقصى حدود مبانيها جهة الشمال الغربى ، والأزبكية وما حولهـا من مبان نهاية العمران فى الغرب ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة . صحيح أنه شيدت بها بعض المساجد الصغيرة الحافلة بأروع النقوش والزخارف ، بيد أنه فى الوقت نفسه تفشى الخراب بأحياء المدينة ، فدرست قصور السلاطين والأمراء فيما عدا القليل ، كما شيدت بعض التـكايا والأسبلة ، وهى التى تتميز بها معظم مدن آل عثمان .

ثم جاءت مرحلة الخراب الأخيرة فى أثناء الحملة الفرنسية ، وتـكاد تـكون هذه الفترة بالرغم عن قصرها أتعس ما مر بالقاهرة خلال حياتها ، لـكنها امتازت أيضاً بالمقاومة الوطنية العنيفة التى أبداها القـاهريون ضد ما ارتـكبه الفرنسيون من المظالم البشعة فى أحياء المدينـة . فاضطروا إلى إخـلاء القاهرة والانسحاب من وادى النيل ، وتنفست البلاد من نسيم الحرية .

* * *

هذه هى صفحات من تاريخ القـاهرة ، فيها الزاهى وفيها أيضاً الداكن ! أحداثها موصولة تتعاقب ، منذ أسسها جوهر ، فما وقع حادث ضخم فى الدنيـا ، إلا كان له أثره فيها ، كما أن للقـاهرة أيضاً أثرها الـكبير فى العالم العربى ، بل فى العالم الإسلامى قاطبة ، فى شئون السياسة والعلوم والفنون . وقد أنجبت القاهرة جماعات لا يحصى عددها من الفقهاء والعلماء والساسة والأدباء ، تذكرهم حتى اليـوم أعمالهم الخالدة ، تلك المنجزات التى أسهم فيها بقسط وفير ، أبناء كل خط من أخطاطها ... الجمالية ، المغربلين ، الصليبة ، الدرب الأحمر والروضة ... وغيرها . ويشهد تراثها المظيم على حيوية أهلها الفياضة ، مع أصالة فى الإبداع ، وحب لـكل ما هو رائع وجليل . ومن أجل ذلك عاشت القاهرة على مر الزمن .

عبد الرحمن زكى


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة

لما فتح العرب مصر (١٨ هـ — ٦٣٩ م) ، كانت الاسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة ، إلا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك ، بل أمره بانشاء مدينة جديدة ، لايفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء ولا فى صيف . فلما عاد عمرو من فتح الاسكندرية ، قصد المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون ، حيث عسكرت قوات العرب حين قدومها ، وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله . وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل منها ، وهم : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وجبريل ابن ناشرة المعافورى .

وقد ذكر البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط الفسطاط واتخذ لنفسه داراً ، وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور حصن بابليون ، وبقى فيها ذلك السلم حتى احترق فى حريق شاور . أما ياقوت ، فقد ذكر فى معجم البلدان ماذكرناه آنفاً منقولاً عن ابن دقماق . ويصف إبن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الأولى ، ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء . وقد أفاد المستشرقون مما كتبه ابن عبد الحكم ورسموا تخطيطات هامة فى غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط .

وقد حدد المقريزى موقع الفسطاط فى خططه ، فقال :

« إعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر . كان فضاء ومزارع فما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة . ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من الاسكندرية ، ويقيم فيها ما يشاء ، ثم يعود إلى دار الامارة » .

وتاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه ، فالبلاذرى يقول انه كان بعد فتح بابليون ، فى حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندريه ، كما ذكرناه . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية ، وأنها زادت فما بعد حتى صارت مدينة ، وعاصمة ذات شأن كبير ، ثم نمت نمواً سريعا بعد عام واحد من إنشائها . وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بنى الفسطاط فى سنة ٢١ هـ . بعد فتح الاسكندرية » .

ومما زاد فى مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة إسمها « أمينس تراجانوس » (ترعة طرايانوس) ، وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح ، لكنها أهملت فى وقت ما ، فأعاد حفرها عمرو بن العاص ، وعادت لها أهميتها القديمة ، فكانت ترسل بوساطتها الغلال إلى بلاد العرب ، وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه فى مصر .

ولما انتهى عمرو بن العاص من بناء الفسطاط ، أنشأ الجامع العتيق ، أقدم المساجد فى مصر ، وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها . وقد اختار عمرو موضع بنائه فى المكان الذى كان فيه لواؤه ، وقد عرف باسم مسجد أهل الراية ، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين ، كانوا يؤلفون نواة الجيش ، وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها . وقد أورد ابن عبد الحكم فى تاريخه ، خطبة عمرو التى قالها فى يوم الجمعة ، وجاء فيها :

« حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً . فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ... وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ فقال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة ... إلخ » .

ولقد مرت مراحل كثيرة على « تاج الجوامع » كما أطلق عليه . ووصفه الرحالة الأندلسى ابن سعيد الذى زار مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، قال :

« .. ثم دخلت إليه ، فعاينت جامعاً كبيراً ، قديم البناء غير مزخرف ، ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجالا ونساء ، قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم ، يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى . والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم . والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب قراء العامة ... » .

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ... وانتشر الموسيقيون فى فنائه والقرداتية والراقصات ، فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضاً ، ولولا إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين » .

* * *

وفى الجهة البحرية من الجامع ، شيد عمرو داراً له ، وأخرى غربيها لابنه عبد الله ، عرفت بالدار الصغرى تمييزاً لها عن دار أبيه التى عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله.

ولما رسخت أقدام المسلمين فى مصر ، اتسعت وزادت عمارة الفسطاط ، وفاقت البصرة والكوفة ، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، كما ذكر ذلك ابن حوقل الجغرافى فى أواخر القرن العاشر . وقال القضاعى المؤرخ عن مقدار عمارتها أنه كان فى الفسطاط ٣٦٠٠ مسجداً و٨٠٠٠ شارع مسلوك و١١٧٠٠ حمام (!) . ونقول وإن كان فى هذه الأرقام مبالغة واضحة ، فلا شك أن الفسطاط قد بلغت درجة كبيرة من العمران . ثم ارتقت الفسطاط فى أيام خلفاء الأمويين ، وصارت مقراً لولاتهم . وشيد فيها عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً للإمارة ، عرفت بدار عبد العزيز ، كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار قبة مذهبة ، شأن الأمويين فى تفخيم بناياتهم حتى تبز المبانى البيزنطية التى خلفها الروم وراءهم فى الأقطار التى انتزعها العرب منهم .

ولعل دار الإمارة تلك ، كانت أول بناية إسلامية كبيرة فى مصر وصل إلينا نبأ زخرفتها .

مرت على الفسطاط كما قلنا ، مراحل عديدة . . « فكانت فى زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب ، فيها أسواق عظام ومتاجر فخام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة » على قول ابن حوقل .

ولما زار الفسطاط ابن سعيد المغربى ، كانت قد تغيرت أحوالها ، وانقلبت محاسنها إلى أضدادها ، فقال فيما دونه :

« ولما أقبلت الفسطاط ، أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون مغلق إلى خراب معمور بعبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال مايقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف » .

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر ، وليها تسعة وعشرون أميراً لمدة مائة وثلاثة عشر سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمرائها صالح بن على بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبى العباس بن محمد السفاح ، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر ، وكان أولهم أبو عون عبد الملك .

خاتمة الفسطاط

كان قد حدث للفسطاط فى أثناء وجودها إنقلابان كبيران . هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » . فان المرحلة النهائية للفسطاط جاءت عقب ذلك فى مناسبتين ، كانت الأولى فى أيام الشدة العظمى فى أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمى . وكانت الثانية حريق مصر فى وزارة شاور أثناء خلافة العاضد . أما المناسبة

الأولى ، فكانت حينما تمرد الجند ، وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ، ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى . فكتب إليه سراً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال . فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة ، وعمل على إهمال الفسطاط بل وتخريبها . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء ، أن يعمروا ماشاءوا فى القاهرة وغيرها . فعمرت وسكنها الناس ، ولم يبقوا شيئاً فى الفسطاط أو العسكر أو القطائع ، وتركوا موقعها موحشاً مقفراً .

وكانت الناسبة الثانية ، حريق الفسطاط الهائل ، الذى أمر باضرامه شاور عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، حينما غزا عمورى ملك بيت المقدس الديار المصرية ، لما عجز عن الدفاع عنها ، وأراد أن يتجنب سقوطها فى أيدى الصليبيين . فقد أمر شاور باخلاء الفسطاط وحرقها ، ويقول المقريزى : « بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، ، فصار منظراً مهولا . واستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر . . فلما حدث الحريق رحل عمورى من بركة الحبش[1] ، ونزل بظاهر القاهرة ، مما يلى باب البرقية ، وقاتل أهلها قتالا عنيفاً » .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبى لمصر ، أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد . فانتقل النشاط التجارى إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع .

ولقد ترك لنا ابن دقماق ، والمقريزى ، والقلقشندى عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى (١٥ الميلادى) معلومات دقيقة ، تتحدث عن أن تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن . وفى العبارة الآتية لخص القلقشندى المحن التى نزلت بالفسطاط ، فقال :

« ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة ، فتقهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها ، فخلا من أكثر سكانه ، وتتابع الخراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » . ثم قال القلقشندى فى موضع آخر : « وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه ، وكثر الخاو . ولم يزل الأمر على ذلك فى تقهقر أمره الى أن كانت دولة الظاهر بيبرس ، فصرف الناس همتهم الى هدم ماخلا من أخطاطه وعفا رسمها ، واضمحل مابقى منها وتغيرت معالمه » .

---

(١) كانت تقع بركة الحبش جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم ، وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى . وكانت تشغل من الأراضى مساحة قدرها ١٥٠٠ فدانا ــ محمد رمزى فى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وعلى هـذه الحال ، تحولت الميناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى إلى كيمان من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامى ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التى لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا يزال متحف الفنون الاسلامية يزاول أعمال الحفر فى تلك الأطلال تنقيباً عن آثار المدينة الفاضلة .

العسكر

وحينما كانت الفسطاط عاصمة مصر (٧٥٠ م) . فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس أول خلفاء العباسيين . فلما وصل إلى مصر ، أشعل رجاله النار فى الفسطاط ، وفى القنطرة التى تربطها بجزيرة الروضة ، واتجه إلى شاطىء النيل الغربى . بيد أن تدابيره ذهبت عبثاً لأن القائد العباسى ورجال خراسان ، علموا بوسائل عبوره ، وأدركوه فى قرية بوصير وقتلوه . ثم حملوا رأسه ، وطافوا فى المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموى إلى البيت العباسى .

وكأن رجال العباسيين ، لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة فى التجديد ، واتخاذ عاصمة جديدة ، كما جرت العادة فى الشرق منذ القدم ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم ناراً فى الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها ، فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم فى مكان عرف فى صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، ويمتد إلى جبل يشكر الذى بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع .

وكان يمتد العسكر على شاطىء النيل ، وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالى الزمن حوالى خمسمائة متر . وكان يحد العسكر جنوباً كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون ، وشمالا شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى ، وغرباً بين شارعى السد والديورة ، وشرقاً خط تصورى يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجولى بشارع مراسينا إلى جامع السيدة نفيسة (باب القدم) . وعلى أيام المقريزى لم يبق للعسكر ذكر ، بل كان اسم القطائع هو المعروف[1] .

فى ذلك المكان ، أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وبنى صالح بن على دار الإمارة وثكنات الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة ، خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور وأقيمت الأسواق والبساتين .

وقد ازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط

---

(١) من تعليقات الأستاذ محمد رمزى بالنجوم الزاهرة .

كمركز هام للتجارة أو كقاعدة ثانية لمصر. وعظمت العمارة فيها إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر ، فنزل بدار الإمارة فى العسكر ، وكان لها باب إلى جامع العسكر ، ينزلها الأمراء منذ شيدها صالح ابن على ، وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر .

وليس هناك اليوم أثر لهذه الضاحية . ولم يعن المؤرخون بتاريخ واف لحكامها ، فقد ساد عصرهم سوء الإدارة وفساد الحكم .

ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الامارة فى العسكر ، حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة ، ثم خربت فى أيام الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر الشدة العظمى . ويمكن القول بأن العسكر ظلت قاعدة لمصر أكثر من قرن (١٣٣ — ٢٥٦ هـ) ، وقد وصف المقريزى بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق ... الخ .

القطـــائع

فاذا انتقلنا إلى العصر الذى زاد فيه نفوذ الجنـد الأتراك فى خدمة البلاط العباسى ، رأينا مقاليد الأمور أصبحت فى أيديهم ، وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال ... وقدم إلى وادى النيل سنة ٨٤٦ أول وال تركى الأصل، ثم بدأ الخلفاء فى اقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القادة من الترك ، وكان هؤلاء يرغبون فى الابتعـاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس ، فـكانوا يرسلون عمالاً من قبلهم إلى مصر . وكان من نصيبها أحد كبار الأتراك واسمه «باكباك» ، ولاه عليها الخليفة المعتز بن المتوكل ، ونظراً لما كان للشاب أحمـد بن طولون من المكانة الطيبة ، انتخبه « باكباك » ليكون قائداً للحامية العسكرية فى الفسطاط . وكان طموحاً ، فلم يمض على ولايته فى مصر عامان حتى استقل بملكها .

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لاتسع حاشيته وتضيق بمطامعه ، فأخـذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط ، فصعـد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله ، فرأى بين العسكر والمقطم بقعـة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع، لاشىء فيه من العمارة إلا بعض مدافن المسيحيين واليهود ، فأمر بهدمها ليقيم عليها عاصمته ، واختط فى موضعها مدينته الجديدة « القطائع » ، ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة فى شعبان ٢٥٦ هـ (أغسطس ٨٧٠) .

كانت تمتد حـدود القطائع بين حد الفسطاط الشمالى حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم فى مكان عرف آنئذ بقبة الهواء ، وفيما بين الرميلة أسفل القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف بمشهد زين العابدين فيما بعد .

واختط أحمـد ابن طولون قصره ، وأمر أصحابه ورجاله بأن يشيدوا بيوتهم ، فاتصـل البناء بعمارة الفسطاط ، وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها ، ثم عمرت

القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة . وشيدت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران..

ولما كثر أتباع ابن طولون وضاق بهم جامع العسكر ، التمسوا أن يشيد لهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الأول ، فأجابهم إلى التماسهم . واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦) ، وانتهى تشييده بعد عامين . وقد بالغ فى زخرفته الداخلية ، وعلق فى سقفه القناديل الجميلة ونقش على أفاريزه آيات من القرآن ، لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . ويعتبر الجامع من أروع آثار مصر ، بل وفى الآثار الإسلامية .

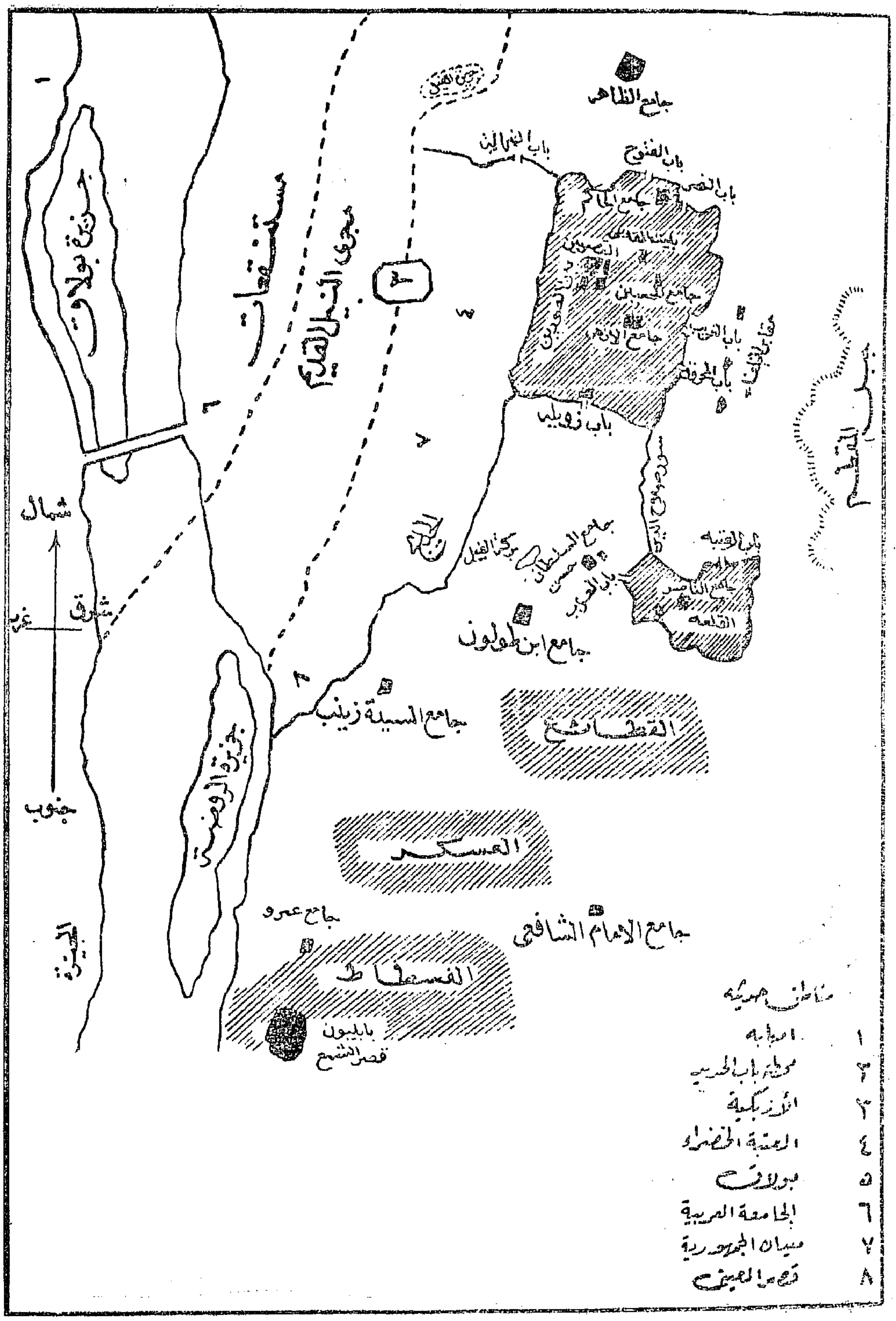
وتولى خمارويه بعد وفاة أبيه ، فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع ، وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيراً ، وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوله الى بستان فينان وزرع فيه أنواع الرياحين وأنواع الشجر ، وكسا جذوع النخل نحاساً مذهباً أو مفضضاً . وأنشأ فى وسط قصره بركة ملأها بالزئبق وجعل فى أركان البركة سككاً من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ ، فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه ، بينما يحرسه أسده الأزرق العينين .

ولما توفى خمارويه ، بدأ يهوى نجم الأسرة الطولونية ، وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على البلاد ، فبلغ حدود مصر وهزم أسطولها ثم انقض على القطائع (٩٠٤) ، وألقى النار فيها ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ، ونهب أصحابه الفسطاط . ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقراً للحكم . ولما أصيبت مصر بالمجاعة فى أيام المستنصر قضت على ماتبقى من مخلفاتها ، وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ، ولم يبق فيها سوى الجامع .

لقد كانت القطائع أول مدينة فى مصر ، روعى فى إنشائها وتخطيطها القواعد الفنية التى اتبعت عند تأسيس مدينة سامراء ، وكانت أوجه الشبه متقاربة جداً بينهما . كانت كل منهما مقسمة الى خطط أو قطائع ، تضم كل قطعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة العرق أو رابطة العمل . وطراز العمارة والزخرفة الذى اتبع فى بناء الدور الخاصة والعامة فى سامراء كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يمضى على بناء سامراء أكثر من أربع وثلاثين سنة ، ومما يشهد على ذلك ، تلك الزخارف الجصية التى عثر عليها فى جدران دار طولونية كشفتها « دار الآثار العربية فى عام ١٩٣٢ » .

والأثر الفريد الذى خلفته القطائع هو « الجامع الطولونى » ، وبناؤه يوضح لنا بجلاء أثر فنون سامرا على تلك الضاحية المصرية التى لم تعمر وتزهر طويلا ...

ثم جاءت بعد القطائع .... مدينة القاهرة



١ — مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم

الفصل الثاني

القاهرة في أيام الفاطميين

من ٩٦٩ إلى ١١٦٩

لله قاهرة المعز فانها بلد تخصص بالمسرة والهنا
أو ما ترى فى كل قطر منية من جانبيها فهى مجتمع المنى

ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية ، فنرى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بعد أن نجح فى تأسيس دولته الأفريقية ومد حدودها إلى ساحل المحيط الأطلسى عزم على فتح مصر ، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى المعز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما . كانت مصر فى ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين . فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التى سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودى الذى هاجر من مصر ، وكان مقرباً من كافور الأخشيدى : فطلب المعز إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية ، وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل مايحتاجه الجيش الجرار . وبدأت الحملة تحركها من القيروان فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل جوهر إلى الاسكندرية واستولى عليها ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت فى يده فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م)(١) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وسحق الجيوش التى أعدت للدفاع عن الشاطىء الشرقى للنيل ، وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس وعسكرت فى السهل الرملى الواقع الى الشمال ، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج(٢) الذى يصل بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر ، وكان السهل المذكور خالياً من البناء إلابضعة مبان ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام ، وكان يشغل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

---

(١) تذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر ويسمى الشارع الآن شارع بورسعيد .

تأسيس القاهرة

وفى مساء ذلك اليوم (١) اختط جوهر موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذا لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التالى لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سورا خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المربع ٣٤٠ فدانا منها نحو ٧٠ فدانا بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فدانا للبستان الكافورى ومثلها للميادين والباقى وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبى قصبة القاهرة(٢) ونظرا لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة ، فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه لكنه قال : « قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيشه خطته ، فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر (٣) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها(٤) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذى رمى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقريزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقيه فليس لدينا أية بيانات عنه ، وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيدا عنه بنحو ٣٠ مترا .

وقد قيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة فى أول الأمر المنصورية تيمنا باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز واستمر هذا

---

(١) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقريزى أن انشاء القاهرة كان فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ فى نفس اليوم الذى اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفى مقدمتهم عمدتنا المقريزى نفسه يذكر التاريخ الذى شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير .

(٢) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ج٢ ص ٨١

(٣) الخطط المقريزية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

(٤) الخطط المقريزية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة[١] وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها[٢] ومن الواضح كما أشارت « رايتمار »[٣] فى كتابها أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشىء مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساى لباريس أو وندسور للندن ، ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكرى من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدها باب زويلة والثانى باب الفتوح ، وقد أطلق هذان الأسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية.

وفى يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ . (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشتمها وكانت قدزينت ابتهاجا لقدمه ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه فى توابيت ، وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت لأول مرة فى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢) [٤] .

فكأن القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك ، بل اختطها لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به

---

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء باخبار بلاط الخلفاء للمقريزى ـ بيت المقدس ـ ١٩٠٨

(٢) قيل فى سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراسا وقالوا للعمال اذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهر فى الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة ـ الخطط المقريزية جـ٢ ص ٣٠٤.

(٣) Beschreibung Agyptens in mittlealter aus den geographischen Werken der Araber, Leipzig 1903.

(٤) ذكر المقريزى فى الخطط (ط بولاق جـ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان فى يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يواقع يوم السبت كما فى التوفيقات الالهامية • وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام فى أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا فى الجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ الموافق ٢١ يونيو ٩٧٢ ، وهذا هو اليوم الذى ينبغى أن يحتفل فيه بعيد القاهرة •

ويلتجيء إليه(١) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينا بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا فى القصر الشرقى الكبير ، واتخذ الخليفة مصر موطناله ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ ١٠ يونيو ٩٧٣م)(٢) .

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها فى ظل الخلفاء الفاطميين وتبوأت مكانتها العظيمة برونقها وبهائها ، ثم اتصلت فيما بعد بمصر الفسطاط وصارتاتؤلفان معاً أكبر المدن الاسلامية فى العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية(٣)

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن الماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكا من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

---

(١) الخطط المقريزية طبعة النيل ج ٢ ص ١٨٤

(٢) ان تصميم القاهرة الأصلى يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه فىافريقيا الشمالية من التخطيط الرومانى فانه يمكنالتشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيينللكاردو وماكسيموسوالديكومانوس مكسيموس اللذان يقسمان المدينة احداهما من الشمالالى الجنوب منتهيا الى طرق المواصلاتللوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التىبها سراى الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والليسيوم والاوديون الرومانى .وأما الطريق الثانى فيقسم المدينة من الشرق الى الغرب أى من باب البرقية الى بابالوزيروكان ذلك الطريق ينتهى الى الجامع الأزهر . وليستالقاهرة بالمدينة الوحيدة ذاتالأسوارالعتيدة المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد أعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية الى أن استراحت نهائيا منها .

(٣) رجعنا عند كتابة هذا الفصل الى مذكرات للمرحوم المؤرخ محمد بك رمزى .

وبعد مضى حوالى القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطهـا بسور وصله بسور جوهر القائد يميناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التى كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة فى غربيها إلى النيل وفى جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها مبنية بالحجر أمتن بناء وأروعه .

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على سور القاهرة[1] أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل فى دائرة سور القصر بئر العظام وجعل فى القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ورتب فى القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالى — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوساية من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحتو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح ثم يمتد السير فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى ، وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع

---

(١) راجع الخطط المقريزية جـ١ ص٣٧٧

أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى الوجهة الغربية للمبانى الواقعة بباب الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبوالزينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف ، وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع الناخلية سابقاً) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأهما جوهر فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، وليس لهذا السور أثر اليوم فى أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة للتحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليين ، ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقريزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين ، يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى — الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح . وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالي من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

وأما الزيادة التي برز بها بدر الجمالي في الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهي السور الغربي لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبلية للمباني القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالي ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبلية للمباني الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر الواقعة في حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهي الحد القبلي عند البرج الذي يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالي .

وأنشأ بدر الجمالي أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابي الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويلة فهي بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب ، وقد زال أثر الأسوار التي أنشأها بدر الجمالي باللبن وأقام صلاح الدين في مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سوره الثالث الذي سيأتي ذكره في قاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين(١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوي من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فانثناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : وموضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي .

---

(١) مسجد ابن البناء هو الذي يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالي بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم • وتسمية العامة بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ج٤ — ص ٣٧

وقد ذكر المقريزى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تتصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم(١)

باب الفتوح : ذكر المقريزى أنه كان لايزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى(٢)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما : —

باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لايزال معروفاً باسم الباب المحروق(٣) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى(٤) .

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقريزى أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بباب الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : وهو أول أبواب السور الغربى . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى

---

(١) محمود أحمد ـ مجلة الهندسة ـ ١٩٢٤ ص ٣٢٢

(٢) الخطط المقريزية ج٢ ص ٢١٠ و ٢١١ ـ طبعة النيل .

(٣) اطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الأمير اقطاى فى شعبان ٦٥٢ هـ ففى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما كانت العادة فى ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق ــ المقريزى ــ طبعة النيل ج٢ ص ٢١٣ .

(٤) K. A. C. Creswell : Foundalation of Cairo. p. 272.

(٥) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ .

بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية ، وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقريزى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف باسم الخروبى ، والعدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجـــــــامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / ابريل ٩٧٠ م ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيه ٩٧٢ م) (١) ويعد الأزهر أول عمل معمارى أقامه الفاطميون فى مصر لايزال قائماً لليوم .

بنى الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الديلم وحى الترك فى الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة فى الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ ، تجد نصه فى الخطط المقريزية وقد اندثر هذا النقش (٢) .

ويعد التخطيط الأصلى الذى أنشىء هذا الجامع عليه من الأمور المعقدة التى لايمكن الاهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية ، تلك التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية ، فإن جل أجزاءه الحالية تنسب إلى عصر متأخر ، إذ أضاف المستنصر والحافظ فى بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع فى القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الإسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة فى المسجد ، وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقد عرف باسم جامع القاهرة سنين طويلة ، وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى معهد للشيعة تدرس فيه العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحى العالم الإسلامى .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الأعشى للقلقشندى ج ٣ ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤

(٢) نص هذا النقش : « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد ، الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى فى سنة ٣٦٠ هجرية » (٩٧١ م) .

أخطـــــــــاط القاهرة

وننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التى اشتملت عليها القاهرة المعزية فنقول : سبق القول أنه فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخـذت كل قبيلة من القبائل التى تألف منهـا الجيش الفاطمى خطة عرفت باسمها ، وقد كان أهم هذه الخطط أو الحارات ما يأتى : —

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهى التى لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخـل إلى القاهرة ، وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر فى أيام العزيز بالله نزار العبيدى ، وصار فى أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله فى أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة الى زويلة إحـدى قبائل البربر التى وفدت على مصر صحبـة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدى أبو الخلفاء الفاطميين ، وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلا

٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة(١) وقد عرفت فيما بعـد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكان بها دار الوزير عباس .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز بن بويه الديلمى الذى تغلب على الشام فى عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لـكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهـذه الخطة ، وكانت بهـا دار الصالح طلائع ابن رزيك .

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا

---

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الـكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعه فى أول شارع خان الخليلى على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزى : النجوم الزاهرة ج٤ — ص٣٦ .

نحن فى الباطل » فسموا الباطلية[١] .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافور الإخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة العطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

ولقد زادت عدد هذه الخطط وتطورت كثير فى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلا[٢].

القصور الفاطمية

وصف المقريزى قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتى صفحة ، وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والمزرد والنسيم والبحر والحريم. ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير ، وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمرد وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين . أما القصر فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠هـ ١٠٥٨م وقد قال المسبحى عنه « لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب » وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر .

---

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطلية فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة ـ كالمقريزى وعلى باشا مبارك ورافيس .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا فى عام ٤٥٧ هـ ١٠٦٥م فى خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى ثم سكنها أرباب السيوف امراء الجيوش المصرية بالتوالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم فى مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده (١) .

وفى أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى وقد افتتحت فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥م واستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالى ، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة المعزية ما جاء فى تلك الوثيقة التى تثبت عظمة العصر الفاطمى وأبهته حين زاره رسولا الملك عمورى (املريك) سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧ م ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وإعجابهما بعظمة مارأوه وروعته ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم فى هذا الصدد كما لخص لين بول بعضه فى كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢) .

سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نضرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة ووجدوا فى القصر حراسا عديدين وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج فى ممرات طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود بذلك بعث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

---

(١) الخطط المقريزية نقلا عن ابن عبد الظاهر جـ ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ — طبعة النيل .

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ — ٧٥ .

وكان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائقاً ، بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكثرهم هماً إلا أن يقف للإعجاب به ، وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لاحد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها . ودون أن يقول إن الطبيعة كانت تمرح وتلعب حين كونت هذه المخلوقات، ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذن الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت فى الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية أشد جمالاً وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا فى هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لايستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى — وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث يقطن — الخليفة . وفاق هذا القصر كل ماراوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القاعة أحد ، لكن شاور خر راكعاً فور دخوله ثم نهض واقفاً ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة .

الفاطميون والقـــــاهرة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المعز نفسه حاكما قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة ، وكان نزيهاً عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذى اعتمد عليه فى الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأ جديداً للسفن فى المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالقرب من ميدان رمسيس ، ولقد ظلت المقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة

« ناصر خسرو » عـــدة سفن للمعز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ أقدام .

ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل نراه ميالا الى المظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفلة قطع الخليج . وكان يغدق فى الإنفاق على كسوة الكعبة فى مكة المكرمة ، وكان يهتم لكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى ، وقد صرفت زوجه مبلغاً كبيراً على مسجدها فى القرافة والذى وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الأروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائماً إلى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « اماريك » ملك بيت المقدس القاهرة أثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه وما دعت اليه مظاهر الترف تجبى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسعد مجدها مبلغاً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

ولما توفى المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيراً له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف ، وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » فى عدة معارك بالشام وقد عرف عهده فى مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات فى قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى تشجيع كتابة المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه ، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبرى(١)

ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذى أمر ببنائه فى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد أتم جانباً كبيراً منه فى مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة فى اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره «يعقوب بن كلس» بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنته . فبدأ عمله فى عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه فى عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه أستاراً دبيقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيراً من القناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن — كنوز الفاطميين ١٩٣٧

جامع الحاكم

عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة فى سنه ١١٦٧ ه حولوا جانباً منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمى للدولة .

وفى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكمى بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالى مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه ، وفى العام التالى أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ماتهدم منه — وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فعاد جديداً .

ولما كتب المؤرخ المقريزى خططه المشهورة فى ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والخراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه . والفترة السعيدة التى مرت عليه لما أقيمت فى بعض أجزائه دار الآثار العربيه خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه .

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة ، ومأذنتاه جددهما أثر زلزال عام ٧٠٢ ه / بيبرس الجاشنكير قاعدة مربعه تتحول الى شكل مثمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يخترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن

وقد تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ ه) الخلافة الفاطمية وعمره إحدى عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه . ومما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل التناقضات نراه فى جامعه العظيم يراقب زخرفته ونقوشه أو فى دار العلم التى أنشأها بجوار القصر الغربى فى سنه ٣٩٥ ه / والتى حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أماكن ينفق من ريعها وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى علوم الدنيا والدين .

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح مامنعه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفا إلى اللهو وكثرت فى أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنة حتى تعقبها أخرى ، وضاقت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء ، فصاح الناس : « الجوع يا أمير المؤمنين . « لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فالله الله فى أمرنا » .

ولما توفى الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وكانت سنه عند مبايعته لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلا كما شهد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عند زيارته مصر بين عامى (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال ان — الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يغلقوا أبوابها فى أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت فى القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة ، يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيهاً فى السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها ، فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن قد ابتدىء فى بناء السور الثانى (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التى وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات ، وكل قصر منها يشبه قلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد تناثرت فيها البساتين ومناظر الضواحى وتغمرها مياه النيل فى أثناء الفيضان .

وفى أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية . ولكن الوزير القادر اليازورى استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التى نشبت أظفارها بخزنه كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه فى مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطردوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم فى بعض نواحى الوجه القبلى فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا الرى ليفتكوا بالفلاحين بينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم ، وبعدماانتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ماوجدوه فيها من التحف ، ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب فى جملتها ٢٤٠٠ مصحفا . وقيل إن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مخلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . ومالم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصّر النيل فى فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ ثم توالت القلاقل التى اقتضت الإسراف فى الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقطة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين . فلم يبق من زرع ، وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتاتوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يحصد بمنجله أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة فى الحمامات العامة واضطر الخليفة فى نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قاست مصر فى أثنائها

مالم تره فى أشدعصورها ظلمة ، وكان المستنصر قد التجأ إلى حاكم سوريا الأرمنى « بدر الجمالى » فكتب إليه للمجىء بجيشه إلى مصر ليوليه عليها ، فقبل بدر المجىء إليها وكان عبداً رفعته كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة .

بدر الجمـــــــــالى

وصل بدر الجمالى إلى القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩م وقابل الخليفة . وفى ليلة من الليالى دعا أمراء البلاد إلى وليمة لهم فى منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فانهم لا بد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر الطيلسان وقلد وزارة السيف والقلم وزيد فى ألقابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » . ولما أعاد النظام إلى نصابه فى القاهرة اتجه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى بغداد .

واستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجمالى . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربى ومنظرة اللؤلؤة لم يضف إلا الشىء القليل على عمارته . وجاء المستنصر ففضل الإقامة فى القصر الذى شيده بالمطرية حيث أقام جوسقا .

وكان أول شىء وجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو فتن الجنود الداخلية. وكان سور القاهرة قد تهدم واختفى أمام نمو المدينة التى ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التى بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ — ١٠٩١م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حى الروم فى الجنوب إلى داخل السور وكان فى خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكى يتسع لبناء مأذنتى جامع المؤيد فى أثناء القرن الخامس عشر، وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من أعظم آثار العصر الفاطمى . وقد بناها ثلاثة إخوة وفدوا من إدسا المدينة الأرمنية الأصل ، التى عرفها بدر أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم بنى بابا .

وفى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وسع القاهرة الوزير بدر الجمالى من حديها الشمالى والجنوبى وسمح

بالسكن فيها ، فامتد عمران المدينة إلى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها ظاهر القاهرة . وأنشئت أخطاط جديدة ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين عدا حدها الشرقى بين السور وتلال المقطم ، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة ، فصار منها تلك الكيمان التى عرفت بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة . تلك التى أزيلت منها كميات كبيرة فى أثناء حكم الثورة ١٩٥٢ .

وتمتعت مصر تحت حكم بدر الجمالى إلى أن توفى فى القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة وخلفه ابنه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على يد أبيه. وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التى كانت لأبيه أمير الجيوش وظل فى منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الآمر فى عام ١١٢١ وتولى الآمر من بعده ابنه «أبو على» فى عام ١١٣١ . ولما قتل بدوره وهو فى طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه « يانيس » ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحى الذى ظل فى كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

وفى خلافة الآمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) عهد إلى وزيره أبى عبد الله محمد بن فاتك بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة والسيدة نفيسة ، فنودى بالقاهرة بأن من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه ، فعمرت الخرائب والمنطقة وأصبحت القاهرة لا تتخللها الخرائب (١) .

ونقلت أنقاض مدينة العسكر ومهدت أرضها ، فصار الفضاء بين السيدة نفيسة إلى كوم الجارح (تلال زين العابدين) .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الآمر فى ذى القعدة (٥٢٤ هـ) وهو فى طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية فى جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التى تذكر له بنائه لمسجد الأقمر بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية من الآجر أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية إسم الآمر وتاريخ بنائه ٥١٩ هـ .

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمونيين بجموعه إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز فى عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك فى الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعراً مثقفاً وكريماً سياسياً لا زال مسجده قائماً

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠ .

أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر اللاتى أرسلن إليه بعض رجالهن فكمنوا له فى دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشياً عليه وحمل جريحاً . وكان آخر مافاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدى الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر فى محلهما إذ خلع شاور ابن الملك الصالح واسمه محى الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور فى عام ١٢١٣ م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشىء فى عهد الدولة الفاطمية ووجهته العربية الفاطمية لا نظير لها فى جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ، ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممثلة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تكلمنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشئاتها الهامة وسنصف ما لحق بالعاصمة المصرية الأصلية مصر بعد القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة) متصلة بمصر التى امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحمزيين وحارة بنى سوس إلى الشارع وبركة الفيل والهلالية والمحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسه . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الإسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرب الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرميلة والميدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التى فيها الخليج الكبير فهى من باب القنطرة إلى المقس ، وما جاور ذلك فانها كانت بساتين فى غربها النيل . وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر فى المقس إلى المكان الذى يقال له الجراف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابنيان فيه . والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة أخرى ، أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التى عرفت بكيمان البرقية .

مناخ القاهرة

وقد تحدث الطبيب ابن رضوان المصرى الذى عاش بين ٩٨٠ و١٠٦١ م عن طقس القاهرة ، فقال... ويلى الفساط فى العظم وكثرة الناس ، القاهرة ، وهى فى شمال الفسطاط ، وفى شرقيها أيضاً الجبل المقطم ، يعوق عنها ريح الصبا (الشمال) والنيل منها أبعد قليلا وجميعها مكشوف للهواء ، وليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسطاط وشوارعها أنظف وأقل وسخا وأبعد عن العفن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، وإذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئاً كثيراً ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل إليها بالرشح من عفونة الكنف شىء ما . وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلىء من رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب بها بعض خرارات القاهرة ومياه البطائح هذه رديئة وسخة .. ويطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية . وكذلك يطرح فى وسط حارة العبيد ، إلا أنه إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافه إلى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة فى أيام دخوله الخليج وهذا الماء يتعفن بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها ، وأرقى موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل . وإلى جانب القاهرة من الشمال الخندق وهو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب...[1] .

الشرطة فى أيام الفاطميين

لما استتبت الأحوال للقائد جوهر ، نقل الشرطة العليا إلى القاهرة وبقيت دار الشرطة السفلى بالفسطاط وتقلدها « عروبة بن ابراهيم » و « شبل المعوض » وفى أيام هذه الدولة ، كان يجمع أحيانا والى الشرطة بين وظيفته ووظيفة الحسبة . ففى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢م عهد المعز لدين الله إلى الوزير « يعقوب بن كلس » بالاشراف على الخراج وجباية الأموال والحسبة والشرطتين (القاهرة والفسطاط) وقد جمع بين وظيفتى الشرطتين والحسبة أيضاً « غبن » أحد موظفى الحاكم بأمر الله ، فقام بأعبائهما عام ٤٠٢ هـ /١٠١١ م وخلفه فيهما « مظفر الصقلى » الذى عين للشرطتين والحسبة والقاهرة والجيزة .

وفى أيام الفواطم ، كان اختصاص الشرطة إطفاء الحريق وإغاثة من هدم عليهم منزل، ففى عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م أمر الخليفة العزيز بالله بوضع أزيار مملوءة بالماء أمام الحوانيت لمكافحة الحريق فى أى مكان ، وتعين

---

(١) المقريزى : الخطط .

على الحمالين أن يبيتوا عند باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق وقراب المياه، على أن تتكفل الحكومه بنفقات عشائهم .

مخلفات الفاطميين وخاتمتهم

وعلى مر الأعوام دالت دولة الفاطميين حينما استولى الصليبيون على القاهرة ثم وصل صلاح الدين إلى مصر .

وليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين إلى الخراب فهى لم تكن شيئاً قليلا بل كانت فى مجموعها مدينة إذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقى الكبير . أضف إليه القصر الصغير وقاعته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر المبعثرة فى الضواحى وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون .

ومن الخير أن يلم القارىء بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧) ﻫ . فتمد أبعد الوزير (صلا) « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنفائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها امراءه وأقطع خواصه كثيرا من دورهم وأتباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فاعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين فى قصر اللؤلؤة على الخليج وأخليت أمكنة فى القصر الغربى سكن فيها الأمير موسكه والأمير أبو الهيجاء السمنى .

ولم ينقض وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التى وضع أساسها جوهر ظلت تتحول عاما بعد عام حتى أصبحت مدينة كبرى تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض فى وصفها المقريزى وابن زولاق — والمسبحى والقضاعى .

المجتمع العلمى فى أيام الفاطميين

كان إنشاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى ـ الجامع الازهر ـ بأمر مولاه المعز لدين الله فى عام ٩٧٢ حادثا له أهميته ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامى برمته ، وقد ظل الأزهر محل رعاية الفاطميين ومن خلفهم من السلاطين والأمراء ، وعلى الأخص العزيز إذ جعل منه جامعة إسلامية للعالم الإسلامى كله،

لاسيا حينما اجتاح المغول بغداد فى عام ١٢٥٨ . ولم تنقطع وفود الطلاب ، بل مازالت جموعهم تفد من مختلف بقاع العالم الاسلامى لتلقى العلم على أساتذة هذه الجامعة الإسلامية الكبرى . وتزخر هذه الجامعة الاسلامية بالطلاب من أنحاء الديار الاسلامية . ثم من الهنود والصينيين . وكل هؤلاء حينما يستكملون دراستهم فى الأزهر ، يرتدون إلى بلدانهم وقراهم لإرشاد أهليهم وتعليمهم مطالب الدين الحنيف ونواهيه ، فضلا عما يدرسونه من العلوم الحديثة .

ونتيجة لهذا ــ كانت للأزهر دواما مكانة عظيمة ... هذه المكانة الدينية الكبرى التى كانت تمكنه أحيانا من أن يضطلع بدور سياسى فى المشاكل المصرية الداخلية والخارجية على السواء .

على أننا لو قلبنا البصر فى الجانب الفلسفى للإسلام ــ الجانب الذى يقول عنه مؤرخو الفرنجة وكتابهم أنه الجانب الغامض البعيد الغور ــ لوجدنا أن مصر قد نهضت بنصيب كبير يستأهل التقدير ، أو على الأقل يتفق وطبيعة البلد الذى يتبدى أن الفلسفة الروحية متوارثة فيه منذ القدم .

لم يخل ميدان العلم البحت من مساهمة العلماء المصريين الذين نبغوا فى الطب والفلك والكيمياء وعلم البحار والرياضيات...الخ . ونذكر من هؤلاء أبا كامل شجاع ابن أسلم وعلى بن رضوان وعلى بن يونس وابن الهيثم وعلى بن النفيس ، وغيرهم .

أما شجاع بن أسلم فقد ذاع صيته فى علم الجبر فى بداية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكتب فيه فزاد على ما خلفه الخوارزمى فى كتابه الجبر والمقابلة . وابن يونس الذى اشتهر بالرياضيات والفلك فى العصر الفاطمى واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقيقة . وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر هام فى علم الفلك ، أما أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر طبيب القاهرة المشهور فقد ولد فى الجيزة حوالى عام ٩٨٠ م وتوفى حوالى ١٠٦١ م[١] . وكان أبوه فرانا ولاقى فى تعلمه أهوالا حتى برع فى الطب ، وله مخطوطان فى الطب بدار الكتب المصرية أحدهما بعنوان « فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر » . وقد زاول صناعة الطب فى القرن الحادى عشر كرئيس للأطباء فى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢٠) والظاهر والمستنصر . ولابن رضوان ما يقرب من التسعين بحثا فى الطب ، أهمها كتاب الأصول فى الطب ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية[٢] . وعلم ابن رضوان نفسه ولم يتلق الطب عن أستاذ ، ولذلك نجده

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة ــ طبعة موللر ــ القاهرة ١٨٨٢ ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) Max meyerhof : Climate and Health in Old Cairo, according to Ali ibn Radwan .

بحث ألقاه الدكتور ماكس مايرهوف فى المؤتمر الطبى الدولى .

يفخر دواما بذلك . وقد تبادل المساجلات والمناقشات الطبية مع ابن بطلان الطبيب النصرانى البغدادى(١) .

وممن ازدهر ميدان الطب بهم فى مصر على بن النفيس الذى كان رئيس الأطباء فى مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨) . وقد كان إلى جانب اشتغاله بالطب من البارزين فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية فى عصره . وكتب ابن النفيس شرحا لتشريح ابن سينا ، وصلت إلينا نسخة مخطوطة منه ، وقد وضح من دراستها أن هـذا الطبيب المصرى اهتـدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى « دورة الدم من البطين الأيمـن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البـطين الأيسر » قبل أن يكشفها الأوربيان ميشيل سرفت (Michel Serfet) سنة ١٥٥٦ وريالدوكولومبو(٢) .

ومن المسلم به عند المشتغلين بالطب وتاريخه أن أمراض العين كانت تعالج فى مصر والشام فى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ و ١٣ م) بأسلوب علمى يفوق كل ما كان معروفا حينئذ فى سائر بلاد العالم .

أما أبو على ابن الهيثم(٣) فكان أكبر علماء المسلمين فى الطبيعة بل أعظم علمائها فى العصور الوسطى ولولاه لمـا أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ماهو عليه الآن . وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية سـنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوربا جميع معلوماتهم ولا سيما فى موضوعات انـكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تـكوين الصور على شبكية العين(٤) .

وقد كاد الشرق أن ينسى ابن الهيثم بعد أن وسمت كتبه بالزندقة : ويخبرنا أحد تلاميذ الفيلسوف الإسرائيلى ابن ميمون ، وهو الحـكيم يوسف السبتى ، أنه كان ببغداد تاجر اسمه عبد السلام الجبلى . شهد

---

(١) لما طالت المناظرات الطبية سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره . وأقام بهـا ثلاث سنوات . واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبى أصيبعة فى المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به . وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعـلوم الحـكميه وما يتعلق بها .

(٢) ماكس مايرهوف : مقالة عن ابن النفيس فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) عاش فى القاهرة (القرن الخامس الهجرى ـــ الحادى عشر الميلادى) ولد فى البصرة واشتغل كثيراً بمؤلفات أرسطو وجالينوس . وأكبر كتب ابن الهيثم كتاب المناظر الذى ترجم وهذب باللغة اللاتينيه ـ ولا يعرف من تلاميذه غير واحـد يعد من الفلاسفه هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد وهو أحد أمراء مصر .

(٤) مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلاميه » أخرجته مجلة المقتطف بالقاهرة .

إحراق كتب أحد الفلاسفة ، وقد أحضرها له خطيب ونصب له منبر ليشرف على إحراقها . فلما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم أشار الى الدائرة التى مثل بها الفلك ووصفها بأنها الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد أن أتم كلامه خرقها وألقاها فى النار [١] .

وقد ازدهرت مصر فى أيام الفواطم بطائفة من علماء كتابة التاريخ ، وعلى رأسهم المسبحى (٩٧٧-١٠٣٩) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية . تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه وشغل عدة مناصب هامة أخرى . ألف فى تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذى لم يصل إلينا ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة أن تاريخه « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة[٢] .

وقد كتب أوتيقيوس بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٩٣٩ م والمعروف باسم سعيد بن البطريق عدة كتب تاريخية أبرزها كتابه المشهور « نظم الجوهر ، أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف عدداً آخر من المؤلفات الطبية .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين: القضاعى[٣] والجوانى[٤] وأبو صالح الأرمنى[٥] وابن عبد الظاهر صاحب « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية »[٦] وابن المتوج « مؤلف إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل[٧] وابن الجيعان المتوفى فى أواخر القرن الثامن واضع كتاب « التحفة السنية » بأسماء البلاد المصرية . وهو عبارة عن ثبت للأقاليم والبلاد المصرية وذكر زماماتها وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ فى أواخر عهد الملك الأشرف . وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٨٩٨

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ص ٣٦ .

(٣) ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة (٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م) وقد أوفده المستنصر سفيرا إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية (١٠٥٥ م) وألف المختار فى ذكر الخطط والآثار .

(٤) للجوانى « النقط بعجم ما أشكل من الخطط » وقد اقتبس منه المقريزى فى عدة مواضيع غير أنه يصعب أن تستدل بهذا الاقتباس على حقيقة ماخصه الجوانى بالبحث .

(٥) لأبى صالح مؤلف تناول فيه تاريخ الكنائس والأديار المصريه وأحياء الأقباط والنصارى وتاريخ القديسين والبطاركة وبعض أعمال الدولة وأقطاعها واخراجها — وقد طبع هذا الكتاب فى اكسفورد عام ١٨٦٥ — مصر الاسلامية للدكتور م . ع . عنان ص ٤٠ .

(٦) هو القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٢٣ — ١٢٩٢ م) .

(٧) هو القاضى تاج الدين محمد ين عبد الوهاب بن المتوج (٦٢٩ — ٧٣٠ هـ) (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) .

القاهرة فيما كتبه الرحالة إبن حوقل

كان ابن حوقل الجغرافى العربى الذى ترك بغداد سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م جائلا مدة تجاوزت ربع القرن فى أنحاء العالم الإسلامى ، أول من ذكر فى مؤلف عربى شيئاً عن القاهرة ، ولما لم يمض على بنائها إلا سنوات، والمعروف أنه ألف كتابه المسالك والممالك حوالى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م وكانت وفاته حوالى ٩٨١ م . قال عن القاهرة :

... « وكان خارج مصر (الفسطاط والعسكر) أبنية بناها أحمد بن طولون ليسكنها جنده ، وتعرف بالقطائع ، كبناء بنى الأغلب خارج القيروان رقادة ، وقد خربتا جميعاً فى وقتنا هذا (أيام المؤلف) ، وأخلف الله عوض القطائع بالقاهرة ، وهى مدينة أوجدها أبو الحسن جوهر فتى أمير المؤمنين ومصباح دولته صلوات الله عليه لجيوشه وحشمه ، وقد ضمت من المحال والأسواق والحمامات والفنادق والقصور الشيدة وعلى جميعها سور منيع رفيع ، وبها ديوان مصر ومسجد جامع حصين نظيف ؟ » وقال فى موضع آخر :

... « والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمى . لما فتح مصر وقهر من فيها ، كبيرة حسنة ، بها جامع بهى وقصر السلطان وسطها ، محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ، ولا يمكن أحد دخول الفسطاط إلا منها لأنها بين الجبل والنهر . . » .

٢ — ناصر خسرو فى القاهرة

(١٠٤٧ — ١٠٥٠)

ننتقل إلى الرحالة ناصر خسرو الذى خلف لنا انطباعاته ومشاهداته فى أثناء رحلته إلى مصر فى أيام الفاطميين . يقول الرحالة :

أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هى القاهرة . وتقع مدينة مصر جنوبها وتسمى القاهرة « المعزية » ويقال للمعسكر « الفسطاط » .

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطاعة قائد الجيش ، الذى ولاه خليفة بغداد . ونزل المعز بالجيش فى هذا الموضع الذى هو القاهرة اليوم . وقد سمى المعسكر بالقاهرة . لأن ذلك الجيش كان قاهراً وقد أمر المعز بأن لايتجول أحد من جيشه فى المدينة أو يدخل بيت أحد . ثم أمر أن تبنى مصر (القاهرة) فى هذه الصحراء وأن يشيد كل من أفراد حاشيته بيتاً . وهكذا بنيت المدينة التى قل نظيرها .

وفى القاهرة مالا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر ؛ يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شىء .

ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أى بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارقين ، وكل ماحوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس ، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل من وقت صلاة المغرب ، ويدورون حول القصر حتى الصباح ، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل أن به اثنى عشر ألف خادم مأجور ، ولا يعرف عدد من فيه من النساء والجوارى ؟ ؟ ؟ إلا أنه يقال أن به ثلاثين ألف آدمى . وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض فضلا عن أبواب أخرى تحتها وأسماء أبوابه الظاهرة هى : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب الزلاقة ، باب السرية(١) وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ،

---

(١) ذكر المقريزى وتغرى بردى بعض أسماء تلك الأبواب مع اختلاف وقد صحح المرحوم محمد رمزى ناشر النجوم (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة) باب السرية بباب التربة ، وقال أنه يعرف بباب تربة الزعفران كما جاء فى الخطط وأما باب السريج فليس مذكوراً فى الكتابين المذكورين والمرجح أن تكون كلمة السريج تحريفاً لكلمة الريح فهو باب الريح لا السريج وقد ذكر تغرى بردى (ج ٣٥ — ٤٦) ان من أبواب القصر / باب العيد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة وباب قصر الشوك .

وهذا الباب على سرداب يؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذى يصل على بين القصرين سقف محكم وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد . ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية وفى داخله دهليز به دكك .

وأركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم ، والوزير رجل يمتاز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل .

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم بأمر الله الذى حرم على النساء الخروج من بيوتهم وما كان أحد يجفف العنب فى بيته لجواز عمل السيكى (نوع من الشراب) منه ، ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون الققاع ، فقد قيل إنه مسكر ، فهو محرم .

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب ازويلة ، وباب الخليج ، وليس للمدينة قلعة ، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة ، وكل قصر حصن ، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال ، والآبار القريبة من النيل عـذب ماؤها ، وأما البعيدة عنه فماؤه ملح . ويقال إن فى القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره فى الجدر النحاسية أو القرب ، وذلك فى الحارات الضيقة التى لا تسير فيها الجمال .

وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقى لديها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت منتزهات .

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعا فى إثنى عشر ذراعا بخمسة عشر ديناراً مغربياً فى الشهر . والمنزل الذى أقمت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية فرفض معتذراً بأنه يلزمه أن يقيم به أحياناً ، ولو أنه لم يحضر مرتين فى السنة التى أقمتها هناك .

وكانت البيوت من النظـافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهى بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجـار بيت على سور بيت آخر . ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره .

ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى « الخليـج » حفرها والد السلطان (!) وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية . ويبتدىء فم الخليج من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور ماراً أمام قصر

السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولها قصر اللؤلؤة ، وثانيهما «قصر الجوهرة »[1] .

وفى القـاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) الأزهر وجامع النور (الأقمر) وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطىء النيل . ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتى مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى فى الجنوب والثانية فى الشمال ويمر النيـــل بهما وبساتينهما وبيوتهما متصــلة وتغمر المياه الوادى بأجمعه فى الصيف كأنه بحر عدا حديقة السلطان لأنهـا على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من العاشر شهريور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من ابان (اكتوبر ونوفمبر) ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعا عن مستواه فى الشتاء وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها ، يحضر السلطان راكباً ليفتح النهر الذى يسمى « الخليج » والذى يبدأ قبـــل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة وهو ملك خاص للسلطان . وفى ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخلجان والترع الأخرى فى الولايات كلها .

وهذا اليوم أعظم الأعياد فى مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليـج » .

حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكاليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلل بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس. وأمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون وسرادق آخر كبير .

---

(١) منظرة اللؤلؤة وتعرف أيضاً بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة القديم وكان قصراً من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد المتنزهات كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج ، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيــه من المبانى شىء ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة البركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبلها ، ويرى مجرى النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر : « هـذه المنظرة بناها المعز بالله (٣٦٥ — ٣٨٥ / ٩٧٥ — ٩٩٦ م) ولمـا ولى برجوان الصقلبى الوزارة (٩٩٦ — ١٠٢٠) سكن بمنظرة اللؤلؤة إلى أن قتل . وفى عام ٤٠٢ / ١٠١١ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع ما فيها وفى أيام الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢٠ — ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صـــلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين الله آخر الفواطم (١١٧٠ / ١١٧١) .

وقبل الإحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكؤوس فى الإصطبل ، لتألف الخيل هذه الأصوات .

ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى، وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادج مزينة ، وبغال عمارياتها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ . وأن الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون فى يوم فتح الخليج .

فى ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ولكل جماعة إسم وكنية .

فرقة تسمى « الكتاميين » وهم من القيروان ، أتوا فى خدمة المعز لدين الله وقيل أنهم عشرون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الباطليين » وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجىء السلطان إليها وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل أنهم عشرون ألف رجل .

وفرقة تسمى « المشارقة » وهم ترك وعجم . وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد فى مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل انهم عشرة آلاف رجل وهم ضخام الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الشراء » وهم عبيد مشترون ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل أنهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الاستاذين » كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعددهم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال . ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف

أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجندية .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم ولا يعدون من الجيش ، ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهلى . وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) وأبناء ملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان .

وكذلك وجد فى يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء ولكل منهم أرزاق معينة ، ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين ، وليس لهم عمل الا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج .

وفى اليوم الذى ذهب السلطان فى صباحه لفتح الخليج ، استأجروا عشرة آلاف رجل وأمسك كل واحد منهم إحدى الجنائب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار ، وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، ثم رجعوا . وقد أعطى كل أجير قاد جنيبة ثلاثة دراهم ، وبعد الخيول أتت الجمال وعليها المهود والمراقد . ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنائب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس فى سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصاً أبيض ، عليه فوطة فضفاضة ، كالتى تلبس فى بلاد المغرب والتى تسمى فى بلاد العجم « دراعه » وقيل ان اسم هذا القميص « الدبيقى »(١) وانه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطاً ثميناً . وأمامه ثلثمائة راجل ديلمى . عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشاشيب والسهام وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، راكباً حصاناً ؛ وعلى رأسه عمامة مذهبه مرصعة ، وعليها حلة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبى مغربى ؛ والمظلة التى بيده ثمينة جداً ؛ وهى مرصعة ومكللة ؛ وليس مع السلطان

---

(١) الدبيقى نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى دبيق وهى بلدة كانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل دبيق فى الشمال الشرقى لقرية صان الحجر (النجوم الزاهرة ج ٤ — ص ٨١) .

فارس غير حامل المظـلة[1] وقد سار أمامه الديالمة وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم ؛ يحملون المجامر ويحرقون العنبر والعود .

والعادة فى مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعـد السلطان الوزير مع قاضى القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشرع على رأس سد الخليج أى فم النهر وظـل ممتطياً البغل تحت السرادق مدة ساعة ؛ وبعد ذلك سلموه مزراقا ليضرب به السد ، ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والمخارف ، فانساب المـاء ؛ وقد كان مرتفعاً وجرى دفعة واحدة فى الخليج .

وفى هـذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج ؛ وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان فى أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية « كنك ولال » لعلهم يتفاءلون بنزولهم ويجرى السلطان عليهم صدقاته فى هذا اليوم .

وكان للسلطان إحـدى وعشرون سفينة ، وقد عمـل لها حوض خاص قرب القصر فى اتساع ميدانين أو ثلاثة ؛ وطول كل سفينة منهـا خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والديباج ، ولو وصفتها لسطرت أوراقاً كثيرة وهذه السفن كلها مربوطة فى الحوض ، معظم الوقت ؛ كالبغال فى الاصطبل .

وللسلطان حديقة تسمى « عين شمس » على فرسخين من القاهرة وهناك عين ماء عذبة تسمى البستان بها ، ويقال ان هذه الحديقة كانت لفرعون . وقد رأيت بها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة كل قطعة مثل المنارة ؛ وطول كل منها ثلاثون ذراعاً وكان الماء يقطر من رؤوسها ؛ ولا يدرى أحد ماهى . وفى الحديقة شجرة البلسان ، ويقال أن آباء هذا السلطان أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها فى الحديقة ولا يوجـد غيرها فى جميع الآفاق وهى غير معروفة فى بلاد المغرب . ومع أن لهذه الشجرة حبـاً إلا أنه

---

(١) المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هى تبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة التى يركب بها السلطان (الابن) وكانت اثنتى عشر شوزكا عرض سفل كل شوزك شـبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخره من أعـلاه دقيق للغاية ، بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة وعمودها قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود فلـكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشوازك فى حلقة من ذهب وتنزل رأس الرمح ولها عنـدهم مكانة جليـلة لعلوها رأس الخليفة وحاملها من أكبر الأمراء وله عندهم التقدم والرفعة لحمل مايعلو رأس الخليفة (صبـح الأعشى ج ٣ س ٤٦٩ ر ٤٧٩).

لاينبت حيثما زرع ؛ وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه وهـذه الشجرة مثل شجرة الآس ؛ يشذبون غصونها بالنصل حينما يكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحينما ينفذ ما فيها من دهن تجف . ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعوها ، ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر. وينبت في جزعها أغصان في السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا في السنة الغابرة .

ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهي حارات . —

برجوان(١) وزويلة(٢) والجودرية(٣) والأمراء(٤) والديالمة(٥)

---

(١) تنسب حارة برجوان إلى الخادم برجوان من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شأن في أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٦٦ — ١٠٢٠) ولقب بالواسطة وبمدير الدولة . وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والمغرب . وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بأن يقتله فقتله سنة ٣٩٠هم/ ١٠٠٠م . وتقع هذه الحارة اليوم في قسم الجمالية (النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٨ .

(٢) زويلة إسم ضاحية في القيروان ، كما أنه إسم بلدة صغيرة بجوار المهدية التي بناها عبد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٣٣م) وقد سمي المكان باسم القبيلة التي سكنته . وقد سكن أفراد هـذه حارة سميت باسمهم — زويلة — في مصر — كانت أكبر حاراتها . وتعرف اليوم باسم حارة اليهود بشارع الموسكي — (النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥٢) .

(٣) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جودر خادم المهدي ،كان عددهم ٤٠٠، وتقع في دائرة قسم الدرب الأحمر (النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٥١)

(٤) غير اسمها صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد مجيئه من الشام وسميت درب شمس الدولة ، نسبة إليه . وتقع بين شارع السكة الجديدة وشارع الحمزاوي الصغير (النجوم الزاهرة جـ ٤ ص٢ ٥) .

(٥) تنسب إلى ساكنيها من الديلم الذين صحبوا افتكين المعزى غلام معز الدولة البويهي (٣٤٤ — ٣٦٥هم/ ٩٥٥ — ٩٧٥م) حين قدم أولاده إلى القاهرة ، وكانت تشمل ثلاث حارات ، حارة الكعكيين ودرب الأتراك وحوش قدم ، وكذلك سكن حارة الديلم جماعه من الأمراء والأعيان فأطلق عليهم إسم حارة الأمراء (النجوم الزاهراء جـ ٤ ص ٤٣)

والروم(١) والباطلية(٢) وقصر الشوق(٣) وعبيد الشرا(٤) والصامدة(٥)

وصف مائدة السلطان .

يقيم السلطان مأدبة فى كل من العيدين . ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام . وتنصب مائدة الخواص فى حضرته ومائدة العوام فى سرايات أخرى. وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت فى رؤيتها، رأى العين ، فذهبت عند أحد كتاب السلطان ، وكنت قد صاحبته فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيت مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوى وابنه السلطان مسعود ، وقد كانا ملكين عظيمين ذوى نعمة وجلال ، وأريد أن أرى مجلس أمير المؤمنين » .

فنقل رغبتى إلى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر » وقد تفضل هذا فسمح لى بالذهاب ، فى آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائةه (٧ مارس ١٠٤٩م) وكان المجلس قد أعد لليوم الثانى وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس فى صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصفف وإيوانات إذا أردت أن أصفها يطول الكتاب ؛ كان هناك إثنى عشر جناحا ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته أحسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع فى مائة ؛ عدا واحداً منها كانت مساحته ستين ذراعاً فى ستين . كان بهذا الأخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث وعليه صور المصطاد والميدان وغيرها كما أن عليه كتابة جميلة . وكل مافى هذا الحرم من الفرش والطرح من

---

(١) وهى حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتى تقع فى قسم الدرب الاحمر وحارة الروم الجوانية تنسب إلى الأشراف الجوانيين . وهى تقع فى قسم الجمالية والوراقون يكتبون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا . وعند ما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمها (١٧ ذى الحجة ٣٩٩ / ١ أغسطس ١٠٠٩م) (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢) .

(٢) تقع فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر ؛ ويدل على موضعها شارع الباطنية (النجوم الزاهرة ح ٤ ص ٤٦١)

(٣) قصر شيده الفاطميون ؛ يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين .

(٤) يظهر أن هذه كانت إحدى حارات حى الحسنية ، نسبة إلى الأشراف الحسنيين ، وهى حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التى كانت هى لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين وعبيد الشراء فرقة فى الجيش (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ — ٤٦) .

(٥) المصامدة فرقة في الجيش المصرى أيام الفواطم ، وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة الفيل .

الديباج الرومى والبوقلمون نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك . يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ؛ بجانب الحائط ، درجات من الفضة ، وبلغ هـذا التخت من العظمة أنى لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام ، وما كفى .

وقيل أن راتب السكر ، فى ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف من ؛ وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ؛ كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواماً خمسون غلاماً ، ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة فى مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية (شرابخانة) كل يوم ، أربعة عشر جملا من الثلج ؛ وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومى من هذا الثلج ، ويصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطانى فإنه يعطاه كما أن هناك زيوتاً أخرى كزيت البلسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تمنع عنهم .

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حـد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شىء منها ، يحكى أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقرباً من السلطان الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتـدى عليه الجنود وقتلوه . فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان . وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار خرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال : «إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا ؟ .» فصاحوا صيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا » فقال الخادم : يأمركم السلطان بأن تعودوا فعادوا فى الحال . .

واسم هذا اليهودى المقتول أبو سعيد ، وكان له ابن وأخ . وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة . وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها « إنى أقدم للخزانة مائة ألف دينار مغربى حالاً » فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين وعودوا إلى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » واستماله إليه .

وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها ، فى الشام الى القيروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السراج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم « وكتب والى الشام فى بعض السنين إلى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن فى أن يصرف للمساجد الزيت

الجار ، المستخرج من بذور الفجـل واللفت ، فأجيب « إنك مأمور لا وزير ، وليس من الجائز أن تغير أو تبدل في شيء يتعلق ببيت الله » .

ويتقاضى قاضى القضاة ألفي دينـار مغربي في الشهر ، ومرتب كل قاضي على قدر مرتبته ، وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم .

والعادة في مصر أن يقرأ مرسوم السلطان في المساجد في منتصف رجب ، وهو : « يا معشر المسلمين ، حل موسم الحج ، وسيجهز مركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد » ، وينادى بذلك في شهر رمضان أيضاً ، ويبدأ الناس في السفر ابتداء من أول ذى القعدة . وينزلون في موضع معين ، ثم يسيرون في منتصف هذا الشهر . ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان ألف دينار مغربي في اليوم، هذا عدا عشرين ديناراً مرتبة لـكل رجل فيه ، ويبلغون مكة في خمسة وعشرين يوما ويمكثون بها عشرة أيام ، ثم يعودون إلى مصر في خمسة وعشرين يوماً . ونفقاتهم في الشهرين ستون ألف دينار مغربي ، عدا الصلات والمشاهرات وثمن الجمال التى تنفق في الطريق .

وقد قرىء على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، المرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين أنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثيرون وإنى أقول هـذا شفقة بالمسلمين » . فلم يسافر الحجاج . وكان السلطان يرسل الـكسوة للـكعبة كالمعتاد لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الـكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القلزم سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة » .

فبلغنا القلزم في الثامن منه ، ومن هنـاك أقلعت السفينة فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار في الثامن والعشرين من ذى القعدة[1] .

---

(١) ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٩١ م) : سفرنامه ، ترجمه الى الفرنسية شارل شيفر (باريس) عام ١٨٨١ ، وإلى العربية دكتور يحيى الخشاب بالقاهرة ، وقد نقلنا عنه .

أبو الصلت أمية بالقاهرة

(٤٨٩ هـ — ١٠٩٥/٩٦م)

وهذا أديب وشاعر كبير ، رحل إلى القاهرة وأمدنا بوصف شامل لمجتمعها العلمى والسياسى .

ولد أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فى دانية من بلاد الأندلس فى سنه ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م وعزم على زيارة مصر وكان يأمل من وراء رحلته إلى مصر بسطة فى العيش . ويبدو أنه ظل دهرا خاملا يتحين الفرص ، إلى أن اتيح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام المستنصر بالله ، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار(١) .

قدم أبو الصلت إلى الاسكندرية فى عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥/٩٦) ثم جاء إلى القاهرة واتصل بتاج المعالى، يخدمه بصناعتى الطب والتنجيم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتب الأفضل ينفس عليه ذلك ، ويخشى بأس تاج المعالى ، وحدث أن تتابعت منه السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقى به فى أحد سجون مصر مدة ثلاث سنين وشهر ؟ بعد الذى دبج فيه من المدائح .

ولما أفرج عنه ضاق أبو الصلت ذرعا بمصر ، وما لقى فيها من الخيبة والعنت ، فشد رحاله إلى المغرب واستعاد صلته بيحيى بن تميم بن باديس الذى وضع له رسالة يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه وهى التى عرفت بالرسالة المصرية ، وتناول فيها .

١ — الوصف البلدانى لمصر ونيلها .

٢ — تصوير جمال ربوعها ومعانيها وسكانها ومذاهبهم وأخلاقهم ، وما تحتويه البلاد من الآثار ، ونوه بفضل بعض الأطباء ، ثم ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء(٢) وسنقتطف من هذه الرسالة الطريفة ما يتصل بالقاهرة فى أيام المستنصر بالله .

---

(١) عبد السلام هارون : الرسالة المصرية من مخطوط اقتناه العلامة أحمد تيمور بمكتبته الخاصة رقم ٦٠١ أدب بدار الكتب المصرية وهى المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ . وقد نقلنا عن هذه الرسالة ما ذكرناه .

(٢) أنظر ترجمة أبى الصلت فى معجم ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلكان (١ : ٨) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

وأنا أبتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل منها ، وغنائه فيهـا ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم ، وسيرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجر معه ، ويجىء بسببه ، ويدخل فى تضاعيفه ، وها أنذا آخذ فى ذلك ، وبالله استعين ، وعليه التوكل .

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ومعظمها فى الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخهـا أن حدها فى الطول من مدينـة برقة التى فى جنوب البحر الرومى ، إلى أيلة من ساحل الخليج من بحر الحبشة والزنج والهنـد والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوما .

قالوا — وحدها فى العرض مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومى ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما . ويكتنفها من مبدئهـا فى العرض إلى منتهاها جبلان (أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر فى الضفة الغربية منه ، والنيل منسرب فيما بينهما ؛ وهما أجردان غير شامخين ؛ يتقاربان جدا فى وضعيهما ؛ من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ؛ ثم تتسع مسافة ما بينهما وتنفرج قليلا ؛ ويأخذ المقطم منهـا مشرقا والآخر مغربا على رواب فى فى مأخذيهما وتعريج فى مسلـكيهما ؛ فتتسع أرض مصر فى الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغلها فى الجنوب وأوغلها فى الغرب والشمال ...

وليس تشتمل أرض مصر بعـد الفسطاط الذى هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر فى كثرتها ولا فخامتها ؛ لـكن أجمل مدائنها وأفخرها ؛ إما الجهة الشمالية مـن الفسطاط فالاسكندرية وتنيس ودمياط ؛ وإما فى الجهـة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط . فهـذه صفة أرض مصر على الجمـلة .

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدىء بالتزيد فى شهر أبيب ، الذى هو بالرومية يوليو ، والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء دبيب » وعند ابتدائه فى التزيد ، تتغير جميع كيفياته وتفسد ، والسبب الموجب لذلك مروره بنقـائع مياه أجنه يخالطها فيجتلبها ، ويستخرجها معه ويستصحبها إلى غير ذلك مما يحتمل .

ثم ذكر أبو الصلت عدة نماذج فى شعر نهر النيل ووصفه ، منها ما قاله أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدرج زيادة الماء أصبعاً أصبعاً ومنفعية ذلك التدرج .

أرى أبداً كثيراً من قليـل ... وبدراً فى الحقيقة من هـلال
فـلا تعجب فـكل قليـل ماء ... بمصر مسـبب لخليـج مـال

زيادة أصبع فى كل يوم   زيادة أذرع فى حسن حال

فإذا كان فى الخامس عشر ذراعا وزاد من السادس عشر أصبعا واحدة كسر الخليج

ولكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع غاص ، يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع ، وهى فوهات الخلجان — ففاض الماء وساح ، وعم الغيطان والبطاح وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على أكام وربى لاينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبليها المكتنفين لها وتثبت على هذه الحال ربما يبلغ الحد المحدود فى فى مشيئة الرب المعبود ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعا ، ثم يأخذ عائداً إلى منصبه ، إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولا عما كان من الأرض مشرفا عاليا ، ويصير فيما كان منها متضامنا فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل قلمة كالبرد المسهم ، وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة ، وبركة الحبش

وما جرى بحراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس ، فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضنا :

لله يومى ببركة الحبش   والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب   كصارم فى يمين مرتعش
قد نسجتها يد الغمام لنا   فنحن من نسجها على فرش
ونحن فى روضة مفوفة   دبج بالنور عطفها ووشى
فعاطنى الراح إن تاركها   من سورة الهم غير منتعش
واسقنى بالكبار مترعة   فهن أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل   دعاه داعى الصبا فلم يطش

سكان أرض مصر :

وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف : من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب فى اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم ، اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العمالقة واليونانيين والروم

والعرب وغـيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم وبقى بعض على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة ،

وأما أخـلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات والاشتغـال بالترهات ، والتصديق بالمحالات . وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان[1] فى ذلك واقتصه وأورده من الأمور الطبيعية وموجبة وكفى به حـكما منصفا وشاهداً عدلا .

وحكى الوصفى فى كتابه الذى ألفه فى أخبار مصر أن أهلها فى الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هـذا العـالم ، الذى هو عالم الـكون والفساد أقام برهة من الدهور خالياً من نوع الإنسان . عامراً بأنواع أخر غـير الانسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خلق فاذة وهيئات شاذة ، ثم حدث نوع الانسان فنازع تلك الأنواع فغلبها واستولى عليهـا ، وأفنى أكثرها قتلا ، وشرد مابقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشردة هى الغيلان والسعالى وغـير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة . وترهاتهم النافرة ، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طـائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ماخلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابى ، فانها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفـكار الراجحة ، وتركت لها شغلا بالتعجب منها ، والتفـكر فيها .

وأى شيء أعجب وأغرب بعد مقدرات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم من أعظم الحجارة ، مربع القاعـدة ؛ مخروط الشـكل ؛ ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعا ؛ يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ؛ طول كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا ؛ وهو مع هذا العظم ؛ من أحكام الصنعة وإتقانهـا ؛ فى غاية من حسن التقـدير بحيث لم يتأثر أبدا بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ؛ وهـذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى ؛ على ما شاهدناه منهما : وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله : —

أين الذى بنى الهرمان من بنيانه ما قومه ؛ ما يومه ؛ ما المصرع

كـنـا نظـن دياره ممـلوءة ذهبـاً فمـات وكل دار بلقع

تتخلف الآثار عن أربابهـا حينـا ويدركها الخراب فتتبع

---

(١) هو الطبيب المصرى المشهور ، راجع الفصل الأول .

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ؛ فلما أطفنا بهما واستدرنا حولهما أكثر تعجبنا منهما ؛ فتعاطينا القول فيهما .

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام ؛ آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ؛ كما تميزوا عنهم فى حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبها ؛ فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد ؛ وعناء طويل ؛ فوجدوا داخله مهاوى ومراقى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ؛ ووجدوا فى أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع ؛ وفى وسطه حوض رخام مطبق ؛ فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ قد أتت عليها العصور الخالية ؛ فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ماسواه ويقال أن النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة .

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية ؛ من كتابة بانيها ؛ لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها وبالجملة الأمر فيها عجيب .

وكذلك أمر البرابى ؛ كبربا اخميم ؛ وبربا سمنود ، وبربا دندره . فان فيها من الإحكام وجودة الشكل وحسن التصوير . ما يدل على أن عمارها ذوو عقول راجحة وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة . لاسيما بصناعتى الهندسة والنجوم .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ؛ وهى فى غربى النيل ؛ على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط ولما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ؛ رغب الناس فى عمارتها وكانت دار العلم ؛ ومقر الحكمة ؛ إلى أن تغلب عليها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؛ واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانصرف أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكناها ؛ فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا .

فيقال أن من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث ؛ وكان فيلسوفا جوالا فى البلاد ؛ طوافا فى المدائن ؛ عالم بنصبتها ؛ وطوالعها وطبائع أهلها ؛ وله تصانيف جليلة مفيدة فى فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس صاحب المقالات الموضوعة فى علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة . ومنهم الاسكندرانى صنف كتاب الأفلاك وكتاب القانون فى تقويم الكواكب . ومنهم روسم صاحب التصانيف فى الكيمياء ومنهم انقلاءوس الاسكندرى وأصحابه . الذين اختصروا كتب جالينوس فى صناعة الطب . وألفوها على طريقة المسألة والجواب .

ومنهم واليس صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومى ، المصنف فى المواليد وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم ، ويقال أنه الذى استخرج بطول التحرى ومواصلة العناء ، جدود المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل عالم وأمحى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاع وغثاء وجهلة دهماء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رعانة . ولهم خبرة فى الكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه ، لما فى أخلاقهم من الملق والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ؛ حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً والمثل بهم مضروباً .

وأما حال المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذاكر منها ما وقفت عليه ؛ وكشفت بالمحنة عنه ؛ كنت فى أول جلوسى بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط ؛ باحثاً عن مشاكلها ؛ فاحصاً عن مستغلقها ، شرصت كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بمذاكرته ، وأقدح خاطرى بمفاوضته ، فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمس أفهامهم وحال بين الحكمة وبينهم . . . .

ومن ظريف ماسمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان يستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ، ويخرج لها وجوهاً مضحكة ؛ وكان مع ذلك لطيفاً فى إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض ، وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فان احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لامضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونفعه ظاهر بين ، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ؛ مع الاستظهار بحفظ الأصول . وأكثر أطبائها المبرزين . نصارى ويهود .

وليس فيها من المنجمين إلا أبو الحسن على بن النضر المعروف بالأديب رضى الله عنه ، من أهل صعيد مصر الأعلى ، فإنه من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات هذا الزمان .

وأما الطائفة المقلدة التى حظها من المعارف القشور دون اللبوب ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمثل من بها منهم الآن رجل يعرف برزق الله النحاس ، فإن له فى فروع هذه الصناعة بعض دربة وتجربة ، وبتجرباتها بعض خبرة ، وهو أكبر المنجمين بها وكبيرهم الذى علمهم ، وأميرهم الذى يلوذون به ، فجميعهم إليه منسوب ، وفى جريدته مكتوب ، وبفضله معترف ، ومن بحره مغترف ، وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع .

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها وسكونا إليها ، حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى

لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تضبط جهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتمدونها .

ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين فى أتون الحمام ، يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظفاره ، فتعجبت من سمو همته على خساسة قدره ووضاعة مهنته .

وأما الآن فإنى ذاكر من لقيته من أدبائها وظرفائها ، وفضلائها فى الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ؛ وأحقهم بالحظ الأوفر من التنظيم « القاضى أبو الحسن على بن المستنصر » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ؛ والفضل البارع ، وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ؛ والرتبة الأولى . وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة فخاب فيه أمله وضاع رجاؤه وأخفق سعيه . وله فى سفرته هذه ، وقد قوى يأسه فى بلوغ أمله ونيل بغيته ، وعزم على العبور عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزهادة ويحرض على القناعة ويذم الضراعة ويتأسف على إذالة خده وإراقة ماء وجهه .

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن اسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة ، وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف . مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله .

ومن شعراء المصريين فى زماننا هذا أبو مشرف الدجرجاوى وهو منسوب إلى دجرجا ، وهى ضيعة بالصعيد الأعلى .

ومنهم محمود بن ناصر الاسكندرى ، كاتب القاضى بن حديد ، وأبو نصر بن قاسم المعروف بالحداد ، من أهل الاسكندرية ، وأبو القاسم بن رشد المصرى .

آثار الفـــاطميين

١ — الأزهـــــر

بعد ما وضع جوهر القائد أساس القــاهرة شرع فى بناء الأزهر فى اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) ، وتم بناؤه وفتح للصــلاة فى يوم الجمعة السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونيو ٩٧٢) . والجامع الأزهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية فى مصر . ويمكن القول أن بناء الجامع الأصلى كان يتكون من رواق ذى خمس بلاطات تسير من الشمال إلى الجنوب ، وكان على الجانبين يميناً وشمالا ، رواقان من ثلاث بلاطات ، أما فى الجهة المقابلة لحائط القبلة فكان بالرواق بلاطة واحـدة ، ويتوسط رواق القبلة بلاطة رئيسية ، يسير من الصحن إلى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وشيدت قبة فى الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على يمنة المحراب والمنبر .

وقد أدخـل على بناء الازهر زيادات كثيرة حتى أصبحت مساحته الآن حوالى ١٢ ألف متر مربع . وأول من زاد فى بنائه الخليفة الفــاطمى الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) .

وجدده المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٦ — ١٠٩٣) وسار على خطته حفيده المنصور أبو على الآمر بأحكام الله . واهتم بالجامع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، فزاد فى بنائه ، وأعاد إليه الخطبة التى كان قد أبطلها الأيوبيون .

وفى أعقاب الزلزال العنيف الذى خرب الأزهر (١٣٠٢ / ٣ م) ، قام الأمير سـلار بتجديده وإعادة ماتهدم منه .

وفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ — ١٣١٠ م) بنى الأمير عـلاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش المدرسة الطيبرسية التى على يمين الداخل من باب المزينين إلى الباب العمومى البحرى للجامع المعروف الآن بباب قايتباى ، وبنى الأمير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م) .

وفى عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٧/٩٨م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق وأنفق عليها من ماله الخاص ، غير أن هذه المئذنة لم تدم طويلا فقد سقطت فى ٨١٧ هـ (١٤١٤ / ١٥م) ثم فى عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ / ٢٤ م) وكان يعاد إصلاحها فى كل مرة ،

ويعتبر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٦م) المصلح الكبير للأزهر ، فقد أحدث

تجديداً ظاهراً فى الجامع ، فأنشأ الباب البحرى للجامع سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ — ٦٩ م) وشيد المئذنة الرشيقة الباقية إلى اليوم على يمين الباب المذكور ، وتعدت أعماله إلى رواق المغاربة وتورة المياه وعمل السياج (الخرط) الذى يفصل صحن الجامع عن الإيوان الشرقى الكبير ، وقيل أن رواق الأتراك ورواق الشوام من إنشائه أيضاً ، ولا يزال اسم قايتباى على أحد المحاريب وبعض الشبابيك .

وهناك إصلاحات أخرى قام بها غير السلطان قايتباى فى أيام المماليك الشراكسة . ففى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) جدد الجامع السلطان الغورى ؛ فأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباى ، فجاءت أكثر مآذن الجامع ارتفاعاً وأبدعها شكلا .

أما إصلاحات الجامع فى العصر العثمانى فتشتمل على ما يأتى : —

ففى سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ /٩٦م) جدد الشريف محمد باشا والى مصر الازهر ورتب للطلبة والفقراء طعاماً يطبخ كل يوم ، وجدد الأمير اسماعيل القاسمى بن إيواظ (١٧٢٣ م) سقف الجامع وقد أشرف على السقوط وفى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) أنشأ الأمير عثمان كتخدا زاوية العميان وعمر رواق الأتراك ورواق السليمانية الأفغانيين ، وزاد فى رواق الشوام .

وفى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣م) قام الأمير عبد الرحمن كتخدا (١٧٧٦م) بإصلاحات كبيرة فزاد فى سعة الجامع بمقدار النصف تقريباً ، إذ شيد مقصورة وأحسن تأثيثها ، وأقام قبلة للصلاة ، ومنبراً للخطابة وعمل صهريجاً للمياه وشيد له قبراً دفن فيه ، وأنشأ باباً عظيماً وهو المشهور بباب الصعايدة وبنى بأعلاه مكتباً له قناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً وسقاية ، وبنى أمام مدفنه رواقاً لمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم ، وبنى بجانب باب الصعايدة مئذنة . ثم أنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المعروف بباب الشوربة ، وجعل أيضاً عليه مئذنة . وقد جدد المدرسة الطيبرسية وجعلها من المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير الذى أنشأه خارجها وهو مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على يمينه مئذنة (أزيلت سنة ١٣١٥ هـ) وفوقه مكتب وبداخله ميضأة ، ووراء ذلك درج المنارة ورواق البغداديين والهنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة من أجمل المبانى وزاد فى رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكيين والتكروريين . . الخ من أعمال الخير .

وحوالى عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥م) بنى الوالى ابراهيم بك رواقاً للشراقوة .

وفى سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦م) بنى محمد على رواقاً للسنارية .

وفى ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) جدد السيد أبو بكر راتب رواق الحنيفية والمساكن العلوية لرواق الحنابلة . وفى السنة ذاتها أمر الخديوى إسماعيل بهدم وبناء باب الصعايدة والمكتب الذى يعلوه ، كما أنه أصلح المدرسة الاقبغاوية وأصلح العقود التى تلى باب الشوام .

وفى عام ١٢٩٦ هـ (١٧٧٨ /٧٩ م) جدد الخديو توفيق نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلى باب الشوام، وأصلحت المدرسة الاقبغاوية التى تحتوى على مكتبة الأزهر .

وفى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ /٩٣م) جدد صحن الأزهر وما يحيط به من البوائك ودربزينات المقصورة القديمة، وأصبح باب المزينين وطرقته والمدرسة الطيبرسية والأقبغاوية ، وأنشئت دار الكتب الأزهرية فى المدرستين المذكورتين فى عام ١٨٩٦ / ٩٧[1].

ومن أهم ما يذكر لإدارة حفظ الآثار العربية التى تشرف على صيانة هذا الأثر الجليل، أنها كشفت سنة ١٩٣٤ المحراب الأصلى للجامع وكان محتجباً خلف محراب من الخشب يظن أنه عمل فى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فأصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم .

وللأزهر ثمانية أبواب : فى الجانب الغربى الخارج إلى ميدان الأزهر بابان : باب المزينين والباب العباسى[2] وفى الباب الجنوبى باب المغاربة وباب الشوام وباب الصعايدة وفى الجانب الشمالى باب الجوهرية، وفى الجانب الشرقى باب الحرمين وباب الشوربة .

وتقوم فوق أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن ، ثلاث من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع، إحداها مئذنة الاقبغاوية، عن يسار الداخل إلى الصحن واثنتان عن يمين الداخل، مئذنة قايتباى ومئذنة قانصوه الغورى، والمئذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة والمئذنة الخامسة بباب الشوربة ، وكلتا المنارتين الأخيرتين أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا .

وحرم الأزهر ينقسم إلى رواقين : —

١ — الرواق الكبير وهو القديم ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة .

٢ — الرواق الجديد ويلى الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع ونصل إليه بدرجتين، وسقف الرواقين من الخشب، وترتكز البائكات على عمد من الرخام وهى من طرز مختلفة . أما البائكات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف .

وكان بالأزهر سبع مزاول: أربع فى صحنه وثلاث جهة رواق معمر، وكان للجامع عشرة محاريب أزيل منها أربعة، ففى الرواق الجديد محرابان . وفى الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة . وفى متحف الفنون الإسلامية، المحراب الذى أنشأ الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) ولوح الخشب الذى كان يعلوه .

وللجامع منبر من الخشب المخروط وهو حديث، أما المنبر الأصلى القديم فقد نقل إلى جامع الحاكم[3].

---

(١) راجع وصف الأزهر فى تلك الفترة فى الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ١٤ — ٢٦

(٢) أحدثته وزارة الأوقاف فى عهد الخديو عباس الثانى

(٣) فى مصر الاسلامية . من بحث للأستاذ يوسف مهران ص ١٣٠

٢ ـ جامع الحاكم بأمر الله

بدأ بناء هذا الجامع بأمر من الخليفة العزيز بالله نزار ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر فى رمضان ٣٨٠ هـ (٩٩٠م)، وقبل أن يكمل بناؤه صليت فيه الجمعة فى ٣ رمضان ٣٨١ هـ (نوفمبر ٩٩١م)، ولما خلف الحاكم بأمر الله أباه العزيز، أمر بإتمام بنائه (٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ / ٣)، وفى سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠/١١م) شيدت القاعدتان الهرميتان حول قاعدتى المئذنتين لتدعيمهما. وقد كمل بناء الجامع وفرش، وصليت فيه الجمعة فى الخامس من رمضان سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ مارس ١٠١٣ م).

وحينما شيد هذا الجامع كان يضم صحناً مكشوفاً يحيط به أروقة مسقوفة، وفى ناحية المحراب خمسة أروقة تسير عقودها فى موازاة جدار القبلة، وفى كل من الجانبين ثلاثة أروقة تتجه عقودها عمودية على ذلك الجدار، وفى الجهة البحرية رواقان تسير عقودهما فى موازاة حائط المحراب.

ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية وروعة الكتابة الكوفية فى الإزار الجصى تحت السقف وفى بدنى المئذنتين، وفيما بقى من الشبابيك الصغيرة برقبة القبة التى تعلو المحراب، ومع هذا كله فإنه أول جامع بمصر والقاهرة بنى بابه العمومى بارزاً عن الوجهة التى هو بها(١)

وللجامع تسعة أبواب، خمسة منها فى الوجهة، واثنان فى الجدار الشرقى، وواحد فى كل من الجدارين الغربى والقبلى، أما النوافذ فقد ضاع معظمها ولم يبق منها إلا اثنان فى جدار القبلة على يسار المحراب.

وجامع الحاكم سجل معمارى يضم عناصر زخرفية كثيرة، لاسيما زخارف المئذنتين، فقد تفنن الصناع فى ابتداع العناصر الزخرفية، فمن الخط المستقيم، أخرجوا المعينات والمخمسات والمسدسات والنجوم المتعددة الأضلاع، ومن الخط المنحنى ابتدعوا أشكالا تنطق بحذقهم(٢)

ولعل أهم الاصلاحات التى عملت بالجامع هى التى قام بها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف (١٨٠٨م)، فقد جدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقى وجعلها مسجدا للصلاة، ثم كسا القبلة بالرخام، ووضع بجوارها منبراً، غير أن الجامع ما لبث أن تخرب، فلم يبق منه إلا بعض عقود بالإيوانين القبلى والشرقى.

ولقد بذلت إدارة الآثار مجهوداً عظيما فى إصلاح هذا الجامع وصيانة بعض أجزائه وكشفت محرابه القديم وأعادت بناء القبة القبلية وكشفت وجهته الغربية وإظهار قاعدة المئذنة القبلية والكتابات حول قاعدتها وإصلاح مدخله العمومى وإظهار زخارفه وكتاباته . .

---

(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ٦١

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ص ٧٨

٣ – مسجد الجيوشي

يقع هـذا المسجد الصغير على حافة جبل المقطم خلف قلعة الجبل ، أمر ببنائه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م) وهو يشتمل على مقبرة . وكان أول مسجد بنى بالحجر بالقاهرة ، مشيد على شكل مستطيل مساحته ١٨ × ١٥ متراً ، وذلك بعد حـذف الإضافة الخارجية ، يقع مدخله فى منتصف وجهته الشمالية الغربية ، وبأسفل المئـذنة ويؤدى إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، ويقع إلى جانبها الأيسر حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف أسـطوانى تحتوى على خزان ماء ، وعلى الجانب الأيمن ، حجرة أخرى مربعة مفتوحة وبها سلم يؤدى إلى سقف الجامع .

تؤدى الردهة إلى صحن المسجد بواسطة قبو آخر مدبب ومساحة الصحن ٦٫٤٥ —٦٠ر٥ متراً ، وعلى كل من جانبيه غرفة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، وعلى الضـلع الجنوبى الشرقى للصحن توجد وجهة إيوان القبلة ، ذات الثلاثة العقود يؤدى العقد المتوسط إلى ردهة أخرى طويلة ذات عقد متقاطع ، تنتهى بعقد ثلاثى آخر . يؤدى إلى القبـة التى توجـد أمام المحراب . والتى يكتنفهـا من كل جانبيهـا إيوان معقود بعقد متقاطع .

ومحراب المسجد يبلغ ارتفاعه ١٥ر٣ متراً . يشتمل على زخرفة جصية جميلة ، ويزين القبة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة يسـير حول رأس المربع المقامة عليه القبة . وتقوم المئذنة فى منتصف الضلع الشمالى . ويبلغ ارتفاعهـا ٢٠ متراً وتتركب من قاعدة مربعة . تنتهى بمقرنص يعلوه مربع آخر ، فمثمن يحمل قبة .

٤ – مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان ، أنشأه الصالح طلائع بن رزيك (٤٩٥ — ٥٥٦ هـ) وزير الفائز بنصر الله الخليفة الفاطمى . فـكان آخر جامع أنشىء فى عهـد الدولة الفاطمية وأجملها ولا سيما من ناحية تصميم وجهته الغربية .

يحيط بصحنه أواوين مرتبة على نسق أواوين المسجد الأقمر ، فيتـكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة ، ويتـكون كل من الأواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط ، وعقود هذه الأروقة محمولة على عمد من الرخام . والمسجد أربع وجهات مبنية بالحجر أهمها كما قلنا الوجهة الغربية ، وبوسطها المدخل الرئيسى وقد اقيم أمامه رواق محمول على أربعة عمد رخامية وحليت عقوده بزخارف جميلة ، وقد حلى صدر هـذا الرواق وجانباه بزخارف على شـكل مروحة ، ونقشت بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالـكوفية المزهرة .

أما المنبر الموجود بالجامع فقد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) وكان قد جدد مئذنته عقب سقوط مئذنته الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م).

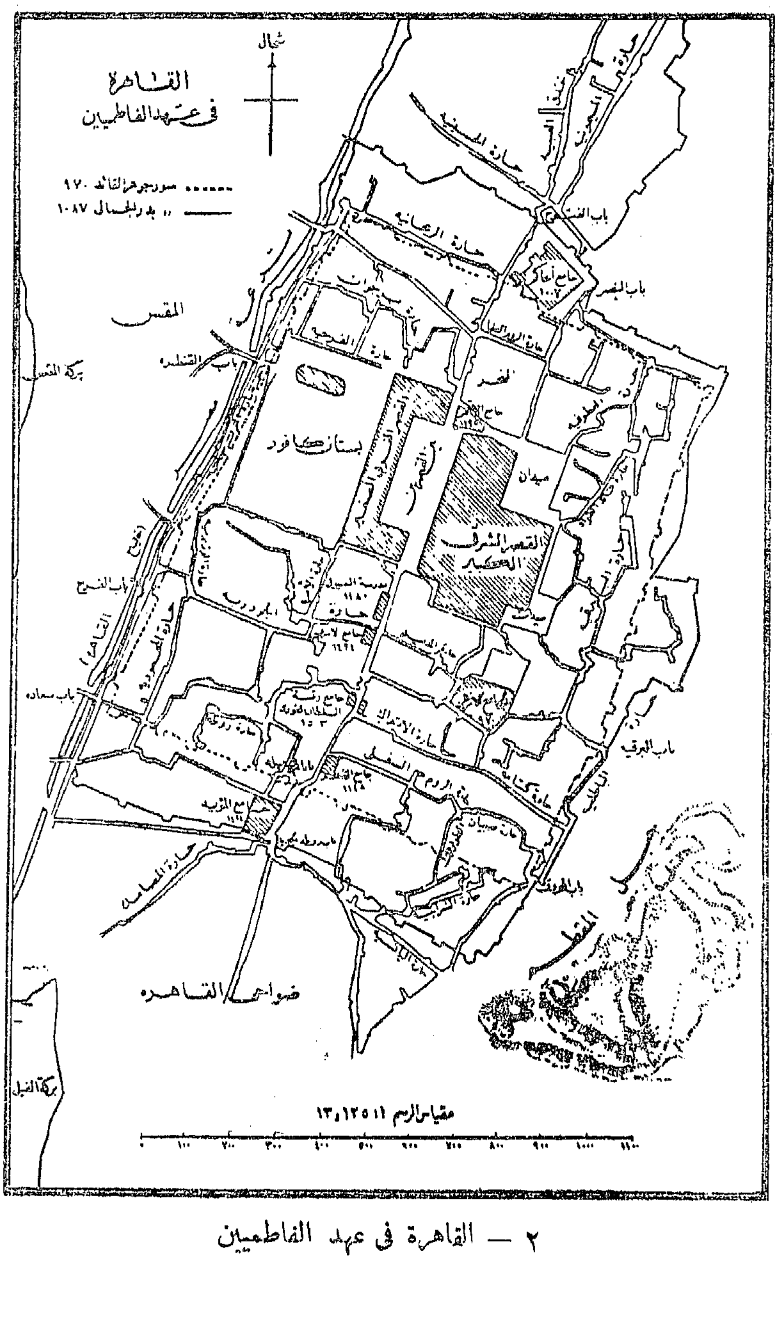
وقد حفظ المسجد كيانه حتى عام ٨٨٢ هـ (١٤٧٧)، وأخذ يخرب تدريجا حتى لم يبق منه عام ١٩٢٠ سوى إيوانه الشرقي، ومن ثم عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديده، فأعادت بناء الإيوانات الثلاثة الغربية والبحرية والقبلية، وأصلحت المنبر والشبابيك الجصية؛ وتحفظت على الكثير من زخارفه وكتاباته النادرة بالإيوان الشرقي.. ويمكن القول بأنها أعادته إلى سابق عهده.

٥ — جامع الأقمر بالنحاسين

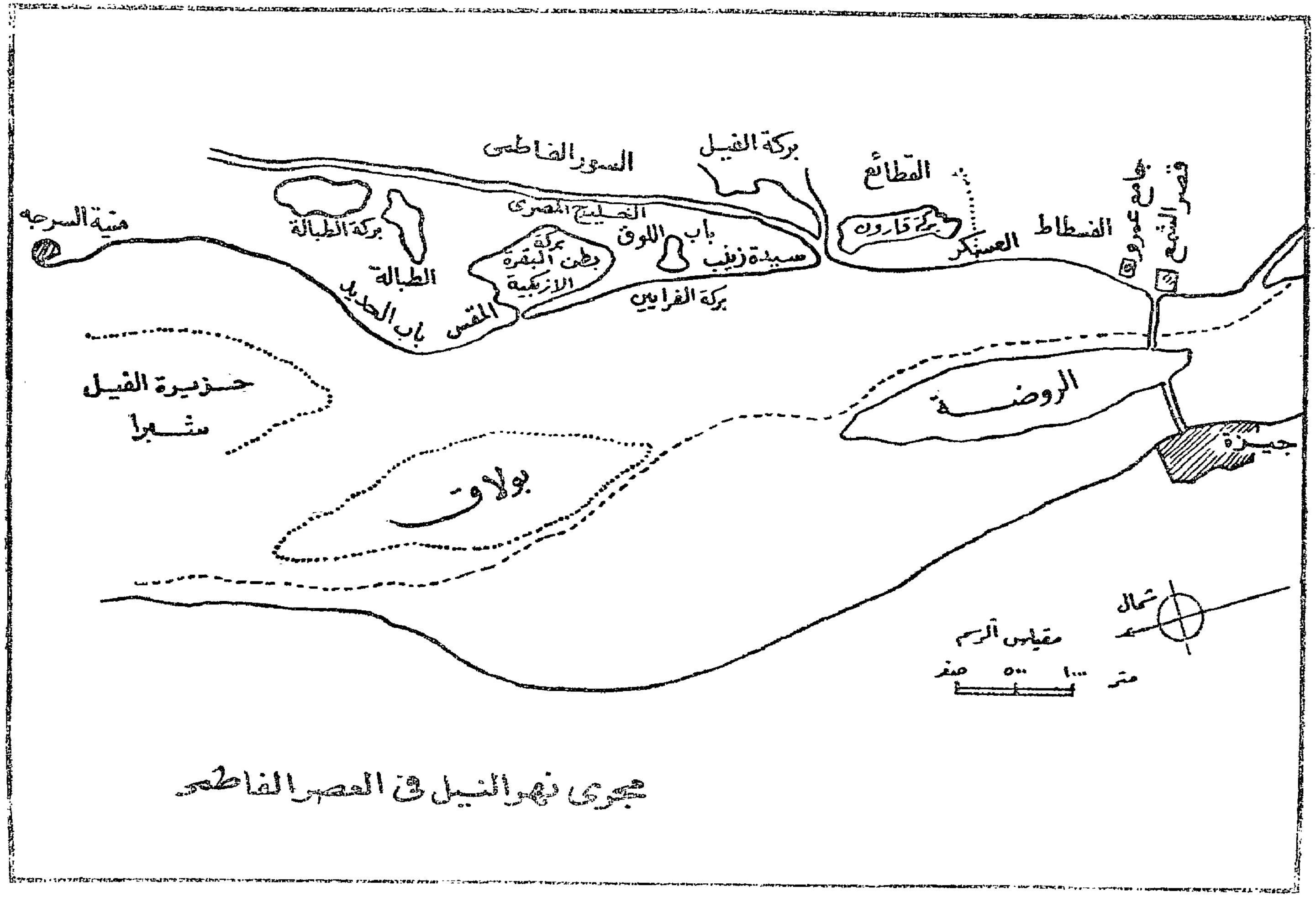
مسجد صغير لكنه تحفة فنية نادرة! يحيط صحنه من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ثلاثة منها في ناحية القبلة، ورواق واحد في كل من الجهات الثلاثة الأخرى. ووجهات هذه الأروقة مكونة من ثلاث عقود متصلة، يحملها في الزوايا الأربع للصحن دعائم أربعة؛ وبين الدعائم في كل ناحية عمودان، أما العقود فهي من النوع المحدب المعروف بالعقد الفارسي.

أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) وهذا الجامع من مفاخر العمائر الفاطمية؛ وتعتبر وجهته الغربية وحيدة في طرازها بما احتوت عليه من النقوش والكتابات الكوفية.

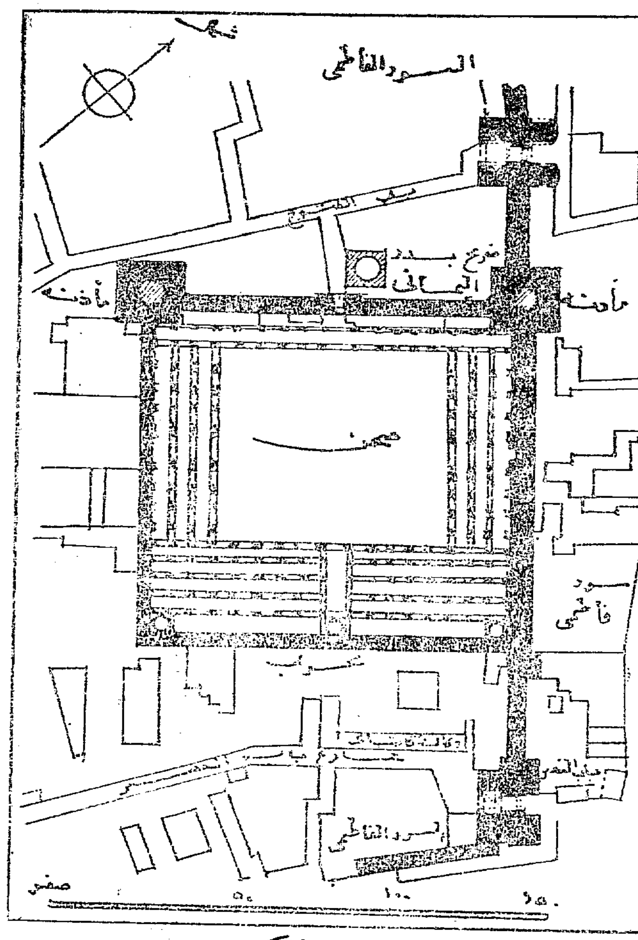
وقد جدد هذا الجامع برقوق سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦م) ثم عنيت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار، فقومت عمده وعقوده، كما أنها تحفظت على زخارفه وكتاباته الجميلة...



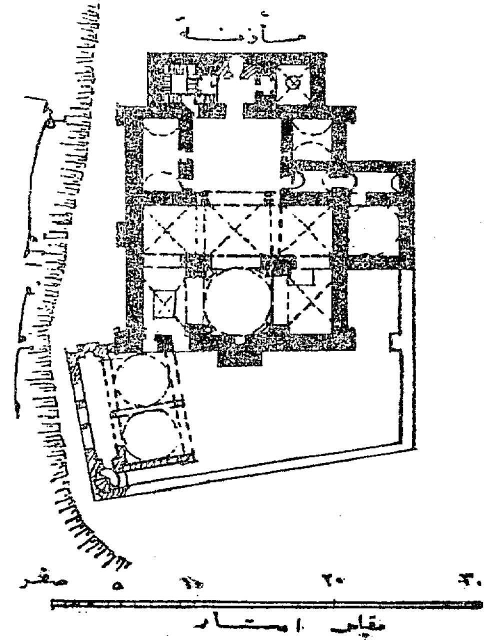
٢ — القاهرة في عهد الفاطميين



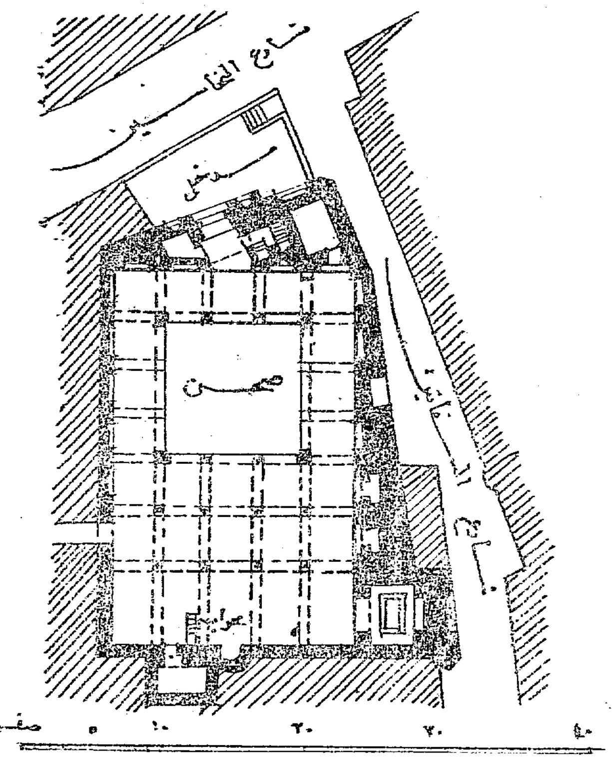
٣ — مجرى نهر النيل فى العصر الفاطمى



جامع الحاكم



جامع الجيوشى



جامع الأقمر

الفصل الثالث

القاهرة في أيام الأيوبيين

من ١١٦٩ إلى ١٢٥٠

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تتميز عن ذلك المقر الملكي الفاطمي ، وأضحت تشغل مساحة أوسع ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات طابع هندسي مستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم . وقد كان الفضل في هذه الإنجازات لصلاح الدين ، غير أنه لم يعش ليراها تتم أثناء حكمه . ولكي نبحث بالتفصيل الأسباب التي أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق ، علينا أن نستعين بالتاريخ .

إننا أمام قوتين متعادلتين : الأولى المملكة اللاتينية في بيت المقدس ، والثانية الدولة السلجوقية في دمشق . والاثنتان في كفتي ميزان متعادلتين ، فلا تستطيع إحداهما أن تقهر الأخرى . وكانت مصر مفتاح الموقف ، فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادي النيل لكانت السيادة لها .

وكان من الطبيعي أن تتحالف الدولتان المسلمتان في دمشق والقاهرة لقهر الفرنجة ، لولا اختلاف المذهب الديني بينهما . فقد كانت الأولى سنية والثانية شيعية . ولم تجد المفاوضات السياسية بينهما نفعاً حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضي المصرية ودخلت القاهرة ، وإذ ذاك تغلبت على نور الدين روح التقوى الدينية فتدخل في الأمر . وكان بدء التدخل نتيجة للنزاع الذي نشأ بين الوزيرين المتنافسين في مصر ، فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه شاور الذي استنجد بنور الدين . وفي الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « عموري » وكان هـذا قد جمع جموعه واستولى على الأراضي المصرية مطالباً بالجزية التي اعترف بها الفاطميون في أثناء ضعفهم .

وفي عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ عاد « شاور » يصحبه جيش سوري يقوده « شيركوه » ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فهزم ضرغام في بلبيس ، وسارت الجنود الظافرة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ، ولكن هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر ، وقد كان ضرغام عربيا باسلا ، له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين في غزة وكان قائداً لفرقة البرقية ، إحدى فرق الجيش الفاطمي . وقد أضاع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية ، فانفض من حوله أعوانه وتخلى عنه الخليفة وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفي رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) ، وتم النصر لشاور منافسه ، بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب .

على أن شاور لم يكد يتخلص من منافسه حتى بدأ يحيك مؤامرة للتخلص من العهود التى اتفق عليها مع شيركوه ومن معه ، فأرسل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هـذا لايستطيع رفض ذلك الطلب ، إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر ، فلما بلغته دعوة شاور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه .

وتطاحن الجيشان بالقرب من بلبيس ثم انتهى الأمر بالصلح ، على أن تخرج الجيوش الصليبية وجيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبيس فى أكتوبر سنة ١١٦٤ م — ٥٥٩ هـ يشبه النصر . وكانت هذه الإغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد .

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لمسوا مواطن الضعف فى الحكم الفاطمى ، وهون قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر وإعادتها لسلطانهم وبينوا له أهميتها ، وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ، ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين عمورى وشاور جهز فى الحال حملته الثانية على مصر .

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التى وصلت إلى شرق النيل عند أطفيح فى أوائل سنة ١١٦٧ م — ٥٦٢ هـ وعبرت إلى البر الغربى من هناك ، وكان جيش عمورى قد وصل وانضم إلى جيش شاور .

وبعد حين كان أحد الجيشين عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج ، والآخر وهو الجيش السورى عند الجيزة فى البر الغربى . واستولى عمورى على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذى أقسم على إعطاء الفرنج مائتى ألف دينار عاجلا ومثلها آجلا ثمنا لمساعدتهم .

أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » فى جنوب المنيا ، وهناك حطم الجيش المصرى وهزم جيش الفرنج ، ولم يجرؤ « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيرا وقعت فى يده بعد ٧٥ يوما .

إنتهت الحرب ، وعادت الجيوش إلى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيما لهم فى القاهرة ، وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحو مائة ألف دينار كل عام ، وتركوا حامية منهم فى مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها . فلما عادوا إليها بعد نحو سنة من إمضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائياً على ضمها إلى أملاكهم .

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثرهم من أعداء شاور ، وأرسلوا إلى نور الدين ليأتى لمساعدة المصريين على أعدائهم ، وكان ينتظر هـذه الفرصة ، فأخذ يعبىء جيشاً لغزو مصر للمرة الثالثة .

وصل شيركوه وصلاح الدين إلى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م — ٥٦٤ هـ ، وكان عمورى ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفاً يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى عمورى موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الإسلامى المغير من جهة أخرى ، لم يستطع البقاء وتخلى فى الحال عن البلاد المصرية عائداً إلى فلسطين . أما «شاور» فحاول استمالة « شيركوه » بالملق والمداهنة فلم يفلح ، وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه ، فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دوراً عظيما فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور ، القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فعمد الخليفه إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله فى الوزارة فتقلدها فى عام ١١٦٩ م .

صلاح الدين الأيوبى

أصبح صلاح الدين وزيراً لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر . كان صلاح الدين فى منصبه الجديد هذا وزيراً للخلفية الشيعى، وفى الوقت نفسه كان واليا من قبل ملك دمشق السنى ، ولذلك كان موقفه حرجا ومبهما ؛ ومع هذا استطاع أن يمضى عامين موفقا فى منصبه ، وكأنه كان على علم تام بأن الدولة الفاطمية آيلة إلى الزوال .

واتفق أن مرض العاضد واحتجب فى قصره ، فرأى صلاح الدين الفرصة سانحة لإلغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى عرف بالأمير العالم ، فلم يحدث استنكار من الناس ، فأمر صلاح الدين الخطباء جميعاً بأن يلغوا خطبة العاضد ، ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفى يوم عاشوراء . ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه لحفظه « بهاء الدين قراقوش » وكان قد عينه وزيراً قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع من بقى من الأسرة الفاطمية واعتقلهم فى مكان بعيد عن قصورهم الزاهرة التى وزعها على أمراء جنده وباع مماليك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها ١٢٠٠٠٠ كتاباً نفيساً ومنحها لمستشاره العالم القاضى الفاضل . ويقال أن قسما من هذه المكتبة محفوظ الآن فى مكتبة ليدن بهولندا .

قضى صلاح الدين معظم حياته فى خارج مصر . ومن الأربع والعشرين سنة ، وهى فترة حكمه ، حاكما مستقلا — يدخل فيها الخمس سنوات الأولى التى خضع فى أثنائها لنفوذ نور الدين — لم يقض منها سوى ثمانية

أعوام فى القاهرة . أما بقية سنى مجده . فإننا نجده متنقلا فيها فى الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة فى ١١ مايو عام ١١٨٢ م/٥٧٨ هـ واجتمع كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الحبش وعزفت الموسيقى دور الوداع الأخير . وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الصفوف كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتشاءم صلاح الدين واغتم المجلس وقد صدق ذلك الفأل ، فلم يعد صلاح الدين وغزا أرض الفرات وضم إلى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الخالد فى معركة حطين ، وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين والمسيحيين ، وأخضع البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل ضد الاتحاد المسيحى الأوربى حول عكا وغيرها ، واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس فى أوربا منافسا قويا لريتشارد « قلب الأسد » . وأخيرا بعد هجومه النهائى على يافا وارتداده بالفشل تم صلح الرملة ونص فيه على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا ؛ وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس ؛ وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من بدايته إلى الجنوب لصلاح الدين .

ومات صلاح الدين فى (٢٧ صفر سنة ٥٨٩/٤ مارس سنة ١١٩٣ م ودفن فى دمشق تاركا دولة إسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة ، بينما كان الافرنج محصورين على الساحل فى رقعة ضيقة بين عكا ويافا .

إمتداد القاهرة

على الرغم من قصر الفترة التى قضاها صلاح الدين فى القاهرة ، لم يترك واحد من حكامها مثل ما خلفه هذا السلطان العظيم من آثار لاتزال باقية ؛ فله وحده تدين عاصمة البلاد بشكلها واتساع نطاقها إلى درجة لا تقل كثيرا عما هى عليه الآن ؛ وأهم تلك المظاهر التى خلفها قلعة الجبل التى كانت من ابتداعه ؛ وهو الذى أدخل إلى مصر التصميم المعمارى المعروف (بالمدرسة) وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات فى أثناء وجوده فى القاهرة ، ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذين كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة ، بينما كان يجاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما تؤدى من ناحية أخرى الأغراض الدينية . وكانت القلعة من المجموعة الأولى وكذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم .

واكتفى الحكام المصريين الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر ملكى يبعد ميلا أو أكثر إلى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضعت فى الأصل لتكون دار الخلافة وقصراً للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وسكن صلاح الدين القاهرة ، فوجدها خاوية فأباح للعسكريين وكل من استطاع

البناء أن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خــلا من فسطاط مصر ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل فى القاهرة وسكنوها ، فسكنها أصحاب السلطان . وهكذا رأينا صلاح الدين ، الرجل الذى جعل من القاهرة عاصمة للبــلاد . وأقام فى دار الوزارة الـكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فـكان يتردد عليها ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عــثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر ، فلما كان الملك الـكامل ناصر الدين بن أيوب تحــول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها .

رأينا أن صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه فى الحـكم وأقام ضاحية ملـكيه على مثال « القطائع » أو « فرساى » بل عمل شيئاً جديدا ، فقد رأى أن يضم تلك الضواحى ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم. وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها ــ كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معهــا تلك النواحى المبعثرة ضمن الضواحى الخربة ، ويضم اليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجمالى إلى المقس من ناحية الغرب وإلى تلال المقطم من ناحية الجنوب ، ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريبا .

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته العسكرية فى الشام ، ولا نشك مطلقاً أن وزيره فى القاهرة كان مشغولا عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدبير المال اللازم لتجهيزهم ، فلم يقم إلا ببناء ما احتاجت إليــه الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد النظر فى فـكرته أو لمح اليه أحــد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور يضم مدينــة مخربة كمصر . فيوفر للدولة تلك التـكاليف الباهظة التى تقتضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء .

السد العظيم

كان من أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال . وقد وصف الرحالة ابن جبير هــذا السد بأنه مشروع عظيم لايقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقد قال عنه أنه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التى شاهدها للقناطر ذات العقود، وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولاشك أن بنــاء مثل هــذا السد كان لسبب عسكرى هام فـكر فيــه صلاح الدين ، فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا إلى شاطىء النيل بدون أن يقف فى سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بإقامة هذا السد العظيم ، ويذكر ابن جبير أيضاً أن صلاح الدين خشى هجوما يقوم به الموحدون بعــد أن أخضعوا لسلطانهم المغرب وجنوب الأندلس واستولوا على الجزائر وطرابلس فى عام ١١٥٨، حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغــربية بزعامة القائد عبدالمؤمن . فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث من جانبهم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالى ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعيين ولقصورهم التى سكنوها ، فقد لا نشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته فى القاهرة رغب فى أن يجعل القلعة مقراً لسكناه . ولكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع، نعود إلى حملات صلاح الدين فى سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتمت مشيئته .

وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحدا من الشاطىء وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

اختار السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدما ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلا تحكم موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فإننا لا ننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة ، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين فى القرن الثانى عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة فى فن المعمار ، فان عملهم لا يزال واضحا للعيان فى القرن العشرين .

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة فى عام ١١٧٧ وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الخصى أحد أمرائه المخلصين .

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة ما نقرأه إلى يومنا هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب محي دولة أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله المالكى الناصرى فى سنة تسعة وسبعين وخمسمائة » . (أى فى عام ١١٨٣ – ١١٨٤م) .

ولكى يشيد صلاح الدين القلعة هدم عددا كبيرا من الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة وبني به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجده

فى موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج الذين أسرهم صلاح الدين فى معاركه — ولقد زار السائح الأندلسى ابن جبير القاهرة فى عام ١١٨٣ فشاهد الأعمال يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيرا جدا .

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل العمل مدة ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة ومابرح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ — ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة ، ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب .

لقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة جعل القاهرة تنمو نموا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال بينها وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعى وجامع عمرو بن العاص . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك فى هـذا الاتجاه ، ولكل هذا ازدهر العمران بالقاهرة الأيوبية وأنشئت فى الأحياء الجديدة ، الدور العالية والحمامات الشعبية والأسواق العامة وخانقات الصوفية ...

سور القاهرة

ابتدأ صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفى عام ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م انتدب بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً ، فزاد فى سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع لوفاة صلاح الدين[١] من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة .

وقد ذكر المقريزى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

---

١ — من مذكرات المرحوم محمد رمزى .

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى انشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس (وكان يعرف بباب الرماحين) .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج ، وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ، ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤م شرع بهاء الدين قرا قوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا ، وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسورمصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقى منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولا : أن القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذاة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وقتنا هذا إلا قطعة طولها ١٢٠ مترا وكانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذاة حارة السطاحى ، ولما فتح شارع الأمير فاروق (شارع الجيش) فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار وحافظت إدارة حفظ الآثار العربية على هذا الجزء للارشاد إلى موقع السور القديم .

ثانياً : أن السور البحرى الذى كان ممتدا بين باب الشعرية ــ الذى يعرف الآن بباب العدوى ــ وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان باب الحديد كان قائماً إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ ــ وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه إلا بعض أجزاء لاتزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية ، مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الفجاله وشارع الفجالة ، ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكى والطبلة ، ومن الشرق بميدان العدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه إلى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

ثالثا : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى ، وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما هو مشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الجيش (الأمير فاروق سابقا) فى سنة ١٩٣٠ أخذ فى طريقه جزءاً صغيرا وبذلك أصبح السور ينتهى من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البزازة ، وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة الشرقة على شارع الجيش لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ .

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ، ولايزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر .

رابعاً : أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوبا بطول ٤٠٠ متر وبناؤه متخرب تولت إدارة حفظ الآثار العربية ترميمه وإصلاحه ، وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ مترا إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى ومعظم أجزاء السور سليمة إلى اليوم ، ويتصل هذا السور فى نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقى من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر فإنه لما تكلم المقريزى عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ، ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر (ج ١ ص ٣٤٧) قال أن صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر ، وهذا دليل على بناء السور فى المسافة المذكورة .

وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر إلى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر فإنى أرجح الرأى الذى ذكره المقريزى فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة أى إلى مدينة مصر ، يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء فى المسافة من باب القرافة إلى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ، ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل إلى قلعة الجبل .

ويتضح مما ذكر أن كالة السور الشرقى للقاهرة فى المسافة ما بين الجبل وسور مدينة مصر لايزال يوجد من آثاره حائط المجرى (العيون) القائمة إلى اليوم من باب القرافة بالقاهرة إلى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة إلى مصر القديمة عند الزاوية القبلية الشرقية فى جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القارىء مما ذكرناه نقلا عن القلقشندى أنه قال : أن السور الذى أنشأه صلاح الدين ما بين

باب البحر والكوم الأحمر برأس منشاة المهرانى التى عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا أن هـذا السور كان صلاح الدين عازما على إقامته على شاطىء النيل غربى القاهرة من ميـدان باب الحديد إلى فم الخليج المصرى ولـكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره المقريزى وهو أن صلاح الدين زاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب الشعرية إلى باب البحر وبين قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك ، وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر القائمة من جهة فم الخليج ولـكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله .

أبواب القاهرة الصلاحية

وننتقل إلى الـكلام على الأبواب التى شيدت فى عصر صلاح الدين الأيوبى بالترتيب التالى :

(ا) أبواب السور الغربى من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ — ١١٦٩ م) :

١ — باب القنطرة الثانى ويقع على الحافة الشرقية للخليج وعرف بهـذا الإسم لوقوعه تجاه القنطرة التى كان القائد جوهر الصقلى قد شيدها على الخليج الـكبير فى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ / ٧٣ م . (الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٤٧) .

٢ — باب الخوخة وقد شيد فى مواجهة باب الخوخة الفاطمى ، ولاتعرف الظروف التى اختفى فيهـا هـذا الباب ، وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بجامع القاضى يحيى زين الدين .

٣ — باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمى) لنسبته إلى أحد قادة المعز لدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر وكان يعرف بباب المقس لوقوعه فى قرية المقس التى كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركباً عليه بوابة من الحديد ، ونسب إليه ميدان باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧ .

٢ — باب الشعرية وكان يقع بين باب البحر والخليج الـكبير فى السور الشمالى وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٨٣) ، وقد رسم هـذا الباب على خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤ على رأس سكة بباب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق

الجراية ؛ وقد أزيل هذا الباب فى عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وقد عرف فى القرن الماضى باسم باب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

(حـ) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — الباب الجديد هو أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى وقد عرف بهذا الاسم لأنه كان أول باب أنشىء فى سور القاهرة من ناحيته الشمالية بعد باب النصر وله بدنتان كبيرتان ، وقد كشفه الأستاذ كريزويل الأثرى المعروف .

٢ — باب البرقية وقد ذكره المقريزى (جـ ١ ص ٣٨٠) كما تكلم عنه القلقشندى (صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤) وقد بقى مدة طويلة مختفياً تحت الأنقاض حتى اكتشفه المرحوم على بهجت مدير دار الآثار العربية ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكمله ومحتفظا بشكله الأصلى من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود برقة فى الجيش الفاطمى ، وقد عرف أيضاً بباب الغريب .

٣ — الباب المحروق وقد بقى منه برجاه ، ذكره المقريزى (جـ ١ ص ٣٨٣) والقلقشندى (جـ ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسيم .

(ى) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) .

١ — باب الفرج الثانى ولا يعلم متى خرب .

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — باب القرافة وقد سبق الكلام عنه وما زالت بعض أجزائه باقية .

٢ — باب الصفاء وقد خربه الظاهر بيبرس .

٣ — باب الفسطاط وما زالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية .

* * *

لقد زخرت القاهرة فى أيام الأيوبيين نتيجة لانتقال مقر الحكومة إلى القلعة وامتداد أسوارها إلى الغرب والجنوب بالدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق والخوانق ، وكان غالب مبانيها بالآجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مشيدة بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، وقد جرى تبييض جدرها بالكلس الناصع البياض ، ورغب الناس فى تعلية مساكنهم فارتفعت بعض الدور إلى طبقتين وأربع طبقات كاملة بمرافقها . وقد وصف البغدادى الذى زار القاهرة زمن الأيوبيين ما جرى من النشاط فى البناء

ووصف مظاهر العناية ببناء المراحيض بالدور وإحكام قنواتها حتى إذا تخربت الدار ظلت القناة قائمة ، وحرص أرباب الدور على أن عمنوا في حفر المرحاض حتى يصل إلى الماء الجوفى فلا يحتاج إلى الكسح . وقد أشاد البغدادى أيضا فى وصف حمامات القاهرة ، فقال إنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد أتقن منها وصفاً ، ولا أتم إحكاماً ولا أحسن منظراً . وكان من واجبات محتسب القاهرة الإشراف على الحمامات العامة فيلزم القائمين عليها بغسلها وكنسها وتنظيفها ودلك بلاطها ، ويلزمهم أيضاً باشعال البخور فيها كل يوم مرتين .

وقد نقل ابن جبير إلينا صورة اجتماعية حية لقـــاهرة صلاح الدين ، مما سنقرأه فى وصفه ومدى عناية السلطان بالفـقراء والغرباء الوافدين إلى القـاهرة من سوريا ، والمغرب ، واهتمامه برجال الصوفية الذين خصهم بالخانقاه الصلاحية التى عرفت فى زمن الفاطميين بدار سعيد السعداء ، ورتب لهم الطعام كما قدم للمرضى منهم العلاج ، وقد قال ابن جبير عن رجال الصوفية فى مصر أنهم هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خاطرهم — لعبادته — من الفكر فى أسباب المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة(١)

المدارس الأيوبية فى القاهرة

تولى صـلاح الدين العرش ؛ ولم تـكن فى مصر سوى مدرسة بالاسكندرية شيدها الوزير ابن السلار بالاسكندرية فى عام ٥٤٦هـ/١١٥١ م لتدريس الفقه على المذهب السنى ، وكان يقوم على التعليم فيهـا الحافظ السلفى أحد أئمة الفقه والحـديث ، وقد أدركه صلاح الدين وكان يذهب إليه بأولاده لسماعه ، ولذلك رأى السلطان بثاقب فـكره أن ينشر التعليم الدينى السنى للقضاء على مذهب الشيعة ، ولذلك نراه ينشىء المدارس الواحدة فى أعقاب الأخرى فى خطة منظمة مرسومة . وكان أول مابدأ به تشييده مدرستين على عهد العاضد ، أولاهما مدرسة للشافعية بناها بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعى فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠م وقد عرفت بأسماء كثيرة ، المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفية ومدرسة ابن زين التجار الدمشقى أحد أعيان الشافعية ، وقيل إنه كان من أول من درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات فى عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م .

والمدرسة الثانية ، مدرسة للمالـكية بجوار جامع عمرو وذلك فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠م ، وعرفت باسم دار الغزل التى هدمها صـلاح الدين وعرفت بالمدرسة القمحية ، ثم وقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم اشتهرت بنتاج القمح ولذلك نسبت إليه ، ورتب فيها أربعة من المدرسين يشرف كل واحد منهم على عدة طلاب ؛ وكانت أجل مدرسة للفقهاء المالـكية .

وبعد وفاة العاضد ، وانتقال السلطة إلى صلاح الدين ، مضى الرجل العظيم فى تشييد المدارس ، فبنى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٨

مدرسة للفقهاء الحنفية ، أطلق عليها اسم المدرسة السيوفية ، شيدت ، إذ ذاك بدار الوزير الفاطمى المعروف باسم عباس العبيدى ، وهو ابن أحد الأمراء الفاطميين ؛ وقد خربت تلك المدرسة ، وحل محلها الآن جامع الشيخ مظهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل إلى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة .

وشيد صلاح الدين مدرسة الشافعية بجوار تربة الإمام الشافعى وقد حل محلها بعد هدمها فى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا مسجد الإمام الشافعى ، وقد قال الإمام السيوطى على تلك المدرسة :

« ينبغى أن يقال لها تاج المدارس ، وهى أعظم مدارس الدنيا على الاطلاق ، اشرفها بجوار الإمام الشافعى ، بناها صلاح الدين فى سنة ٥٧٢ هـ — ١١٧٦ /٧٧ م . فلما كانت سنة ٦٨١ هـ — ١٢٨٢م ولى التدريس بها قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين الحموى ، وكان العالم الكبير نجم الدين[1] الخبوشانى ممن درسوا بها فترة طويلة .

وشيد صلاح الدين المدرسة الصلاحية ، أنشأها للشافعية بجوار المشهد الحسينى ، ولم يبق منها شىء الآن ؛ وقد أصبح موقعها ضمن جامع الحسين فى الإيوان الشرقى عند المحراب الحالى للجامع .

تلك هى خمس مدارس بناها صلاح الدين فى مصر رغم اشتغاله المتواصل فى الحروب الكثيرة ضد الغزاة الصليبيين ، ويضاف إليها ما شيده منها بدمشق وبالقدس . ولقد ذكر ابن خلكان عدد المدارس التى بناها السلطان وقال :

« ولقد فكرت فى نفسى فى أمور هذا الرجل ، وقلت إنه سعيد فى الدنيا والآخرة ، فإنه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس شىء منها منسوباً إليه فى الظاهر ، فإن المدرسة التى بالقرافة ما يسمونها إلا بالشافعية ، والمجاورة للمشهد الحسينى لايقولون إلا المشهد ، والخانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء ، والمدرسة الحنفية لايقولون إلا السيوفية ، والتى بمصر الفسطاط ، لايقولون إلا مدرسة زين التجار ، والتى بمصر أيضاً مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة » .

هكذا رأينا أن إنشاء المدارس يرجع إلى صلاح الدين كما يعود إلى أحفاده أيضاً ، ذلك التحويل الذى أحدثه فى فن عمارة القاهرة . فإلى عصره كانت الجوامع كلها ذات تخطيط هندسى واحد ، والغرض منها تجمع المسلمين لصلاه الجمعة وسماع خطبتها ، وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وعند الازدحام فى مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم

---

(١) لما قدم الرحالة الأندلسى ابن جبير مصر فى عام ١١٨٣ ، قصد هذا الشيخ الجليل وزاره فى مسكنه وكانت شهرته قد وصلت إلى الأندلس .

وكان الأساتذة يستخدمون البوائك التى تحيط بالصحن لإلقاء تعاليمهم على تلامذتهم ، كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين ، فنرى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان فى القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهى : الأزهر ، والحاكم ، وابن طولون ، وعمرو ، يضاف إليها جامع الصالح طلائع ، وجامع الأقمر ، ولعدم العناية بهما آل مصيرهما إلى الخراب بعد وفاة منشئهما حتى جددا فى الأعوام الأخيرة .

فلما نقل صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه فى الشام ، أصبحت القاهرة مركزاً فى عالم الشرق لأوابد الآثار الفنية الإسلامية . وحسبنا أن نذكر مدارس المماليك : السلطان حسن وبرقوق والناصر ابن قلاوون الخ . فنجدها تختلف اختلافا بيناً من حيث نظام المساجد التى كانت موجودة ، وبخاصة من الناحية المعمارية وهى لم تسند على الأغراض الدينية كالمساجد الأخرى ولكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقتها وشكلها من الناحية المعمارية .

فبدلا من الصحن العريض المكشوف فى وسط الجامع حيث يجتمع المصلون ، أنشىء مربع صغير وكان فى أغلب الأحيان مسقوفاً بالخشب ، وأقيمت فى وسطه قبة أو منور — وبدلا من البوائك المحيطة بالعقود رأينا فى أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة ، وأحد هذه الأجنحة والذى بواجه الشرق هو الذى يتكون منه إيوان الصلاة ، وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة ، وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب : الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، وفى كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الإسلامية ، وفى غالب الأحايين كان الأساتذة والطلبة يسكنون فى هذه المدارس فى أماكن خصصت لهذا الغرض ، كما وجدت أيضاً قاعات للمكتبة وأخرى للدراسة .

وقد امتد نشاط بناء المدارس الدينية إلى أبناء صلاح الدين وأمرائه ، فشيد القاضى الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وأنشأ السلطان العادل المدرسة العادلية ، كما أقام تقى الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو التقوية للشافعية بجنوبى الفسطاط ، وقد أقام مدرستين أخريين بالفيوم ، هذا إلى المدارس الكبرى التى سنتكلم عنها كالكاملية والصالحية .

وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة ، ففى شارع بين القصرين بالقاهرة كان على جانبيه مدارس فى موضع القصر الفاطمى ، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها حوالى سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤م ثلاث عشرة مدرسة ، ثم تضاعف هذا العدد فى زمن المماليك ، لاسيما فى أخميم وقوص وإسنا وأسيوط وأسوان وبلبيس والمحلة ودمنهور ورشيد .

عود إلى الأحـــــداث

رأينا كيف جعل صـلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديرة بدولة عظيمة ، وحصنها بأعماله الدفاعية ومنشئاته الدينية فتزعمت ثقافة العالم الإسلامى . ولا بأس من أن نذكر شيئاً عن أخيه العادل سيف الدين الذى تولى العرش عام٥٩٦ هـ/١١٩٩ م بعد وفاة الملك العزيز يوسف ، ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين بإخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التى حاول أقاربه العـديدون تقسيمها ، واتفق مع الفرنجة على الصـلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين فى فلسطين وانسحابهم من مصر ، لـكنهم لم ينقطعوا عن محاربته فى سوريا ؛ ومع كل هذه المعارك التى خسرها لم تقلل شيئاً من هيبته .

لـكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النـكبة التى حلت بمصر فى السنة التالية من حكمه ، فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة فى عامين متواليين ، وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادى(١) وكان يزور مصر فى ذلك الحين لحضور الدروس فى الأزهر فقال : « يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى إلى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جداً بالموت وأكلوا الميتات والجيف والـكلاب والبعر والأرواث ثم قعـدوا على ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ، فـكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل ، من ذلك أن رأيت صغيرا مشوياً فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما ؛ ولقـد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفروا بها وهى تحمل طفلاً مشوياً تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم ؛ ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان قاما بقتله وشيه وأكل بعضه .

« وأحرق بمصر فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جواباً بل نجـدها قد خرجت عن الطباع البشرية ثم ماتت» .

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون دفن ، وانتشر الطاعون ، وكان متوسط عدد موتاه فى الاسكندرية لا يقل عن سبعمائة نفس يومياً ، وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسور

---

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، وهو يصف أحوال مصر فى القرون الوسطى .

تحوم حول الجثث وتلتهمها على مرأى من المارة فى المدينة وخارجها وفى طرق القوافل ، فلما نقص عدد السكان انخفض إيجار البيوت إلى سبع ثمنها الأصلى .

وجاء « جون دى بريان» على رأس جيش كبير من الصليبيين ، وعسكروا تجاه فرع دمياط الغربى وظلوا فى مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨ — ١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل أنه مات فى بدء غارتهم فخلفه ابنه الملك الكامل (٦١٦ — ٦٣٥ هـ — ١٢١٨ — ١٢٣٧ م) فقاوم الصليبيين مدة وكانوا فى ذلك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط براً وبحراً ، وكانت سنة شديدة الوطأة على المسلمين. وفى يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدخلوها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل أمام طلخا ليمنع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم إلى المنصورة فى نحو مائتى ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس ، فأمر الكامل بأن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر ، فاجتمع أناس لا يقع لعددهم حصر وأتته النجدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى ؛ فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم بالمنصورة وتتابع مجىء الملوك حتى بلغ عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين براً وبحراً حتى تضعضعت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل فى الصلح ليخرجهم من بلاده ، وعرض عليهم مناطق كبيرة فى فلسطين ، وبعد مفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من مصر بدون مقابل ، فسار الصليبيون إلى دمياط وسلموا إلى المسلمين فى ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ/١٢٢٠م، ودخل الملك الكامل دمياط بإخوته وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها يوم احتفال عظيم ، ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالى التى مرت لملك من الملوك . ثم عاد لمقر ملكه فى القاهرة وانتقل من دار الوزارة التى كانت فى ذلك العهد منزلا للخلفاء وسكن القلعة فى الجبل ، وإليه يرجع الفضل فى إتمام بنائها وأنشأ بها الدور السلطانية .

وأهم أعماله العظيمة دار الحديث الكاملية التى أنشأها بين القصرين فى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى داراً الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين، ثم أخوه عمر وما برحت فى يده أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦هـ — ١٤٠٣م فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء فى أمسيات أيام الثلاثاء .

ولم يبق من دار الحديث الكاملية اليوم سوى بقايا الإيوان الغربى وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفى إلى متحف الفن الاسلامى، ويرى بعض علماء الآثار أنها أقدم نموذج لطراز تخطيطها لمدرسة ذات الإيوانين .

وبعد وفاة الملك الكامل أعلن ابنه الملك العادل الثانى سلطاناً على مصر ، ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ؛ وقد كرهه الأمراء لصغر سنه ، ولانغماسه فى الفجور وتبديده أموال الدولة بمشاركة رفقاء السوء . ومنازعات

هذا السلطان كثيرة لا تتسع لها صفحات الكتاب ، ويمكن القول بأن انحلال الدولة الأيوبية بدأ فى أيامه ، وانتهز الصالح نجم الدين أيوب شقيقه وابن الكامل الفرصة واستطاع عن طريق تدبير المؤامرات والدسائس أن يعمل لحساب نفسه ويضم الناصر يوسف أمير حلب إلى جانبه وكان هذا أصر على عدم الاعتراف بسلطان مصر العادل الثانى ، وبدلا عن ذلك وثق علاقته بالسلطان السلجوقى كيخسرو .

وكان الصالح أيوب قد غادر حصن كيفا إلى ابنه توران شاه وانتقل إلى دمشق فى ١٢٣٨ وعمل على إحداث الشقاق والفرقه فى جيش أخيه العادل الثانى ، فانضم إليه عدد كبير من الأمراء المصريين . وفى أعقاب عدة أحداث فى سوريا ومصر ، خلع العادل الثانى وتولى الصالح أيوب الحكم ، وتعرض منذ ذلك الحين لمامرات خطيرة ، وفى سبيل توطيد مركزه قام الصالح بتطهير الجيش من العناصر المتمردة وأحل مكانها طائفة من المماليك الترك الموالين له ، ومع ذلك فإنه لم يطمئن على حياته ، وعزم على ألا يقيم بالقلعة واختار جزيرة الروضة لتكون مقراً له . وفى ٢٠ فبراير سنة ١٢٤١ شرع الصالح فى بناء قلعة بالروضة ، فنزع ممتلكات السكان المقيمين بها ، وأمر بتدمير كل ما بها من الدور والمساكن ، ثم شيد له بها قصراً وأحاطه بسور ، ثم انتقل السلطان بحريمه ومماليكه بعد الفراغ من البناء ، فأقاموا بهذه الدور الجديدة التى تكلف بناؤها أموالا طائلة ،

وبالرغم من الانقسام الشديد بين أمراء سوريا ومصر ، فقد توج السلطان أعماله بأن أعطى الصليبيين درسا قاسيا ، فهاجم الجيش المصرى طبرية واستولى عليها ، وخرب ما أقامه الصليبيون بها من حصون ، ثم احتل عسقلان ودمر أسوارها (١٢٤٧) . ولما فرغ السلطان كان يعانى مرضا خطيرا فى حنجرته ، تطلب نقله فى محفة إلى القاهرة ، ومع ذلك فإنه لم ينس أن يأمر بإعدام شقيقه العادل الثانى فى سجنه(١) .

وصلت حملة لويس التاسع إلى دمياط (يونيو ١٢٤٩) وكان المرض قد اشتد على الصالح ، فلم يستطع أن يقود الجيش ، فعهد بالقيادة إلى وزيره فخر الدين وطلب إليه الاسراع إلى دمياط كما يحول دون نزول الصليبيين إلى البر ، واتخذ الصالح مقر قيادته فى أشمون طناح شرق فرع دمياط .

بدأ نزول الصليبيين إلى الشاطئ فى ٥ يونيو ١٢٤٩ ، فنشبت معركة حامية على شاطىء البحر لمنعهم من النزول إلى البر على الضفة الغربية من النهر ، غير أن فخر الدين انسحب بجنوده واجتاز جسرا من السفن إلى دمياط ، ولم يلبث أن قرر الرحيل منها بعد أن تبين له أن الأحوال ساءت فى دمياط ، وهجر السكان المدينة وتلاهم بعض أفراد الجيش من بنى كنانة بعد أن أشعلوا النار فى الأسواق ، غير أنهم لم يدمروا الجسر الذى يصل بين ضفتى النيل ، ولم يلبث أن ملكها الصليبيون ، بعد أن تبين لهم خلوها من المقاومة . وهنا

---

(١) السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، من مجموعة الألف كتاب ، ص ١٢٨ ، مطبعة الكيلانى . القاهرة .

فزع المسلمون لسقوط دمياط وقرر الصالح أن ينتقل إلى موضع بالقرب من المنصورة ، على أن المرض قد اشتد به ويئس رئيس الأطباء من شفائه ، ولم يلبث أن قضى نحبه بالمنصورة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩) .

* * *

لما مات الملك الصالح تواطأت إحدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الخصيان على مبايعة ابنها ، وكتمت أمر موت زوجها ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة « إن السلطان يأمركم أن تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير فخر الدين اتابكا لإدارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هي دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجيبة .

وكان الصليبيون يتقدمون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية ، واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الأمير فخر الدين ، لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديدا ، وانتهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربي فارسكور ، فاستلحموهم وأثخنوهم قتلا ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار رجال جيشه ، كان هذا نصر المنصورة العظيم ضد الغزاة .

وتمكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين أيبك » وكان من أعظم الأمراء والمماليك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لقبت بعصمة الدين أم خليل في ١٠ صفر ٦٤٨ هـ — ولو أن خليل هذا كان ميتا — ونقشت اسمها على النقود « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين ، وعينت عز الدين أتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسي من يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول : « من بغداد لأمراء مصر : أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال لا يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ولما استمسك مماليك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل إلى وقائع حربية ، تمكن في اثنائها عز الدين أيبك من الاستقلال عن صديقته وأكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بويع عز الدين أيبك على مصر في سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي ، وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدري أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد ، فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها ، وفي الواقع كانت هي المدبرة الحقيقية لشئون الدولة وأخيراً اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل ، وخافت أن تحل هذه الزوجة الثانية محلها فوافقت على الكيد به بعد أن تزوج الأميرة .

وفى ذات يوم ضايقته فنزل من القلعة وهو غاضب ، فبعثت تتلطف به حتى عاد إلى القلعة فلاقته ، وقامت إليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء ، فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع إلى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ، ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف فقام أيبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فأغلظ لها بعض الخدم فى القول وقال لها « إن تركناه فلايبقى عليك ولا علينا » فقتلوه فى الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاولة الحكم بنفسها خوفا من الإيقاع بها فعرضت زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنه ١٥ عاما . وأقام « أيبك » فى خلال حكمه بنايات عظيمة وفى جملتها مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل فى مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصا للنفقة عليها ، وكان أعدل من قام من ملوك المماليك بقلعة الجبل .

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأماتوها فى البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها فى خندق بالقلعة ، وكان ذلك على مرأى من « ضرتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقى فى قبتها ، أما المنصور نور الدين فلم يحكم إلا مدة سنتين وفى أيامه هجم « هولاكو » التترى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر ، ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر ، ثم بدأ حكم المماليك البحرية .

المجتمع العامى فى أيام الأيوبيين

أهم ما نلاحظه فى ذلك العهد ، ازدهار الصوفية ، وفى طليعة شعرائها — العارف بالله عمر بن على ابن مرشد ، الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة — بن الفارض[١] (١١٨١هـ — ١٢٣٥م) وقد مات فى الثالثة والخمسين من عمره ووورى التراب فى سفح المقطم ، وظل شعره — ولايزال — مرويا يتغنى به محدثو الصوفية ، بل وتوافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين أمثال فون هامر ، ودماتيو ، ونالينو ، ونيكلسون الذى ترجم الكثير من قصائده إلى الانجليزية ، وقصيدته التائية الكبرى تعبر عن صوفية ابن الفارض ومطلعها :

نعم بالصبا قلبى صبا لأحبتى ... فياحبذا ذاك الشذى حين هبت
سرت فأسرت للفؤاد غدية ... أحاديث جيران العذيب فسرت[٢]

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان . جـ ١ ص ٤٨٣ . شذرات الذهب جـ ٢ ص ٧٤١ .

(٢) ديوان ابن الفارض ـ مطبعة حجازى بالقاهرة . ص ١٦ — ٢٣ .

فيها زهاء سبعمائة وخمسين بيتاً ، وهى ليست من العيون الفريدة فى الأدب العربى فحسب ، ولكنها ذات شأن عظيم فى دراسة التصوف الإسلامى .

ويصور ابن الفارض فى قصيده ما يصوره شعراء الصوفية من حب الله وعشق الخالق فى حالات قد يكون فيها توفيق — لا ما يقولونه من « تجلى » أو غيره من التعابير – ويكفى قصيده قيمة أنه يكشف لنا الكثير من غوامض معتقدات الصوفية فى ذلك العصر .

وممن كان لهم شأن عظيم من شعراء مصر محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى نحو عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦م) . وبالرغم من استناد شهرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة فإنه قد بذجل أقرانه[١] . فما لانزاع فيه أن قصيدته بردة المديح المباركة (١٥٩ بيتا) هى أصلح أنموذج للقصيد الدينى – الأمر الذى جعلها مادة للترجمة لعدة لغات ، ووضعت على هامشها طائفة من التعليقات . ولعل الأبيات التالية التى تأتى فى مطلعها تنم عن الروح الدينية المنبعثة فى النفوس ومازالت أبياتها تنشد فى الجنازات وتكتب فى التعاويذ حتى اليوم :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من أضم

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين منسجم منه ومضطرم

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم

فكيف تنكر حبا بعد ماشهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم

* * *

وتوفى عطاء الله الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية ، الذى ولد فى مراكش غالبية حياته فى مصر حيث أدركته المنية فى عام ١٢٥٨ م . وفى طليعة شعراء الصوفية المصريين «ابن وفا[٢]» الذى استهل حياته فى القاهرة (عام ١٢٥٧ م). كما يتسنى أن نذكر فى هذا السياق أيضاً مؤلفاً صوفيا هو الشعرانى أو الشعراوى

---

(١) كان من تلاميذ أبى العباس المرسى فى التصوف . راجت قصائده رواجا كبيرا بين الشعب وخاصة البردة والهمزية لأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهال وتجاوبان مطالب نفسه .

(٢) هو العلامة العارف بالله محمد بن أحمد بن محمد بن النجم محمد فتح الدين أبوالفتح الاسكندرى الأصل القاهرى المولد المالكى الشاذلى . ولد تقريباً فى سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ومات بالروضة ٨٥٢هـ – الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

الذى ولد فى قلقشندة ـ قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما إلى قرية أبيه ساقية أبى شعرة من أعمال المنوفية والبها انتسب[١] . ومما ينبغى ذكره أن مؤلفاته تربو على الخمسين ، بعضها فى تاريخ حياة بعض كبار الصوفية .

وقد بلغ الصوفية أوج عزهم فى مصر أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوفير من البيوت التى شيدت لهم والتى تعرف باسم الخوانك . وعلى رأسها الخانكاه الصلاحية التى فتحها صلاح الدين للفقراء الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد ، ورتب الأوقاف للإنفاق عليهم (خطط المقريزى ج ٢ ص ٤١٥ وما بعدها) .

وفضلا عن هذا ، فقد لاح فى سماء الشهرة نفر من كبار كتاب الرسائل ونفر غير قليل من الشعراء الذين مافتأ الناس يعجبون بدواوينهم . نذكر من بينهم البهاء زهير المتوفى فى عام ١٢٥٨ والذى نشرت مجموعة من قصائده مع ترجمة انجليزية لها بقلم هـ . بالمر المستشرق الكبير فى سنة ١٨٧٦ [٢] .

ونذكر من شعراء مصر سراج الدين الوراق (١٢١٨ - ١٢٩٦) وهو شاعر مكثر ملأ شعره كثيراً من الكتب التى تعرض للنماذج الشعرية ، وقد عمل فى الديوان المصرى .

---

(١) هو الإمام العلامة عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى ـ دخل القاهرة سنة ٩٥١ وتوفى بها سنة ٩٧٣ ودفن بزاويته المعروفة بين السورين ـ راجع كتاب الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ـ وشذرات الذهب ج ٤ ص ٨٠٩ ـ طبقات الشافعية للشرقاوى ـ ومعلمة الاسلام ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٢) الوزير الشاعر الصاحب زهير بن المهلبى المولود بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٦ هـ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعى . راجع ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٥ ، وفى المنهل الصافى ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ .

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

١ — ابن جبير (١١٨٣)

كان ابن جبير الرحالة المغربي واحدا ممن وصفوا لنا الإسكندرية والقاهرة ومدنا أخرى على أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد ترك لنا وصفاً شيقا وممتعاً لمجتمعات تلك المدن وعلمائها ومساجدها ومدارسها.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ودرس على أبيه وغيره من علماء الدين في سبته وغرناطة ، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبدالمؤمن صاحب غرناطة . وقيل أن هذا الأمير استدعاه يوما ليؤلف فيه كتابا وهو في مجلس شرابه ، وحدث أن دفع إليه كأساً من النبيذ ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط ، فقال الأمير : والله لتشربن منها سبعا، فلم يستطع إلا الإذعان وكافأه الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره ، وانصرف ابن جبير ، وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيرا عن ذنبه في شرب النبيذ ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر ، وباع عقارا له تزود به .

وترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسام ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣م) إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) وعبر البحر من هناك إلى سبتة ، فألفى بها سفينة للجنوية ، مقلعة إلى الإسكندرية فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) وسارت السفينة عبر الزقاق (جبل طارق) مساحة شاطىء الأندلس حتى ثغردانية ، ثم مرت غربا فمرت بجزيرة ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطرأ عليها قبالة ساحل سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أتت ، ثم استطاع ربانها أن يصل بها إلى الشاطىء ، ثم أقلعت المركب إلى صقلية وأرست على شاطئها ، ثم فارقتها واتجهت غرباً حتى حاذت ساحل جزيرة اقريطش ، واستقرت السفينة أخيرا عند الاسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس ١١٨٣)[١] .

طاف ابن جبير بالاسكندرية ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه . وشاهده بقايا العمائر البطليموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء كما لاحظ كثرة المساجد بالاسكندرية بحيث كانت منهـا الأربعة ، والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض ، ثم رحل ابن جبير عن الاسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ ابريل ١١٨٣) إلى القاهرة[٢] .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ص ٥٤ القاهرة ١٩٣٩
أنظر أيضاً زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٧٠ — ٨٨ .

(٢) رحلة ابن جبير : تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

يقول ابن جبير :

« ... وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسمة ، وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر فى يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة ٥٧٨ هـ والسادس من أبريل ١١٨٣ عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته إنه على ما يشاء قدير ، وفى يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثانى من النيل فى مركب تعدية أيضاً بموضع يعرف بدجوة ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشناء فى زقاق القناديل بقربة من جامع عمرو بن العاص فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

أقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار فى أثنائها معالمها الرئيسية وآثارها ومدارسها ، تلك التى يقول الرحالة المغربى عنها : —

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى ببركتها يمسكها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما[1] وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الادراك به ، مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أتوار فضة[2] خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح[3] ذهباً فى مصنع[4] شبيه الروضة بقيد الأبصار حسناً وجمالاً فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ، ومن أعجب ما شهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص[5] يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندسية الحديثة الصقل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجماد والأمر فيه ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . وإنما وقع الإلماع[6] بنبذة من

(١) قيل أنها رأس زيد بن على ابن الحسين . المقريزى ج ٢ ص ٤٣٦

(٢) أتوار جمع تور ، وهو الشمعدان (٣) التفافيح جمع تفاحة ويعنى هنا الكرات .

(٤) المصنع هو القصر أو الحصن (٥) البصيص هو البريق واللمعان .

(٦) الالماع هو الاشارة .

صفته يستدل على ما وراء ذلك أن لا ينبغى للعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن فى الوجود كله مصنعاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه . وفى ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة ، وهى أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد :

مشهد الإمام الشافعى (رضه) ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً ، وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى(١) . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأنقاً ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ، فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه ، ولقينا هذا الرجل الخبوشانى المذكور تبركاً بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه فى مسجده فى القاهرة وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه ... وفى القرافة المذكورة مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والأجر على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك . وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرية فى كل يوم تنفق فى مصالحه ومرتبات قومه وسدنته وأئمته والقراء فيه ، ومما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة ، إلى مساجد عدة . وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى يجمع فيها الدعاء للصحابة (رضهم) وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى (صلعم) ولعميه الكريمين حمزة والعباس (رضهما) ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتتفجر العيون الجامدة ، ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية . وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب(٢) أسود وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً ، وعند صعوده المنبر يضرب بنصل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرون كأنها إيذان بالإنصات وفى توسطه أخرى وفى انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالا ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا فى أعلى المنبر ، ودعاؤه فى هذا التاريخ للامام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الإمام محمد الحسن المستضىء بالله بن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لحمى دولته أبى المظفر يوسف

---

(١) الخبوشانى هو أبو البركات محمد بن الموفق توفى ٥٧٨ هـ

(٢) الشرب نوع من الحرير اشتهر كثير من مدن مصر بنسجه .

ابن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين[١] . وشاهـدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، ينقر بالمعاول نقراً فى الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار : العلوج[٢] الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان . المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ، وعين قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم ، وبإزاء الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بينه وبين مصر والقاهرة ، المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنون ويحلقون فيه . وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم ، أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم ، فقدموا من نفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ، ويلزم السكنى فيها تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال ، ومن مآثره الكريمة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بعمارة محاضر[٣] لزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم . ومن مفاخر السلطان صلاح الدين وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدىء من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال منها بعد حتى تصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة تصله بالصحراء التى تفضى منها إلى الاسكندرية ، له

---

(١) الملك العادل.

(٢) العلوج جمع علج وهو الرجل من العجم .

(٣) المحاضر هنا هى المدارس .

فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ، إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه . ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الانذارات الحدثانية[1] ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين[2] عليها وعلى الجهات الشرقية ، والله أعلم بغيبه ، لا إله سواه .

الاهرام وأبو الهول :

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة — الأهرام — القديمة ، المعجزة البناء ، الغريبة المنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها فإنهما يغص الجو بهما سمواً ، فى سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثانى ، ثلاث مئة خطوة ، وست وستون خطوة ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة . وركبت تركيباً هائلا ، بديع الالصاق ، دون أن يتخللها مايعين على إلصاقها ، محدودة الاطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة فلم يعلم شأنها إلا الله عز وجل . ولأحد الكبيرين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبراً . وطوله نحو ذلك . وفى جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة ، شبه التى تسميها العامة البيلة[3] ، يقال : أنها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك . ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثانى مئة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ، وثلاثة متصلة ، والاثنان على مقربة منها متصلان . وعلى مقربة هذه الاهرام بمقدار غلوة[4] صورة غريبة من الحجر ، قد قامت كالصومعة ، على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه إلى الأهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل ، تعرف بأبى الهول .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضى الله عنه . وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعة للمالكيين . وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها ، وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين[5] وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة . وأكثرها الآن مستجد والبنيان

---

(١) نسبة إلى حدثان الدهر ، وهى حوادثه وتقلباته .

(٢) الموحدون هم الأسرة التى حكمت المغرب من ٥١٥ — ٦٦٨ هـ واستولت على الأندلس أيضاً .

(٣) البيلة هى حوض النافورة .

(٤) الغلوة هى المدى الذى يذهبه السهم حين يرمى به .

(٥) العبيديون هم الفاطميون .

بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ، ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف .

الجيزة والروضة :

وعلى شط نيلها ، مما يلي غربيها — والنيل معترض بينها — قرية كبيرة حفيلة البنيان ، تعرف بالجيزة . لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة ، تجتمع إليها . ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان ، وعلالى[1] مشرفة . وهى مجتمع اللهو والنزهة وبينها وبين خليج من النيل ، يذهب بطولها نحو الميل ، ولها مخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة . واستشعار ابتدائه فى شهر يونيو ومعظم انتهائه أغسطس[2] وآخره أول شهر أكتوبر . وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه ؛ وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، مقسمة على أربعة وعشرين قسما ، تعرف بالأصابع . فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام . وربما كان الغامر منه أكثر بعموم الفيض . والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً ، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة ، والذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ، ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم . والزيادة فى أقسام الذراع المذكورة ، ويعلم بها مياومة ، حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها . وإن قصر عن ست عشرة ذراعاً ، فلا مجبى للسلطان[3] فى ذلك العام ، ولا خراج .

وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار رضى الله عنه ، وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها التماسيح ، فيقال : إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلى البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلا . والله أعلم بحقيقة ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة[4] من الله تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكراً جميلا للدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط

---

(١) العلالى جمع عليه ، وهى الغرفة فى أعلى الدار .

(٢) أغسطس .

(٣) المجبى : جباية الضرائب .

(٤) المقربة .

فى استبدائها عنتاً مجحفاً ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنـده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار ، من الدنانير المصرية ، التى هى خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس . ومن يعجز عن ذلك ، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب . فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه ، لمن لم يؤد عكسه « بعيذاب » ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها . وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثاً عظيما وخطباً أليما ، فترتب الشكر له على كل من يعتقـد من الناس أن حج البيت الحرام إحـدى القواعد الخمس من الإسـلام ، حتى يعم جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له فى كل صقع من الأصقاع ، وبقعة من البقاع ، والله وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملا . إلى مكوس كانت فى البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس ، فضلا عما سواه : فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ، أن الناس فى بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على مثـل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره .

شهر محرم سنة تسع وسبعين ، عرفنا الله . يمنها وبركاتها .

استهل هـــلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مرامنا .

ثم رحل ابن جبير إلى الصعيد فى يوم الأحد السادس من محرم المذكور قاصـداً إلى « قوص » ماراً بأسيوط وأبو تيج وأخميم . الخ .

٢ — موفق الدين عبد اللطيف البغدادى بالقاهرة

(١١٩٤ — ١٢٠٤)

طبيب عالم ورحالة ، موصلى الأصل بغدادى المولد ، ولد بدار جده فى درب الفالوذج ببغداد فى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) حفظ على أبيه القرآن وشيئاً من الحديث ومختصراً فى الفقه وآخر فى اللغة . ولما ترعرع أرسله أبوه إلى المدرسة النظامية ليتلقى العلم على شيخ بغدادى إسمه كمال الدين عبد الرحمن الانبارى ، لكنه لم يكن قادراً على تفهم أحاديث كمال الدين لصعوبتها عليه ، وأمر هذا الشيخ أن يذهبوا به إلى تلميذه الوجيه الواسطى بالمدرسة الظفرية ، وكانت هى المدرسة التحضيرية للنظامية .

أحب الواسطى تلميذه عبد اللطيف فصار يوجه إليه الكلام والسؤال عند شرح الدروس ، وكان عبد اللطيف يقود شيخه الضرير إلى داره ويطالع له فى الكتب ويحفظه ما يريد حفظه وبعد ذلك يأخذه إلى شيخه كمال الدين ليشرح له ما حفظ .

ولما تقدم وأنس من نفسه قوة الفهم والحفظ ترك المدرسة الظفرية والتحق بالنظامية ، ولما توفى الشيخ كمال الدين كان عبد اللطيف أتم برنامج المدرسة النظامية . ثم التحق بمدرسة دار الذهب ليدرس الفلسفة والحساب على عميدها ابن فضلان ، ولما انتهى مما تاقت نفسه إليه دخل كلية الآداب (مدرسة رباط المأمونية) وكان عميدها ابن الخشاب ، فحضر عليه الحديث . وتصادف أن جاء إلى بغداد من المغرب الشيخ الجليل ابن تاتلى من الملثمين ، وكان عالماً بالرياضيات والكيمياء والفلسفة ، فالتفت حوله شبيبة بغداد ، وحضر عليه عبد اللطيف دروسه ، فدرس كتب الغزالى وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية .

يقول عبد اللطيف فى سيرته عن نفسه ، « ولما كان فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتى ، لكن وجدت الكمال ابن يونس جيداً فى الرياضيات والفقه ، متطرفاً من باقى أجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها . وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التى تحتها ، وأقمت بالموصل سنة فى اشتغال دائم متواصل ليلا ونهاراً » ...

رحل عبد اللطيف من الموصل بعد ما أقام بها سنة كاملة إلى دمشق والتحق بكلية الطب فيها ، ودرس كتب أرسطاليس ومؤلفات جالينوس ، وبعد ذلك تاقت نفسه إلى مصر وكان قصده بها الاجتماع بياسين السيماوى ورئيس الأطباء موسى بن ميمون وأبى القاسم الشارعى ، فسافر من دمشق إلى عكاء حيث كان معسكر السلطان صلاح الدين الأيوبى وقتها ، وهناك قدم نفسه إلى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر

صلاح الدين فأكرمه ، وأخذه إلى العماد الكاتب ، فلما دخل عليه (العماد) وجده يكتب كتابا بالثلث إلى الديوان بغير مسودة ، فابتسم العماد وقال :

إن هـذا كتاب إلى بلدكم ، ثم أخذه من يده ليقدمه إلى القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وهو عبد الرحيم البيسانى .

ولما دخل عبد اللطيف مع العماد الكاتب ، على القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى رآه يكتب كتاباً بيده ويملى كتابين على كاتبين كانا أمامه فى وقت واحد وكان يحرك شفتيه وعضلات وجهه على الدوام حرصاً على الكلام ؛ وبعد أن سلم عليه أمره بالجلوس فجلس عبد اللطيف وأخذ القاضى الفاضل يمتحنه ، فسأله عن جواب (إذا) فى قوله تعالى: « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » ثم سأله عدة أسئلة أخرى ، جاوب عليها عبد اللطيف بما سر منه القاضى الفاضل فأمر له بوظيفة فى دمشق ، فقال عبد اللطيف ، أريد السفر إلى مصر ، فأجابه أن السلطان صلاح الدين مشغول القلب بسبب أخذ الإفرنج عكاء وقتلهم المسلمين . فقال عبد اللطيف » أريد يامولاى السفر إلى مصر . فأخذ القاضى الفاضل ورقة صغيرة ، وكتب عليها جواب توصية إلى وكيله وهو ابن سناء الملك .

أخذ عبد اللطيف الجواب وسافر إلى القاهرة وبعث به لابن سيناء الملك ، فجاءه فى الحال إلى الخان الذى نزل فيه ، وقدم له داراً أزيحت عللها ودنانير وغلة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال هـذا ضيف القاضى الفاضل، فدرت عليه الهدايا والصلات من كل جانب حتى أصبح من المثرين ، ثم عرض ابن سناء الملك الوظائف على عبد اللطيف ؛ فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الوائع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات ويؤلف كتبه .

ثم رأى عبد اللطيف أن يلتقى بالرجال الذين جاء إلى مصر من أجلهم ، فقصد الشيخ ياسين السيماوى فوجده مشعوذا سحاراً ، ولم ترق أعماله لدى عبداللطيف . ثم ذهب إلى رئيس الأطباء موسى بن ميمون ، فوجده عالماً متيناً وطبيباً قديراً ترجم كتب جالينوس وألف بالعبرانية كتاباً فى العقائد ، وقد تردد عليه عبد اللطيف كثيراً وحضر عليه .

وبينما كان عبد اللطيف يلقى دروسه بمدرسة مسجد لؤلؤ الحاجب ، دخل عليه شيخ رث الثياب مهيب الطلعة قام له الطلبة ، ومع ذلك لم يلتفت عبد اللطيف إلى الشيخ ، بل استمر فى الدرس إلى آخره ، ثم تقدم إليه إمام المسجد وقال له إن الشيخ القادم عليكم هو أبو القاسم الشارعى ، فتقدم إليه عبد اللطيف وعانقه وقال له : « لأجلك جئت مصر وأخذه معه إلى داره وأكرمه . وكان كثير الاجتماع به ، ووجده . كما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته » .

أقام عبد اللطيف بمصر وهو موضع إكرام علمائها ورؤسائها ، حتى بلغه أن السلطان صلاح الدين هادن الأفرنج وأنه فى القدس ، فسافر إليه بعد أن أخذ معه من مصر مجموعة من أنفس الكتب القديمة

ودخل عليه فرآه فى مجلس حافل بالعلماء والأمراء ، وكانوا يتحادثون فى مختلف العلوم ، وصلاح الدين يسمع قولهم بكل إصغاء ، رآه عبد اللطيف ذات مرة يحمل على كتفه الحجارة والتراب فى بناء سور القدس وحفر الخندق حوله ، ويعمل معه القاضى الفاضل مع ضعفه ، والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد وغيرهم .

وأمر صلاح الدين بتعيين عبداللطيف أستاذاً بالجامع الأعظم بدمشق ورتب له ثلاثين ديناراً فى الشهر ، ولما سافر إلى دمشق ورآه الأفضل بن صلاح الدين وقدر علمه ، رفع ذلك المرتب إلى مائة دينار فى الشهر .

وبعد فترة توفى صلاح الدين فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣) فحزن الشعب عليه وأقام عبد اللطيف فى منصبه بدمشق إلى أن جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر بعساكره المصرية وحاصر أخاه الأفضل ، وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ — ٩٩ م) .

استمر عبد اللطيف بالقاهرة إلى ما بعد المجاعة الكبرى التى داهمت مصر وأعقبها ذلك الفناء الكبير ، وحكمها العادل أبو بكر أيوب شقيق صلاح الدين ، وفى تلك الفترة ألف عبد اللطيف كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وقد ذكر أنه انتهى من تأليفه فى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م . ويعتبر الكتاب وثيقة هامة لشاهد عيان رأى بعينه أحداث مصر أثناء حكم أسرة الأيوبيين .

رحل إلى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد خلالها على الجامع الأقصى وصنف هنالك كتباً كثيرة . وفى عام ٦٠٤ (١٢٠٧هـ/٨م) رحل إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية واشتغل بالتدريس وتميز بها فى صناعة الطب وصنف فيه كتباً كثيرة . وأخيراً غادرها إلى حلب ليبدأ رحلته فى الأناضول وأقام بها عدة سنين ثم عاد ثانية إلى حلب وعين شيخاً لمسجدها الجامع ، وقد أتم فيها كتبه ، وعزم على أن يرفعها إلى الخليفة العباسى ببغداد الناصر لدين الله ، فسافر إلى بغداد بعد غيبة خمس وأربعين سنة يحصل العلم ويخدمه فاستقبله الخليفة بما يليق بقدره وعلمه .

وبينما كان يجهز نفسه لأداء فريضة الحج ، مرض ثم وافته المنية وكان ذلك يوم الأحد ١٢ محرم ٦٢٩ هـ (١٢٣١م) ودفن بالوردية عند أبيه .

* * *

إن أهم ما وصل إلينا من مؤلفات البغدادى كتاب « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ويتضمن هذا الكتاب وصفاً مسهباً لأحوال وادى النيل فى نهاية القرن السادس أى حوالى عام ١٢٠٠ (١) ، وقد تنبه عبد اللطيف إلى قيمة الآثار وأهميتها التاريخية وضرورة المحافظة عليها ، ولكنه ذكر فى كتابه أن العامة من المصريين فى عصره كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام ويدخلون

---

(١) طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

إلى المقابر بحثاً عن الكنوز وسعياً وراء الذهب المدفون مع الموتى ، والغريب أن البغدادى استطاع أن يصف آثار مصر وصفاً دقيقاً ، وأن يكتب عن المقابر الأثرية وما فيها من كتابات أثبتت صحتها أبحاث علماء الآثار فى العصر الحديث .

قال عبد اللطيف عن الأبنية فى مصر :

... وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خاليا عن مصلحة ودورهم أقبح ، وغالب سكناهم فى الأعالى ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً فيه باذاهيج[1] وباذاهيجاتهم كبار ، واسطة للريح . عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام ، حتى أنه يقدم على عمارة الواحد منها ماية دينار إلى خمس مائة وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، ويبنون بالحجر النحت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف إلى المعين ، فتمر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح ، وإذا أرادوا بناء ربع أو داراً وقيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد إلى العرصة وهى تل تراب أو نحوه فيقيسها فى ذهنه ويرتبها بحسب مايقترح عليه ثم يعمد إلى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد إلى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل .

وأما حماماتهم ، فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومخبراً . فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطتا فيه جرى منه الى الحوض الكبير ، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وسائرة فى عمقها . ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب وفى المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لايختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم ، وهذا المسلح بمقاصيره حسن القمة مليح البنية ، وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذوا دارا لسلوكه وتباهى فى ذلك لم تكن أحسن منه .

ثم تكلم عبد اللطيف بعد ذلك عن مستوقد الحمام ، فقال إن فيه بيت النار ، وهو فرن فرشت أرضه

---

(١) الباذاهيج هى المناور العلوية التى تنشأ فى سطح الغرف العليا .

بالملح[1] عليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص وتتصل هذه القدور من أعاليها بأنابيب فيدخل المـاء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ، ومنها إلى القدر الأولى فيـكون بارداً ، ثم يجرى منها إلى القدر الثانية ويكون قد سخن قليلا ، ومنها إلى الثالثة فيسخن أكثر ثم إلى القدر الرابعة ، فيتناهى فى الحرارة ، ثم يخرج من الرابعة إلى مجارى الحمام ، وقد امتدح عبد اللطيف هـذه الطريقة فى تسخين المـاء ، والواقع أنه أعجب بكل ما شاهد فى القـاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة .

ووصف البغدادى أهم الأطعمة فى القـاهرة ، ورأى القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون اليه الفستق أو الجوز أو الخشخاش ويسمونه الفستقية أو الجوزية أو الخشخاشية . أما الحلوى فـكثيرة ولهم مهارة في صناعة المربى وسماها الخبيص وأقراص البنفسج والورد وغيره . وذكر أنه بدمياط يأكلون السمك ويطبخون به كل مايطبخ باللحم عادة ولا سيما مع الأرز .

٣ — ابن سعيد فى القاهرة

(٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م)

وصف ابن سعيد مدينة القاهرة فى « كتاب النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة » من « المغرب » :

هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغى أن تـكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ماعاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، وخطب له فى البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة وفى تلة (؟) وفى المدينة وبلاد اليمن وماجاورها وعلت كلمته . لاسيما وقد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية التى إلى جانب القيروان ، وكانت من أعظم المدائن ، وعاين المهدية مدينة جده عبيد الله المهدى ، لـكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهى ناطقة إلى الآن بألسن الآثار .. والمـكان الذى يعرف فى القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك مساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولـكن ذلك أن قليل ، ثم تسير منه إلى أن ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان فى ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو فى موكب جليل وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ؛ وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد

---

(١) الملح فى طبيعته حفظ الحرارة .

يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم . وأكثر دروب القاهره ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها . . . . الخ » .

ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منهـا فى ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صـدرى ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظـاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدراً بما تثيره الأرجل من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر رفاقى من الحض على العود إليها .

يقولون سافر إلى القـاهرة ومالى بهـا راحـة ظـاهرة
زحام وضيـق وكـرب وما تثـير بها أرجـل السائرة

وعند ما يقبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً وجواً مغبراً فتنقبض نفسه ويفر أنسه ، وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة . وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطـان أن يركب فيها بالليـل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيـكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بهـا المنـاظر كالأهـداب للبصر
فـكأنمـا هى والأبصـار ترمقهـا كواكب قـد أداروها على القمـر

والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء .

ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهى حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، لهن فى الطبخ صناعة عجيبة . وفى القاهرة أزاهير كثيرة وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه والرمان والموز والتفاح ، وأما الأجاص (الـكمثرى) فقليل غال وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والنرجس والنسرين واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصـفر . وأما العنب والتين فقليل غال ، ولـكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيـل لا يصل منه إلا القليل ومع هـذا فشراؤه عنـدهم فى نهاية موسم الغلاء . . .

وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمار بعالم الطرب والتهكم والخالعة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب ، وللسرج فى جانبيه بالليل منظرفتان ، وفى ذلك أقول :

لا تركبن فى خليج مصر — إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه — من عالم كلهم طغام
يا سيدى لا تسر إليه — إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى — عليه من فضله لثام

.... الخ (١)

(١) إبن سعيد : كتاب المغرب فى حلى المغرب ، حققه جماعة من الأساتذة : جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ .

آثار الأيوبيين فى القاهرة

قلعة الجبـــــل

أهم الآثار الخالدة التى شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبى فى مصر والشام ، وتنهض القلعة على نشذ يتصل بجبل المقطم ، فى موضع كانت تشغله فيه قبة سميت بقبة الهواء ، أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش فشرع فى بنائها (٥٧٢ هـ — ١١٧٦م) ثم توقف العمل فيها فترة من الزمن ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك فى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وقد سكن فيها ثم استمرت من بعد وفاته دار مملكة مصر ، ثم أضيفت إليها أجزاء كثيرة على أيام الأيوبيين والمماليك ومن خلفهم من الحكام .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من قسمين من الأرض مستقلين ، الشمالى منها يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة ، ويفصله عن القسم الجنوبى حائط سميك وأبراج ضخمة ويخرج القسم الجنوبى من الشمالى مكوناً معه زاوية قائمة ، وحدود هذا المربع ليست منتظمة . والمعروف عند علماء الآثار أن الجزء الأكبر من القلعة قد تم فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) ، أما البئر فمن المحتمل أنها تمت فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) وهو العام الذى أسر فى غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنجة اشتغلوا فى حفرها وبنائها ، وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً .

ولدخول القلعة بابان . أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج ، والباب الثانى باب القرافة يواجه المقطم ، وبين البابين ساحة فسيحة ، ثم كان للقلعة باب ثالث وهو باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء جدران السور وأبراجه النصف الدائرية ، وينسب إلى الملك العادل بناء الأبراج الثلاثة الكبيرة التى بالجانب القبلى وعلى برج صفطة وبرج العلوة وبرج قرقيلان ، وكذلك الزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلى ببرج الصحراء والبرج الكبير الذى لم يتبق منه سوى قاعدته ، والبرجان الكبيران المربعان فى الركن الشمالى الغربى من السور ، وقد تمت أعمال العادل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/١٢٠٧م) .

وقد وسعت القلعة فى أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون واتجه هذا التوسع إلى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش فى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧/١٣٣٨م) ، وكانت مساحته أربعة أفدنة كما أنه شيد مسجده .

ويمكن القول أن إصلاح القلعة قد تم على خمسة مراحل :

١ — فى أيام السلطان برقوق على جركس الخليلى فى ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩م)

٢ — فى أيام السلطان جقمق فى ذى القعدة عام ٨٥١ هـ (١٤٤٨ م)

٣ — فى أيام السلطان قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٦م)

٤ — فى أيام السلطان طومانباى فى رمضان عام ٩٠٦ هـ (١٥٠١م)

٥ — فى أيام الخديوى اسماعيل فى رجب ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) .

وأعمال الإصلاح هذه ، مثبتة فى كتابات منقوشة على جدران القلعة . وترى اليوم على الجدار الذى يقع إلى يمين المدخل الخارجى لباب المدرج[1] .

قبة الإمام الشافعى

جمع الله تعالى للإمام الشافعى من العلوم وكثرة الأتباع مالم يجمع لأحد قبله . ولد بغزة سنة ١٥٠هـ (٧٦٧ م) واتصل بالإمام مالك رضى الله عنه بالمدينة ودرس عليه ، ثم استقل عنه وأسس مذهبه المعروف ، وأقام بالمدينة إلى أن توفى مالك . ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ هـ (٨١٠/١١ م) فبقى بها سنتين واستمع عليه علماؤها ، ثم خرج إلى مكة ومنها عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣/١٤م) فأقام بها شهراً ثم قدم إلى مصر وأقام بها إلى أن توفى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

وفى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) بنى السلطان صلاح الدين الأيوبى تربة الشافعى وأنشأ بجوارها المدرسة الصالحية (الصلاحية) ، وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) فرغ من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندى المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعى ، واسم الصانع الذى قام بعمله وذلك بالخطين الكوفى، والنسخ الأيوبى .

ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعى وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ، ثم أجرى الماء إليها من بركة الحبش ، وكان الفراغ من إنشائها فى يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) ثم أنشأ تابوتاً من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعى .

---

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ١٩٦٠

وفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٨٠م) عمر السلطان قايتباى تلك القبة وصحح اتجاه المحراب ، كما جدد الوزرة الرخامية . وفى ١١٨٦ هـ (١٧٧٠م) جدد الأمير على بك الكبير أعلى القبة وكساها بصفائح الرصاص وجدد نقوشها من الداخل بالذهب والأصباغ وكتب بأفريزها تاريخاً منظوماً .

دار الحديث الكاملية

أنشأها الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى لدراسة الحديث الشريف ، وكان ذلك فى عام ٦٢٢هـ — ١٢٢٥م ، وهى ثانى مدرسة أقيمت للحديث ، قيل إن الملك نور الدين محمود زنكى ، كان أول من بنى داراً خصها لتلك الدراسة الجليلة ، وقد وقفها الكامل على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، وقد وقف عليها الربع الذى كان بجوارها على باب الخرنفش المواجه لمسجد الأقمر ، وكان أول من ولى التدريس فى الكاملية ، الحافظ أبو الخطاب عمرو عثمان بن الحسن . ثم خربت بسبب الأحداث والمحن التى أصابت البلاد . ولم يبق من تلك الدار الكبرى سوى بقايا الإيوان الغربى ، وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفى إلى متحف الفنون الإسلامية ، ويرى بعض علماء الآثار ، أن المدرسة الكاملية أقدم نموذج لطراز تخطيط المدرسة ذات الإيوانين . . ذلك الطراز الذى تطور فيما بعد إلى أربعة إيوانات . . وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربى لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق .

المدرسة الصـــــــالحية

تنسب إلى منشئها الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى وضع أساسها فى ١٤ ربيع الأول ٦٤٠ هـ — ١١ سبتمبر ١٢٤٢م، وبدأت الدراسة بها فى العام التالى (٦٤١ هـ —١٢٤٣م) بالرغم من ضخامة بنائها . قامت فى خط بين القصرين وكان موضعها القصر الفاطمى الشرقى ، وقد دون تاريخ إنشاء المدرسة فى اللوحة التذكارية أعلى بابها وبأسفل المئذنة ، وقد دخل فيها باب الزهومة أحد أبواب القصر المؤدية إلى المطبخ .

وقد رتب السلطان فيها الدروس الدينية للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة ، وأول من درس بها فى المقابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر .

وكان لا يقل مساحة تلك المدرسة الجليلة عن ستة آلاف متر مربع ، تألفت من بنائين كبيرين ، أحدهما يتجه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال ، يتوسطهما المدخل الذى تعلوه المئذنة ، وقد اشتمل كل من البنائين على إيوانين كبيرين ، شرقى وغربى . أما الجانبان الشمالى والقبلى فقد تكون كل منهما من عمد تحمل عقوداً من المحتمل أنها كانت تحمل فوقها غرف الأساتذة والطلاب .

وقد اندثرت إيوانات المدرسة الجنوبية ولم يبق بالمدرسة الشمالية سوى الإيوان الغربى . أما الإيوان الشرقى فقد تهدم معظمه . وهناك بين الإيوانين بقايا عمد وعقود وكان طول وجهة المدرسة حوالى مائة متر ، يتوسطها المدخل المذكور وعليه المئذنة التى تحتفظ بطابعها الأيوبى الأصيل . وهذه الوجهة التى بقى جزء كبير منها إلى اليوم ، غنية بالنقوش والكتابات ، وقد بذل الجهد فى تجميلها الرائع . فإننا نرى أعتاب النوافذ والأبواب قد حبست بأفريز مسنن مزخرف يعلوه عتب آخر حليت صنجه بحلقات أو دوائر مزخرفة وفوقها سطر مكتوب به ألقاب السلطان، ثم عقد آخر يحمل مقرنصة من خمس حطات مستطيل الشكل، كتب فيه تاريخ البناء .

أما المئذنة فلها أهمية خاصة عند المشتغلين بالعمارة الإسلامية ، فهى نموذج فريد للمآذن الأيوبية ، ومكانتها من ناحية التطور المعمارى بين مئذنتى ضريح أبى الغضنفر (١١٥٧م) ومئذنة جامع بيبرس الثانى — وهى تتكون من قاعدة مربعة تنتهى بشرفة منمقة محمولة على كوابيل خشبية ويعلوها طابق آخر منمق الشكل وأقل ارتفاعاً من السفلى وبكل جانب تجويف متوج بعقد مدبب طاقيته بها قنوات مشعة ، وبهذا التجويف فتحة معقودة بعقد ذى فصوص ، ويعلو المنطقة المثمنة صفان من المقرنصات ، وفى أعلى القمة توجد قبة ذات استطالة رأسية ومضلعة ، تعرف باسم « المبخرة » .

ولقد طغت منذ أعوام الأبنية والحوانيت الوضيعة والتصقت ببناء الوجهة ، فأخفت جزءا كبيراً من زخارفها الجميلة ، وحبذا لو عنى المسئولون بإنقاذ هذا الأثر الأيوبى الجليل مما لحق به أثناء أعوام الإهمال السابقة ، فيعملون على استعادة مجده السالف .

قلعة الروضـــــــــــة

عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى طرفها البحرى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م . وسماه بالروضة وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكياً وسكناً للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر (٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جزيرة الفسطاط وبقلعة الجيزة .

ففى يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) شرع فى حفر أساس القلعة وابتدأ بنيانها فى يوم الجمعة سادس عشر ، وهدم كثير من الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وأدخلت أرضها فى نطاق القلعة . فشيد السلطان فيها مبان كثيرة ، وعمل لها ستين برجاً وأقام بها مسجداً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ثم شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأقوات ، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها .

وكانت تشغل هذه القلعة مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً ، وقد سكن الملك الصالح جزيرة الروضة مع مماليكه البحرية وكان عدتهم ألف مملوك ، وذلك بعد انتقاله من قلعة الجبل ، وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنوات. ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة الأيوبيين، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك أمر بهدمها ليعمر مدرسته المعزية واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من سقوفها وشبابيكها وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس العرشى ، عنى بعمارة القلعة ، وأمر الأمير جمال الدين موسى بإعادتها ، فأصلح بعض ما تهدم وأعادها إلى ما كانت عليه ورتب فيها الحاميات .

وعلى مر الزمن تخربت القلعة وما كان يحيط بها من المبانى الفخمة ، ثم قامت الدور ، وشقت الطرق فى حفاياها وانتشرت البساتين فيها .

قبة الصالح نجم الدين الأيوبى

تقع فى الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية ، أنشأتها الملكة شجرة الدر ونقلت إليها جثة سيدها وزوجها الصالح نجم الدين من قلعة الروضة فى يوم ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ (سبتمبر ١٢٥٣م) . ومبانى القبة تسودها البساطة ، وأهميتها المعمارية تتمثل فى تطور المقرنص فيها وزيادة حطاته وتغيرها تغيراً كلياً عن القبة الفاطمية فى جميع نواحيها ، ويحيط بربع القبة أعلى الشبابيك طراز من الخشب به بقايا كتابات يقرأ منها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

قبة الخلفاء العباسيين

تقع خلف المشهد النفيسى وتضم رفات بعض الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر وأولاد السلطان الظاهر بيبرس ولا يعرف منشئها . وترجع أهميتها إلى ما تحتويه من الزخارف الجصية والكتابات الكوفية على الجص والخشب . ومن المحتمل أن تكون قد أنشئت حوالى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) وتشبه هذه القبة ، قبة شجرة الدر التى تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية وقد شيدتها لتدفن فيها . وهى ذات قاعدة مربعة حليت بزخارف جصية على هيئة شبابيك عقودها محارية ذات عقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير وبعضها على هيئة معين والزوايا مشطوفة وينتهى الشطف بمقرنص ، ومن المرجح أن شجرة الدر قد أنشأتها أثناء توليتها على مصر عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) ويؤيد ذلك كتابة ألقابها والدعاء لها بطراز القبة بخط نسخى أيوبى[1] .

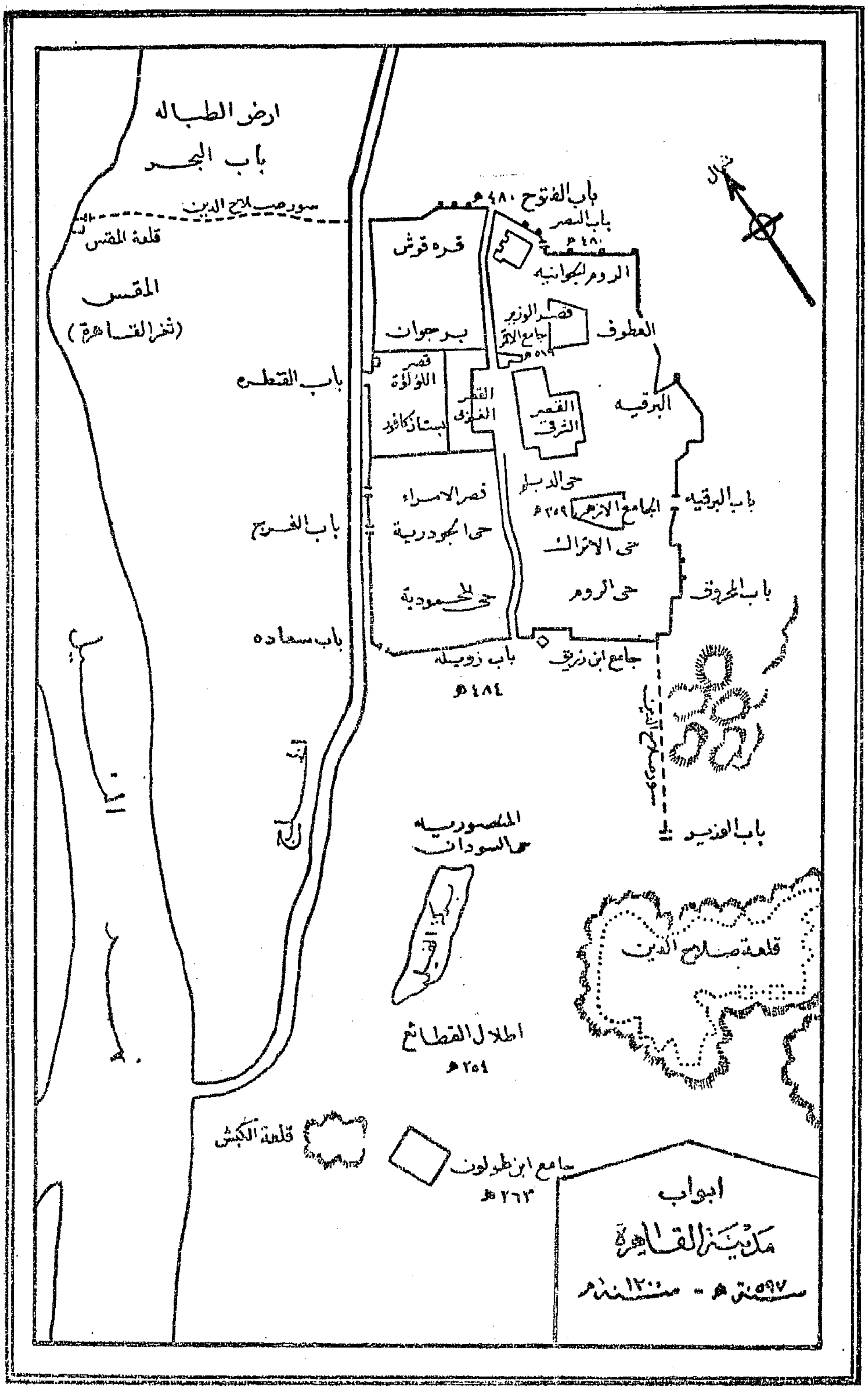
---

(١) حسن عبد الوهاب : العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ٧ — ٨ عام ١٩٤٠ ص ٣٩٢ — ٤٠٧

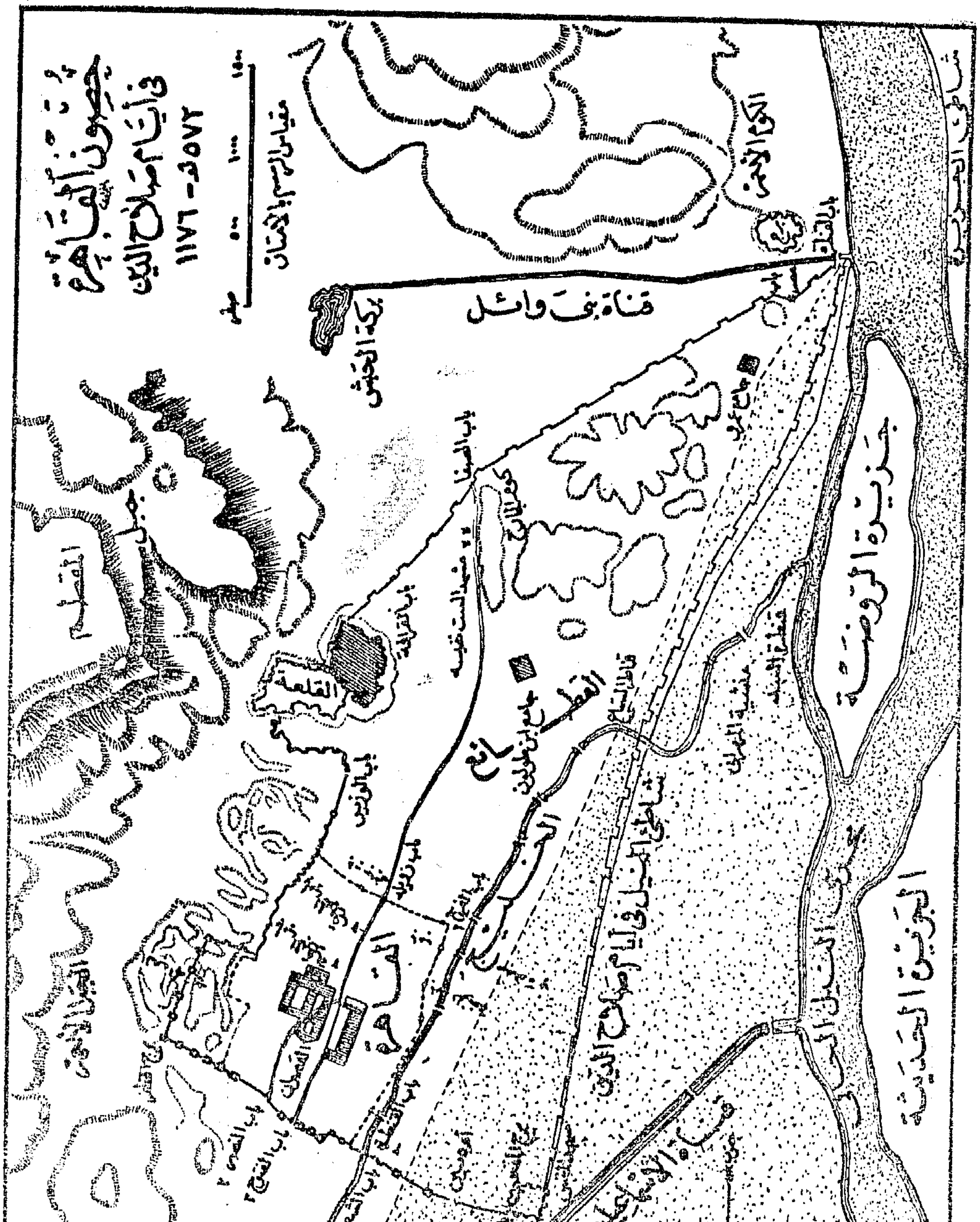
لقد كان عصر الأيوبيين فى مصر ، وبخاصة بالقاهرة ، عصراً ممتازاً بعناصر جديدة فى العمارة « مدنية كانت أو حربية » ، وفى ابتكار طراز المدرسة ، وشيوع استعمال الحجر المنحوت فى البناء وإدخال التلويح بالرخام ، وفى تطور الزخرفة الجصية واستخدام الزجاج الملون ، ودقة النقش على الخشب ... الخ

ومع أن الآثار الأيوبية الباقية بمصر قليلة ، ولكن مع ذلك ، فقد اشتملت على تفصيلات معمارية هامة، تعتبر أساساً نسج على منوالها فى كثير من الآثار التى أعقبتها . وفيها ظهر على العمائر والألطاف الخط النسخى ، الذى اتخذ أساساً للنصوص التاريخية ، واستعمل الخط الكوفى بجانبه فى كتابة الآيات القرآنية .

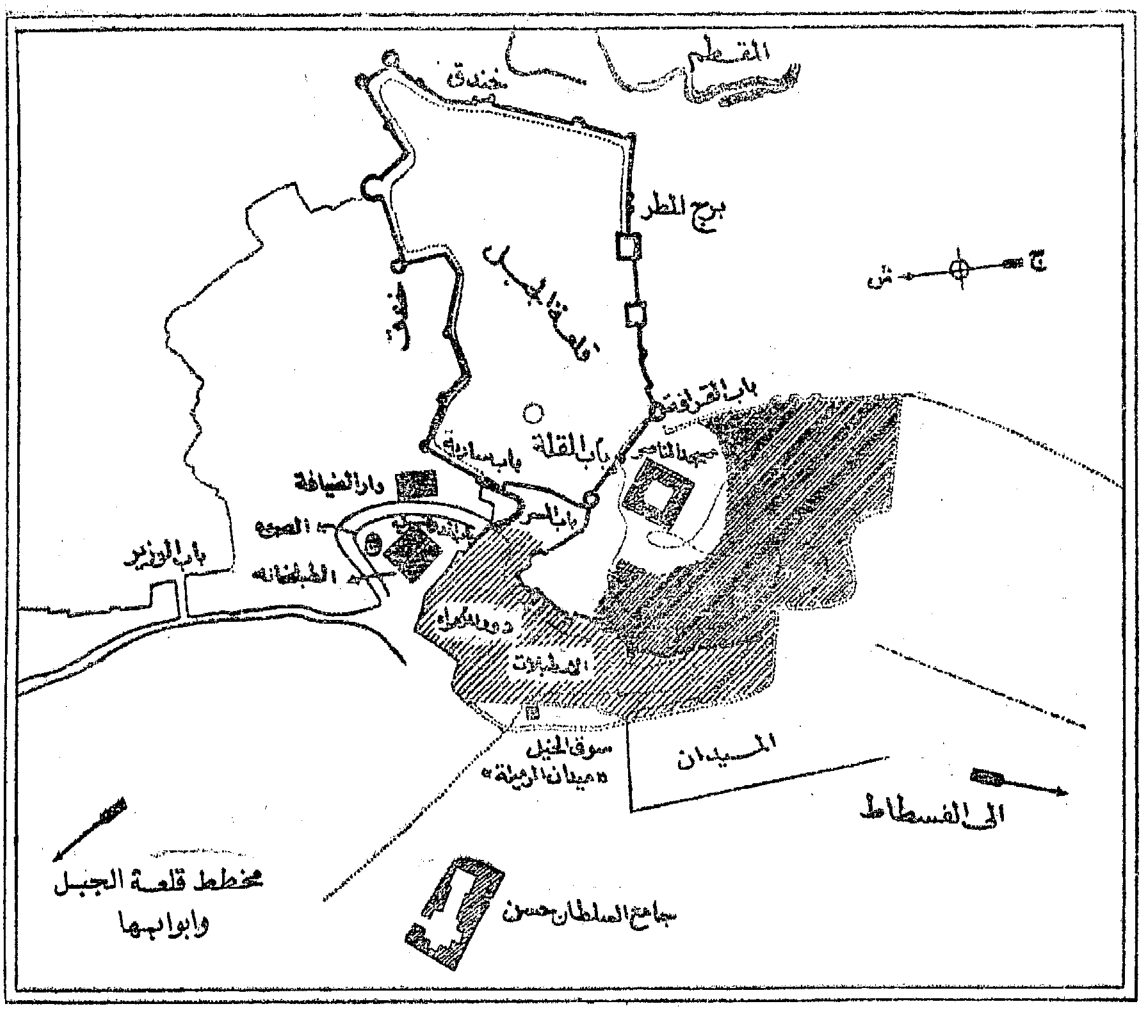
وفى زمن الأيوبيين ، إنصرف رجال الفن عن رسوم الإنسان والحيوان وأبدعوا فى الزخارف النباتية والهندسية ، وقد أفلحوا فى هذا الحقل ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى ابتدعوها طابعاً لفنونهم الرائعة .



أبواب مدينة القاهرة فى العصر الأيوبى



حصون القاهرة في أيام صلاح الدين
٥٧٢هـ - ١١٧٦
قناة بني وائل
بركة الحبش
القلعة
جامع ابن طولون
جزيرة الروضة
الجزيرة الجديدة



مخطط قلعة الجبل وأبوابها

الفصل الرابع

القاهرة فى أيام المماليك البحرية

من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢

إن معظم الآثار التى نشاهدها اليوم فى القاهرة ، من تراث العصر المملوكى . وقبل أن نتكلم عما طرأ على القاهرة فى تلك الأيام ، سنلقى الضوء على أهم أحداث المماليك .

كانوا محاربين شجعان جاهدوا كثيراً ، وقاوموا أشد الغزوات مناعة ، وردوا جحافل هولاكو عاهل المغول وخليفة جنكيزخان . وكان المغول قد زحفوا إلى ربوع آسيا الغربية وردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات . وقد لقى قطز أول صدماتهم ، وكان هولاكو هذا قد أرسل رسله للقاهرة ومعهم رسالة يطلب فيها من المماليك أن يستسلموا . فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه حتى وصل إلى الشام . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ، فاضطر إلى العودة وترك جيشه لمقابلة المصريين . فالتقى الجيشان فى عين الجالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وانتصر المصريون انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، وطهروا البلاد من المغول . وفى أثناء عودة الملك المظفر « قطز » إلى القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه .

الظـــــاهر بيبرس

(٦٥٨ — ٦٧٦ هـ)

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقدارى ، فهزم المغول فى بيرة فى عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م ، ثم قصد الكرك وقتل سبعة آلاف من أعدائه ، واستولى على العرش السلجوقى . وجاء قلاوون من بعده (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ) فغزا المغول مرة أخرى فى عام ٦٧٩ هـ/١٢٨٠م ، وكان قد جمع لجيشه ألوف المماليك من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز ، وقد انضم اليه فى تلك الحملة صاحب حماة أحد أفراد أسرة صلاح الدين ، وانتصر على أعدائه فى موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة أخرى من المغول ، لكنهم عادوا اليها مرة ثانية فى أثناء حكم أبيه الناصر محمد فجرد اليهم فى عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م جيشاً جراراً وأسرع لملاقاتهم فى حمص فتقهقر الناصر ، ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون

بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر ، وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة فى تلك المعركه بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطاناً ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم ، وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته وتنافس الأمراء فى إقامة الزينات الفخمة على جانبى الطريق ، وحرم أهل الصناعات من عمل أى شىء خلا ما تعلق منها بالاحتفاء بالنصر ، وفرشت الطرقات بالطنافس ، فلما وصل السلطان أظهر سروره بما فعله الأمراء وعرض أسرى المغول المكبلين بالأغلال .

لم يكن المغول هم الذين ذاقوا وحدهم مرارة الفشل ، فقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات فى فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول ، فاستولى على قيسارية وأرسوف فى عام ٦٤٣ هـ / ١٢٦٥ م ، وأذل أسراهم الذين ساقهم إلى القاهرة ، فقد عرضهم بأعلامهم المنكسة ، ثم صمم بيبرس على طرد الصليبيين من تلك البلاد نهائياً ، فاستولى على يافا فى عام ٦٦٦ هـ وسلمت بلفورت وانطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التى أحرقها ، وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم فى بغراس وصافيتا . . الخ ، ثم قصد مكة ماراً بحلب وزار قبر ابراهيم الخليل وبيت المقدس ، ثم عاد إلى مصر ، وقد أتم عمله العسكرى والدينى معاً ، واستولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تطاع من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع ، وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس فى قبضته ، ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا ، وأصبح خانهم حليفاً له ، وأرسل ابنته للزواج منه ، وتبادل مفوضيه مع إمبراطور بيزنطية الذى رمم مسجداً فى الآستانة ، واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . ثم أنه عمل على إعادة الخلافة العباسية التى قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى فى موكب عظيم ، وأعلنه خليفة المسلمين وأسكنه قصراً عظيماً بالقلعة ، وظل الخليفة العباسى يستظل تحت سماء مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد عام (١٥١٧م) .

إن الظاهر بيبرس من أخلد المماليك البحرية أثراً ، فقد كان قائداً ماهراً وسياسياً ذكياً ومصلحاً ، بعيد النظر وإداريا عادلاً . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة ، وقد قضى أكثر سنى حكمه فى ميادين القتال خارج مصر . وكان ينتظر فرصة وجوده فى مصر فيعمل على إصلاحها وتحسين عاصمتها . وبنى فى عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م دار العدل القديمة تحت القلعة ، وصار يجلس بها لعرض العساكر فى يومى الاثنين والخميس ، وكان ينظر فى أمر المظلومين بنفسه ، فإذا كان لأحد مظلمة أتى إليه وشكا للسلطان ، وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبنى مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر ، وحفر خليج الاسكندرية القديم ، وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة . ومن آثاره قناطر السباع التى أنشأها قرب ميدان السيدة زينب على الخليج ، وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وأعاد للأسطول المصرى سابق أيامه ، فبنى أربعين سفينة حربية ، واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندى ، وكانت حكومته

محترمة وعادلة ، واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش ونهض بأحوال البلاد الصحية ، وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يمضى فيها نهاره ويقضى ليله فى العمل ، وأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبق للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب وغيرها من الألعاب الحربية ، وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاق ، ولا غرو فإنه كان محبوباً من رعيته بعد أن رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع ، وتذكره العامة الى اليوم فى القصة الشعبية المشهورة .

وفى أيام الظاهر بيبرس كوفح أصحاب العاهات ومفتعلوها ، فقد أمر السلطان فى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م بجمع أصحاب العاهات فجمعوهم بخان السبيل بالحسينية ثم نقلوهم إلى الفيوم ، وأفردت لهم بلدة تغل للصرف عليهم غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا وعاد كثير منهم إلى القاهرة(١) .

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيق لقوة المماليك والمنظم لسياستهم فى إدارة الحكومة . ومنذ قاد بيبرس مماليكه البحرية فى معركة المنصورة (١٢٥٠م) وتغلب على «لويس» ملك فرنسا سمت مكانته فمنحه السلطان حق الإشراف على الجيش ، ثم استولى على العرش وكان بلاطه مثالاً للنظام وحسن الرونق لمن تولى العرش بعده . فقد جمع السلطان فى حاشيته كبار ضباطه ورجال دولته وموظفى حاشيته . ومن أصحاب تلك الوظائف الوالى — وأتابك العساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصعيد وأمير الصولجان وأمراء الطبول ، وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى مؤلفة من ستة عشر عازفاً ، وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيراً من الخصيان والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم ، وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعيات واسعة ويمنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة .

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول فى الدولة وهم الذين يجىء ذكرهم بعد السلطان ، لذلك كان كل واحد منهم يستطيع أن يخلف السلطان بعد وفاته إذا تغلب على منافسيه .

غير أن عصر المماليك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاغبات الداخلية ، وكانت حوادث السلب والنهب ملهاة المماليك وأتباعهم يلجأون إليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحرابهم من نوافذ دورهم على أعدائهم فى المنازل المقابلة أو على السائرين فى الطرقات ، فتبتدى المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم ، فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة .

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٥٣

القاهرة فى أيام الظـــــاهر بيبرس

اتسعت مساحة القاهرة وبنى الظاهر وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرحبة الجبارج قبة عظيمة محمولة على إثنى عشر عموداً من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رحبة الجامع (هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله فى الجامع الذى أنشأه سنة ٧١٨ هـ) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب المدرج) ، وأخرج منه رواشن ، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها . وأنشأ برحبـة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد . وأنشأ دوراً كثيرة بظاهر القاهرة برسم الأمراء ، وأنشأ حماماً بسوق الخيل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم (بين بركة قارون وبركة الفيل) والقنطرة التى على الخليج (قناطر السباع) وأنشأ الميدان بالبورجى ونقل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصرية ، فكانت أجرة نقله ستة عشر ألف دينار ، وأنشأ به المنـاظر والقاعات والبيوت وجـدد جامع الأقمر والجامع الأزهر ، وبنى جامعه الكبير بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم . وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً ، وعمر بالمقياس قبة رفيعة مزخرفة ، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية ، وجـدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين ببرقة وقلعة السويس ، وعمر جسراً بالقليوبية والقناطر على بحر أبى المنجا وقنطرة بمنية السيرج . . . . الخ .

لقد بنى فى أيام الملك الظاهر بيبرس بمصر ما لم يبن فى أيام الخلفاء الفاطميين ، ولا مـلوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات من قريب مسجد التبن إلى أسوار القاهرة إلى الخليـج ، وأرض الطبالة ، واتصلت العمائر إلى باب المقسم (المقس) إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الـكبش وحدرة ابن قميحة إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة إلى السور القراقوشى[1]

ولم يأخذ المماليك بنظام الحـكم الوراثى دائماً فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى فى عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، ثم للمرة الثانية فى عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م بعد قتـل السلطان حسام الدين لاجين المنصورى ، ولم يلبث أن خلعه بعض الأمراء المماليك ، فترك القاهرة متظاهراً بالحج ، وسار مع رجاله إلى الـكرك ، فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطانى إلى المماليك ينبئهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا ، فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنـكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) فى ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر ، وفى عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط . ومن آثاره فى القاهرة خانقاه المعروف بجامع جاشنـكير بالجمالية .

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب الفرصة لاستعادة عرشه ، وكان قد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٠ — ١٩٣ .

أرسل إلى بعض زعماء المماليك ليدبروا مؤامرة لقلب الجاشنكير ، فنجحوا فى عملهم ، فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعاً فى الاستيلاء عليها ، وفى غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ — ٧٤١ هـ/١٣٠١ — ١٣٤١م) للمرة الثالثة وكان ذلك فى يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع وبايعه الأمراء فى الإيوان الأشرفى . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاماً ، وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ٦٧٨ هـ إلى عام ٧٨٤ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة ؛ وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكماً شجاعاً وسياسياً حازماً ومشجعاً كبيراً للتجارة ، وقد وصلت المنتجات المصرية فى أيامه إلى الهند والصين ، وعمل ما فى طاقته لتنمية التجارة فى داخل القطر ، وكان على مثال أبناء جنسه المماليك محباً للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماماً عظيماً بإحياء العمارة ، فقد أسس بيبرس مدرسته فى عام ١٢٦٣ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط ، وبنى جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ — ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر ، وبنى قلاوون المستشفى الشهيرة بالبيمارستان المنصورى بخط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامعه ومقبرته ، وكان يحيط بناء البيمارستان قاعات للدرس — ومكتبة وحمامات وصيدلية . . . الخ وكانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى ، وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربى اليتامى من أولاد الفقراء مجاناً فى المدرسة المجاورة للمستشفى ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر إبنه الناصر يلتمسون الشفاء .

القاهرة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون

لقد اتسعت مساحة القاهرة على أيام المماليك البحرية ، فامتدت جهة الشمال عبر الصحراء والشمال الغربى والغرب أيضاً بما طرحه النيل من أرض جاء به الطمى الذى يرد مع فيضان النيل كل سنة . . ولم يترك المماليك قطعة أرض فضاء داخل القاهرة فى شمالها أوجنوبها إلا أقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والأسبلة والوكالات . كان الاقبال على البناء والتعمير عظيماً ، فقد عم الرخاء فى أيام المماليك وتوفر المال فى خزائنهم بما كانت تعود به التجارة مع الشرق والغرب ، وما كانوا يجبونه عليها من مكوس ، فتسابق السلاطين والأمراء والأعيان فى إقامة أفخم المساجد وأروع القصور التى جمعوا فيها التحف النادرة والألطاف الجميلة .

ويعتبر عصر السلطان الناصر محمد من أزهى العصور فى مصر من الناحية المعمارية ، وكان على صفات خلقية ممتازة ، قوى الإرادة مستبداً يسيطر وحده على حكم البلاد ، وكان صغير الجسم أعرجاً . وفى إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته ونفكيره ونشاطه وذوقه الجميل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور الهادئة التى تمتعت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عما كانت عليه فى أيام أسلافه

ويمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة أثناء القرون الوسطى .

سار على منوال بيبرس وقلاوون وحالف المغول وتزوج من إبنة أزبك خان (السيدة طالبية) فى سنة ٧٢٠هـ ، وكانت حدود إمبراطوريته تمتد من بير أموس والفرات إلى سواكن وأسوان ، كما أنه ارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع امبراطور دولة الروم الشرقية وملك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب ، وقد زوج بناته لأحدعشر من أبناء الأمراء المصريين ، وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة وافرة . ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان شغوفاً بالزراعة والرياضة فكان يدفع للجواد الواحد من أربعمائة إلى ألف جنيه ، وكان ملماً بتاريخ جياده وأثمانها وأعمارها وخصالها ومزاياها . . . الخ وكان فى مزرعته ثلاثون ألفاً من رؤوس الغنم وكان محبا للصيد . وقد شاهده الرحالة ابن بطوطة فى عام ١٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان محباً لخير الشعب ، يجلس مرتين فى الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ، ونمت ثروة البلاد فى أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بمسح الأراضى الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا فى أسعارهم ، وقد حدثت فى عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهاد ضد النصارى لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون فى حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السباع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا بمعاولهم وخربوا جزءاً من كنيسة الزهور ، وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس نحو الكنيسة بدون علم رجال الأمن وخربوها عن آخرها ثم قصدوا كنيسة « سانت ميناء » بالحمراء ونهبوها ثم أنهم كرروا العمل بالقرب من السبع سقايات وطردوا منها الراهبات وغنموا ماوصلت إليه أيديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ما حدث أمر جنوده فى الحال بكبح جماح الغوغاء . والحفاظ على الكنائس .

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية ، فكان حادث الحريق يتلو الآخر فى كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح النيران فى أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت إمرة أربعة وعشرين من رجال الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصهاريج والحمامات لكبح النار ، وكنت ترى الشارع الموصل من حى الديلم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمائه المتدفق . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل ، وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التى عثر عليها وقبض على نصرانى فى جامع الظاهر وفى يده كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها ثم اعترف بأن تلك الحرائق مدبرة وهى من عمل النصارى انتقاماً لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ، ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رأيه استهجن فعال أبناء طائفته ونهاهم عنها فأعيد إلى بيته معززاً مكرماً بين صفين من رجال حرس السلطان ، ولولا الجند لانتقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود فى مثل هذا الحفل العظيم .

واضطر السلطان أن يقاوم الفوضى فأرسل جنوده فى جميع أنحاء القاهرة لتشتيت شمل الجماعات بكل

الوسائل ، وقبض فى يوم واحد على مائتين من الشاغبين بالقرب من النيل ، ومثلوا بين يدى السلطان فخيرهم بين قطع أيديهم أو شنقهم . وعبثاً حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه ، فكان يرفض وساطتهم لكى يكونوا عبرة لغيرهم ، فنصبت المشانق على جانبى الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرميلة وعلق كثير من الجناة من أيديهم — ليكونوا عبرة لغيرهم .

* * *

ولم يسبق أن تمتع البناء أو العمارة بفترة ناجحة مزدهرة كما حدث فى أثناء حكم الناصر محمد ، امتاز عهده بالإنتاج الفنى السامى ، وتدل المبالغ العظيمة التى صرفها السلطان وأمراؤه على المبانى على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة ؛ وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة فى متحف الفنون الإسلامية ، وأهم مبانيه العظيمة الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيمارستان المشهورة ببابها القوطى الذى جلبه معه أخوه خليل من عكاء ، وكذلك مسجده بالقلعة (١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال الذوق ، مع أنهما لا يبقيان الآن على ما كانا عليه من بهاء ورونق تلك الأيام — فإن القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلعة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبة ، واندثر النحاس الذى أحاط بمصلى السلطان «مقصورته» ولا يزال إلى الآن بعض المناور السماوية التى تحيط به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع ، وتدل بقايا العمد الجرانيتية العشرة الرخام الدقيق المطعم بالصدف الملصوق على حائط الجامع القبلى ، وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف — وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد مئذنته المغطاة بالبلاط الأخضر ؛ وكان فى القلعة بهو الأعمدة وهو من أجزاء القصر الأبلق الذى شيده فى عهده . وفى أيامه زيدت أجزاء كثيرة فى القلعة كما أن مجرى العيون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلعة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين . وقد شيد الناصر محمد جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة ، وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى ؛ ولما كان الناس فى كل عصر على دين ملوكهم فقد تبع الأمراء سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع والمدارس والقابر . ولقد رأى الرحالة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٥/١٣٢٦ م كيف كان يتنافس أمراء مصر على تخليد أسمائهم فشيدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بيبرس الجاشنكير ولا تزال باقية ، ويقول ابن بطوطة أنها عجيبة وصيدليتها مجهزة بالعقاقير الوفيرة ، وكان المبلغ الذى يصرف يومياً وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغاً ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التى شيدت بين عامى (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) أربعين وهذا العدد أكثر من ربع ما شيد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام المقريزى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم وهو صورة رائعة لما كان عليه المماليك من مجد وأبهة . ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسن (٧١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع ألمس (٧٣٠ هـ) وقوصون (٧٣٠ هـ) وبشتاك — (٧٣٦ هـ) والتنبغا المردانى (٧٤٠ هـ) وأصلم النبهانى (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وأرغون الاسماعيلى (٨٤٨) ومنجق

(٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة سنجر الجاولى (٧٠٣) وأحمد المهمندار (٧٢٥) وأقبجا (٧٣٤ هـ) وصرغتمش (٧٥٧ هـ) . ومن الخانقات خانقاه قوسون (٧٣٦) وشيخون ٧٥٦ — ويكلل هذه العمائر جامع السلطان حسن — المواجه للقلعة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) ، وهو أجمل ما ترك المماليك وأفخم مساجدهم القاهرية .

ولكي نصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرد سفر خاص . حقيقة أن بعضها قد شمله الخراب إلا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته كجامع آق سنقر وجامع أرغون شاه الاسماعيلى ، فقد جدد الأول ابراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ وجدد الآخر أحد الأمراء . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية . وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاه مما ذكرتها تستحق وصفاً خاصاً . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة . وفى جوامع المماليك ترى اقتباساً من فن مبانيهم التى شيدوها فى فلسطين وسوريا ، وهو فن يمتاز بواجهة رائعة — تشمل الطنف والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية ، والظاهرة الثانية هى المأذنة أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه ، فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما أتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة إلى أخرى مثمنة فأسطوانية ، وهى ذات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقباب الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذ بها أكثر مهندسى جوامع العصر الناصرى .

وليس هناك شك فى أن المماليك أجادوا بناء القباب ، واشتملت أكثر مساجدهم ومدارسهم على مقابر مشيديها — وكان القبر فى كثير من الأحيان متصلا بالبناء الأصلى وقد بدأ فى عصر المماليك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشئات الرائعة الجمال التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم . وأعود ثانية لأقول أنه من ناحية أبنية العصر الناصرى اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالباً من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وفى أعلى الوجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بأفريز تعلوه الشرفات ، وفى داخل الجوامع ذوات الإيوانات استعملت عمد الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العمائر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشاً جميلا محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران بالرخام والكل منسجم للغاية . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التى لم تبق إلى اليوم كاملة ، ولكن الأجزاء الباقية منها تبين بجلاء ما اتسمت به منذ ستمائة سنة .

القاهرة فى أيام أسرة الناصر محمد بن قلاوون

لا شك أن من أهم مراحل تطور القاهرة العمرانية والمعارية فى العصر الوسيط ، كانت التى مرت بالحاضرة الإسلامية الكبرى على أيام أسرة قلاوون ، التى استأثرت بحكم البلاد زهاء قرن من عام ١٢٧٩ إلى عام ١٣٨٢ حتى تولى برقوق العرش مؤسسا دولة المماليك البرجية .

وكان الملك الناصر محمد يحب العمارة ، فانه منذ قدم من الكرك إلى أن مات أقبل على(١) البناء المستمر فكان ينفق فى كل يوم مدة سنى حكمه ثمانية آلاف درهم ، فاذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها على ما يختاره . واستجد فى أيامه عمائر كثيرة منها : حفر خليج الاسكندرية ، حفروه فى مدة أربعين يوماً ، عمل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحى (٧١٠ هـ/١٣١٠م) ، وأنشئت عليه قرية جديدة باسم الملك ، وفرح الناس بهذا الخليج فرحاً زائدا .

أنشأ الناصر محمد الميدان(٢) تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيه بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك . ثم عمر فوق الميدان القصر الأبلق(٣) وأخرب البرج الذى كان عمره أخوه الأشرف خليل على الأسطبل وجعل مكانه القصر المذكور (٧١٢ هـ) وعمر فوقه رفرفا وعمر بجانبه برجا نقل إليه المماليك ، وغير باب النحاس(٤) من قلعة الجبل ووسع دهليزه وعمر فى الساحة تجاه الأبواب طباقا للأمراء الخاصكية ، وغير عمارة الإيوان(٥) مرتين ثم فى الثالثة أقره

---

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ص ١٧٦ - ٢١١ طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .

(٢) ذكر هذا الميدان بأسماء متنوعة ، ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) القصر الأبلق أنشأه الناصر محمد فى شعبان سنة ١٣١٣/٧١٣ وانتهت عمارته سنة ١٣١٤/٧١٤ ، وأنشأ بجواره حديقة وقد اندثر القصر وكان قائماً فى الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التى بها جامع محمد على .

(٤) كان هذا الباب من أجل أبواب الدور السلطانية بالقلعة (الخطط ج ٢ ص ٢١٢) .

(٥) الإيوان هو الذى عرف بدار العدل أنشأه الملك المنصور قلاوون ثم جدده ابنه الملك الأشرف خليل فعرف بالقاعدة الأشرفية ، ثم هدمه الملك الناصر محمد ، وأعاد بناءه فى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ، وزاد فيه . مكانه اليوم جامع محمد على بالقلعة .

على ما هو عليه وحمل إليه العمد الكبار من الصعيد ، فجاء من أعظم المباني الملوكية ، ورتب خدمته بالإيوان ، وعمر بالقلعة أيضاً دوراً للأمراء الذين زوجهم لبناته ، وأجرى إليها المياه وعمل بها الحمامات ، وزاد في باب القلعة[١] من القلعة باباً ثانياً . وعمر جامع القلعة[٢] والقاعات السبع[٣] التي تشرف على الميدان لأجل سراريه . وعمر باب القرافة[٤] وكان غالب عمائره بالحجارة خوفا من الحريق . وعزم على أن يغير باب المدرج[٥] . ويعمل له دركا ، فمات قبل ذلك . وعمر بالقلعة حوش الغنم وحوش البقر وحوش للمعزى فأوسع فيها نحو خمسين فدانا .

---

(١) اندثر هذا الباب ، وكذلك الباب الذى شيد من قبل بنفس الاسم ، وكانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلعة الحالى وعرف بباب المدافع ، وفى عام ١٢٤٢ هـ/١٨٢٦م جدد محمد على باب القلعة الحالى الذى يعرف اليوم بالبوابة الداخلية وهذه البوابة واقعة بعدالبوابة الوسطى وتوصل إلى المتحف الحربى وجامع سيدى سارية .

(٢) هو الجامع القائم اليوم إلى يسار الداخل إلى القلعة قبل الوصول إلى جامع محمد على ، أنشأه الناصر محمد فى عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨م ، وكان فى مكانه جامع قديم والمطبخ السلطانى ومخازن الفروشات ، فهدم الجميع ، وأدخلها فى الجامع الناصرى (الخطط المقريزية جـ٢ ص ٢١٢ و ٣٢٥) . وقد صلى فيه عند فراغه فى أول رمضان سنة ٧٣٦ . قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاح وترميم هذا الجامع فى الأربعينات .

(٣) كانت القاعات السبع تشرف على الميدان وباب القرافة ، وقد أسكن فيهـا الناصر محمد سواريه ومكانهـا اليوم قصر الجوهرة الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية بالقلعة (الخطط المقريزية جـ٢ ص ٢١٢) .

(٤) أحد أبواب القلعة (الخطط جـ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التى كان يخرج منه أهل القاهرة إلى قرافة الإمام الشافعى . وكان باب القرافة بسور القلعة القبلى بين البرجين المعروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج فى أيام العثمانيين ، وآثاره من الداخل موجودة وقد كشفت إدارة حفظ الآثار عن دهليزه وأصلحته (النجوم الزاهرة حاشية ٢ ص ١٨١ جـ٩) .

(٥) أقدم أبواب القلعة أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٧٩ / ١١٨٣م ، ولايزال باقياً عند يسار الداخل إلى القلعة من بابها العام . (أنظر فصل القاهرة فى أيام الأيوبيين) .

وعمر الناصر الخانقاه(١) بناحية سرياقوس ورتب فيها مائة صوفى لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه . وقد صارت الخانقة مدينة عظيمة . وعمر القصور بسرياقوس ، وعمل لها بستاناً حمل إليه الأشجار — من دمشق وغيرها ، فصار بها عامة فواكه الشام . وحفر الخليج الناصرى(٢) خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس ، وعمر على هذا الخليج عدة قناطر(٣) وصار بجانبى هذا الخليج عدة بساتين وأملاك وعمرت بأرض الطبالة(٤) بعد خرابها من أيام العادل كما كتبنا . وعمرت جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالاً ، يرمى منها المماليك النشاب ؛ وتلعب الأمراء بها الكرة ؛ فصارت كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواق وبساتين ، وبلغت البساتين بجزيره النيل فى أيامه مائة وخمسين بستاناً بعد ما كانت نحو العشرين بستاناً . واتصلت العمائر من ناحية منية السيرج على النيل إلى جامع الخطيرى إلى

(١) ذكر المقريزى هذه الخانقاه (الخطط ج ٢ ص ٤٢٢) أنشأها الناصر ، على بعد فرسخ فى شمال شرق سرياقوس ، بدأ بعمارتها فى ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م ، واحتفل بافتتاحها يوم ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م بحضور الناصر ، ورتب لها الأوقاف الكافية ، ثم أقبل الناس على البناء والسكنى بجوارها وشيدوا الدور والحوانيت والخانات والحمامات حتى صارت بلدة كبيرة عرفت باسم خانقاه سرياقوس ، وقد اندثرت الخانقاه وكانت واقعة فى الفضاء المجاور الآن لجامع الملك الأشرف من الجهة الغربية .

(٢) الخليج الناصرى ذكره المقريزى (ج ٢ ص ١٤٥) فقال أن الملك الناصر محمد أمر بحفر خليج من النيل يتصل بالخليج الكبير (القاهرة) لزيادة الماء فيه وكان فمه بموردة البلاط من بستان الخشاب ماراً بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ، ثم أرض الطبالة ، وعندها يصب الخليج ماءه فى الخليج الكبير بدئ فى حفره فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م ، وتم حفره فى شهرين . وكان هذا الخليج موجوداً حتى فى عام ١٨٠٠ (النجوم الزاهرة ، حاشية محمد رمزى ج ٩ ص ٨٠) .

(٣) بلغ عدد القناطر التى عمرت على الخليج الناصرى خمس قناطر هى : قنطرة الفخر وقنطرة قدادار وقنطرة الكتبة (الخطط ج٢ ص ١٥٠) بخط بركة قرموط وقنطرة باب البحر التى عرفت باسم قنطرة الليمون وقنطرة المدبولى وقد اندثرت وقنطرة الحاجب التى كان يتوصل بها إلى أرض الطبالة التى أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ وعرفت باسم قنطرة البكرية وقد اندثرت .

(٤) كانت أرض الطبالة من أجمل متنزهات القاهرة على جانب الخليج الغربى وموقعها اليوم منطقة السكن التى تحد من الشمال والغرب بشارع الظاهر ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكنها ومن الشرق بشارع بور سعيد . وقد وهب الخليفة المستنصر بالله الفاطمى هذه الأرض إلى مغنيته المسماه الطبالة .

حكر ابن الأثير (١) وزريبة قوصون (٢) وإلى منشأة المهرانى (٣) إلى بركة الحبش. حتى كان الإنسان يتعجب لذلك، فإنه كان قبل ذلك بمدة يسيرة تلالا ورمالا وحلفاء، فصار لايرى قدر ذراع إلا وفيه بناء. كل ذلك من محبة السلطان للتعمير. فصار كل واحد فى أيامه يفعل ذلك ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن، وصار لهم أيضاً رغبة فى ذلك؛ كما قيل: الناس على دين ملوكهم، بل قيل أنه كان إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره فى الملأ وأمده فى الباطن بالمال والآلات وغيرها. فعمرت مصر فى أيامه وصارت أضعاف ما كانت عليه.

وقد عمر فى أيام السلطان الناصر محمد القطعة (المنطقة) التى فيما بين قبر الامام الشافعى إلى باب القرافة طولا وعرضاً بعد ما كانت فضاء لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام، فكان يحصل هناك أيام السباق اجتماعات جليلة للتفرج على السباق إلى أن بنى السلطان محمد الناصر تربة الأمير بيبغا التركمانى تربته بعد وفاته عام ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م، ثم أنشأ الناس فيه تربهم.

---

(١) ينسب هذا الحكر إلى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الذى أنشأ داراً على النيل وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير وكان يقع فى المنطقة التى تعرف اليوم بمشش الشيخ على وعشش شركس فى الجهة الجنوبية من بولاق ويحدها من الغرب شارع ساحل الغلال حيث كان يجرى النيل تحته فى ذلك الوقت، ومن الجنوب والشرق شارع فم الترعة البولاقية بالقاهرة.

(٢) مكان هذه الزريبة اليوم الأرض التى عليها دار الآثار المصرية وملحقاتها بشارع مريت باشا بالقاهرة. وأما خط زريبة قوصون فكان يشمل المنطقة الواقع فيها دار الآثار المصرية، وثكنات قصر النيل قبل هدمها (محافظة القاهرة، وهيلتون ودار جامعة الدول العربية).

(٣) ذكر المقريزى هذه المنشأة (جـ ١ ص ٣٤٥)، فقال: ان موضعها فيما بين النيل والخليج الكبير (المصرى) ويعرف موضعها بالكوم الأحمر. ولما أنشأ الوزير الصاحب بهاء الدين على الجامع بخط الكوم الأحمر أنشأ الأمير سيف الدين بلبان المهرانى داراً وسكنها وبنى مسجداً بجوارها فعرفت هذه الخطة به، وقيل لها منشأة المهرانى، وأقبل الناس فى البناء وأكثروا فيها من العمار (الخطط جـ ١ ص ٣٤٣ جـ ٢ ص ١١٤ و جـ ٢ ص ١٣٦) وذكرها ابن اياس فى بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨٠) فقال: أن الأمير شهاب الدين أحمد بن محمود العينى أنشأ قصراً عظيما يطل على النيل بمنشاة المهرانى. وعلى العموم فقد كانت المنشاة تقع بين سيالة جزيرة الروضة والخليج المصرى بأوله من جهة فم الخليج ومن الجنوب ميدان ومنتزه فم الخليج، والحد الشرقى بعضه مساكن أقيمت على ذات الخليج بعد ردمه وبعضه شارع الخليج المصرى (بور سعيد) والحد البحرى شارع كوبرى محمد على وشارع بستان الفاضل. (م. رمزى).

وعمر الناصر فى أيامه الصحراء التى ما بين قلعة الجبل وخارج باب المحروق(١) إلى تربة الظاهر برقوق ، وأول من عمر فيها الأمير قراسنقر تربته(٢) وعمر بها حوض السبيل يعلوه مسجد ، ثم اقتدى به جماعة من الأمراء والخوندات والأعيان مثل خوند طغاى ، عمرت بها تربتها العظيمة(٣) ومثل طشتمر حمص أخضر(٤) الناصرى ومثل طشتمر طليلة الناصرى وغيرهم . وكان هذا الوضع ساحة عظيمة وبه ميدان القبق(٥) من عهد الملك الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل المواكب به برسم سباق الخيل ، فلما عمر قراسنقر تربته عمر الناس بعده حتى صارت الصحراء مدينة عظيمة ، وعمر الملك الناصر أيضاً لمماليكه عدة قصور خارج القاهرة وبها .

* * *

القصـــــــــور والدور

نذكر منها قصور الأمير طقتمر الدمشقى بحدرة البقر(٦) وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم . فلما مات

---

(١) باب المحروق من أبواب القاهرة القديمة فى سورها الشرقى المشرف على الصحراء بناه صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ / (الخطط جـ ١ ص ٣٨٣) وقد عرف باسم باب القراطين الذى أحرق أثناء إحدى الثورات وقد خرب هذا الباب ، ومكانه اليوم على رأس درب المحروق داخل شارع النبوية .

(٢) اندثرت هذه التربة وملحقاتها ويتعذر تعيين مكانها

(٣) أنشأت هذه التربة الخاتون طغاى والدة الأمير أنوك بن الملك الناصر محمد خارج باب البرقية بالصحراء ، وهناك إلى اليوم خانقاه ، وبها قبة تحتها تربة خوند طغاى التى أنشأتها حوالى عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ ، وهى تقوم على ناصية شارعى خوند طغاى والسلطان أحمد بجبانة المجاورين شرق القاهرة .

(٤) هذه التربة أنشأها الأمير طشتمر سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ، ولا تزال موجودة يعلوها قبة بشارع الشيخ بجبانة المجاورين .

(٥) ويعرف بالميدان الأسود (قره ميدان) وهو اليوم صلاح الدين

(٦) هذا القصر هو بذاته بيت طشتمر الساقى حمص أخضر وكان واقعاً فى المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بشارع الحلمية فيما بين زاوية الشيخ عبد الله وبين مدخل شارع المظفر ، ومن الجنوب شارع المظفر ومن الشرق بحارة رفعت وقد أزيل القصر وملحقاته ، وأقيم على أرضه المبانى الحديثة .

طقتمز أنعم به على الأمير طشتمر حمص أخضر فزاد فى عمارته، ومنهـا قصر الأمير بكتمر الساقى[١] على بركة الفيل بالقرب من الـكبش ، فعمـل أساسه أربعين ذراعا وارتفاعه أربعين ذراعا فزاد مصروفه على ألف ألف درهم . ومنها الـكبش[٢] حيث كان عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب فعمـله الملك الناصر سبع قاعات برسم بناته ينزلون فيه للفرجـة على ركب السلطان للميدان الـكبير[٣] ، لم ينحصر ما أنفقه فيه لـكثرته . ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل[٤] تحت القلعة تجاه باب السلسلة[٥] وكان أصـله اسطبل الأمير سنجر البشقدار وسنقر الطويل . ومنها قصر بهادر الجوبانى[٦] بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الـكبش . ومنها قصر قطلوبغا الفخرى[٧] .

---

(١) ذكر المقريزى (جـ ٢ ص ٦٨) أنه كان من أعظم مسا كن مصر وأجلهـا قدراً وأحسنها بياناً وموضعه على بركة الفيل تجاه الـكبش أنشأه الملك الناصر محمد لسكنى أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقى وقد بقى هذا القصر قائماً نحو ثلاثمائة سنة ثم هجره الأمراء وخرب ، فبنى فى محله الأمير صالح بن القاسمى داره المشهورة وبذل الجهد فى تنسيقها وتقلبت مع الأيام حتى بنى فى مكانها مصنع للسلاح والبارود ثم تحولت مصنعاً فسجناً فتـكية فمستشفى .

(٢) تعرف اليوم بقلعة الـكبش وتشرف من بحريها على شارع مراسينا ومنتزه الحوض المرصود بقسم السيدة زينب .

(٣) هو الميدان الناصرى الذى أنشأه الناصر على النيل بأرض بستان الخشاب (الخطط جـ ٢ ص ٢٠٠) وكان واقعاً فى المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بشارع القصر العالى على النيل ، ومن الجنوب شارع والده باشا بأرض القصر العـالى ومن الشرق شارع قصر العينى ومن الشمال شارع رستم باشا وما فى امتداده إلى النيل .

(٤) سوق الخيل كان واقعاً تحت قلعة الجبل فى الجهة التى عرفت بالرميلة والآن بالمنشية بقسم الخليفة

(٥) يعرف باب السلسلة اليوم بباب العزب بالقلعة فى جزئها الأسفل ويطل على ميدان صلاح الدين .

(٦) اندثر هذا القصر وكان واقعاً فى الجهة الغربية من جامع لاجين اللا لا المعروف بجـامع ابن سعيد جقمق بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب .

(٧) الراجح أن هـذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر .

وقصر ألطنبغا المارداني وقصر يلبغا اليحياوى(١) ، وهؤلاء أجل ماعمر من القصور ، وكانوا في موضع المدرسة الناصرية الحسنية(٢) أخذها الملك الناصر حسن وهدمها وعمر مكان ذلك مدرسته المشهورة به . وعمر في أيامه الأمراء عدة دور وقصورمنها : دار الأميرأيدغمش أميرآخور(٣) وقصر بشتك وغيره .

وقد خرب السلطان الناصر ميدان اللوق(٤) الذى كان عمره الظاهر بيبرس وعمله بستاناً ؛ ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قوصون ، فبنى قوصون تجاهه زريبته المعروفة بزريبة قوصون بليانا ووقفه . واقتدى الأمراء بقوصون في العمارة . ثم أخذ قوصون بستان الأمير بهادر رأس نوبة وحكره للناس ومساحته خمسة عشر فدانا فبنوه دوراً على الخليج ، فعرف بحكر قوصون وحكر السلطان حول البركة الناصرية (٥) أراضى البستان (فعمروها الناس وسكنوا فيه) ، ثم حكر الأمير طقزدمر

---

(١) يستفاد مما ذكره المقريزى في خططه (ج ٢ ص ٧١) أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر ببناء قصرين أحدهما لسكنى الأمير يلبغا اليحياوى والثانى لسكنى الأمير الطنبغا الماردانى لتزايد رغبته فيهما وعظيم محبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل ، ففي عام ٧٣٨ هـ / اختار الملك الناصر مكان هذين القصرين بسوق الخيل في الرميلة تحت القلعة وأمر بهدم الدور والاسطبلات التي كانت قائمة وقام بتكاليف العمارة من ماله الخاص . وقد بدأ ببناء قصر يلبغا اليحياوى فجاء في غاية الفن ، وفي ٧٥٧ هـ هدم السلطان الناصر حسن ابن محمد هذين القصرين وأدخل أرضهما في مدرسته (مسجد السلطان حسن) .

(٢) مسجد ومدرسة السلطان حسن بحى الخليفة .

(٣) دار الأمير أيدغمش موقعه في الجزء الشرقى من مسجد السلطان حسن وقد اندثر . أما قصر بشتك (الخطط ج ٢ ص ٧٠) ، فكان من جملة القصر الكبير الشرقى مسكن الخلفاء الفواطم آل إلى الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، ثم اشتراه الأمير بشتك من ورثة بكتاش وأضاف إليه قطعة من حقوق بيت المال ثم دار اقطوان الساقى ومن الجميع بنى قصرا فخما ، كان ارتفاعه أربعون ذراعا والماء يجرى من أعلاه وله شبابيك تشرف على شارع القاهرة ، بدأ البناء في سنة ٧٣٥ هـ ، وأتمه في سنة ٧٣٨ هـ وبقاياه لاتزال قائمة . (م . رمزى)

(٤) هو الميدان الظاهرى .

(٥) كانت بركة الناصرية من جملة جنان الزهرى (الخطط ج ٢ ص ١٦٥) حفرها الملك الناصر محمد لما أراد بناء زريبة بجانب الجامع الطيبرسى على النيل واحتاج في بنائها إلى طين فأمر بنقله من مكان هذه البركة إلى مكان الزريبة في سنة ٧٢١ هـ / وبعد نقل الطين من البركة أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطانى الكائن بأرض بستان الخشاب فامتلأت بالماء وصارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس حولها وبنوا الدور الكبيرة . وقد بينت هذه البركة على خريطة القاهرة التي رسمتها البعثة الفرنسية سنة ١٨٠٠ =

الحموى الناصرى بستاناً بجوار الخليج[1] ومساحته ثلاثون فداناً وبنى له قنطرة عرفت به[2] ، وعمل هناك حماما وحوانيت أيضاً ، فصار حكرا عظيم المساكن ، ثم حكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستاناً بجوار بركة قارون[3] ظاهر القاهرة ، فعمره عمارة كبيرة ، وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها وحكرت دادة السلطان الملك الناصر الست حدق والست مسكة القهرمانة حكرين عرفابهما وأنشأت كل واحدة منهما فى حكرها جامعاً[4] ، فقام به الجمعة ، فزادت الأحكار فى أيام الملك الناصر على ستين حكرا ، وبهذا اتصلت العمائر من باب زويلة إلى سد مصر[5] بعد ما كانت ساحة مخيفة كل ذلك لما علم الناس من حب السلطان للعمارة .

= باسم بركة سق نصرة أو بركة السقايين ومكانها المنطقة التى يخترقها الآن شارع نصره ويحدها من الشرق شارع عماد الدين (محمد فريد) ومن الغرب شارع مصطفى كامل (الشيخ عبد الله سابقاً) ومن الجنوب شارع الاسماعيلى (راجع الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٩٧) ويستنتج محمد رمزى من بحوث على مبارك فى خططه أن مكان هذه البركة والتى عرفت أيضاً باسم بركة الشامات وبركة المهد وبركة قاسم بك أن قصور وزارات المالية والمعارف والحربية وبعض ما يجاورها من المساكن تقوم فى مكانها .

(١) ذكر المقريزى هذا الحكر (ج٢ ص ١١٦) فقال أن مساحته بلغت ثلاثين فدانا ، اشتراه طقزدمر نائب السلطنة بمصر والشام ، وقلع أخشابه وغرسه ، وأذن للناس فى البناء عليه ، فحكروه وأنشأوا به الدور وصار الحكر مسكن الأمراء والأحفاد وبه السوق والحمامات وتقع أرض هذا الحكر على الجانب الغربى من الخليج المصرى ، ومن الغرب شارع الناصرية ومن الجنوب حارة قواوير وعطفة مرزوق ومن الشرق شارع الخليج المصرى (بورسعيد) .

(٢) قنطرة طقزدمر (الخطط ج ٢ ص١٤٧) ، وكانت على الخليج المصرى بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى بر الخليج الغربى وحكر طقزدمر ، وقد أنشأها الأمير حول عام ٧٣٠/ ١٣٢٩ م ، ثم عرفت باسم قنطرة درب الجماميز ، ولما تم ردم الخليج سنة ١٨٩٨ اختفت القنطرة ، ومكانها اليوم فى نقطة واقعة بشارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجماميز الموصل إلى حارتى السلطان الحنفى والهياتم .

(٣) صحتها بركة الفيل .

(٤) الواقع أن هذين الإسمين هما لسيدة واحدة . الست حدق والست مسكة وهى الشهرة التى عرفت بها الست حدق . والجامع الذى أنشأته بخط المريس ذكره المقريزى فى الخطط (ج٢ ص ٣١٣) وكان فى الجانب الغربى للخليج بالقرب من قنطرة السد أنشأته سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م فى مكان منظرة السكرة ، وقد اندثر الجامع ولم يبق منه إلا القاعة التى بها ضريح الشيخ محمد المواردى الكائن بعشش الماوردى الواقعة جنوبى محطة السيدة زينب ، أما الجامع الآخر فلا يزال عامراً تقام فيه الشعائر الدينية بسكة سوق مسكة بالقاهرة ، وظاهر من الكتابة المنقوشة على بابه أنه أنشىء فى عام ٧٤٠هـ / ١٣٢٩م ، وفرغ من بنائه فى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م كما ذكره المقريزى . (م . رمزى) .

(٥) المقصود قنطرة السد التى كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر والقاهرة .

مساجـــــد القاهرة

وعمرت فى أيام الناصر محمد بالقاهرة عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعا ؛ منهـا : الجامع الناصرى بقلعة الجبل ، جدده وأوسعه ، ومنها الجامع الجديد الناصرى(١) على نيل مصر ، ومنهـا جامع الأمير طيبرس الناصرى نقيب الجيش على النيل بجوار خانقاته ، وقد اندثر من سنين ثم عمر طيبرس المذكور مدرسته(٢) المشهورة به بجوار الجامع الأزهر ، ولما خرب جامعه المذكور الذى كان على النيل نقل الصوفية الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة ، ومنها جامع المشهد النفيسى ، ومنهـا جامع الأمير بدر الدين محمد التركمانى بالقرب من باب البحر ، ثم جامع الأمير كوارى المنصورة بآخر الحسينية وجامع كريم الدين خلف الميدان . وجامع شرف الدين الجاكى(٤) بسويقة الريش وجامع الفخر ناظر الجيش(٥)

---

(١) اندثر هذا الجامع وقد ذكره المقريزى (ج ٢ ص ٣٠٤) عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد ، شرع فى بنائه سنة ٧١١ هـ ، وانتهت عمارته فى ٧١٢ هـ وكان من أكبر الجوامع وكان واقعـاً على سيالة جزيرة الروضة قبلى سواقى مجـرى المـاء القائمة على رأس حائط العيون التى عند فم الخليج فى المنطقة التى يخترقها اليوم شارع وحارة وعطفة السكر والليمون بمصر القديمة . (م . رمزى) .

(٢) عمر هذا الجامع الأمير عـلاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بشاطىء النيل فى أرض بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاه سنة ٧٠٧ هـ وقد خرب هذا الجامع وكانت الخانقاه باقية لغـاية سنة ١٩٢٦ باسم جامع الطيبرس أو جامع الأربعـين بشارع الشيخ بركات بقصر الدوبارة وقد أزالتها وزارة الأوقاف وأنشأت على أرضها فى عام ١٩٢٨ عمارة للاستغلال واقعة تجاه جامع الشيخ بركات .

(٣) أنشأها علاء الدين طيبرس فى غربى الأزهر مما يلى الجهـة البحرية ، تقع على يمين الداخل من الباب الكبير الغربى للجامع الأزهر المعروف بباب المزينين تجاه المدرسة الاقبغاوية المجمولة الآن مكتبة للأزهر الشريف وقد جددها عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣م .

(٤) مكان سويقة الريش اليـوم ، القسم الشرقى من سكة الناصرة ويتوسطه زاوية الشيخ محمد بن محمود الموصلى .

(٥) أنشأ هـذا الجامع فخر الدين محمد ناظر الجيش المعروف بالفخر حول سنة ٧٣٠ هـ ومكانه اليوم جامع معروف باسم الشيخ فرج ، جدده محمد بك طاهر فى سنة ١٢١٨ هـ كما هو موضح فى اللوح المثبت بأعلى باب المسجد ، يقع بشارع جزيرة بدران من الجهة الغربية من النيل بقسم روض الفرج، وكان النيل يسيراً قديماً تحت هذا الجامع ولسبب طرح البحر ابتعد الجامع عن النيل .

على النيل فيما بين بولاق وجزيرة النيل ، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة ببولاق(١) . وجامعاً ثالثاً بالروضة(٢) وجامعاً بناه الأمير حسين بالحكر(٣) وبنى له قنطرة(٤) على الخليج بالقرب منه ، وجامع الأمير قيدان الرومى(٥) بقناطر الأوز(٦) . وجامع دولة شاه مملوك العلائى بكوم الريش(٧) وجامع الأمير ناصر الدين

---

(١) أنشأه فخر الدين محمد ناظر الجيش حول سنة ٧٣٠ هـ ولا يزال موجوداً باسم جامع أبى العلاء ببولاق ، جدده الخواجه نور الدين على حول سنة ٨٩٠ هـ ، وقد عمل فى هذا الجامع عدة عمارات آخرها تمت فى سنة ١٩٣٥ بعد توسيع مساحته من ٨٤٣ مترا إلى ١٢٦٤ مترا مربعاً .

(٢) أنشأه فخر الدين محمد ناظر الجيش سنة ٧٣٠ هـ (الخطط جـ ٢ ص ٣١١) وهو باق بجزيرة الروضة وجدده السلطان قايتباى فى عام ٨٨٦ هـ ، وزاد فيه زيادة أخرى فى عام ٨٩١ هـ ، ويعرف اليوم بجامع الفخر أو جامع المقس أو جامع قايتباى .

(٣) أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر سنة ٧١٩ هـ على قطعة من بستان بجوار غيط العدة . ولما مات دفن به (٧٢٩ هـ) ، والجامع قائم اليوم بحارة الأمير حسين من جهة ميدان أحمد ماهر .

(٤) قنطرة الأمير حسين ورد ذكرها فى الخطط (جـ ٢ ص ١٤٧) وكانت تقع على الخليج الكبير ويتوصل منها إلى بر الخليج الغربى حيث جامعه الذى أنشأه بحكر النوبى (الحاشية السابقة) وقد أنشئت فى أواخر سنة ٧١٩ هـ وبقيت إلى عام ١٨٩٧ حينما ردم الخليج ومكانها اليوم فى الزاوية البحرية الغربية بميدان أحمد ماهر تجاه مدخل حارة الأمير حسين، وكان للأمير حسين داراً فتح من أجلها خوخة فى سور القاهرة الغربى تجاه جامعه وقنطرته المذكورة (محمد رمزى) .

(٥) ذكر المقريزى هذا الجامع (الخطط جـ ٢ ص ٣١٢) وكان يقوم خارج القاهرة على الجانب الشرقى للخليج فى ظاهر باب الفتوح تجاه أرض البصل .

(٦) مكان قناطر الأوز بشارع بور سعيد تجاه الحارة التى اسميت حارة قنطرة الظاهر انشأها الملك الناصر محمد فى سنة ٧٢٥ هـ وكانت هذه القناطر من أجمل متنزهات القاهرة أيام وجود الماء فى الخليج لما على حافته الشرقية من البساتين الجميلة وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظرة البعل وبها عرفت أرض البعلى التى هناك وقد بقيت هذه القنطرة حتى عام ١٨٩٧ . هذا وقد شيد السلطان الناصر قنطرة أخرى عرفت بقنطرة الظاهر أو القنطرة الجديدة وكان يتوصل إليها من زقاق الكحل وخط جامع الظاهر (٧٢٥ هـ) وعرفت أيضاً باسم قنطرة الامير .

(٧) عمره دولة شاه ، وقد اندثر من سنة ٨٠٦ هـ وقد ذكره المقريزى فى الخطط (جـ ٢ ص ٣٢٥) أمام كوم الريش فيما بين أرض النيل ومنية السيرج من أجل متنزهات القاهرة، وكان به سوق عامر وجامعان لأحدهما منارة عجيبة وقد خرب كوم الريش سنة ٨٠٦ هـ .

الشرابيشي الحراني بالقرافة . وجامع الأمير آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج(١) وجامع الأمير آق سنقر شاه العمائر(٢) قريبا من الميدان(٣) . وجامعا خارج باب القرافة(٤) عمره جماعة من العجم . وجامع التوبة(٥) بباب البرقية(٦) عمره مغلطاي أخو الأمير الماس . وجامع بنت الملك

---

(١) ذكره المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٣١٢) باسم جامع نائب الكرك وقد اندثر ، وكان واقعاً بشارع رمسيس تجاه مدخل شارع محمود باشا فهمي (شارع المدارس سابقا) بخط السكاكيني .

(٢) ذكره المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٣٠٩) وقد أنشيء حول سنة ٧٢٥ هـ ولايزال موجودا يعرف اليوم بجامع أبو طبل نسبة إلى الشيخ محمد أبوطبل المدفون فيه ووجهته غريبة محجوبة بدكاكين وليس ظاهراً منها إلا باب الجامع بشارع المذبح بخط حارة السقايين (محمدرمزي) .

(٣) يرجح محمد رمزي أن هذا الميدان هو ميدان المهاري لأنه أقرب الميادين إلى جامع آق سنقر شاه العمائر . وذكر المقريزي ميدان المهاري في خططه (ج ١ ص ١٩٩) بأنه بالقرب من قناطر السباع في بر الخليج الغربي من جملة جنان الزهري . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٠ هـ وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق تلاشى أمر الميدان . وموقع هذا الميدان اليوم في المنطقة التي تحد من الجنوب بشارع المبتديان (عز العرب) ومن الشرق بشارع الناصرية ومن الشمال شارع جامع الاسماعيلي ومن الغرب شارع نوبار باشا .

(٤) اندثر هذا الجامع وأقيم في مكانه مقابر ضخمة فيجبانة جلال الدين السيوطي الواقعة جنوبي القلعة خلف السجن .

(٥) صوب محمد رمزي اسم هذا الجامع فجعله جامع البرقية بدلا من التوبة ، ذكره المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٣٢٦) عمره مغلطاي الفخري أخو الأمير الماس الحاجب وكمل في المحرم سنة ٧٣٠ هـ . ولايزال الجامع موجودا ويعرف بجامع الغريب نسبة إلى الشيخ الغريب المدفون فيه وقد جدده الأمير عبدالرحمن كتخدا في سنة ١١٦٨ هـ كما هو مذكور في اللوح الرخامي المثبت باعلا الباب وكان هناك مشروع لهدم الجامع وبناء آخر بدلا منه .

(٦) بابالبرقيه أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقي ، أنشأه جوهر في عام ٣٥٩ هـ ، وذكره المقريزي في خططه (ج ١ ص ٣٨٠) و (ج ٢ ص ٧٨) وقد كان هناك بابان عرفا باسم باب البرقية أحدهما أنشأه جوهر والثاني أنشأه صلاح الدين في سور القاهرة الشرقي الخارجي ، وقد تكلم عنه القلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) ولايزال هذا الباب موجودا إلا أنه مطمور في التراب تحت التل الواقع على يمين الداخل في الطريق المعروفة بقطع المرأة الموصلة من شارع الغريب إلى جبانة المجاورين والعفيفي (محمد رمزي — النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٥) .

الظاهر[١] بالجزيرة المستجدة المعروفة بالوسطانية[٢] وجامع الأمير الماس الناصرى الحاجب بالقرب من حوض ابن هنس[٣] بالشارع الأعظم خارج القاهرة . وجامع الأمير سيف الدين قوصون الناصرى[٤] بالقرب منه أيضا على الشارع وخارج القاهرة . وله أيضا جامع خانقاه[٥] خارج باب القرافة وجامع[٦]

---

(١) أنشىء هذا الجامع حول سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م، ومكانه اليوم جامع الجزيرة الحالى، وقد تجدد عدة مرات آخرها تجديد الخاصة الملكية بأمر الخديوى اسماعيل فى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٧١م . وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية وواقع على النيل فى حديقة النهر بأرض الجزيرة الكبرى بالقاهرة ، وقد تجدد أخيراً .

(٢) الجزيرة الوسطانية والوسطى هى بذاتها جزيرة أروى التى ذكرها المقريزى (جـ ٢ ص ١٨٦) تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ — ١٣٠١م ، وبنى فيها الناس الدور والأسواق والجوامع والطواحين وغرسوا فيها البساتين وحفروا فيها الآبار وصارت من متنزهات القاهرة ، يحف بها الماء من جميع جهاتها ثم تلاشى منها أغلب ما كان بها فى شراقى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، وقد أوضحت على خريطة القاهرة التى رسمتها الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠ باسم جزيرة بولاق وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو الجزيرة الكبيرة أو جزيرة الزمالك أو جزيرة العرض وهى الآن من أحسن المواقع للسكنى بالقاهرة والتنزه، وبها نواد رياضية ومستشفيات وفندق البرج والبرج ومتحف مختار .. الخ . أما الزمالك فهى كلمة تركية معناها المشش التى تنصب من القش أو الغاب لإقامة الجند . (محمد رمزى) .

(٣) لايزل جامع الماس موجودا بأول شارع الحلمية من جهة شارع محمد على (القلعة) بالقاهرة ، وقد أنشىء ٧٢٩ وكمل فى سنة ٧٣٠ هـ / وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بعدة اصلاحات انتهت منها فى سنة ١٩١١ (الخطط جـ ٢ ص ٣٠٧) .

(٤) جامع قوصون (الخطط جـ ٢ ص ٣٠٧) ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ٧٣٠ هـ ولم يبق منه اليوم إلا بوابته الشرقية التى بشارع السروجية وبوابته البحرية التى بداخل درب الأغوات وبقايا زخارف وشبابيك جصية بالحائط البحرى وقد أخذ جزء من هذا الجامع أثناء شق شارع محمد على (القلعة) ويسمى العامة هذا الجامع بجامع قيسون .

(٥) يقع هذا الجامع خارج باب القرافة تجاه خانقاه قوصون ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية وربما يكون هـذا هو جامع قوصون بذاته ، جدده مسيح باشا والى مصر فى سنة ٩٨٤ هـ ، ويعرف أيضاً بجامع الشيخ القرافى المدفون فيه وهو خارج باب القرافة جنوبى سجن المنشية بشارع المسيحيـة .

(٦) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣ من الجزء ٨ (النجوم الزاهرة) .

الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى بساحل بولاق وجامع[١] أخى صاروجا بشون القصب[٢] وجامع الأمير بشتاك[٣] الناصرى على بركة الفيل تجاه خانقاه[٤] . وجامع الأمير آل ملك بالحسينية[٥] وجامع الست حدق الدادة فيما بين السد وقناطر السباع . وجامع الست مسكة قريباً من قنطرة آق سنقر[٦] وجامع الأمير الطنبغا المارداني[٧] خارج باب زويلة .

---

(١) ذكره المقريزى باسم جامع صاروجا (ج ٢ ص ٣١٥) ، وقال عنه أنه يطل على الخليج الناصرى بخطة جامع العرب بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى انشأه الناصر الدين محمد أخو الأمير صاروجا نقيب الجيش عام ٧٣٠ هـ ، وقد اندثر الجامع ، وكان واقعاً بشارع أرض الحرمين قرب تلاقيه بشارع الظاهر حيث كان يمر الخليج الناصرى فى تلك الجهة .

(٢) كانت تقع هذه الشون بأرض الحرمين التى كان بها الجامع المذكور فى الحاشية السابقة .

(٣) عمر هذا الجامع الأمير بشتاك وكمل فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وقد جدد فى سنة ١٢٧٧ هـ (الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٦٥) ولايزال هذا الجامع قائماً بشارع درب الجماميز بالقاهرة ويعرف بجامع مصطفى باشا فاضل من وقت أن جددته الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى فاضل (١٢٧٧ هـ) .

(٤) ذكرها المقريزى فى خططه (ج ٢ ص ٤١٨) باسم خانقاه بشتك وقد اندثرت ومكانها اليوم سبيل الأميرة ألفت هانم قادن ، أنشأته فى سنة ١٢٨٠ هـ بشارع درب الجماميز تجاه جامع بشتك المذكور فى الحاشية السابقة .

(٥) اندثر هذا الجامع وأقيم على أرضه قبور وكان واقعا بشارع نجم الدين تجاه جامع الخواص من الجهة الشرقية بجبانة باب النصر بالقاهرة أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك وكمل ، وأقيمت فيه الخطبة سنة ٧٣٢ هـ . (محمد رمزى) .

(٦) ذكر المقريزى قنطرة آق سنقر (ج ٢ ص ١٤٧) ، فقال أنها كانت على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو الكرمانى ومن حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحبانية ، وذكر ابن اياس أنها أنشئت حول سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وقد كانت موجودة حتى عام ١٨٩٨ باسم قنطرة سنقر ، وبردم الخليج المصرى اختفت القنطرة ومكانها اليوم شارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر بالقاهرة .

(٧) يقع جامع الطنبغا المارداني فى شارع التبانة بالدرب الأحمر خارج باب زويلة (الخطط ج ٢ ص ٣٠٨) وأقيمت أول خطابة فيه يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ٧٤٠ هـ (ولايزال هـذا الجامع موجودا وهو مقصد رجال الفن الإسلامى لمشاهدة جمال زخارفه .

وجامع المظفر [١] بسويقة الجيزة من الحسينية . وجامع جوهر السحرتى [٢] قريبا من باب الشعرية [٣] وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة [٤] وغير ذلك من المدارس والمساجد . وهذا كله عمر .

ومن الجوامع والمدارس التى تعتبر من منشآت عصر الملك الناصر محمد فى القاهرة ، ذكر المؤرخ محمد رمزى العمائر الآتية [٥]

(ا) المدرسة القراسنقرية ، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة سنة ٧٠٠ هـ ومكانها اليوم مدرسة الجمالية الابتدائية بشارع الجمالية (الخطط جـ ٢ ص ٣٨٨) .

(ب) المدرسة السعدية أنشأها الأمير شمس الدين سنقر السعدى نقيب المماليك السلطانية فى سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ولا تزال قائمة إلى اليوم بشارع السيوفية وكانت مستعملة تكية للمولوية (الخطط جـ ٢ ص ٣٩٧)

(حـ) المدرسة المهمندارية أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزى المهمندار ونقيب الجيش فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ، ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع المهمندار بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر (الخطط جـ ٢ ص ٣٩٩) .

---

(١) ذكره المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٢٦) باسم جامع ابن الفلك (مظفر الدين) وهو اليوم الجامع المعروف باسم جامع البيومى بخط الحسينية بالقاهرة ، جدده عثمان أغا فى سنة ١١٨٠ هـ كما هو مكتوب بأعلى بابه . وفى سنة ١٩٣٩ أجرت فيه وزارة الأوقاف اصلاحات من الداخل وبه ضريح الشيخ على البيومى .

(٢) ذكره المقريزى باسم جامع الطواشى (الخطط جـ ٢ ص ٣٢٥) وقد انشأه الطواشى جوهر السحرتى اللالا الصالحى فى سنة ٧٤٢ هـ / فى عهد الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أى بعد وفاة الناصر بسنتين ، ولايزال هذا الجامع موجودا باسم جامع الطواشى بشارع الطواشى بقسم باب الشعرية .

(٣) باب الشعرية أحد أبواب القاهرة فى سورها البحرى الذى أنشأه صلاح الدين غربى الخليج المصرى وقد سمى باسم طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية وكان يقع فى ميدان العدوى على رأس سوق الجراية قبل توسيع الميدان المذكور . وقد أزيل هذا الباب سنة ١٨٨٤ لخلل مبانيه .

(٤) ذكره المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٢٤) انشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، وأقيمت أول خطبة فيه يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٦٨٣ هـ وقد اندثر وزالت معالمه وكان واقعاً بجبانة الإمام الليثى بالقرب من تربة الفخر الفارسى خارج القاهرة ، وقد بنى فى عهد الملك منصور قلاوون .

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(ى) المدرسة الملكية أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصري في سنة ٧١٩ هـ ، كما هو ثابت بالنقش على بابها ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع الجوكندار بشارع أم الغلام بقسم الجمالية وتسميه العامة زاوية حالومة وهو رجل مغربي طالت خدمته بهذا المسجد فعرف به (الخطط جـ٢ ص٢٩٢)

(هـ) جامع ابن غازى انشأه نجم الدين بن غازى دلال المماليك في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م، ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ نصر بشارع درب نصر ببولاق (الخطط جـ ٢ ص ٣١٣) .

(و) جامع ابن صارم ، انشأه محمد بن صارم شيخ بولاق ، من منشآت عصر الملك الناصر محمد ومكانه اليوم جامع الشيخ عطيه بدرب نصر ببولاق (الخطط جـ ٢ ص ٣٢٥) .

(ز) جامع الشيخ سعود ، أنشأه الشيخ سعود بن محمد بن سالم العياط في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ ولا يزال قائماً إلى اليوم باسم جامع الشيخ سعود بعطفة الشيخ سعود بدرب الإقماعية بقسم باب الشعرية (الخطط جـ٢ ص١٠٧) .

(ح) جامع فلك الدين فلك شاه وهو منشئه في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م كما هو ثابت من النقش في لوح الرخام الموجود بأعلى محراب المسجد ، ولا يزال هذا الجامع موجودا ومعروفا باسم جامع الجنيد بشارع الفرب الجديد بقسم السيدة زينب .

* * *

مدرسة السلطان حسن

وكمثال واضح لطراز المبانى فى القرن الرابع عشر ، لا نجد خيراً من ذلك البناء الرائع ، وهو مدرسة وجامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة فى العصر الناصرى ، وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى فى سنة (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه فى عام ٧٥٢ هـ ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ/ ١٢٥٤ —١٣٦١م) ، ولم يكن محبوبا أو محترما وعمله الوحيد الطيب الذى تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن ، وهو أجمل جوامع القاهرة وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى ، وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعماية وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل ، لا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هـذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد ، وأرصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنيه) ولقـد قيل أنه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم ، وذراع هذا الإيوان خمس وستون ذراعا فى مثلها ، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بالمدائن فى العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة، وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر ، فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من الدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس ، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها .

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى ... بشيره بمقال سار كالمثل
أن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها إلى الميل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما ، ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسما منه بشير الجمدار[1] .

---

(١) كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر عام ١٩٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد ، واسمه محمد بن بيليك مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة الحنفية — تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١

ويبلغ ارتفاع جدران هـذا المسجد ١١٣ قدما مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجمل مظاهر الجامع طنفه الفخم المكون من ست حطات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى ويتوجن جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية — والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة .

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقاً عن خارجه ، فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا ، فى مقصورة القبر كتبت آية الكرسى بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين ، وتعلو المقصورة القبة الجديدة ، وهى ليست بقبة الجامع الأصلية . فقد تهدمت فى عام ١٦٦٠، وكان قد وصفها « بيتروديلافالى » الرحالة لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م .

هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية المطلية بالبناء لا تزال محفوظة فى متحف الفن الإسلامى ، ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة جامعه بجوار باب زويلة ، اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامعه عام ٨١٩ هـ — ١٤١٦ م .

وكان هذا الجامع مركزمقاومة ضد قلعةالجبل فقلماتكون فتنة بين زعماء الدولة حتى يصعد إلى سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمى منه على القلعة ، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المنارتين ويصل الإنسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ،

وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان يجانب هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود إليه ، وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الأذان على درج هذا الباب ، ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزاً للمناوشات وتبادل الطلقات لفترة طويلة ولا تزال آثار بعض «الجلل» باقية عليه للآن ، وقد ذكر « ستانلى لين بول » أن أحدى مأذنتى الجامع كانت تتصل بسور القلعة بحبل كان يلعب عليه » بهلوان أوروبى » تسلية للجماهير التى كانت تفد لمشاهدة مخاطراته — ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقاراً بالرغم عما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة — وهو لا يزال أعز وأفخر أثر إسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

المدارس المملوكية

ولقد أسس فى أنحاء القاهرة على أيام المماليك مدارس كثيرة ، فأنشأ الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية عام ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ ، ورتب بهـا لتدريس — الشافعية تقى الدين بن رزين ، وللحنفية محب الدين عبد الرحمن ، ولتدريس الحديث الحافظ مشرف الدين الدمياطى ، ووقف بها خزانة كتب، كما بنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين وأوقف عليها ربع السلطان خارج باب زويلة (تحت الربع اليوم) ، وكانت من

أجل مدارس القاهرة ولكن اضطرابات إدارتها وتنازع الحنفية والشافعية وأولاد الظاهر ، أدى إلى ضعفها وفساد أمرها[1] .

المدرسة الظاهرية الجديدة :

أسس الظاهر هذه المدرسة التى تمت عمارتها فى رجب سنة ٦٦٨ هـ ، وتولى تدريس الحنفية بها علاء الدين السيرامى، والشافعية وحيد الدين الرومى والمالكية شرف الدين بن مكين ، والحنابلة صلاح بن الأعمى وكان أستاذ التفسير الشيخ سراج الدين البلقينى[2]

المدرسة المنصورية :

أنشأها هى والقبة التى تجاهها والبيمارستان ، الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ — ١٢٨٤م، وموقعها داخل باب البيمارستان بالنحاسين (الآن) ، ورتب بها دروساً للمذاهب الأربعة وجعل بالقبة خزانة كتب[3] .

المدرسة الناصرية :

بدأ بناءها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى، ووضع أساسها لكنه خلع بعد بدء العمل فيها بقليل ، فلما جاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أتمها ، وكان ذلك فى عام ٧٠٣ هـ — ١٣٠٤م قال عنها المقريزى إنها من أجل مبانى القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم ، فإنه من الرخام الأبيض البديع الفائق الصناعة ، وأول من رتب فى تدريسها قاضى القضاة زين الدين المالكى ، وشرف الدين عبد الغنى الحنبلى ، وأحمد بن السروجى الحنفى[4] ، وصدر الدين محمد المعروف بابن الوكيل الشافعى ، وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر فى كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحى فى كل سنة .

المدرسة الطيبرسية :

كانت ملحقة بالأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش وقرر بها درساً

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٣) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ — ٢١٩
(٤) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

للشافعية ، تأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع زى وأحسن قالب ، وقد بلغت النفقة عليها جملة كثيرة . تم بناؤها عام ٧٠٩هـ — ١٣٠٩م ، وكان بها خزانة كتب(١) .

المدرسة الجاولية :

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى سنة ٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م وجعلها لطلاب العلم والصوفية وكان هذا الأمير من علماء الشافعية ، وله فى الفقه الشافعى مصنفات(٢) وهى قريبة من جامع ابن طولون .

المدرسة الجمالية :

شيدها الأمير الوزير عــلاء الدين مغلطاى الجمالى سنة ٧٣٠هـ — ١٣٢٩ — ٣٠ م وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية وولى تدريسها ومشيخة المتصوفة . وكان شأن هذه المدرسة كبيراً ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظاهرها وفى سورية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى الفقه(٣) .

المــدرسة الأقبغاوية :

أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ — ١٣٣٩ — ٤٠ م وقرر فيها دروس الشافعية والحنفية وجعل فيهــا عدة من الصوفية ، وكانت ملحقة بالأزهر وعمرها عبد الرحمن كتخدا الذى جدد المدرسة الطيبرسية نشأة جديدة وجعلها مع هذه المدرسة المقابلة لها من داخل الباب الــكبير الذى أنشأه خارجها .

المدرسة الصرغتمشية :

بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦م وخصصها للفقهاء الأحناف ورتب بها دروساً للحديث وهى ملاصقة لجامع بن طولون(٤)

---

(١) المقريزى : الخطط ج٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٣) « . ج ٤ ص ٢٣٨

(٤) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٢٥٦ .

مدرسة مسجد السلطان حسن :

وهى من أعظم عمائر القاهرة الإسلامية ، شيدها السلطان حسن بن الناصر محمد فى الفترة الثانية من حكمه . بدأت عمارتها سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦م واستمر العمل فيها ثلاث سنوات ولكنها لم تكتمل إلا سنة ٧٦٤ هـ بعد وفاة السلطان حسن بعامين ، وكانت المدرسة للمذاهب الأربعة ، وممن تولوا التدريس بها العالم الشافعى بهاء الدين السبكى (١) .

المكتبات فى عصر المماليك البحرية

ومما يوضح ازدهار الثقافة فى هذا العصر ، وجود عدد كبير من المكتبات الملحقة بالمدارس التى أنشأها المماليك . ومن أولى تلك المكتبات ، المكتبة الظاهرية التى ألحقها الظاهر بيبرس بمدرسته بخط بين القصرين سنة ٦٦٢ هـ ، وقد اشتملت على أمهات الكتب فى شتى العلوم (٢) وكان بجامع الظاهر الكبير خزانة كتب . وقد وقف الشيخ الفقيه يحيى بن عبد الوهاب سنة ٧٢١ هـ كتبه على تلك الخزانة .

وقد كان بالمدرسة المنصورية التى أسسها المنصور قلاوون بخط بين القصرين فى سنة ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ خزانة كتب جليلة وكان مكانها بالقبة (٣) وقد أمدها السلطان بالمصاحف الشريفة وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدب والشعر . وقد رتب المنصور لخازن كتبها فى كل شهر أربعين درهماً وله خمسة مساعدين ، كما جعل له خدم وقومة وفراشون وبوابون (٤) .

وكان فى المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية خزانة كتب جليلة ، أدركها المقريزى وتكلم عنها . وقد زودت المدرسة المنكوتمرية التى أنشأها سيف الدين منكوتمر الحسامى بحارة بهاء الدين بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ بخزانة كتب (٥) . كما احتوت أيضاً المدرسة الطيبرسية التى أسسها علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش فى عهد السلطان لاجين سنة ٧٠٩ هـ على خزانة كتب عظيمة (٦) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١١٧ .

(٢) « السلوك جـ ١ ص ٥٠٤ والخطط جـ ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) « الخطط جـ ٢ ص ٣٨٠ ، ٤٠٧

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ص ١٨

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٧ .

(٦) « الخطط ٢ ص ٣٨٣ .

واشتملت أيضاً مدرسة سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصرى وكانت تجاه داره بخط المشهد الحسينى على خزانة كتب معتبرة[١] . وقد كان فى مدرسة خوندتتر الحجازية ابنة السلطان محمد بن قلاوون التى أنشأتها سنة ٧٦١ هـ خزانة كتب قيمة عامرة بالمؤلفات فى مختلف العلوم — كما أنه كان فى مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان وزوجة الأمير الجاى اليوسفى بالتبانة (٧٧١ هـ) مكتبة احتوت على الكتب والمصاحف الشريفة .

وقد زودنا الدكتور عبد اللطيف فى كتابه المفيد بثبت طيب اشتمل على هذه المكتبات النفيسة ، فذكر أنه كان فى المدرسة الصاحبية البهائية التى أنشأها الصاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ هـ فى زقاق القناديل بمصر القديمة ، خزانة كتب جليلة وربما يرجع الفضل فى ذلك إلى قربها من سوق الكتب فى تلك المنطقة . أما مدرسة صرغتمش التى أنشأها هذا الأمير سنة ٧٥٧ هـ بجوار جامع ابن طولون فقد زخرت بكتب الفقه الحنفى والحديث والمصاحف . وقد كان بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون بخط سوق الخيل بالقلعة (٧٥٧ — ٧٦٤ هـ) مكتبة عظيمة احتوت على كتب علم الحديث ومصطلحه وكتب اللغة والنحو[٢] وقد كانت مكتبة المدرسة الأشرفية التى شيدها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكملت عمارتها فى سنة ٧٧٧ هـ ، من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف ، ولكن هذه المدرسة لم تطل مدة بقائها ، فقدهدمها السلطان فرج بن برقوق ثم شيد مكانها المؤيد شيخ المحمودى البيمارستان المؤيد سنة ٨٢١ — ٨٢٣ تحت قلعة الجبل[٣] .

وقد كان أمناء مكتبات المدارس المملوكية يتقاضون مرتبات متفاوتة تبعاً لمركز الأمين أو الخازن وسمعته ومهمته ، ومقدار ما يسهم به من أعمال فنية وادارة وغيرها فى المكتبة ، وتبعاً لمقدار ريع الوقف السنوى ، وقد جاء فى كتاب دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية «بيان المرتب الشهرى لبعض أمناء المكتبات المملوكية[٤]» .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) وثيقة السلطان حسن . أوقاف ٨٨١ ص ١٢ و ٤٢٦ و ٤٤٢ و ٤٤٥ محكمة ٤٠ و ٤٢ محفظة ٦ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٨ .

(٤) أمين مكتبة السلطان المنصور قلاوون — ٤٠ درهم ، أمين مكتبة السلطان محمد بن قلاوون — ٣٠ درهم ، أمين مكتبة الأمير صرغتمش — ٥٠ درهم أمين مكتبة السلطان حسن بن قلاوون — ١٠ دراهم ص ٨١ .

تحول شاطىء النيل واتساع القاهرة المملوكية

كان شاطىء النيل الشرقى فى العصر الفاطمى يمر تقريباً بشارع عمادالدين (محمد فريد حالياً) فقرية أم دنين حيث جامع أولاد عنان ، فميدان رمسيس فى المكان الذى تقوم عليه محطة كوبرى الليمون ، ثم يسير النيل شمالا متجهاً إلى الشرابية وإلى منية السيرج ، ومنها إلى المكان الذى به اليوم فم الترعة الاسماعيلية .

ولكن حدث فى أواخر حكم الفاطميين أن غرق فى النيل بالقرب من شمالى المقس ثغر القاهرة مركب اسمه « الفيل » وترك فى مكانه ، فتراكمت فوقه الرمال وسرعان ما ظهرت هناك جزيرة وسط المياه ارتفعت أراضيها تدريجياً ، فعرفت فى ذلك الوقت باسم جزيرة الفيل . ثم اتسعت مساحة الجزيرة ، واتخذت شكلها النهائى عام ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م ، فزرعت فى أيام صلاح الدين الأيوبى وأوقفت أراضيها على المدرسة الصلاحية التى أنشئت إذ ذاك بالقرافة الصغرى بجوار قبر الإمام الشافعى ، واستمرت مساحة هذه الجزيرة فى الزيادة حتى كانت أيام قلاوون ، فأمر بوقف الأرض التى زادت على حدود هذه الجزيرة على بيمارستانه المعروف بالنحاسين [١] .

وفى عام ٦٨٠ هـ — ١٢٨٢ م فى عصر قلاوون ظهرت فى النيل الأرض المعروفة الآن باسم بولاق ، ثم طمست السيالة التى كانت واقعة فى الشرق والشمال من جزيرة الفيل ، فاتصلت هذه الجزيرة بأرض بولاق وبالشاطىء الشرقى القديم للنيل أمام القاهرة .

بولاق

وانتقل شاطىء النيل الشرقى أمام القاهرة فى أثناء حكم المماليك البحرية (الظاهر بيبرس) نتيجة لطرح النيل الخامس ، الذى ظهر حوالى عام ٦٥٢ هـ — ١٢٥٤ م ، فقد طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الأول (٦٩ هـ — ٦٨٨ م) الذى حدث فى زمن حكم الدولة الأموية ، وولاية عبد العزيز بن

---

(١) مكان جزيرة الفيل اليوم هى المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ، وكان يحدها وقت أن كانت وسط المياه من الغرب النيل حيث يمتد الآن طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يقع الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة فى ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطبالة التى تشمل منطقة محطة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى وبين أرض البعل التى تعرف اليوم بالشرابية ومهمشة وبين منية السيرج ، ومنها إلى فم الترعة الاسماعيلية ثم عرفت الجزيرة بالعهد التركى .

مروان على مصر . اتصل الطرح الخامس أيضاً بالقسم الجنوبى من الطرح الثالث (٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م فى أيام الدولة الفاطمية) فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص (كورنيش النيل حاليا) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع قصر العينى بشارع اسماعيل باشا سرى بالمنيرة .

ليس هذا فحسب . فقد حدث فى أوائل حكم المماليك البحرية الطرح السادس الذى ظهر حوالى ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م إذ طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين ميدان التحرير وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع ماربيت باشا بشارع رمسيسس (الملكة نازلى سابقاً) .

ولنعد ثانية إلى الأرض التى عليها اليوم قسم بولاق بأكمله ، فقد ظهرت نتيجة للطرح السابع الذى ظهر حوالى ٦٨٠ هـ — ١٢٨٢ م ، وظلت بولاق ثغراً لمدينة القاهرة منذ ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م حتى أيام الوالى سعيد حينما أنشأ أول خط سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦ ، فأخذت مكانة بولاق فى الأفول ، ولكنها عادت مرة ثانية إلى الصعود حينما أنشىء الطريق الذى يربطها بالأزبكية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذت بولاق تتسع فى عمارتها حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة فى الثلث الثانى للقرن التاسع عشر .

وفى أيام الناصر محمد بن قلاوون امتد العمران بين باب الخلق والسيدة زينب بعد أن استجد أكثر من ستين حكراً على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع — (ميدان السيدة زينب) .

وكان لتحولات شاطىء النيل إلى الغرب فى أيام المماليك البحرية فضل كبير فى زيادة رقعة مصر والقاهرة وقد وصف المدينة ابن فضل الله العمرى المؤرخ الجغرافى فى القرن الرابع عشر بقوله :

« ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصاً بعد خراب الفسطاط عام ٥٦٤ هـ — ١١٦٨ م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا من القصور العالية والدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والجوائق الفاخرة ، مما لا يسمح بمثله فى قطر من الأقطار ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار(١) .

ومن الطريف أنه فى سنة ٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م أمر الناصر محمد بن قلاوون بالقبض على المنجمين وتسليمهم إلى والى القاهرة فضربوا وحبسوا(٢) وكان هؤلاء ينصبون على النساء ويغررون بهن .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢٤ ص ١٦١ .

ويعزى إلى هذا السلطان تجميله لبركة الفيل والحفاظ على رونقها ، فانه أمر بإقامة حوائط بطول البركة ليحجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم [١] .

وفي أيام الناصر محمد ، أنشأ الأمير آق سنقرشاد العمائر السلطانية قنطرة سنقر على الخليج الكبير تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر .

أرض اللوق

عرفت بخط الاسماعيلية وكانت تشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع قنطرة الدكة ومن الغرب بشارع رمسيس (الملكة نازلي سابقاً) إلى أوله عند مضخات مصلحة المجاري ، ثم ينعطف الحد إلى قصر النيل ويسير محاذيا للنيل إلى كوبري النيل (محمد علي سابقاً) ومن الجنوب بمستشفى قصر العيني وشارع بستان الفاضل ومن الشرق بشارع بور سعيد (الخليج المصري سابقاً) فشارع سعد الدين فشارع نوبار باشا إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان ، ثم ينعطف الحد نحو الشرق حتى يتصل بشارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً) عند نقطة تلاقيه بشارع التحرير (الخديو اسماعيل سابقاً) ثم يستقيم الحد متجهاً إلى الشمال في شارع محمد فريد إلى أن يتقابل مع الحد البحري عند شارع قنطرة الدكة .

وكان الحد الشرقي لأرض اللوق هو مكان الشاطىء الشرقي للنيل لغاية عام ٦٨٨ م أي أن النيل كان يجري عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق[٢] وقد ظهرت اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طروحات أخرى في أوائل أيام دولة المماليك البحرية[٣] وسميت لوقا لأنها كانت أرضاً لينة تلاق لوقاً عند زراعتها بعد الفيضان الذي كان يغمرها وتزرع زراعات شتوية أسوة بأراضي اللق في أراضي الحياض .

وقد أنشىء بأرض اللوق ، البساتين والمنشآت مثل منشاة القاضي الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستانه ومنشأة الكتبة وغيرها مما ذكره المقريزي ثم زالت تلك المنشآت وبقيت اللوق أرضاً زراعية إلى عام ٦٦٠ هـ — ١٢٦١ حينما قدم على مصر طائفة من التتر ، فأنزلهم الملك الظاهر بيبرس في دور كان قد

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٢) محمد رمزي : النجوم الزاهرة .

(٣) فؤاد فرج : القاهرة جـ ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

أمر ببنائها لهم فى أراضى اللوق، ومنذ ذلك الحين أصبحت بها عدة أحكار عامرة بالسكان، ثم خربت وتحولت هذه الأراضى إلى أراضى زراعية مرة ثانية وبقيت على ذلك إلى عام ١٨٥٨ ، وفى زمن الخديو إسماعيل بدأ الأهالى فيها بالعمارة والبناء حتى شغلت المنطقة بالدور والقصور وتخللتها الشوارع والميادين ؛ وقد عرفت بخط الاسماعيلية نسبة إلى الخديو اسماعيل . .

المجتمع العلمى فى أيام المماليك

ازدهرت مصر فى أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء الذين خدموا الأمة العربية ، ويقابلنا ابن الحاجب العالم اللغوى الشهير[١] والمتوفى عام ١٢٤٨ م . وقد كان مؤلفه « الكافى » فى قواعد اللغة العربية مرجع أجيال متعاقبة من الطلاب والمتعلمين فى المدارس الإسلامية ، بل وتناول العلماء كتابه بالشرح والإيضاح والتعليق عليه .

وكان ابن هشام[٢] أيضا (١٣٠٨ — ١٣٦٠) ، بالرغم من أنه كان فى وقت ما أستاذ دراسات القرآن فى القاهرة — من علماء اللغة ، واشتهر فى هذا اللون من التأليف ، كما اشتهر فيه مثله بدر الدين الدماميني (١٣٦٢ — ١٤٢٤) ، وهو من مواليد الاسكندرية[٣] ، وظهر من كتاب النثر العالم الزبيدى (توفى فى عام ١٧٩١م) صاحب قاموس تاج العروس ، وقد طلب العلم فى مصر حيث قضى الشطر الأكبر من حياته .

وتلقى جلال الدين السيوطى — وهو من أعظم رجالات المسلمين الذين ألفوا المعلمات (دوائر المعارف) من أهالى أسيوط . وقد تولى عدة وظائف عامة فى القاهرة ، ثم ركن إلى جزيرة الروضة متقاعداً عن

---

(١) هو العلامة عثمان بن عمر بن أبى بكر الكردى المالكى النحوى الفقيه ، المعروف بابن الحاجب المولود بعد سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م باسنا والمتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ . راجع ترجمته فى المنهل الصافى ج ٤ ص ٤٤ — ٤٧ .

(٢) هو العلامة عبد الله بن يوسف بن هشام جمال الدين النحوى الحنبلى المولود سنة ٧٠٨ هـ والمتوفى سنة ٧٦١هـ ، راجع ترجمته فى المنهل الصافى ج ٣ ص ٥٥١ .

(٣) هو العلامة المحقق محمد بن أبى بكر القرشى الاسكندرى المالكى بدر الدين الدماميني المولود بالاسكندرية سنة ٧٦٣ هـ والمتوفى بالهند سنة ٨٢٧ — أو ٨٢٨ . راجع ترجمته فى الضوء اللامع ج ٤ ص ٤٣٩ .

العمل حينما أعفى من الوظائف التى كان يتولاها . وعاش السيوطى ستين سنة بين عامى ١٤٤٥ - ١٥٠٥م ومن الصعب أن نجد علماً من علوم المسلمين لم يجر فيه قلم السيوطى بالتأليف والتحرير والتصحيح والإيضاح . وقد ذكر « بروكيلمان » المستشرق الألمانى ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مؤلفاً للسيوطى . وقد يكون هذا الثبت الذى أتى عليه بروكيلمان يفتقر إلى الدقة . بيد أن الشىء الذى لامرية فيه هو أنه لا يوجد مؤلف آخر فى العربية له ما للسيوطى من مؤلفات وأبحاث[١] .

على أننا فى مثل هـذا الكتاب لا يتسنى لنا أن نقف إزاء كل من تصدر من المصريين فى علوم اللغة والشعر أو الطب والكيمياء أو الهندسة والفلك ، لنتحدث عن تاريخ حياته ومؤلفاته . فلهذه الميادين مراجعها المستفيضة ، ولكن من الضرورة بمكان أيضاً ألا ندع هذا العرض دون أن نذكر فى الماعة سريعة ألمع الأسماء ؛ ولعله يتيسر منهـا أن ندرك صورة صحيحة للحياة الفكرية والعلمية فى مصر أثناء حكم المماليـك .

ها هو ذا العالم العلامة محمد بن موسى بن كمال الدين الدميرى الأصل القاهرى[٢] الشافعى — المولود حوالى سنة ٧٤٢هـ — ١٣٤٤م بالقاهرة ، توفى سنة ٨٠٨هـ — ١٤٠٥م مؤلف الموسوعة العربية الكبرى فى علم الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) .

والجلداكى — مثله مثل الدميرى — قاهرى اشتهر بدراساته فى علم الكيمياء . وقد توفى قبل مولد الدمـيرى بعامين أى فى عام ١٣٤٢م . والنـواجى ١٤٥٥ صاحب مؤلف فى التحاليل الطبية[٣] — وابن سيد الناس ١٣٥٤م ، واشتهر بسفره فى حيـاة النبى . والجندى ١٣٦٥م ، وتاج الدين السبكى (١٣٥٥) ، الذى عاصر اثنى عشر من السلاطين والمماليك . وهو مصلح مصرى لمس نواحي الضعف فى الحكومة وفى طبقات الأمة لذلك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعو إلى الإعجاب ، ثم وصف وسائل الإصلاح وهى تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله[٤] .

---

(١) نذكر فى ميدان اللغة طاهر بن بابشاذ الذى تولى ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى ، وكان إمام عصره فى النحو وكذلك بن برى وابن مالك الطائى ، وكان ابن منظور صاحب « لسان العرب » من رجال ديوان الانشاء بمصر فى عصر المماليك) .

(٢) راجع ترجمة حياته فى الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧ .

(٣) هو العلامة محمد بن حسن بن شمس الدين النواجى نسبة لنواج بالغربية المولود بالقاهرة بعد سنة ٧٨٥ تقريباً والمتوفى سنة ٨٥٩هـ — راجع ترجمته فى الضوء اللامع ج ٤ ص ٥٣٢ — ٥٣٨ .

(٤) ولد السبكى حوالى (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) بالقاهرة - راجع كتاب البيت السبكى للأستاذ محمد الصادق حسين (١٩٤٨) .

وبرز من رجال الشريعة على المذهب الحنفى ابن نجيم المصرى[١] . وتوفى عام ١٥٦٣م . والدمرطاشى (ت١٥٩٥) — ومن الشافعيه البلقينى (ت ١٤٠٣)[٢] وزكريا الأنصارى (ت ١٥٢٠)[٣] قاضى القضاة الملقب بشيخ الاسلام المولود بسنبكة من الشرقية ، ثم الخفاجى سنة ١٦٥٩ ، الذى اشتهر فوق درايته بالشريعة بعلوم اللغة والشعر[٤] .

وقد لعبت مصر دورا هاما فى تأريخ ناحية من الأدب العربى من المتعذر أن يفكر فيها أديب عربى . وينوه بها كتاب الغرب فى مقدمة مؤلفاتهم فى الأدب العربى . هـذه الناحية هى الأدب القصصى الخيالى . وأظهر ما كتب فيه هو كتاب « ألف ليلة وليلة » كما توجد مجموعة طيبة أخرى من هذا القصص الروائى لها قيمتها التأليفية . وعلة تقديم كتاب الف ليلة وليلة عليهـا هى أن المستشرقين فى بلاد الغرب لم يعنوا إلا بترجمة ألف ليلة ، فقد كان فى وسعهم بسبب احتوائه على مجموعة من القصص أن يترجموا أجزاء منهـا تعتبر فى حد ذاتها كتابا كاملا — وأشهر هذه القصص : عنترة العبسى — أبو زيد الهلالى — الظاهر بيبرس ، وغيرها .

وكان فن القصص فى فترة ما ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر . كما يبدو أن الراوية أو القاص الذى يسامر الناس فى المقاهى قاصا عليهم تاريخ حياة عنترة ، أو أبى زيد لم يعد له وجود فى المدن الكبرى . بيد أن الشىء الذى لا مراء فيه أنه كان لهذا أثره فى خلق جو من كتاب القصة المصرية الصميمة تبدى بوادرها فى صورة طيبة الآن نذكر منهم محمود تيمور والسحار وباكثير والسباعى ، ونجيب محفوظ .

* * *

قلنا أن مصر والشام كانتا مهد المملمات والمجاميع الاسلامية . فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة ، كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين فى عصر اتحاد البلدين . فالنويرى صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » كان من رجال السلطان المملوكى الناصرى محمد بن قلاوون[٥] وابن فضل الله

---

(١) راجع ترجمة حياته فى شذرات الذهب ج ٤ ص ٥٩٤ .

(٢) راجع ترجمة حياته فى الضوء اللامع ج ٣ ص ٨٠٣

(٣) راجع ترجمة حياته فى الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) شهاب الدين الخفاجى — راجع ترجمته فى خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٣١ — ٣٤٣ .

(٥) مصرى من نويرة (١٢٨٢ — ١٣٢٢) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد .

العمرى صاحب « مسالك الأبصار » تولى القضاء بمصر فى عصر المماليك (١٣٠١ — ١٥٤٨ م) وقد كان معاصرا للنويرى ، وكتابه فى التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة إلى أناقة فى التعبير وجمال فى الأداء يفوق النويرى وهو يقع فى أكثر من عشرين جزءا لم تخرج منه المطبعة سوى الجزء الأول . ثم أبو العباس أحمد القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين فى ذلك العصر (ت ١٤١٨) . وجلال الدين السيوطى تولى الافتاء بمصر وتوفى فى بداية القرن العاشر الهجرى (١٦م) بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة فى التفسير والتاريخ والحديث والفقه وعلوم اللغة . . الخ . وقد مر ذكره .

التـــاريخ

ويقابلنا فى حقل كتابة التاريخ المؤرخ الكبير صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيد مر العلائى المعروف بابن دقماق[١] صاحب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصل إلينا أيضاً كتاب « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » وجزء من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام فى تاريخ الاسلام » .

وشهاب الدين الأوحدى (٧٦١ — ٨١١ هـ) (١٣٦٠ — ١٤٠٨م)[٢] وابن الداية وابن أبى أصيبعة وابن الراهب القبطى وأباشامة وابن واصل والقفطى وابن شداد ... الخ .

كما وصل إلينا كتاب قوانين الدواوين ، وهو مؤلف يصور قوانين أوامر الدولة المصرية على عهد حكم صلاح الدين الأيوبى . ومؤلفه الأسعد ابن مماتى[٣] . وممن ولدوا فى القاهرة أيضا ابن الفرات مؤلف كتاب «تاريخ الدول والملوك» . ولد عام ١٣٣٤م، وقدأراد أن يضمن كتابه التاريخ الاسلامى فبدأ

---

(١) ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفى بها سنة ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ — ١٤٠٦م) .

(٢) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) هو أبو المكارم أسعد بن المهذب المصرى القبطى الأصل ناظر دواوين مصر المتوفى بحلب سنة (٦٠٦ هـ ١٩٠٢ م) عن اثنتين وستين سنة . راجع ترجمته فى المقريزى ج ٢ ص ١٦٠ — وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية الملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — وراجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية — عام ١٩٤٣ .

من القرن الرابع عشر للميلاد راجعا للوراء ، بيد أنه وصل إلى القرن العاشر فحسب عندما وافاه أجله في عام ١٤٠٦ (١) .

وإذ ذكرنا هؤلاء ، فيتعين أن نثبت بحق ألمع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التي كتبوها في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) وهي تعد مكتبة مجيدة في التراث المصري الاسلامي . ويعتبر أحمد بن علي المقريزي ألمع جماعته . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع الفريد لدراسة مصر الاسلامية لجميع المؤرخين . ومن أهم أسفاره :

عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ــ المقفى الكبير ــ العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ــ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة . ويعمل الدكتور زيادة منذ سنوات في اخراج طبعة علمية للسلوك .

وقد صمم المقريزي مشروع دائرة معارف من ثمانين مجلدا ليسجل فيها حياة أعلام المصريين ، بيد أنه لم يكمل منها إلا ستة عشر جزءا فحسب . كما أنه لم يكمل أيضاً مؤلفاً آخر هو كتابه (درر العقود) . وفضلا عن هذا كله فللمقريزي بضعة بحوث في علم الحديث (٢) .

ومن مؤرخي مصر المعاصرين للمقريزي ، أحمد بن حجر الذي عرفنا من مؤلفاته : فتح الباري في شرح البخاري ــ المجمع المؤسس والمعجم المفهرس ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣) .

وكذلك العيني صاحب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) (٤) . وابن عربشاه مؤلف « عجائب

---

(١) لايزال كتاب ابن الفرات محفوظا في دار الكتب المصرية (رقم ٣١٩٧) ــ أنظر ترجمته في الضوء اللامع ج ٨ ص ٥١ .

(٢) ولد المقريزي بالقاهرة سنة (٧٦٠ هـ ١٣٦٤ م) بحارة برجوان بقسم الجمالية ، وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ، ثم التحق بديوان الانشاء بالقلعة حيث ظل يعمل موقعا حتى سنة ١٣٩٨ عندما اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري . فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين وفي سنة ١٤٠٨ انتقل إلى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير ، ولتولي التدريس أيضاً ، ورحل إلى عدة بلدان ، وتوفي عام (٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م) راجع ترجمته في الضوء اللامع ج١ ص ٥٣٢ ، وفي المنهل الصافي ج ١ ص ٣٣٣ ، وفي « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي » للدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٣ ــ ١٧ .

(٣) راجع ترجمة حياته في المصدر السابق ص ١٨ ــ ٢٠ .

(٤) هذا الكتاب يقع في ٢٣ جزءا ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ معارف ، وقد ولد العيني في الشام ، وجاء إلى مصر ، وعين في أوائل القرن التاسع الهجري محتسباً للقاهرة والوجه البحري .

المقدور فى أخبار تيمور »[1] . وخليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك[2]
وأبو المحاسن بن تغرى بردى الذى ألف عدة أسفار فى التاريخ الاسلامى ، نذكر منها :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — الدليل الشافى على المنهل الصافى ـ مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة ـ حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ـ نزهه الرأى فى التاريخ ـ البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ـ نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب ـ حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ـ البشارة فى تكملة الإشارة ـ الانتصار للسان التتار ـ الرياضيات والموسيقى ـ السكر الفاضح والعطر الفائح[3] .

وعاصر أبا المحاسن اثنان من مشاهير المؤرخين هما ابن الصيرفى[4] . وأبو الخير السخاوى[5] .

ولأولهما : نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان — أنباء الحصر فى أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباى — الجوهرية فى السيرة النبوية .

ولثانيهما عدة مؤلفات قيمة ، أهمها : التبر المسلوك فى ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القراء — المنتقى من تاريخ مكة — تلخيص تاريخ

---

(١) هو أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عربشاه ولد سنة (٧٩١ هـ — ١٣٨٩م) بدمشق ورحل منها إلى بلدان عدة . ونزح إلى القاهرة فى زمن الملك الظاهر جقمق . ومات عام ٨٥٤ هـ/١٤٥٠ م أنظر جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) توفى خليل بن شاهين بالقاهرة عام ١٤٦٩ .

(٣) ولد أبو المحاسن فى القاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م بدار الأمير منجك اليوسفى بحى القلعة الحالى — تقلد كثيرا من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ونهض بمسئوليات كبيرة منها نيابة دمشق وأتابكية العسكر بمصر ، وتزوج السلطان فرج من كبرى بناته فاطمة ، وتوفى سنة ١٤٧٠ (راجع ترجمته فى كتابه النجوم الزاهرة طبعة كاليفورنيا ج ٦ . ص ٤٣٢ — ٤٣٥) .

(٤) ولد ابن الصيرفى بالقاهرة سنة ١٤١٦ وتعلم تعليما يسيرا وتتلمذ لابن حجر العسقلانى ، واشتغل بالتجارة والخطابة فى المساجد وغيرها من الوظائف الصغرى ، وكانت وفاته فى يونيو سنة ١٤٩٤ .

(٥) ولد أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى عام ١٤٢٧ بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالظاهر ، وتتلمذ لابن حجر العسقلانى وحج مع أبيه وأمه سنة ١٤٥٢ فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وتنقل بعد ذلك بين مصر والشام والحجاز فحج خمس مرات ، وتوفى السخاوى بالمدينة سنة ١٤٩٧ .

اليمن — الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر — القول المنبى فى ترجمة ابن عربى .

وكان محمد بن أحمد بن إياس المصرى ، كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية[1] ترك لنا : بدائع الزهور فى وقائع الدهور — عقود الجمان فى وقائع الزمان — نزهة الأمم فى العجائب و الحكم — مرج الزهور فى وقائع الدهور ، نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

ومن زملاء ابن اياس — المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى الذى كتب فى فنون عدة من أهمها كتب التاريخ الآتية :

حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — تاريخ أسيوط — الشماريخ فى علم التاريخ — نظم العقبان فى أعيان الأعيان — الملتقط من الدور الكامنة .

والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به من سلالة أسرة مملوكية ، وقد ولد بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان أبوه متوليا نيابتها من قبل السلطان جمقمق . وقد شغف بالسفر وبالتحصيل الواسع ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » وكتاب « نيل الأمل » ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وكتاب « تاريخ الأنبياء » . وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ بعد مرضه بالسل .

وزميله حسن بن حسين الطولونى المولود فى عام ١٤٣٢ ، مال إلى التاريخ والفقه والأدب والغناء والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان اينال والسلطان قايتباى الذى ولاه نيابة القلعة . فوجده خادما مخلصاً لقيامه بتحصينها تحصينا عظيما . ولابن الطولونى : « كتاب النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . وقد مات عام ١٥٧١ .

وينبغى علينا أن نضيف إلى رجال التاريخ المصريين :

الادفوى (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) ، صاحب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد — .

---

[1] (١) ولد ابن إياس بالقاهرة سنة ١٤٤٨ ، وقد أنجب فى حياته الطويلة (٨٤ سنة) خمسة وعشرين ولداً مابين ذكور واناث . عاش عيشة راضية واشتغل بالتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات . وهو معاصر للسيوطى وابن خليل وابن طولون الدمشقى وابن زنبل الرمال وكانت وفاته فى عام ١٥٢٤ .

والبدر السافر وتحفة المسافر فى تراجم مشاهير القرن السابع — والمؤرخ ابن قطلوبغا (توفى سنة ١٨٧٩ هـ ١٤٧٤م) . والمؤرخ ابن وصيف شاه المصرى صاحب « جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور » وجمال الدين بن واصل الفقيه الفيلسوف المؤرخ صاحب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . والمؤرخ أبو البقاء ابن الجيعان (توفى نحو عام ٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) صاحب القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف ... وغيرهم .

والمؤرخ ابن زنبل الرمال كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — والدرة اليتيمة فى مصر القديمة — وتحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب — وقد توفى بعد سنة ١٥٥٢

مجتمع القاهرة كما وصفه العبدرى

وفى أخريات النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، زار مصر محمد بن محمد بن على العبدرى ، وهو من علماء المغرب[١] وكان صريحاً فيما كتبه عن القاهرة وعلمائها .

بدأ العبدرى بالاسكندرية ، فقال عنها : « الإسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة الذاقة ... مدينة فسيحة الميدان ، مليحة البنيان ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر ، مماساس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ... ثم وصف أهم مبانيها ومنارها الفريد ، وعرج على وصف أحوال أهلها . وذكر عدداً كبيراً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها ، وما سمعه منهم ، أو ما قرأه عليهم[٢] .

وانتقل العبدرى إلى القاهرة ، فقال : ... فوجدناها معيدية المعنى لبعض ما رأينا بها وسمعنا . وكان وصل إليها فى أخريات رمضان ، فأتم الشهر بها وصلى مع أهل القاهرة صلاة العيد . ويبدو أنه لم يلق منها ترحابا « ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة » فأثر ذلك فى نفسه . ونزل العبدرى بالمدرسة الكاملية بالجمالية ، وعنها يقول : وكنت نزلت بالمدرسة الكاملية منها فى علو تشرف على السوق ،

---

(١) عزم العبدرى على الرحلة إلى ديار الشرق الإسلامية فى عام ٦٨٨ هـ — ١٢٨٩ م وسجل ما رآه فى ذهابة وإيابه . ما تزال رحلته مخطوطة ، اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات . راجع الاعلام للزركلى ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) صلاح الدين المنجد : المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين فى القرون الوسطى ، بيروت ١٩٦٣ ص ٧٠ — ٨٢ .

فكنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة ، وهم يبيعون طول الليل ، وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق ... والطرق غاصة بالخلق ، حتى ترى الماشى فيها ماله هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ، ولا يمكنه تأمل شيء فى السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل ، وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً ، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت فى غمار الخلق ، ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها ، حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها .

وقد ذكر العبدرى بعض الشيوخ الذين رآهم فى القاهرة ، فأثنى على عبد المؤمن بن خلف الدمياطى الذى نجا وحده من نقده . فقال عنه : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ ... المحدث بالمدرسة الظاهرية ، وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى وقابل ابن دقيق العيد ، فرآه « حبراً كاملا عالما يحق له اللقاء ، وبحرا من علم لاتكدره الدلاء ، له تفنن فى فنون العلوم ، وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم ، وقلما يلتقى له فى سمة المعارف نظير ، أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير ، وخطر خطير ، يضرب فى كل فن بسهم مصيب ، ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ، لولا وسوسة تصحبه ، وأخلاق يجل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور ، أو تليت لها سورة كانت أبشع السور . . .

وقد أعجب العبدرى بنهر النيل ، فقال عنه : ... ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة واتساعا وغلة وانتفاعا ، وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلك انتظم درراً . وشاهد الأهرام ، وزار مشهد الحسين ومشهد السيدة نفيسة وتربة الإمام الشافعى .

لقد سجل العبدرى فى رحلته العيوب وحدها كما رآها ، فى حين أغفل الآخرون تسجيلها ، وذكروا ما رأوه من جميل وحسن ! . سامحه الله

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

ابن بطوطة (١٣٢٦)

لدينا صورة واضحة للمجتمع القاهرى رسمها أعظم الرحالة المسلمين وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، وهذا الرحالة هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة .

ولد بطنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) ونشأ فى بيت كريم ودرس على منهاج آبائه ، فتفقه وتأدب ومارس الشعر أيضاً . وغادر وطنه سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) لأداء فريضة الحج ، ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة فى أسفار متصلة ، ثم عاد إلى فارس واتصل بسلطانها أبى عنان المرينى ، وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة ، ففعل بعد ما أضاف بعض الأشعار إليها ، وقد استعان بما دونه ابن جبير فى كتاب رحلته ، ثم سماها « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦م)[١] .

خرج ابن بطوطة من طنجة فى رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيو ١٣٢٥) للحج عن طريق مصر وسنه إذ ذاك اثنتان وعشرون سنة ، ثم اتسعت دائرة أغراضه وجولاته ، فظل فى رحلته هذه أربعا وعشرين سنة تقريباً ، زار فى أثنائها معظم بلاد العالم الاسلامى ، ورجع إلى وطنه سنة ١٣٤٩ ، لكنه لم يقم بفاس طويلا بل رحل عنها إلى الأندلس ، وسلطان غرناطة وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد بالأندلس ، ثم رجع إلى بلده ليقوم برحلة ثالثة إلى بلاد السودان وغربى أفريقية ،

---

١ — طبعت رحلة ابن بطوطة فى باريس مع ترجمة فرنسية فى منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين ديفريمرى وسانجنتى وطبعت بالقاهرة طبعتين ، ونشر الأستاذ جب ملخصاً لها بالإنجليزية فى سلسلة (Broadway Travellers) سنة ١٩٢٩ ، ثم نشر الرحلة كاملة فى عدة أجزاء بعد ترجمتها ١٩٥٩ — ١٩٦٢ .

فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢م) وأوغل فى الصحراء الكبرى، ووصل مالى وزار تنبكتو وبعض مدن أقليم الطوارق، وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبى عنان يطلب إليه الحضور إلى مراكش، فامتثل ووصل فاس (٧٥٤هـ — ١٣٥٤ م) فأقام بها حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) (١).

ويهمنا هنا أن نقتطف ما يعنينا من رحلة ابن بطوطة إلى مصر، وبخاصة القاهرة التى أسهب كثيراً فى ذكر من قابلهم بها من العلماء، يقول:

... « ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى (٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م) إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله، وهى الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهى الفريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين الشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ماسطره أبو عبيد فى كتاب المسالك(٢) ». وقد أسهب ابن بطوطة فى وصف الاسكندرية ومنارتها وعلمائها.

خرج ابن بطوطة من مدينة الاسكندرية فوصل قرية تروجه وهى على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية بها قاض ووال وناظر، وقد نزل الرحالة بها على رجل فاضل اسمه عبد الوهاب، وأضافه ناظر القرية زين الدين، ثم قصد دمنهور وكان قاضيها فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية. ورحل إلى مدينة فوة.

وفى اليوم التالى رحل إلى مدينة النحراوية وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند، ثم قصد مدينة ابيار وهى قديمة البناء كثيرة المساجد ذات حسن زائد، ثم توجه إلى مدينة المحلة الكبيرة، ثم عرج على مدينة البرلس، وقصد بعد ذلك مدينة دمياط؛ ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عنها أنها كانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالى، فمن كان فى الناس معتبراً أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بخاتم الوالى، فيسمح له حراس باب المدينة بعبارتها عند رؤية هذا الخاتم.

---

(١) أنظر رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة للدكتور محمد مصطفى زياده ١٩٣٩، والرحالة المسلمون فى العصور الوسطى للدكتور زكى محمد حسن ١٩٤٥.

(٢) كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأندلسى (١٠٤٠ — ١٠٩٤)

ثم سافر الرحالة إلى فارسكور وهى مدينة على ساحل النيل ونزل بخارجها حيث لحقه فارس جاء من دمياط ، ثم سافر إلى أشمون الرمان وهى مدينة عتيقة كبيرة على النيل ، ثم سافر منهـا إلى سمنود وهى على النيل حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هـذه المدينة ركب ابن بطوطة النيل مصعداً إلى مصر بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولايفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه كلما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، ثم وصل إلى مدينة مصر (القاهرة) . فذكر عنها :

«... وصلت إلى مدينة مصر هى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد المتناهية فى كثرة العمارة المتباهيـة بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها ، شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم، ولها خصوصية النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة . قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وانما هى الجنـة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها وروضتهـا الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شـاطىء مصر جنـة ما مثلهـا من بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلهـا المطـرد
وللـرياح فـوقـه سـوابغ من زرد
مسرودة(١) ما مسهـا داودهـا بمبرد
سـائـلة هـواؤهـا يرعـد عارى الجسد
والفـلك كالأفـلاك بين حـادر ومصعد

قال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء . وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج

---

(١) مسرودة أى منسوجة أو مخيطة .

وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو . شاهدت بها مرة فرحة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

(مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا) :

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي . وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصر، ويذكر أن مجباه[١] ألف دينار كل يوم ، وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق . والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم . وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب، ومن عوائدهم فى الطعام أنه يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان فى اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين ، ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح ، وهم أعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية ، ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ويذكرون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر، ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى، وأى الزوايا نزل فى طريقه ، ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتى إلى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين. ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم ، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

قرافة مصر ومزاراتها :

ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان

---

(١) مجباه أى جبايته .

فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضاً إلى المبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام ، وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام ، وكانت مجابة الدعوة مجتهدة فى العبادة ، وهذه التربة أنيقة البناء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبى عبدالله محمد بن أدريس الشافعى (رضه) وعليها رباط كبير، ولها جراية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً . وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضى الله تعالى عنهم .

نيل مصر :

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ، ولايعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس فى الأرض نهر يسمى بحراً غيره ، قال الله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » فسماه يماً وهو البحر ، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء إلى سدرة المنتهى فإذا فى أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنهما جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفى الحديث أيضاً أن النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنة ، ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها ، ونهر السند مثله فى ذلك ، وأول ابتداء زيادته فى حزيران ، وهو يونيه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان فإن زاد ذراعاً كان الخصب فى العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وان نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون ، وتماثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ويسمى بنج اب ، ونهر الهند ويسمى الكنك وإليه تحج الهنود وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر اتل(١) بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا(٢) ، ونهر السرو بأرض الخطا(٣) ، وعلى ضفتيه مدينة

---

(١) هو نهر الفولجا بروسيا

(٢) هو النهر الأصفر بالصين

(٣) الصين الشمالية

خان بالق(١) ومنهـا ينحدر إلى مدينة الخنسا (٢) ثم إلى مدينة الزيتون (٣) بأرض الصين .

والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاء وصيفاً ، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

الأهرام والبرابي(٤).

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير في شأنها وأوليـة بنائها ، ويزعمون(٥) أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أخنوخ ، وهو ادريس عم ، وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ، ودرس الصنائع ، فبنى الأهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ، ويقال أن دار العلم والملك بمصر بمدينة منف وهي على بريد من الفسطاط ، فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هـذا العهد . والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لهاولا تعلم كيفية بنائها ؛ فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي ، فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدوهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

سلطان مصر :

وكان سلطان مصر على عهـد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ، وكان قلاوون يعرف بالألفي لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً وأصله من قفجق . وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعـله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي ، وبنى زاوية عظيمة بسرياقس

---

(١) مدينة بكين (٢) مدينة هانغ (٣) مدينة قشيو

(٤) لفظة قبطية أصلها « بيرب » ومعناها الهيكل أو المعبد .

(٥) دلت الاكتشافات الحديثة على بطلان هذه المزاعم .

خارج القاهرة ، لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله فى أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها فى المعمور فى اتقان الوضع وحسن البناء والنقش فى الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله ، وسيأتى ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمرستانات والزوايا ببلاده (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

بعض أمراء مصر :

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتمور وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم ، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة ، ومنهم طشتمر المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس (يعنون الملك الناصر) أخرجه ، فأخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ويعرف بالجمالى ؛ بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك ، ومنهم تقزدمور ، ومنهم بهادور الحجازى ، ومنهم قوصون. وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ، ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى وكان نصرانياً من القبط فأسلم وحسن إسلامه ، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل ، ومن عاداته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له باسطوان [1] داره على النيل ويليه المسجد فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينذاك أحد من الدخول كائناً من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ، ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

القضاة بمصر فى عهد دخولى إليها :

فمنهم قاضى القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين من جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ، ومنهم قاضى القضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الإخناعى ، ومنهم قاضى القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد

---

(١) يريد به البهو .

السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى ، ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعمز الدين .

وكان الملك الناصر رحمه الله يقعد فى النظر فى المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها ، وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله فى ذلك مسلكاً لم يسبق اليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يده المستقيمة أبى الله أن يحضرها سواه أدام الله أيامه ، وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ، ثم قاضى المالكية ؛ ثم قاضى الحنبلية ، فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه ، وذكروا أن العادة جاءت بذلك قديماً ، إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد ، فأمر الملك الناصر بذلك ، فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك .

بعض علماء مصر وأعيانها :

فمنهم شمس الدين الأصبهانى إمام الدنيا فى المعقولات ، ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى ، ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ، ومنهم ركن الدين بن القويع التونسى ، من الأئمة فى المعقولات ، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ، ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى ، وهو أعلمهم بالنحو ، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ، ومنهم برهان الدين الصفاقسى ، ومنهم قوام الدين الكرمانى ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتى فى المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والنزهات منفرداً عن أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ الفقهاء بديار مصر مجد الدين الاقصرائى نسبة إلى أقصرا من بلاد الروم ، ومسكنه سرياقص ، ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى ، والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعى مجد الدين ابن حربى ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهوتى من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

يوم المحمل بمصر :

وهو يوم دوران المحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاء الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير للمعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم .

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين ابن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به ، والأشفى الذى كان يخصف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ، ويقال أن الصاحب اشترى ماذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، بنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة، ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها إلى مدينة بوش، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتاناً ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة لادلا، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضاً كمثل الذى ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ، ثم سافرت منها إلى مدينة بيا ، ثم سافرت منها إلى البهنسة ، وهى مدينة كبيرة، وبساتينها كثيرة، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة ، وممن لقيته بها قاضيها فاضل، العالم شرف الدين، وهو كريم النفس، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى، ونزلت عنده وأضافنى ، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهى مدينة كبيرة المساحة متسعة الساحة مبنية على شاطىء النيل ، حق لها على بلاد الصعيد التفضيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد .

القاهرة فى رحلة البلوى

كانت زيارة خالد بن عيسى البلوى إلى مصر [١] فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان من كبار القضاة بالأندلس ، رحل إلى الحج ، وصف رحلته المعروفة باسم « تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق » ، وقد وصف بها مصر ، وتوفى بعد عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ — ١٣٣٦ م .

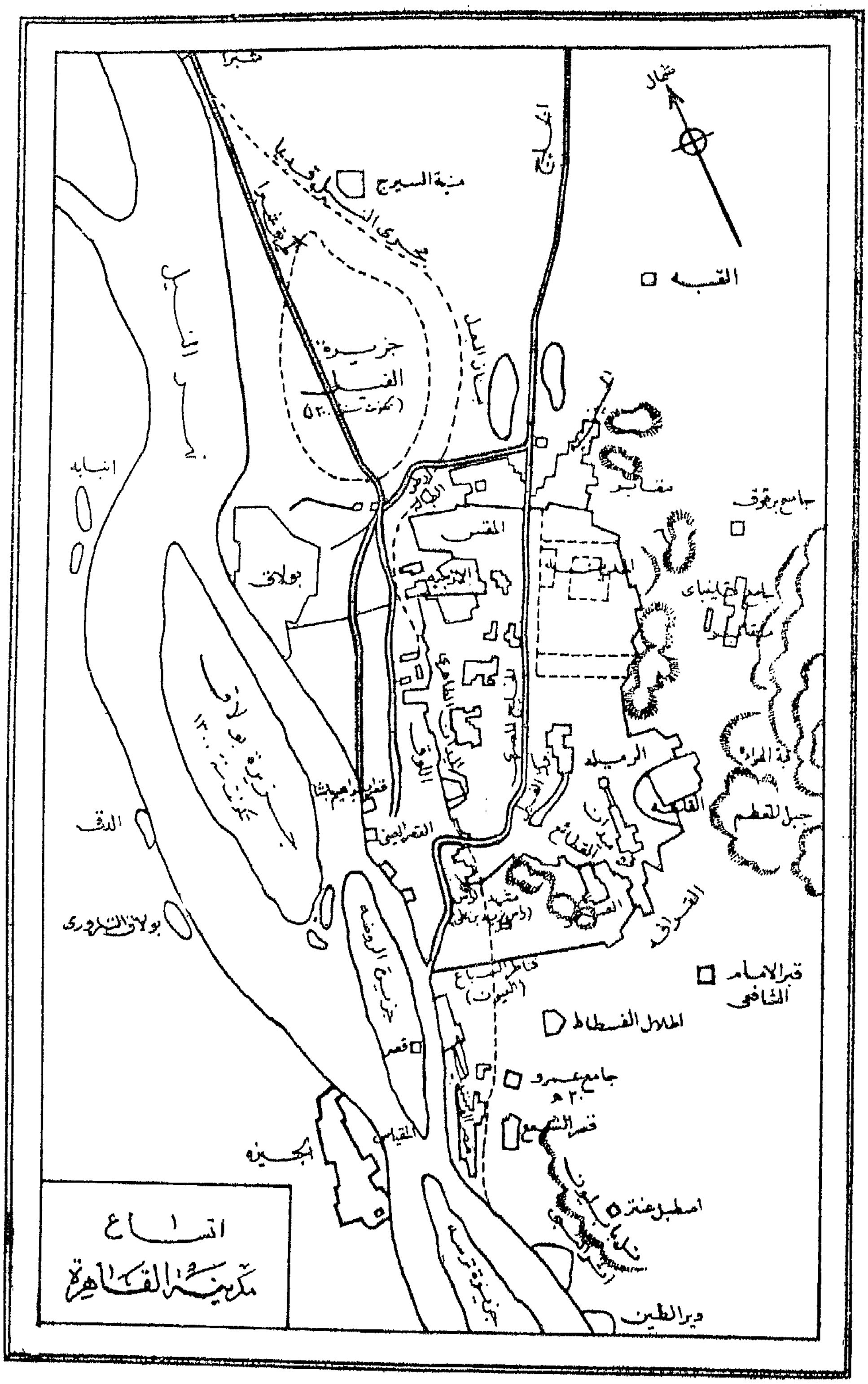
ذكر أنه وصل إلى القاهرة ، فنزل بقرب الجامع الأعظم المشهور بجامع ابن طولون ، وقد أدهشه ما رآه من ازدهار أيام الناصر محمد فى مصر ، فوصفها بأنها « أيام أمن وسكون ودعة . . فالسحب ذيل

(١) الأعلام للزركلى . ج ٢ ص ٣٣٩

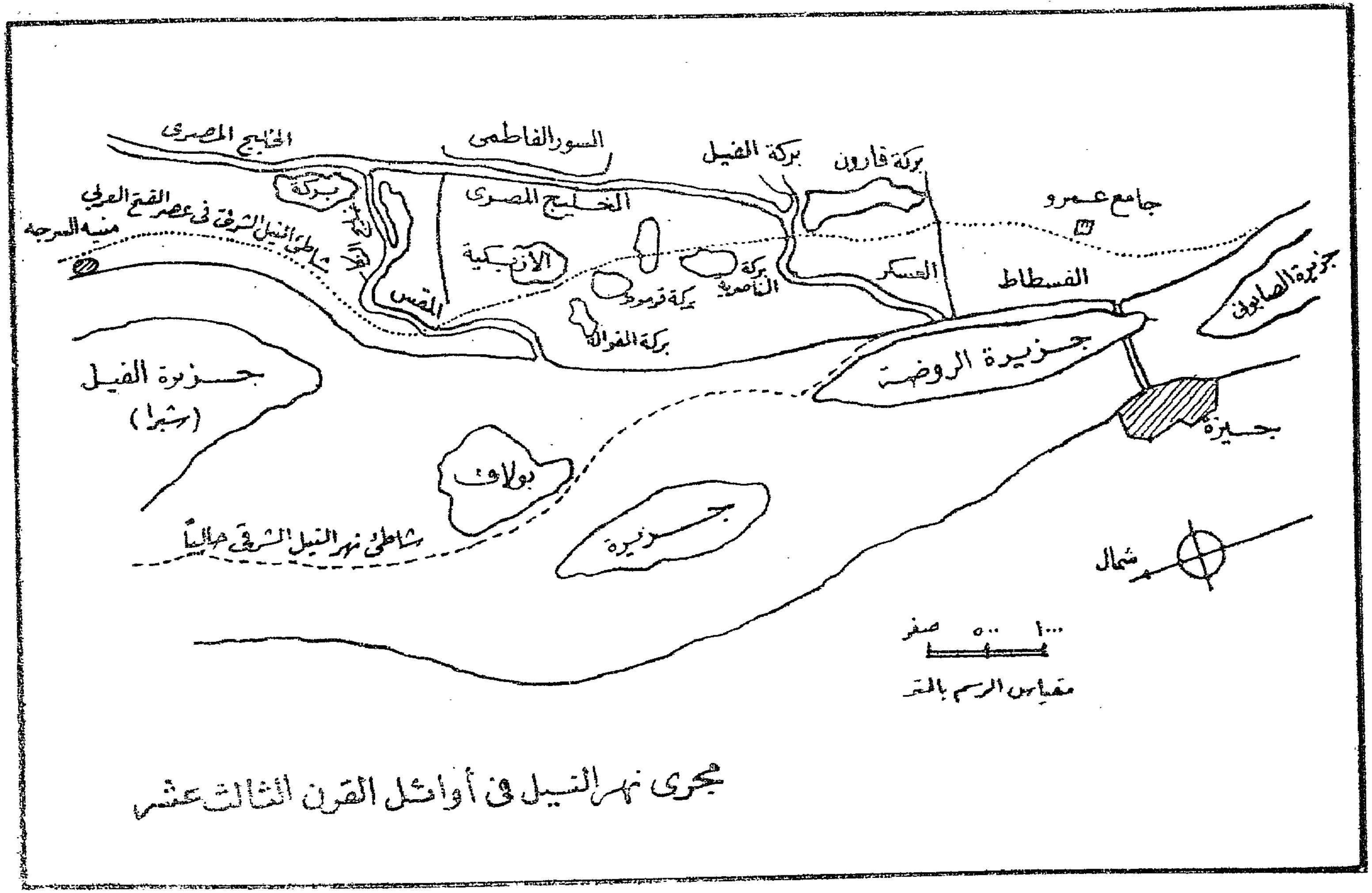
المعز ، وانضرب رواق الأمن ، وانسدل ستر العافية ، على الملأ والكافة . قال البلوى : وأخبرنى الإمام . . شمس الدين الكركى ، قال : « أحصيت الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء فى كل يوم فبلغت إلى مائتى ألف جمل ، ما عدا البغال . وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب فى الطرق والأسواق وغيرها . وقال عن المارستان : « ولو لم يكن للقاهرة ، ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولاأبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن والجمال ... ثم يتابع قوله : وأخبرنى العالم المؤرخ شمس الدين الكركى أنه يكمل فيه فى كل يوم من المرضى الداخلين اليه ، والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطى متوليه إحساناً اليه ، وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لنفقاته .

وقد وصف البلوى مشاهد القاهرة ، ومسجد رقية وتربة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسرد أسماء بعض العلماء الذين رآهم أو قرأ عليهم .

* * *



اتساع مدينة القاهرة فى أيام المماليك البحرية



مجرى نهر النيل فى أوائل القرن الثالث عشر

أهم آثار عصر المماليك البحرية

(٦٤٨ — ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٣٧	مدرسة الظاهر بيبرس البندقدارى بالنحاسين	٦٦٠—٦٢	١٢٦٢—٦٣
١	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	٦٦٥—٦٧	١٢٦٦—٦٩
١٤٦	زاوية وخانقاه أيدكين البندقدارى بشارع السيوفية	٦٨٣	١٢٨٤—٨٥
٤٣	مدرسة وبيمارستان وقبة السلطان قلاوون بالنحاسين	٦٨٣—٨٤	١٢٨٤—٨٥
٢٧٥	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف	٦٨٧	١٢٨٨
٥٩٠	« حسام الدين توران طاى	٦٨٩	١٢٩٠
٢٤٩	قصر الين آق (الحسامى) بشارع التبانة	٦٩٣	١٢٩٣
٤٤	قبة الناصر محمد ومدرسته بالنحاسين	٦٩٥—٧٠٣	١٢٩٥—١٣٠٤
٣١	مدرسة قراسنقر بالجمالية	٧٠٠	١٣٠٠—١
٢٢١	مدرسة ومسجد سنجر الجاولى بقلعة الكبش	٧٠٣	١٣٠٣—٤
٣٢	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٧٠٦—٩	١٣٠٦—١٠
٧٨	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) بفم الخليج	٧١٢	١٣١٢
٥٤٩	بقايا قصر الناصر محمد بن قلاوون	٧١٤	١٣١٤
٢٧٠	قبة صفى الدين جوهر بالركبية	٧١٤	١٣١٥
٢٦٣	مدرسة وقبة سنقر السعدى (حسن صدقة)	٧١٥—٢١	١٣١٥—٢١
٢٤	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٧١٩	١٣١٩
٢٣٣	جامع الأمير حسين بالناصرة	٧١٩	١٣١٩
٢٦١	قبة سنجر المظفر بالسيوفية	٧٢٢	١٣٢٢
١١٥	مسجد أحمد المهمندار بالدرب الأحمر	٧٢٥	١٣٢٤—٢٥
٥٦١	سبيل الناصر محمد	٧٢٦	١٣٢٦
٢٦	مدرسة مغلطاى الجمالى بقصر الشوق	٧٣٠	١٣٢٩—١٣٣٠
١٣٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	٧٣٠	١٣٢٩—٣٠
١٤٣	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة	٧٣٥	١٣٣٥
٩٢	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٧٣٥	١٣٣٥
٢٠٥	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلى والمنارة)	٧٣٦	١٣٣٦
١٧٦	جامع شرف الدين بالحزاوى	٧١٧—٣٨	١٣١٧—٢٧
٢٦٦	قصر الأمير يشبك (قوصون)	حوالى ٧٣٨	١٣٣٧
٣٤	« « بشتاك بالنحاسين	٧٣٥—٤٠	١٣٣٤—٣٩
١٢٠	مسجد الطنبغا الماردانى بالتبانة	٧٣٩—٤٠	١٣٣٩—١٣٤٠
٢٥٢	« الست مسكة بالحنفى	٧٤٠	١٣٣٩—٤٠

تابع أهم آثار عصر المماليك البحرية

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
١١	وكالة قوصون بباب النصر	قبل ٧٤٢	١٣٤١
٢٤٤	مدخل حمام بشتاك بسويقة العزى	قبل ٧٤٢	١٣٤١
١١٢	مسجد أصلم السلحدار بدرب شملان	٧٤٥—٤٦	١٣٤٤—٤٥
٢٢	« ايدمر البهلوان بأم الغلام	قبل ٧٤٧	١٣٤٦
١٢٣	« أقسنقر ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	٧٤٧—٤٨	١٣٤٦—٤٧
٢٠٣	« أرغون شاه الاسماعيلي بالناصرية	٨٤٨	١٣٤٧
٢٤٢	مدرسة قطلوبغا الذهبي بسويقة العزى	٧٤٨	١٣٤٧
٣٦	قبة ومدرسة تاتار الحجازية بالجمالية	٧٤٨—٧٦١	١٣٤٨ و ١٣٦٠
١٣٨	مسجد منجك اليوسفي بالحطابة بالقلعة	٧٥٠	١٣٤٩
١٤٧	مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبة	٧٥٠	١٣٤٩
٥٠	قاعة محب الدين	٧٥١	١٣٥٠
٢٦٧	قصر الأمير طاز بالسيوفية	٧٥٣	١٣٥٢
١٤٤	سبيل الأمير شيخو بالحطابة	٧٥٥	١٣٥٤
١٥٢	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبة	٧٥٦	١٣٥٥
١٤٠	مسجد خانقاه نظام الدين بالحطابة	٧٥٧	١٣٥٦
٢١٨	مدرسة سرغتمش بشارع الخضيرى	٧٥٧	١٣٥٦
١٣٣	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	٧٥٧—٦٤	١٣٥٦—٦٢
٢٩٨	قبة تنكزبغا بالقرافة القبلية	حوالى ٧٦٠	١٣٥٩
٢٦٩	مدرسة بشير أغا الجدار بنور الظلام	٧٦١	١٣٥٩—٦٠
٤٥	«مدرسة الأمير مثقال بدرب قرمز	٧٦٣	١٣٦١—٦٢
٨٥	قبة الأمير تنكزبغا بالقرافة الشرقية	٧٦٤	١٣٦٢
٨٠	« الأميرة طولبية « «	٧٦٥	١٣٦٣—٦٤
١٥٣	مدرسة خشقدم الأحمدى بشارع الصليبة	٧٦٨—٧٨	١٣٦٦—٧٧
١٢٥	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة	٧٧٠	١٣٦٨—٦٩
٣١٠	قبة أقسنقر بقنطرة سنقر	٧٧١	١٣٧٠
١٨٥	مسجد أسنبغا بدرب سعادة	٧٧٢	١٣٧٠
١٨	المدرسة البقرية بحارة عطوف	قبل ٧٧٦	١٣٧٤
١٣١	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	٧٧٤	١٣٧٣
١٣٩	قبة الأمير يونس الدوادار بالحطابة	قبل ٧٨٣	١٣٨٢
١٥٧	« يونس الدوادار (أنس) بالقرافة الشرقية	٧٨٣—٨٤	١٣٨٢
٢٢٥	بوابة درب اللبان بالمحجر (القلعة)	القرن الثامن	القرن الرابع عشر
٢٨٧	بقايا ربع طنبغ بالسيوفية	» »	» » »

الفصل الخامس

قاهرة المقريزى

من ١٣٦٤ إلى ١٤٤١

يدين جميع المؤلفين الذين يكتبون عن القاهرة وآثارها القديمة كالمساجد والمدارس والوكالات والسبل.. أو أولئك الذين يتتبعون تاريخ تطور المدينة المعزية فى أيام الفواطم والأيوبيين ودولتى المماليك إلى المؤرخ الخالد الذكر أحمد بن على المقريزى ، القاهرى ، فقد ولد سنة ١٣٦٤ بحارة برجوان بقسم الجمالية ، ويقصد بالحارة هنا الخان أو الوكالة أو العمارة الكبيرة . وقد عرفت هذه الناحية بصخبهـا وضوضاء الحياة فيها . كفل جده لأمه تعليمه . وكان اسمه ابن الصايغ الحنفى ، وانكب على التحصيل والتعلم ، وأظهر نجـابة ثم درس الفقه بعد انتقاله إلى المذهب الشافعى . وبعد أن أكمل تعليمه ، عمل موقعاً بديوان الإنشاء بالقلعة ، فكان يجتاز الشارع الأعظم من داره إلى محل عمله فى كل يوم ؛ ثم غدا بعد ذلك قاضياً عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية . وفى عام ١٣٩٨ اختـاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين . وفى ذلك الوقت تزوج المقريزى وأنجب .

تقلب المقريزى فى عدة وظائف قضائية فى القاهرة ودمشق ، وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده ، ثم زهد فى الوظائف العامة واستقر فى القـاهرة ، وتفرغ إلى البحث والكتابة ، وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده وبحوثه ، وكتب فى ذلك عدة كتب جليلة .

وهكذا نرى أن العصر الذى عاش فيه المقريزى يتمتد من أواخر القرن الرابع عشر إلى أوائل القرن الخامس عشر . وقد عاصر المقريزى من ملوك مصر عشرة متعـاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطور القـاهرة والمجتمع المصرى ، الأولى : فى أواخر القرن ١٤ حينما كانت القـاهرة بعد ما أصابها من وباء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ، والثانية : بعد المحن التى توالت عليها بين عامى ١٤٠٣ ، ١٤٠٩ ، من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقريزى فى أخبار هـذين العصرين وأحوالها وآثارها[1] ، كما يتضح لنا ذلك فيما دونه فى مؤلفاته القيمة .

---

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٥٢ — ٥٦

تطـــــور القـــــــــاهرة

وقاهرة تلك الأيام صورة لتلك المدينة التي يتبع وصفها القارىء في ألف ليلة وليـلة . لقد قرأنا وصف قاهرة الـسلاطين ولـكن ليست العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها ، فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة الحية التي قاومت المستبدين جيلاً بعد جيل ، فليست القاهرة وقفاً على مساجد ومدارس ومنابر ووكالات الحـكام من سلاطين وأمراء ، فإنها في كل عصر قلب الديار النابض ومقر تجـارتها ومتعة أهلها الاجتماعية ومبعث ثقافتها ومنارة دينها .

إننا الآن في القاهرة ، تلك المدينة التي عرفها المقريزى والتي عاش تحت سمائها ... لم تـكن ذلك المعقل المحدود الذى اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية ... فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتعدت عمارتها بوابتها الشماليتين وتـكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية[1] كثرت فيها المساجد والزوايا والدور وانتشرت مبـانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمى والنيل ، وانحسر النهر وتقلص ماؤه عن سـور القـاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأ ميناء جـديد عرف باسم بولاق وبنيت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وأقدم الأثرياء على إنشاء القصور والمناظر، وغرسوا حولها البساتين العظيمة، وانتظمت العمارة في الطول على حافة النيـل من منية السيرج إلى موردة الحلفاء بجوار الجامع الجـديد خارج مصر ، وعمر على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق شمالى القـاهرة إلى منشأة المهرانى ، وبقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحكاراً عامرة بالدور والأسواق والحامات والجوامع وغيرها .

ويمكن للباحث الراغب فى معرفة تفاصيل امتداد القاهرة أن يقرأ الخطط المقريزية بإمعان ، فهى المرجع الفريد حقاً ، لأن مؤلفها معاصر لهذه المرحلة الهامة .

---

(١) كان هـذا الحى فى أول الأمر حارة كبيرة واقعة خارج سور القاهرة الشمالى تجاه باب الفتوح والحسينية منسوبة لجماعة الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز واستوطنوا ذلك الخط على أيام الـكامل محمد بن العادل وفى رأى آخر فى أيام الحاكم بأمر الله . وفى عصر الجراكسة أصبحت الحسينية تتألف من ثمانى حارات .

أرض الطبـــــــالة

عمرت فى شرق بولاق (الظاهر الآن) منطقة جديدة من الأراضى عرفت بأرض الطبالة ، حصرت بين الخليج الناصرى والمقس ، وكانت من أحسن المتنزهات يعبر النيل من غربها عند ما يندفع من المقس حيث كان جامعها إلى أن ينتهى إلى الموضع الذى عرف بالجرف على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى ، وكان منظر هذه المنطقة فى أيام الربيع خلابا جميلاً ، وفيها قال الشاعر المصرى سيف الدين على :

إلى طبالة يعزون أرضاً   لها من سندس الريحان بسط
رياض كالعرائس حين تجلى   يزين وجهها تاج وقرط

ويعزى إطلاق ذلك الإسم عليها إلى الأمير أبى الحارث أرسلان البساسيرى عند ماغاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى وخرج من بغداد يريد الإنتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية ، وأرسل كل تحفة وغنائمه النفيسة إلى القاهرة ، فسر الخليفة المستنصر سروراً عظيماً ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة ، فوقفت « نسب » طبالة المستنصر وأنشدت تحت القصر وحولها طائفتها :

يا بنى العباس ردوا   ملك الأمير معد
ملككم ملك معار   والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تمنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها أرض الطبالة ، وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة « نسب » . وقد عمرت هذه الأراضى ، وبنت بها دوراً وبيوتاً وكانت من ملح القاهرة وبهجتها ، وقد خربت سنة ست وتسعين وستماية عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل وبقيت خراباً إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ/ ١٣١١ م فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا ، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤م كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب ، فما زال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين التى عرفت فيما بعد ببركة الرطلى فمروا به من هناك حتى مصب الخليج الكبير . فعمر الأمير هناك القنطرة التى عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصرى ، وبذلك أعيدت العمارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و . . . الخ ، إلى أن حدث الغلاء فى أيام الأشرف شعبان بن حسين فخرب كثيراً من حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ، وصارت أكواماً . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيلنى الذى شيد على الخليج الكبير فى عام ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨م ، وجامع سروجه (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) بالقرب من بركة الرطلى — وإذا بعدنا

نحو الشرق قليلا ، وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٢ هـ وابن الفلك فى حى الحسينية ، وجامع عكوش وابن المغربى ، وخانقاه يونس النوروزى الداوادار ، وخانقاه ابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبرى (٦٨٧ هـ) والقلندرية (٧٢٢ هـ) والخلاطى (٧٢٧ هـ) خارج باب النصر ، ومن هذه المساجد نستطيع أن نتعرف على مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال .

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التى كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضى ، قبل أن تتسع وتمتد وتوجد ضواحيها الحالية التى أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التى أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين، وفى طليعتهم ويلكنسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهاى — وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها فى مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — والذين يدققون النظر فى لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التى كانت إلى أوائل القرن التاسع عشر تحمل طابع القرون الوسطى .

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفاً لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الاسكندرية فيركب إحدى السفن لتنقله على ترعة المحمودية ، وبعد أيام يصل إلى ثغر بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد على بعد ميل تقريباً ، فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة .

كان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة — أولهما الشمالى غير منظم ولكنه الممر العام للتجارة ، وثانيهما الجنوبى ويجبر الزائر على عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربى من حديقة الأزبكية وإذ ذاك يمر بجامع أبو العلاء على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسى مستوى الطريق لكى لا يعرقله الفيضان ، وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع ، وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم شارع فؤاد الأول ، ثم ٢٦ يوليو فى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢ .

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيما فى التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب ، وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة ، وكان لابد لهذا النشاط التجارى من أسواق ووكالات وخانات وفنادق — وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التى ترمى كلها إلى غرض واحد ، فهى عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التى تحيط بساحة أوفناء ، وأمام هذه الحوانيت باكيات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة على حاجة العرض كما يستعملونها سكناً لهم إلى انتهاء مهمتهم ، ومكانا يستخدمونه أيضاً لراحة حيواناتهم ، وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلى ، وكان موضعه ضريح القصر الذى فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أمير الغور (أمير الخيل) للملك الظاهر برقوق وخان الحمزاوى أو سوق القماش ، ووكالة قايتباى ووجهتاها يعتبران مثلين بديعين لزخرفة النقش فى تلك

الأيام، والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية، ولقد كان في القاهرة عند ما وصفها « المستشرق لين بول » عام ١٨٣٥ مائتا وكالة ، لاتزال للآن بقية منها .

خانات القـــــــاهرة وفنادقها

وفي أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القـاهرة أسواقاً للتجار الذين ازدحمت بمتاجرهم ، وكان أمراء المماليك يدركون الفوائد التي تعود عليهم من بناء الوكالات ، فـكان يفخر الأمير إذا شـيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بإيجار شهرى يناسبها ، وكان من أشهر تلك الخانات التى ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وهما إثنان أحدهما الـكبير على يسار الذى يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الـكاملية هى سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادما من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ المقريزى ذلك الخان وهو فى غاية العمارة وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارتهم وكان من أجل الخانات وأعظمها ، فلما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك تلاشت أحوال مصر وقل التجار وتهدمت عـدة أماكن منه .

ومن أسواق القاهرة أيضاً قيسارية جهاركس التى بناها ابن عبـد الله فخر الدين أمير المنصور الناصرى الصلاحى ، وقد رأى المقريزى جماعة من التجـار الذين طافوا البلاد يقولون : « لم نر شيئاً فى البلاد مثلها فى حسنها وعظمتها واحكام بنائها » . وبنى بأعلاها مسجداً كبيراً وربعاً معلقاً .

وفندق بلال المغيثى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المغيثى أحد خدام الصالح وكان معظماً إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة ، وكان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول : « رحم الله أستـاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفى هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية .

وقال المقريزى عنه : « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة مابين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يجل وصفه » . وقد تلاشى هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل فندقا آخر بالقرب منه .

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صـلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه بئر ساقية وحوض — ووكالة قوسون وكان موضعهـا بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء، وقد بناها الأمير قوسون وجعلها فندقاً كبيراً للتجار بدائرة عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة ، وقد دهش المقريزى لمـا زارها لـكثرة ما فيها من أصناف البضـائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين ، وكان يعـلوها أرباع تشتمل على

ثلثمائة وستين بيتاً أدركها المقريزى لما كانت عامرة كلها وقد سكنها نحو أربعة آلاف نفس — فلما كانت سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ خرب كثير من هذه البيوت ، وفندق دار التفاح، وكان تجاه باب زويلة وترد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الوارد من الشام . وقد أنشأ هذا الفندق الأمير « طشوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعمائة ووقفها على خانقاه بالقرافة . وخلا ماذكرنا من الخانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد مماليك السلطان صلاح الدين ، وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاى (خارج باب البحر ظاهر المقس) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، كان فيه ستة عشر عموداً من الرخام ويعلوه ربع كبير .

وكان فى القاهرة الكثير من أمثال هذه المبانى العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقريزى، فأفاض فى وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وأحيائها وآثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماماتها وشوارعها وأسواقها ، وصف كل ذلك بأسلوب يغرى الإنسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيدة عن الخيال المنمق لقد كانت القاهرة المقريزية مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة فى كل شىء ؛ وكانت قصور المماليك القدماء والتى لا تزال آثار بعضها لليوم — كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار منجك السلاحدار (٧٤٨ هـ) بالقرب من جامع السلطان حسن ، وبعض ممتلكات قايتباى وقصر الأمير ماماى الذى بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التى نعرفها اليوم ببيت القاضى — كل هذه المنشآت كانت فى كامل مجدها حينذاك — وكان يقع قصر بشتاك فى أيام المقريزى تجاه الدار البيسرية (وهذه كانت أعدت فى أيام الفاطميين للافرنج بخط بين القصرين) وكان يقصد إليه من باب البحر الذى عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم ، ويدخل كل منهما داره .

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدور وصفاً جيداً فذكر منها عدداً وفيراً نأتى هنا على أهمها ، دار الأحمدى ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب الكرك ودار بيبرس الحاجب ودار الدوادار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولى ودار طولباى ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم .. الخ وكان وصفه لها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة . وقد تكلمنا على معظم تلك العمائر .

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة يفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التى كانت توصد على سكان الحى بعد غروب الشمس ، وأهم الخطط التى ذكرها المؤرخ العلامة المقريزى خط خان الوراقة وخط باب القنطرة

وخط بين السورين وخط يمتد من باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة ، وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة الغزالة ، وهى بجوار قنطرة الموسكى وخط الكافورى ، وكان بستاناً قبل بناء القاهرة وخط الخرنفش ، وكان بين حارة برجوان والكافورى ، ويصل الإنسان إليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين ، وقد كان من أعمر أخطاط القاهرة ، وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيراً يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والخيالة — ولما حكمت الدولة الأيوبية صار هذا الموقع سوقاً مبتذلة ، ثم متنزهاً تمر فيه أعيان الناس ، وكانت تعقد فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ، ولما حدثت محن سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م تلاشى كل هذا .

ومن الخطط أيضاً خط الخشبية وخط سقيفة العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج ، وسمى بهذا الاسم لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى جملتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية كانت عملت داراً ينسج فيها الديباج والحرير للخلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج .

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جداً والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنتا وخمسون سوقاً أدرك بعضها المقريزى .

وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشربيات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر .

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقريزى فى خططه القصبة، وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على إثنى عشر ألف حانوت وامتدت من الحسينية إلى المشهد النفيسى ، ولقد أدرك المقريزى هذه المسافه الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها ، وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواق صغيرة أخرى ، أهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ، ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح ، وكانت تمتد بين مدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع النشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح ، وسوق باب الزهومة وسوق اللحميين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصناديقين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابيين ، وغير ذلك من السويقات العديدة .

وقد وصف المقريزى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطاً و٦٥ شارعاً أو دربا و٢١ زقاقا

وخوخة و٤٩ رحبة أو ميداناً و٥٠ سوقاً و٢٣ قيسارية و١١ خاناً أو فندقاً أو وكالة و٥٥ قصراً ودارآ و٤٤ حماماً و١٨ بستاناً و١١ ميداناً للسباق وغيرها .

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبرجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية والباطلية والروم والديلم والأتراك والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية والهلالية والحسينية .. الخ . . ومن الدروب التى ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ، ودرب أمير حسن وأرقطاى ، ومن الأزقة طريف منعم ، ومن الخوخ ، أيدغمس الأزرقى وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . ومن الرحاب ، ذكر رحبة باب العيد ، ورحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ورحبة البدرى ورحبة أقبغا ورحبة مقبل ورحبة المنصورى ورحبة بيبرس وارقطاى ورحبة باب اللوق والناصرية .

حمامات القاهرة

أما حمامات القاهرة فبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبحى » فى تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة ، وذكر القاضى القضاعى أنه كان فى مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . قال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر فى زمنه بلغ أكثر من سبعين حماماً وذكر ابن عبد الظاهر أن عدد حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستماية قارب من ثمانين حماماً .

وأهم الحمامات التى ورد ذكرها فى خطط المقريزى حمام السيدة العمة وحمام الساباط وحمام اؤلؤ وحمام تتر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية وحمام بشتك . الخ

المدارس

شيدت فى أيام الجراكسة عدة مدارس ، كان فى طليعتها :

مدرسة ومسجد الظاهر برقوق بالنحاسين .

بناها الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة وكانت تستخدم كمدرسة وخانقاه . توفى منشئها قبل إتمامها فأكملها ابنه الناصر فرج سنه ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م كان ابن « الطولونى » هو الذى اختط هذه المدرسة .

مدرسة ومسجد الأشرف برسباى .

أنشأها الملك برسباى سنة ٨٢٦ هـ / ٨٢٧ (١٤٢٣/١٤٢٤م) بالخانكاه ولها واجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب وباب تجاوره مئذنة . والركن الشرقى البحرى للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه .

مدرسة ومسجد جوهر اللالا .

أنشأها الأمير جوهر اللالا الذى كان فى خدمة الأشرف برسباى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٩/١٤٣٠ م على ربوة عالية بحرى مسجد الرفاعى .

مدرسة ومسجد أبو بكر مزهر بحارة برجوان .

أنشأها أبو بكر بن محمد سنة ٨٨٤ / ٤٨٥ هـ (١٤٧٩ / ١٤٨٠ م) ولها واجهتان خاليتان من الزخارف والباب الشرقى حافل بالزخارف الرخامية والحجرية ، ويعلوه مئذنة من ثلاث دورات ، بها كثير من الزخارف ، وداخل المدرسة حافل بشتى الصناعات الجميلة ، فالأيوان كسيت جدرانه بوزرة من الرخام ، والمحراب مصنوع من الرخام الدقيق ، كما أن صناعة النجارة على جانب عظيم من الدقة .

مدرسة ومسجد السلطان الغورى .

أنشأها الغورى بالغورية سنة ٩٠٩/٩١٠هـ — ١٥٠٣/١٥٠٤م ؛ وهى تقابل تربته ويفصل بينهما شارع الغورية ويتوصل إليها من سلم يؤدى إلى مدخل فدركاة جميلة مفتوح فى جانبها القبلى باب يوصل إلى طرقة تؤدى إلى صحن المسجد المشتمل على أربعة إيوانات أكبرها الأيوان الشرقى وهذه الأيوانات مغطاة بسقف — جميل فيه نقوش مموهة بالذهب .

المكتبـــــات

رأينا أمراء هذا العصر قد شيدوا الكثير من المساجد والمدارس ، وكانت تلك عامرة بخزانات الكتب العامرة ومنها مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (٧٨٦ — ٧٨٨ هـ) . وكان بالمدرسة المحمودية خزانة كتب ، قال عنها المقريزى « لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها » . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة حتى أواخر العصر المملوكى واشترط واقفها الأمير جمال الدين محمود أن لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه المكتبة جمعت الكتب الإسلامية . وقد تولى خزانة كتب المدرسة المحمودية السراج عمر أيام الأمير جمال الدين ، ولكنه عزل بسبب تفريطه فى كتبها ، كما عزل خازنها عثمان فخر الدين

البكرى سنة ٨٢٦ هـ لنفس السبب ، ثم تولى أمانة هذه المكتبة الشيخ المؤرخ الحافظ بن حجر العسقلانى واستمرت بيده حتى وفاته(١) .

وقد كان بالخانقاه البرقوقية التى أنشأها السلطان فرج بن برقوق بخارج باب النصر سنة ٨٠١ هـ — ٨١٣ هـ خزانة كتب كبيرة(٢) .

وحينما شيد الأمير جمال الدين الاستادار مدرسته بالجمالية برحبة باب العيد سنة ٨١٠ — ٨١١ هـ جمع لها الكتب واشترى الكثير من مكتبة المدرسة الأشرفية بعد هدمها(٣) .

واحتوت المدرسة المؤيدية التى بناها السلطان المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٨ - ٨١٩ هـ على مكتبة كبيرة كما اشتملت المدرسة الأشرفية التى بناها أبو النصر برسباى سنة ٨٢٦ — ٨٢٩ هـ على خزانة كتب قيمة زخرت بالكتب الدينية ، وكتب الحديث واللغة والآداب والمصاحف . أما السلطان قايتباى المحمودى فإليه تنسب عدة مكتبات ، ففى مدرسته الكبيرة بقرافة المماليك أودع بها خزانة كتب ، كذلك كان فى مدرسته بقلعة الكبش . وقد تنافس أمراؤه فى بناء المدارس التى أودعوا بها خزانات الكتب ، ومن هؤلاء الأمير يشبك الدوادار الذى كان محباً للعلماء والفقهاء ، يقتنى المصاحف الشريفة والكتب . ولما بنى الأمير أزبك أتابك الجيش مدرسته الكبيرة فى سنة ٨٨٠ هـ عمل فيها خزانة للكتب .

وقد كان بمدرسة السلطان قانصوه الغورى بخط الشرابشيين خزانة كتب حوت من صنوف المصاحف والكتب الشىء الكثير ، ورتب لها أميناً ثقة يقوم على خدمتها(٤) وقد وصل إلينا بعض نفائس تلك الخزانة ، منها كتاب نفائس المجالس السلطانية فى حقائق أسرار القرانية ، وكتاب الكوكب الدرى فى مسائل الغورى وكتاب تذكرة الملوك إلى حسن السلوك والحكايات المستطابة فى ديوان الصبابة « وهكذا يبدو أن تلك المكتبة كانت زاخرة بشتى أنواع المؤلفات . وقد تنافس أمراء الغورى فى تأسيس المكتبات ومن هؤلاء : قانى باى قرا الرماح والأمير خاير بك صاحب الجامع بخط التبانة ، والأمير بيبرس عبد الله الذى عمر مسجداً بخط الجودرية الحق به خزانة كتب .

وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرماً باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفها ، وجمع المصاحف الكريمة التى كتبها مشاهير الخطاطين . ومن هؤلاء المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٤٣

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٤٠٢ و٢٦٤

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ — ٢٨

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : المصدر السابق ذكره ص ٣٣ — ٣٥

فقد أودع فى مدفنه بالصحراء خارج باب النصر بالقرب من تربة الأشرف إينال كتبه القيمة وتصانيفه المختلفة ويقفها فى خزانة يقيم لها خازناً أميناً ويجعل له سكناً خاصاً به (١) .

وكان أمناء المكتبات يتقاضون مرتبات بعضها يعتبر ضئيلا بالنسبة لواجباتهم ، كان يتقاضى أمين مكتبة السلطان فرج بن برقوق — ٢٠ درهما وأمين مكتبة الأمير جمال الدين الاستادار ١٠ دراهم ، وأمين مكتبة السلطان برسباى الدقماق ٢٠٠ درهم يضاف إليها ثلاثة أرطال من الخبز فى اليوم ، وأمين مكتبة السلطان قايتباى ٢٠٠ درهم يضاف إليها رطلان من الخبز يومياً ، وأمين مكتبة الأمير أزبك (ططخ) ٣٠٠ درهم وأمير مكتبة السلطان قانصوه الغورى ١٥٠٠ درهم ويخصم منه مرتب الفراش ، وأمين مكتبة الأمير قانى باى الرماح ١٦ درهم .

خلجان القـــــــاهرة

كان بظاهر القاهرة عدة خلجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر والخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر . أما خليج مصر فكان بظاهر الفسطاط ويمر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين ، وقد حفر فى سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وفرغ منه فى ستة أشهر ، وما برح هذا الخليج متنزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه المراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصرى وذكر المسبحى أن الحاكم بأمر الله منع فى سنة ٤٠١ هـ الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخلج وشدد فى المنع وسدت أبواب القاهرة التى يوصل منها إلى الخليج وأبواب الطاقات بين الدور التى تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخوخ . وعن الخليج قال المقريزى :

لا تركبن فى خليج مصر — إلا إذا يسدل الظلام
يا سيدى لا تسر إليه — إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى — عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الناصرى وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر الذى حفره كافور الأخشيد مثلها ، وهى قنطرة الدكة التى عرفت أيضاً بقنطرة التركمانى .

---

(١) وثيقة ابن تغرى بردى محكمة ١٤٧ محفظة ٢٣ : انظر مقدمة النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٩ — ٢٨ السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٣٠٥ — ٣٠٨

أما الخليج الناصرى فكان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس تحمل ما يحتاج إليه من الغلال وغيرها ، كما أنشأ قصوره وخانقاه بتلك الناحية ، وقد بدأ بحفره سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ — ٢٥م، وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال وغيرها ، فسر السلطان بذلك، واشترت الأهالى عدة أراضى غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا فى العمارة على حافتى الخليج فعمروها بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس فى السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن للفرح ومنازل للهو والقصف إلى أن منعت المراكب منه .

وكان يخرج خليج قنطرة الفخر ابتداء من بولاق إلى حيث كان يصب فى الخليج الناصرى وقد كانت على تلك الخلجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على الخليج الكبير والخليج الناصرى خمس قناطر وعلى كل من الخلجان الأخرى قنطرة .

الخليج المصرى

كان الخليج المصرى يخرج من النيل جنوبى قصر العينى عند السواقى السبع التى تمد القناطر المقامة بجانبها بالمياه إلى القلعة ، ويعرف اليوم مكان هذه السواقى بفم الخليج . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرقى ثم ينعطف إلى الشرق الجنوبى حتى يصل إلى قناطر السباع حيث ميدان السيدة زينب اليوم ، ثم يعود سيره إلى الشمال الشرقى ماراً غربى بركة الفيل ثم غربى درب الجماميز ثم غربى باب الخرق ، ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية وهو يعرف اليوم بباب العدوى . ويسير خارج القاهرة إلى جامع الظاهر بيبرس ثم يسير بين المزارع إلى ناحية الزاوية الحمراء والأميرية وسرياقوس والخانكة .

كان يقع إلى غربى الخليج من الشمال أرض الطبالة وهى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وامتداده حتى يتقابل بشارع مهمشة ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حيث كان يجرى نهر النيل فى العصر الفاطمى . ومن الجنوب بشارع الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى (بور سعيد اليوم) وكانت تقدر مساحة أرض الطبالة بحوالى مائتى فدان كان الخليفة المستنصر بالله قد وهبها إلى السيدة نسب الطبالة فسميت المنطقة باسمها ، وكانت بها بركة الرطلى ويسمى بها الحى المعروف اليوم . وإلى شمالى هذه البركة كان يمر خليج الطوابة الذى كان يعرف أيضاً باسم خليج المغربى وهو الخليج الناصرى القديم .

وكان يلى أرض الطبالة خط المقس ، وكان يشمل المنطقة التى تحد اليوم من الشرق بشارع بورسعيد

و (الخليج المصرى) ومن الشمال بشوارع الطبلة والطواشى والشعبكى وبين الحارات ، ومن الغرب ميدان باب الحديد وشارع رمسيس وشارع عماد الدين ، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة وشارع القبيلة ودرب القطة وشارع الفوطية وشارع سوق الزلط وشارع الخراطين حتى تقابله بشارع الخليج . وأهم عمائر هذه المنطقة جامع أولاد عنان الذى عرف أيضا بجامع المقس .

وإلى جنوب خط المقس كانت أراضى زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً ، وكان يتخلف فيها بعد الفيضان بركة عرفت ببركة الأزبكية وإلى الشمال الغربى منها كان يقع حى النصارى بدروبه وأزقته حيث كان يقيم بعض أقباط القاهرة ، وقد نقلت إليه البطريركية القبطية فى أيام الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ من مقرها بحارة الروم بقسم الدرب الأحمر .

وإلى شرقى بركة الأزبكية كان يقع خط الأفرنج ، وكان يحد من الغرب بالبركة ومن الشرق بالخليج المصرى ومن الشمال بخط المقس ، ومن الجنوب بشارع الموسكى وبمقبرة كبيرة كانت تعرف بمقبرة الأزبكية وكان بجوارها جامع أزبك الذى هدم عام ١٨٧٥ ، وكانت أهم معالم حى الأفرنج ، حديقة روسيتى التى يخترق أراضيها اليوم شارع الجيش من جهة ابتدائه عند العتبة الخضراء ، وحول هذه الحديقة الغناء كانت دور قناصل الدول الأوربية ، وأهمها دار قنصل فرنسا ثم دار تياترو القاهرة وهو المسرح الذى أقيم فى أيام الحملة . وكان على شاطىء البركة فندق واجهورن وفندق دوبرج وموقعه اليوم جنوبى نقطة تقاطع شارع الموسكى بشارع الخليج المصرى وفندق جاردينو الإيطالى . وكان لهذا الحى أبواب ضخمة تقفل ليلا .

وكان يقع قصر الألفى بك غربى بركة الأزبكية وقد قتل فيها الجنرال كليبر الفرنسى وأقام فيها محمد على وبويع على الولاية ، وقد تحول قصر الألفى إلى فندق شبرد عام ١٨٣٤ ثم اتصلت بولاق بحى الأزبكية بطريق مهده لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية (١) .

ظل الخليج المصرى مستعملا فى إرواء القاهرة وضواحيها قروناً عديدة إلى أن نشأت شركة مياه القاهرة فى عهد الخديو اسماعيل ومدت أنابيب المياه إلى بعض الأحياء فقلت فائدة الخليج وأصبح مباءة تلقى بها فضلات البيوت المطلة عليه ومياهها القذرة وتحول إلى بؤرة للأمراض . وفى عام ١٨٩٧ تعاونت شركة ترام القاهرة مع الحكومة على ردمه ومد به خط الترام الذى كان يصل ما بين غمره وباب الشعرية والسيدة زينب وشارع مدرسة الطب .

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ صدر مرسوم بتوسيع شارع الخليج إلى ٤٠ متراً بين ميدان السيدة زينب وشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) وتم تنفيذ بعض أجزائه حتى عام ١٩٥٤ حينما نشطت بلدية

---

(١) فؤاد فرج : القاهرة ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢ و ٥١٤ — ٥١٦ و ٥٥٧ — ٥٥٨ .

القاهرة وقد تولى الإشراف عليها قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى فأكمل توسيع شارع الخليج من باب الخلق إلى غمرة ، وأزيلت المبانى الخربة التى اعترضت الطريق ، ثم ألغى نهائياً سير عربات الترام . وفى عام ١٩٦٦ أعيد سير عربات الترام لحل أزمة المواصلات ، وفى أعقاب حملة السويس واستبسال بورسعيد ١٩٥٦ سمى شارع الخليج باسم شارع بورسعيد .

قناطر القـــــاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهى التى كان يتوصل بها إلى منشاة المهرانى وغيرها من شاطىء الخليج الغربى وقناطر السباع بجانب خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى ، وكان أول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعاً من الحجارة فقيل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة ، وقد محاها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتنسب إليه، وليست الملك آخر وانتهى منها فى سنة ٧٣٥ هـ/١٣٢٤ م .

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطىء الخليج الغربى وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل إليها من خط قبو الكرمانى ومن الحبانية إلى شاطىء الخليج الغربى وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلا وموردة للسقايين فى أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطانى بأرض اللوق وعمر به المناظر فى سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها إلى الميدان المذكور وقنطرة الموسكى ويتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربى أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبى . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويمر فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائد جوهر وقنطرة باب الشعرية ويسلك إليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبى . والقنطرة الجديدة وقناطر الأوز ويتوصل إليها من الحسينية ، وقناطر بنى وائل التى أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٥ هـ، وعرفت بهذا الإسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل ، وقنطرة الأميرية وهى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة بالقرب من المطرية ، وكان منشؤها الملك الناصر أيضاً .

وكانت قنطرة الفخر أول القناطر التى عمرت فى الخليج الناصرى بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب، وقد أنشأها القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م عند انتهاء حفر الخليج الناصرى ، وقنطرة قدادار ويتوصل إليها من اللوق إلى شاطىء الخليج الناصرى مما يلى الفيل — وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط، وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من الكتاب وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة .

وكانت على خليج فم الخور قنطرة المقس ما زال موضعها سداً إلى أن كانت وزارة الصاحب

شمس الدين بن الفرج عبد الله القبطى فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان تلك القنطرة فعرفت به .

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر أبو المنجا ولا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م وتولى عمارتها الأمير عزالدين أيبك — وقناطر الجيزة وكانت تعد من الأعمال العجيبة فى الزمان القديم ، وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى فى زمن السلطان صلاح الدين .

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيها عدة برك ، أولها بركة الحبش وكانت فى ظاهر الفسطاط من قبلها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر قره بن شريك العبسى ، وقد قال أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسى فى وصفه للبركة .. « اتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموساً فى خلع بدور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء » .

وقد عاين المقريزى هذه البركة أيام فيض النيل كما شاهدها فى أيام التحاريق وفيها قال :

يا بركة الحبش التى يومى بها   طول الزمان مبـــارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة حبشة   وكأن دهرى كله بك عيد
يا ليت شعرى هل زمانك عائد   فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك بركة الشعيبية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها المـاء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيمان على يســار من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة ، وبركة الفيل وهى من أكبرها .

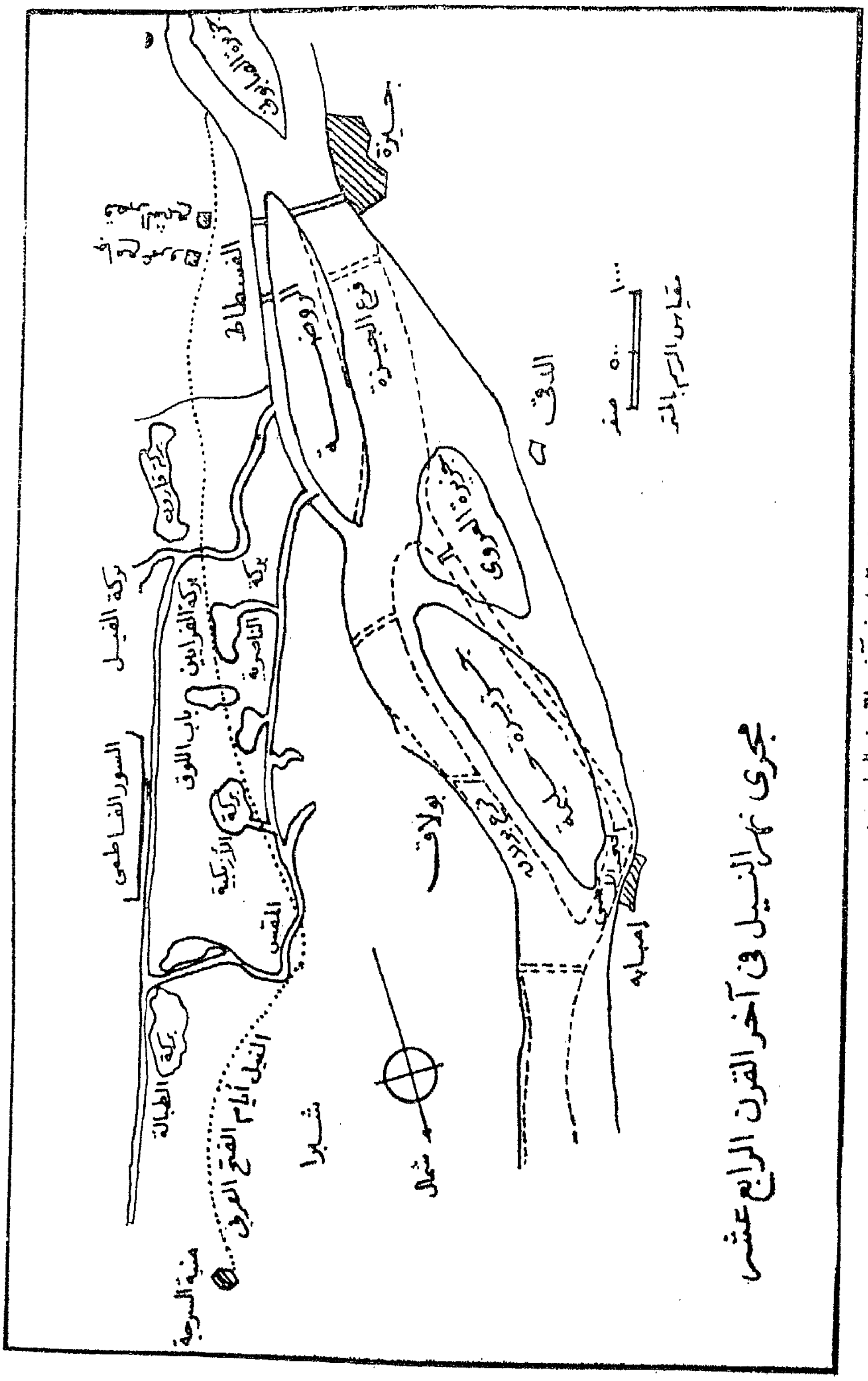
وقال عنها ابن سعيد الرحالة . « وأعجبنى فى ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشقاف وكانت بجوار اللوق وجامع الطباخ وعدة مناظر ، منها واحـدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى ، وكانت داخلة فى نطاق أرض الطبالة — وكان فى

شرق هذه البركة زاوية فيها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأرطال الحديد التى تزن بهـا الباعة فسماها الناس بركة الرطلى .

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرض الطبالة واللوق . وكانت تجاه دار الذهب ، وبركة جناق وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقريزى . وبركة الحجاج وسميت بذلك الإسم لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم . وبركة قرموط كانت بين اللوق والمقس وقد ردم جزءاً كبيراً منها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأدرك المقريزى بها دياراً جليلة تباهى أربابها فى إحكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بهـا الأشجار وأجروا إليها الميـاه من الآبار ، فـكانت تعد من المساكن البديعة للنزهة ، ويقول المقريزى عن دورها ما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم . أما الروائح فتتعالى من المطابخ أو عبير بخور العود أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغشارة نعمهم، ثم هى الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المنـازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وانـكشفت البركة وبقى حولها بسـاتين خراب . وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريباً من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحـد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهرى فلما خربت الجنان صار موضعها كوم تراب وقد أعاد إليها رونقها الملك الناصر بفضل الأمير بيبرس الحاجب، فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة، فحـكر الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامراً إلى أن كانت الحوادث من عام ٨٠٦ هـ/١٤٠٣ م فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور .



مجرى نهر النيل في آخر القرن الرابع عشر

الفصل السادس

القاهرة فى أيام المماليك الجراكسة

من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بهـا المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

جاء بعد الناصر محمد أحفاده الضعفاء محمد بن حاجى (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلى بن شعبان ، ثم حاجى بن شعبان وكانوا جميعهم ألاعيب يحركها الأمراء الأقوياء ، وظهر من هؤلاء جميعاً قوصون وشيخو وصرغتمش وآخرهم برقوق الذى خلع السلطان حاجى بن شعبان فى عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . وتولى العرش مكانه ، ولقب نفسه بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية ، وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى . وبتوليه العرش زال مبدأ الوراثة المملوكية .

تولى الحكم المماليك البرجية — أو مماليك الحصن لأنهم كانوا يسكنون القلعة منذ قرن ، ويسمونهم أحياناً المماليك الجراكسة نسبة إلى أصل سلاطينهم ، فانهم من الشعب الجركى الذين نشأوا فى سيبيريا ثم هاجروا إلى غربى بحر قزوين وإن كان بعضهم من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين هذه الأسرة الجديدة تحت رحمة أمرائهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان أتباع كل أمير مملوك يعد نفسه مستقلا عن شئون الدولة ، فيطلقون على فئتهم الأشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة إلى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم أحزاباً مستقلة بعد موت أميرهم أو خلعه ويساهمون كما يرغبون فى المعارك الدموية وحوادث السلب والنهب . ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح مماليكهم كما أنهم عجزوا عن إدارة شئون البلاد بدونهم .

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقوهم ، ولم يكن بين « الجراكسة » سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرهما من الفاتحين ، كما أنه لم يكن الجراكسة جنوداً بمعنى الكلمة ولكن كانوا لا يعتمدون على الشجاعة فحسب بل على المؤامرة ، والمكيدة ، فمثلا السلطان الرومى « خوش قدم » اشتهر بحلمه وحبه لرعيته فكان يجبى الضرائب ويصرفها لمصلحتهم وقد يعتبر أفضل سلاطين الجراكسة .

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع مماليك الجراكسة إلى حد ما أن يحافظوا على مكانة مصر بين الممالك المجاورة ، وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم ، فقد قاوم « برقوق » تيمورلنك الفاتح التترى، وكان قد ملأ الأرض بفتوحاته حتى سمع دويها فى سورية ، إذ جاء يهدد حدودها ، فنهض إليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩م، ولكن تيمورلنك قبل أخيراً شروطه وعاد من حيث أتى .

وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرس التى اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيراً ما كانوا يهاجمون الأسطول المصرى ، فجهز لهم الملك الأشرف برسباى فى عام ١٤٢٦ م أسطولا بناه فى بولاق، ثم أخضع الجزيرة وحمل الملك « جان لوسينيان الثالث » على الاعتراف بسلطانه وأداء الجزية ، وكان هذا الملك قد وقع أسيراً فى أيدى المصريين فى معركة « شيروكيتا » وعادوا به مكبلا إلى مصر ، وأخذوه فى موكب إلى القلعة ودفع فديته قنصل البندقية والتجار الأجانب ، ثم ركب فى موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله والياً من قبله . وعقد برسباى مع ملوك الصليبيين — وسلطان آل عثمان إذ ذاك مراد بن محمد — معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسباى أحق ملوك الجراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده إلى بيراموس والفرات .

ولا نجد من عجائب الشذوذ فى التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء المماليك فى الجمع بين المتناقضات، فبينما نجدهم عصبة من الأفاقين بيعوا بيع السلع، ونشأوا أرقاء وأصبحوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد ، نجد منهم ميلا للفنون والعلوم والأدب والدين . ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى معيشتهم وعمائرهم ذوقاً سليما ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباى مولعين بمجالس العلماء والأدباء ، وكان برسباى على قلة إلمامه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذى كان يقرؤه له « العينى »، وكان الظاهر « تمربغا » الرومى عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف، وكانوا يؤدون فرائض الدين كاملة ، لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله — شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلماً عالماً وموسيقياً بارعاً وشاعراً وخطيباً، بسيط الملبس والمعيشة ، يختلط بالشعب ، كأنه منهم ، شيد عمائر جميلة ، منها جامع المؤيد (١٤٢٠ م) بالقرب من باب زويلة ، وشيد أيضاً البيمارستان المؤيدى (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة(١)، وبنى برسباى جامعه الكبير المعروف بالأشرفية (١٤٢٢ م) بالقرب من الموسكى عند منعطف العورية ، وبنى برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين، وشيد جامعاً فيه مقبرته وإن لم يدفن فيها، وله قبتان . وقد مات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج فى عام ١٤١٠ ، وهذا الجامع يعد بين أهم الجوامع الرائعة الموجودة فى القرافة الشرقية، ولكن درتها مسجد وضريح قايتباى (١٤٧٤ م) ، وهو مثال جليل لما وصلت إليه عمارة المماليك، فإن قبته تسمو بنقوشها العربية، ومئذنته البديعة التى تناطح السحاب تتحول من مربع فمثمن

---

(١) لا تزال بقايا هذا البيمارستان قائمة بدرب اللبان بحى القلعة .

فدائرة ، وتختفي زواياها بالمقرنصات، وكذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدراً واعتباراً .

السلطان قايتباى :

تولى السلطان قايتباى العرش فمكث على سرير السلطنة ٢٨ عاماً [٨٧٢ — ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ — ١٤٩٦م] ، وكان مملوكاً اشتراه « برسباى » بمبلغ خمسة وعشرين جنيهاً . وتحول من خدمة سيد لسيد آخر وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح أتابك الجيش للظاهر تمريغا الرومى، وكان الجيش المصرى إذ ذاك يكلف الدولة ٣٠٠،٠٠٠ جنيه فى السنة .

لقد وصم قايتباى بالشح ، ولكن الواقع لا يقر هذا الوصف ، فقد اشتهرت آثاره الخالدة فى الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر ، مما يدل على أنه صرف مالا كثيراً فى تشييد تلك المبانى النفيسة — فقد شيد ضريحاً فخماً ضمن مقابر المماليك (١٤٧٢م) ، ومدرسة بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥ م) وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل النماذج لفن الزخرفة العربية التى لازمت العمارة الإسلامية . وكان قايتباى محباً للأسفار ، فقد رحل إلى سوريا، واقليم الفرات، وطاف بأنحاء مصر، وزار مكة وبيت المقدس، وكان أينما رحل ترك خلفه آثاراً تتحدث عن مكانته . فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة — ولا يمتاز أى عصر من عصور سلاطين المماليك على عصر قايتباى من حيث الانتاج المعمارى إلا إذا استثنينا عصر الناصر محمد بن قلاوون .

وفى أيام الجراكسة وعلى الأخص فى عصر قايتباى، أدخلت على فن المعمار تعديلات جديدة ، فقد استعملوا كثيرا الحجر المنحوت وبناية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة، وفى داخل الجوامع، وفى واجهاتها كانوا يدخلون النقوش الرائعة والزخارف — مع أن الخط الكوفى كان قد استبدل به من زمن بعيد الخط النسخى وذلك لجماله الزخرفى، وشيدت القصور العظيمة أيضاً .

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء الأضرحة، وكانوا يجعلونها فى ركن غير ظاهر من المساجد ، كما كان الحال فى عهد المماليك البحرية ، بل صارت الجزء المهم من الجامع .

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الجراكسة تمس غير الباب والمئذنة وبعض المرافق الأخرى ، ولكن فى عهد السلاطين الجراكسة راق للمهندسين أن يجعلوا أبنيتهم شائقة فى كل واجهاتها الخارجية فامتازت الآثار التى كثرت فى مصر فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا .

وعم فى عصر الجراكسة عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص ، أو الملاط كما فعل مهندسو الفاطميين ، ومن جاءوا بعدهم . وإن المنبر الحجرى ذا النقش البديع الذى أقامه قايتباى (١٤٨٤ م) فى ضريح برقوق يعد فى طليعة النماذج الفنية الرائعة التى تفخر بها القاهرة ، من ذلك النوع ، والحجارة فيه تقوم مقام الخشب وهى عبارة عن ألواح

من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها ، فأصبحت قطعة واحدة أخرجت فى قالب دقيق الصناعة ، أو كقطعة من الدنتلة صنعتها يد آنسة رشيقة ، وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تعطى جدران السلم والضريح .

وكان قايتباى موفقاً فى أعماله وقد فاق جميع زملائه ذوقاً وهندسة، كما أنه اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات، وإن دراسة آثاره كلها تدعو إلى الإعجاب والدهشة ! سواء درسنا نقوش مدرسته القريبة من جامع ابن طولون أو مبانيه الأخرى كالوكالات ، والخانات التى اشتملت هى الأخرى بدورها على حصيلة نفيسة من الرسوم المتنوعة ، وتؤيد لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأى بالرغم مما أصابها من الإهمال والخراب ! وتستحق واجهتها التى احتفظ بها عناية الذين يرغبون مشاهدة جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسى الأجانب استخراج طبعات من هذه الحليات المنقوشة ، ووضعوها فى متحف فكتوريا والبرت بلندن ، ولا شك أن البناء الأصلى لتلك الوكالة كان فى أيامه نموذجاً لفن العمارة التى تعتبر مرجعاً صادقاً للدراسة .

ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة شبيهة لأيام الناصر من ناحية تشييد المبانى العظيمة ، ولا تزال مساجد الجراكسة تجذب إليها المعماريين والمصورين والزائرين من شتى نواحى العالم، فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على الداخل وطنفساتها وزواياها المحلاة ونافوراتها الرخامية وقبلاتها الزاهية — كل ذلك كمال فى الذوق وحسن التصميم .

ومن أشهر مبانى الأمراء : مسجد أزبك اليوسفى (١٤٩٥ م) والأمير خيربك (١٥٠٢) . وجامع قانى باى الرماح أميرأخور أيضاً ، وجوامعهم عنوان للنقش الجميل — كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضى أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التى أعادت تجديد بنائها إدارة حفظ الآثار العربية ، فردت إليها رونقها السالف وألوانها الأصلية ، وكذلك مسجد الأمير جقمز الإسحاقى .

الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف

يصف قاهرة محمد بن قايتباى

كانت مصر فى العصور الوسطى يمر بها الحجاج المسيحيون فى طريقهم إلى بيت المقدس . وكان الفارس الألمانى أرنولد فون هارف واحداً من هؤلاء الحجاج الأثرياء ، غادر كولونيا فى نوفمبر سنة ١٤٩٦ ، بقصد الحج إلى بيت المقدس فى رحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها مصر وبعض بلاد الشرق الأوسط ، ثم عاد إلى بلاده فى أكتوبر ١٤٩٨ ، وقد دون ملاحظاته عما شاهده فى أثناء رحلته ، حتى أتم كتاباً عنها ، أهداه بعد عودته إلى أمير مقاطعة كولونيا ، ليكون مرجعاً يفيد منه من يسافر بعده من الحجاج إلى

الأماكن المقدسة[1] وقد طبع هـذا الكتاب فيما بعد بكولونيا فى سنة ١٨٦٠ .

وصف أرنولد دخول سفينته إلى ثغر الاسكندرية ومرورها مخفضة الشراع أمام قلعة قايتبـاى التى تم بناؤها قبل وصوله بعدة سنوات ، وكيف حياها حراس القلعة بطلقات من المدافع ، أجاب عليها ربان السفينة بالمثل ، وبعد ذلك نزل التجار إلى المدينة وأقاموا فى فنادق خاصة بتجار البندقية يحرسها المماليك . وبعد أن مكث بضعة أيام ، شاهد فيها آثار الاسكندرية وأسواقها، ركب إلى رشيد ومنها عن طريق النيل إلى القاهرة ، حيث دفع ضريبة أخرى ، وكان عليه أن يقيم فى منزل ترجمان المماليك . ولم تعجبه الاقامة هناك . ولـكنه سرعان ما تعرف على اثنين من أصل ألمـانى ، أحدهما من مدينة بال والآخر من دانزج ، وساعده الاثنان كثيراً فى جولاته بالقاهرة .

واستطاع فون هارف بوساطة صديقيه أن يحصـل على تصريح من سلطان مصر فى ذلك الوقت الناصر محمد بن قايتباى (١٤٩٦ — ١٤٩٨) ليسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا وغيرها من البلاد التى كانت تابعة لمصر . واهتم السلطان بأمره ، فدعاه إلى مقابلته ، وتحدث إليه فى شئون السياسة الأوربية ، والحروب التى أثارها شارل ملك فرنسا ، وما يتهيأ له من غزو بلاد الشرق الأوسط . ووصف فون هارف القلعة ، وما شاهده فيها من مبان وقصور ، وقال أنه رأى بها مدرسة المماليك ، وكان بها خمسمائة مملوك من الفتية الصغار ، يتدربون على الأعمـال العسكرية ، ويتعلمون القراءة والـكتابة ، ويشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً .

وقد ثار آقبردى الدوادار على السلطان الناصر محمـد بن قايتباى ، وحاول خلعه ليحل مكانه ، ولـكنه فشل . وتصادف أن وقعت هذه الثورة أثناء وجود فون هارف بالقاهرة ، وإقامته فى منزل ترجمان المماليك ، الذى كان من أنصار الدوادار ، فهاجم المماليك من أتباع السلطان منزل الترجمـان ونهبوه ، كما نهبوا متاع أرنولد ، ونجا هذا بنفسه بعد مشقة كبيرة ، وبعد أن أبرز التصاريح التى حصل عليها من السلطان .

ويصف فون هارف الحياة فى شوارع القاهرة ، فيقول أنه يوجد بها ٢٤٠٠٠ شارع وحارة ، منها ٢٤ شارعاً رئيسياً طويلا ، يمتد أحدهامن المطرية ويمر بالقلعة ، ولم يصل للمؤلف إلى نهايته من الناحية الأخرى ،

---

(١) Harff, Ritter Arnold von Coln, Die Pilgerfahrt des · durch Italien, Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Turkei, Frankreich und Spanien ... Coln, 1860.

أنظر أيضاً : محمد مصطفى : السلطان قايتباى كما رآه الرحالة الألمـانى أرنولد فون هارف . مجلة الهلال ، ج ٤ المجلد ٦٣ ، ابريل ١٩٥٥ ، ص ٣٢ — ٣٧ .

وأن هذه الشوارع ترش بالماء ثلاث مرات يومياً ، ولكل شارع بوابتان عند طرفيه ، تغلقان ليلا وتقف عليها الحراس . وفى كل شارع طباخ ومخبزان أو أكثر حسب طول الشارع وحاجة سكانه ، وأن أكثر الناس لا يطبخون فى بيوتهم ، بل يشترون مأكلهم من المطابخ العامة والمخابز ، ويباع الدجاج المسلوق أو المحمر فى الشوارع ، ويوجد منه الكثير بالقاهرة ، كما أنهم يأكلون الكثير من لحم الضأن والجمال . وتوجد بالقاهرة حمامات كثيرة للرجال والنساء ، وأرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام ويسخن الماء فى غلايات كبيرة ، ثم ينقل بواسطة الأنابيب إلى أحواض رخامية .

وتحدث فون هارف بإسهاب عن كل ما شاهده ورآه فى مصر ، فهو يتكلم عن المساجد والكنائس والشوارع والمدارس والأهرام ومقابر سلاطين المماليك ، وعن الأسواق والمخابز والمطاعم والحمامات وأثمان السلع والحاجيات ، وعن العادات والتقاليد والرجال والنساء والزواج والطلاق . وما يلبسه المسلمون والمسيحيون واليهود ، وعن المماليك ونظمهم وأجورهم وسلاحهم ومعيشتهم وطغيانهم ، وعن الأعياد والمواسم والحدائق . . فقد بهره كل هذا فوصفه وصفاً مفصلا . .

قاهرة الغورى

وأخيراً يتولى العرش السلطان الغورى (٩٠٦هـ/١٤٩٩ — ١٥١٦م) . وكان قوى الارادة أعاد الأمن إلى نصابه ، وقضى على العسف الذى فشا فى القاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة ، فكان يجبيها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود ليكتنز المال فى الخزائن . فلما أصلح مالية الدولة بدأ يصرفها فى تشييد المبانى العامة الكبيرة ، فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تدعيم القلعة . ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته فى عام (٩٠٨ هـ/ ١٥٠٤) ومقبرته التى لم يدفن فيها، وكانت دار المكتبة الزكية وهما مواجهان لبعضهما فى شارع الغورية الذى تغيرت ملامحه كثيراً فى الخمسين سنة الأخيرة . وأقام الغورى أيضا مئذنة الجامع الأزهر، وشيد جامع المقياس فى جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين فى الرميلة وطواحين الهواء فى مصر القديمة وجدد بناء عيون المياه الموصلة لقلعة . وكان الغورى مبجلا فى مجلسه كريما مع الشعراء ميالا للموسيقيين ، وكان محبا للمال يبحث عنه فى كل مكان . وأشهر ما يخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوأته لأسطول البرتغاليين فى البحر الأحمر وهزيمته لهم فى عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧م . لكن حظه السعيد فارقه لما خرج فى طليعة جيش مصرى ليصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا فى البلاد السورية، فسقط فى معركة مرج دابق شهيداً وهرسته أرجل الخيل، ، فقام المتولى بالأمور الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ / ١٥١٦م) والتحم بالعثمانيين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزمه المماليك . وحاول « طومان باى » فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر ففاجأه سليم بهجمة عنيفة فى جناحه جعلته يرتد داخل المدينة، ودار القتال بين المصريين والعثمانيين فى شوارعها ثم استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على « طومان باى » وأمر بشنقه على باب زويلة ودفعت مصر الجزية لآل عثمان .

تلك هى نظرة تاريخية عامة تتصل بالقاهرة فى أيام المماليك الجراكسة ، وسنصف الآن ما لحق بالمدينة وتطور عمرانها وما استحدث فيها من أخطاط ودور وأسواق ومدارس ، ولا شك أننا ندين إلى المؤرخ المقريزى بتاريخ تلك الفترة من حياة القاهرة . . ومن بعده إلى المؤرخ المصرى ابن إياس .

بركة الأزبكية

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر كانت منطقة الأزبكية المحيطة ببركتها من أجمل متنزهات القاهرة ، فقد عنى بها الأمير أزبك بن ططخ كبير أمراء السلطان قايتباى، فأزال كيمانها وأعاد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، كما أنشأ قصراً له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه . ولما تم عمران المنطقة أنشأ بها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة وأنشأ حوله حماما ووكالة وقياسر للتجارة وقد انتهى من بناء تلك المنشآت حوالى عام ١٤٧٧ ، وكان من نتائج حفر البركة وإقامة رصيف حولها أن رغب سراة القاهرة فى سكنى الأزبكية، فبنوا القصور وغرسوا الحدائق وتبارى الشعراء والأدباء فى وصف البركة(١)، فقال أحدهم: «انها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر ترتاح إليها النفوس وتقربها النواظر، فهى بركة أنيقة المنظر صافية المخبر ، أرضها كالعنبر وعرفها كالمسك الأذفر » . . . .

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالقصور والدور التى يسكنها أعيان مصر ، وألحقوا بها الحدائق وأباحوها للشعب، فكانت فرحة لسكان القاهرة يهرعون إليها فى الصيف والربيع ، ينعمون بالتنزه حول مياهها والتمتع بمباهجها، وعند جفافها ينعمون بخضرتها وزهورها وتقام حولها الحفلات، وفى عام ١٧٧٦ شب حريق فى أحد الأحياء حول البركة ، أتلف كثيراً من الدور الكبيرة . غير أن ولاة الأمور حينذاك حتموا سرعة تعميرها فألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن استطاع التعمير ، وهكذا عمرت فى وقت قصير فلم يحل ميعاد الفيضان الثانى حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه (٢) .

أبواب الحارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة ، وفتحت فى أسوارها أبواب جديدة أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقة ، وكان ذلك نتيجة لتعدد حوادث السرقة فى عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩م، فاهتم الأغنياء بإقامة

---

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى : غرر الروضة الذكية فى وصف محاسن الأزبكية ؟
وانظر : حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ص ٤٠ — ٤٢ القاهرة ١٩٥٧

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢ — ٣

الأبواب على الحارات والدروب وعينوا لها البوابين ، فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب بقليل (١) . وقد ورد ذكر أبواب الدروب والخوخات فى عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر منها على سبيل المثال :

فى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م أمر والى القاهرة بأن ينادى باسم السلطان بأن سكان الأسواق والحارات يعملون عليها دروباً ، فامتثلوا لأمره ، وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها ماهو على سوق تحت الربع وعلى سوق أحمد بن طولون ، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والحارات ، وذلك بسبب اعتداء اللصوص عليها(٢) وفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م أمر الأمير الماس والى الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على الحارات والأزقة دروباً فى أماكن شتى ، فعمروا دروباً فى رأس سوق الدريس وفى الحسينية ، وعلى قنطر الحاجب وعند القس(٣) وعدة دروب فى أماكن شتى ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء وذلك اتقاء شر اللصوص وحدوث الحرائق المفتعلة .

وحينما كانت تقع اضطرابات كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والخوخات التى بالحارات(٤) كما حدث فى ٢٩ ذى القعدة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

وقد بقيت تلك الأبواب فترة طويلة تؤدى وظيفتها إلى القرن التاسع عشر وحدثنا المؤرخ « الشيخ الجبرتى » عنها كثيراً عند كلامه عن أحداث القاهرة(٥) .

وفى عام ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م منع محتسب القاهرة النساء من النياحة على الأموات، كما أمر السلطان الغورى فى شوال سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤م بأن ينادى فى القاهرة بألا يعمل عزاء بطارات ولا نائحة تنوح على ميت ، ثم أوعز إليه على نائحة عملت عزاء بطارات فقبضوا عليها ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً فى عنقها وأركبوها حماراً وشنعوا عليها فى أنحاء القاهرة فأقلع النساء عن تلك التقاليد(٦) .

---

(١) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها ص ٣٥ — ٣٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٣٦

(٣) » » » » » » » ج ٣ ص ٣٣

(٤) » » » » » » » ج ٣ ص ١٤٣

(٥) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٩ ، و ٢ و . . .

(٦) ابن إياس : ج ٤ ص ٧٦

وممن عنوا بطرق القاهرة أثناء حكم الجراكسة الأمير يشبك دوادار الملك الأشرف قايتباى ، فإنه فى عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨م شرع فى توسيع الطرق والشوارع والأزقة ، وخاصة الشارع الرئيسى للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة وتبييض الدكاكين وواجهات الربوع ، وعهد إلى القاضى فتح الله السوهاجى أحد نواب الشافعية بأن يحكم بهدم ما وضع فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وسقائف ورواشن ومساطب ، واستمر هذا إلى عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩م حينما أمر بإصلاح وجهات المساجد وطلاء رخامها(١)، وكان لتوسيع هذا الطريق الرئيسى وغيره أثر واضح فى الكشف عما حجب من واجهات المساجد المطلة على شارع المعز لدين الله .

وقد عين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال ملاحظ للطرق كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال الطلاء والبياض ، وكذلك اهتم بتجميل طرق القاهرة السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، فقد أمر فى سنة ٩٠٤ هـ /١٤٩٨م بأن ينادى فى القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون واجهاتها ويزخرفونها بالدهان ، كما أنه أمر بتبييض وجوه الربوع المطلة على الشوارع(٢)

أعمال الغـــورى

من العمائر التى أنشأها الغورى فى القاهرة المسجد والمدرسة اللتان تحملان اسمه، والمئذنة التى أقامها فى الجامع الأزهر وهى ذات رأسين، كما أنشأ أيضاً الربع والحوانيت التى كانت بالسوق خلف مسجده ، وبضعة ربوع فى خان الخليلى، كما شيد فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وبنى بيتاً لولده فى البندقانيين وغالى فى زخرفته ، وأنشأ هناك أيضاً ربعاً ووكالة وأمر بإنشاء الميدان الذى تحت القلعة وجلب إليه الأشجار من الشام ، وأجرى إليه الماء من السواقى، وأنشأ به المناظر والمقعد والبيت، وأقام جامعاً خلف الميدان المذكور وجدد معظم عمارة القلعة، منها الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة الأعمدة وأنشأ المقعد الذى بالحوش، وجدد أيضاً عمارة المطبخ الذى بالقلعة، وأنشأ سوقاً للرقيق بالقرب من خان الخليلى ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذى كان بالقرب من قناطر السباع، بناه بالحجر بعد أن كان بالطوب اللبن ، كما جدد عمارة المقياس وبنى به قصراً ومقعداً مطلا على البحر، وجدد عمارة الجامع الذى هناك وعمارة قنطرة بنى وائل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخروبى وعلاها حتى صارت السفن تمر من تحتها، وكذلك جدد عمارة قناطر السباع، وأنشأ بمدينة الطينة على ساحل البحر الأبيض قلعة لطيفة بها أبراج، كما أصلح طريق العقبة .

وقد قام السلطان الغورى بإنشاء وتجديد كثير من الآثار الإسلامية فى مصر وبلاد العرب والشام (٣)، فقد شيد فى العقبة حصناً منيعاً ، وبنى فى مكة ماريستاناً ورباطاً ، وحفر بئراً جديدة .

---

(١) ابن إياس : جـ ٢ ص ١٧١ — ١٧٧
(٢) « « : جـ ١ ص ٣٤٦
(٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى . القاهرة ١٩٦٦ .

قاهرة الشراكسة

كما شاهدها المؤلف الفيلسوف ابن خلدون

١٣٨٢ - ١٤٠٦

حظيت القاهرة بوصول عبد الرحمن بن خلدون إليها فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤/نوفمبر ١٣٨٢ ، فبهرته عظمتها وبهاؤها ، وكما بهرت على مر العصور كل من زارها من أعلام المشرق والمغرب . لنقرأ ما كتبه عنها :

...« ولما رحلت من تونس فى منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢ م) ، أقمت فى البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر (برقوق) على التخت ، وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة (٧٨٤) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . وسألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى فقلت له :

— كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام :

وسألت شيخنا أبا العباس بن أدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس ، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجى[1] بمجلس السلطان أبى عنان ، بعد تأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وسأله عن القاهرة فقال :

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨) : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقاً . حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

— أقول فى العبارة عنها على سبيل الإختصار ، ان الذى يتخيله الإنسان ، فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيـال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها أقمت أياماً ، وانثال على طلبة العلم بها ، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبر اللقاء ، وآنس الغربة ، فوفر لى الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس ، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر ، اغتباطاً بعودى إليه ، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه فى تخلية سبيلهم ، فخاطبه فى ذلك فى ١٥ صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة .

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية[1] بمصر ، من وقف صلاح الدين بن أيوب ، فولانى تدريسها مكانه ، وبينا أنا فى ذلك إذ سخط السلطان على قاضى المالكية « جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان ابن خير المالكى » فى دولته لبعض النزعات ، فعزله ، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب ، يدعى كل منهم قاضى القضاة . . .»

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عما كان من نتائج تقدمه فى حظوة السلطان وفى نيل المناصب سريعاً ، فقد كانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذاً فقد تولى العلامة ابن خلدون منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . . فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاماً طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة[2] .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن ابن خلدون أن هذا العزل لم يكن إيذاناً بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . . . ثم اشتغل بالدرس فى المهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه وغادر القاهرة فى منتصف شعبان . . وقصد إلى الحجاز

---

(١) أنشأها صلاح الدين بجوار تربة الإمام الشافعى .

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى . القاهرة ص ٧١ — ٧٢

بطريق البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م) وقصد السلطان تواً وأخبره بأنه دعا له فى الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف .

ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش ، بجوار الجامع الطولونى ، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة (٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م) .

ثم عين ابن خلدون فى وظيفة أخرى وهى مشيخة خانقاه بيبرس ، فزادت جرايته واتسعت موارده ، ولكن قامت ثورة أطاحت بالسلطان برقوق ، وكان زعيمها الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، الذى أعاد الصالح حاجى السلطان المخلوع إلى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً إلى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م) . ولكن استطاع برقوق بعد مؤامرة أخرى أن يعود إلى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه لبضعة أشهر فقط من عزله .

وقد عانى ابن خلدون من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه ، فلما عاد برقوق إلى العرش ردت إليه . ولبث أعواماً ينقطع للبحث والدرس حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ — ١٣٩٤ م

ولبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء نحو أربعة عشر عاماً ، يحول بينه وبين توليه ذلك الجناح من البلاط الذى كان قد أغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب ، وانفض رجاله ، رده السلطان إلى منصبه القديم ، وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة ٨٠١ هـ — مايو عام ١٣٩٨ م على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية ، فاستدعاه السلطان من الفيوم وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفى السلطان فخلفه ابنه الناصر فرج واضطرمت الفتن والثورات حيناً . ولما استقر الحال استأذن ابن خلدون فى السفر إلى بيت القدس فأذن له . فسافر وزار أعلامها التاريخية . ثم عاد من رحلته ولحق بركاب السلطان أثر عودته من الشام ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان عام ٨٠٢ هـ — ١٤٠٠ م .

وفى المحرم سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠م عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وكان ذلك نتيجة لسعى من خصوم المؤرخ . ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م) . ثم اخترق الشام إلى دمشق . فثارت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط . وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة تيمور واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون ، الذى حاول الاعتراض والتملص، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان بلين القول وجزيل الإنعام ، وقد أفرد ابن خلدون فصلا لحوادث هذه الحملة فى التعريف ، وقد يكون من أهمها وصفه المقابلة التى حدثت بينه وبين تيمور والحديث الطويل الذى دار بين الإثنين . وقد انتهز العلامة تلك الفرصة ، فشرح للعاهل الكبير طرفاً من آرائه

ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . وقدم ابن خلدون إلى الفاتح هدية هى « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة « ولما قدمها إليه وضع تيمور لنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه . . .

ولما سئم ابن خلدون البقاء فى دمشق ، ذهب إلى تيمور لنك يستأذنه فى العود إلى مصر . فأذن له وطلب إليه فى تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة ، إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبعث إليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق فى رجب ٨٠٣هـ — ١٤٠١ م . ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ، ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م .

ولما استقر ابن خلدون فى القاهرة أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء ؛ وكان قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبداً إلى النفوذ والجاه بالرغم من دسائس خصومه .

كان قد عين مكانه فى قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهسى (جمادى الثانية عام ٨٠٣ هـ) فلما عاد المؤرخ عزل هذا القاضى وولى ابن خلدون للمرة الثالثة فى أواخر شعبان أو أوائل رمضان ؛ فلبث فى منصبه نحو عام يعمل فى جو يفيض بالخصومة ، ولكنه لم يحفل كعادته ، واستمر كما كان من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض ، فاشتعلت ثانية من حوله الدسائس . وأسفرت المعركة عن عزله مرة أخرى فى ١٤ رجب عام ٨٠٤ هـ وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب ، وكان هذا القاضى ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ . على أنه لم يمض على ولايته نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة . وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة واستمر فى المنصب عاماً وشهرين ، ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ ؛ وأعيد البساطى فى الشهر نفسه ، ثم عزل فى رجب سنة سبع ، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التلسى لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطى فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ وعزل فى شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة . فلبث فى منصبه بضعة أسابيع فقط . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفى ابن خلدون ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر(١) وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء(٢) .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع . المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٧٠

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون — حياته وتراثه الفكرى . ص ٨٩

أهم آثار القاهرة فى أيام المماليك الجراكسة

(٧٨٤ — ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٥٠	مسجد ايتمش البجاسى بباب الوزير	٧٨٥	١٣٨٣
١٨٧	« السلطان برقوق بالنحاسين	٧٨٦—٨٨	١٣٨٤—٨٦
١١٨	مدرسة اينال اليوسفى بالخيامية	٧٩٤—٩٥	١٣٩٢—٩٣
١١٧	مسجد الكردى (المدرسة المحمودية) بالخيامية	١٩٧	١٣٩٥
١٧٧	مدرسة مقبل الداودى بالجزاوى	٧٩٨	١٣٩٥
١٤٩	خانقاه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	٨٠٣—١٣	١٤٠٠—١١
١٢٧	مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق السلاح	٨٠٤	١٤٠١
٣٥	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجمالية	٨١١	١٤٠٨
٢٠٣	زاوية وسبيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٨١١	١٤٠٨
٢٨٦	مسجد الإمام الليث بمقبرة الإمام الشافعى	٨١١—٩١١	١٥٠٥
١٠٢	مدرسة العينى بشارع الداودارى	٨١٤	١٤١١
١٥١	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	٨١٦	١٤١٣
١٩٠	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	٨١٨—٢٣	١٤١٥—٢٠
١٨٤	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	٨٢١	١٤١٨
٢٥٧	البيمارستان المؤيدى بالمحجر	٨٢١—٢٣	١٤١٨—٢٠
٤١٠	حمام السلطان المؤيد	٨٢٣	١٤٢٠
٦٠	مدرسة القاضى عبد الباسط بالخرنفش	٨٢٣	١٤٢٠
١٧٥	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	٨٢٩	١٤٢٥
١١٩	مسجد جانى بك بالمغربلين	٨٣٠	١٤٢٦—٢٧
١٢٢	قبة جانى بك الأشرفى بالقرافة الشرقية	قبل ٨٣١	١٤٢٧
١٣٤	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	٨٣٣	١٤٣٠
٣١٨	« السويدى بمصر القديمة	حوالى ٨٣٤	١٤٣٠
١٢١	خانقاه ومسجد السلطان برسباى بالقرافة الشرقية	٨٣٥	١٤٣٢
٢٠٩	مدرسة تغرى بردى بالصليبة	٨٤٤	١٤٤٠
١٥٤	منارة قايتباى الجركسى بالمنشية	٨٤٥	١٤٤١—٤٢
٢٠٦	مسجد قراقجا الحسنى بدرب الجماميز	٨٤٥	١٤٤١—٤٢

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٥٥٧	سبيل الوفائية	٨٤٦	١٤٤٢
١٨٢	جامع القاضى يحيى زين الدين ببين النهدين	٨٤٨	١٤٤٤
١٧٨	مسجد الجمالى يوسف بالحزاوى	حوالى ٨٥٠	١٤٤٦
٣٤٤	« القاضى يحيى ببولاق	٨٥٢—٥٣	١٤٤٨—٤٩
٢١٧	« لاجين السيفى بشارع مراسينا	٨٥٣	١٤٤٩
١٨٠	مدرسة جقمق بدرب سعادة	٨٥٥	١٤٥١
١٥٨	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	٨٥٥ — ٦٠	١٤٥١ — ٥٦
٢٠٤	مسجد يحيى زين الدين بالحبانية	٨٥٦	١٤٥٢
١٢٤	قبة برسباى البجاسى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٦١	رباط زوجة السلطان اينال بالخرنفش	حوالى ٨٦٠	١٤٥٦
٥٦٢	حمام اينال .	٨٦١	١٤٥٦
٢٥	جامع ابن برد بك بأم الغلام	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
٦٠١	قبة عمر بن الفارض	حوالى ٨٦٥	١٤٦٠
١٧١	مدفن جانى بك (نائب جده) بشارع القادرية	٨٦٩	١٤٦٥
٢٨٠	قبة عبد الله الدكرورى	حوالى ٨٧١	١٤٦٦
٢٠٧	مسجد ومنارة مغلباى طاز بحارة بنت المعمار	٨٧١	١٤٦٦
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	قبل ٨٧٣	١٤٦٨
١٠٥	قبة سودون القصروى بالباطنية	قبل ٨٧٣	« «
٩٧	باب قايتباى والمنارة بالجامع الأزهر	٨٧٣	١٤٦٩
٢١٦	مسجد وسبيل تمراز الأحمدى	٨٧٦	١٤٧٢
٩٩	مسجد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٨٧٧—٧٩	١٤٧٢—٧٤
١٨٣	حوض « « « «	«	١٤٧٤
١٠١	مقعد « « « «	٨٧٩	«
١٠٠	قبة الكلشنى بالقرافة الشرقية	حوالى ٨٧٩	١٤٧٤ — ٧٥
١٠٤	ربع قايتباى « «	٨٧٩	١٤٧٤
٤١٢	سبيل «	٨٧٩	١٤٧٤
٢٢٢	حوض السلطان قايتباى بقلعة الكبش	٨٨٠	١٤٧٥
٢٢٣	مدرسة قايتباى « «	٨٨٠	١٤٧٥
٧٦	سبيل وكتاب السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨١	١٤٧٧
٧٥	وكالة السلطان قايتباى بالأزهر	٨٨٢	١٤٧٧
١٢٩	مدرسة وقبة جانى البهلوان بالسروجية	٨٨٣—٩١٦	١٤٧٨—١٥١٠
٤٩	« أبو بكر مزهر خان مرجوش	٨٨٤	١٤٧٩ — ٨٠
٢٢٤	سبيل السلطان قايتباى بالصليبة	٨٨٤	١٤٧٩
	وكالة السلطان الأشرف قايتباى بباب النصر	[illegible]	١٤٨٠ — ٨١

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
•	قبة الفداوية بالعباسية	٨٨٤—٨٦	١٤٧٩—٨١
١١٤	مسجد و حوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر	٨٨٥—٨٦	١٤٨٠—٨١
٥١٩	« قايتباى	٨٨٦—٩٦	١٤٨١—٩٠
٢٢٨	منزل قايتباى بحارة الماردانى	٨٩٠	١٤٨٥
٣٤٠	مسجد السلطان أبى العلاء	حوالى ٨٩٠	١٤٨٥
٢٧٨	باب قايتباى بالسيدة عائشة (المنشية)	٨٩٩	١٤٩٤
٢٣٥	باب قايتباى بسويقة العزى	القرن التاسع	القرن الخامس عشر
٩٠	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	نهاية « «	أواخر « « «
٢١١	مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بشارع أزبك	٩٠٠	١٤٩٤—٩٥
٧٤	حوض السلطان قايتباى بالأزهر	قبل ٩٠١	قبل ١٤٩٦
٢٢٩	مسجد السلطان شاه بغيط العدة	« ٩٠٤	١٤٩٦
٥١	مقعد الأمير ماماى بالنحاسين	٩٠١	١٤٩٦
٣٠٣	قبة يعقوب شاه المهمندار بسفح المقطم	٩٠١	١٤٩٥—٩٦
٣٦٠	قبة قانصوه أبو سعيد	٩٠٤	١٤٩٩
١٦٤	« السلطان قانصوه أبو سعيد	٩٠٤	١٤٩٩
٢	« طومان باى بالعباسية	٩٠٦	١٥٠١
٢٤٨	مسجد خير بك بشارع التبانة	٩٠٨	١٥٠٢
١٢٦	مدرسة قايتباى أمير أخور بالمنشية	٩٠٨	١٥٠٣
٦٦ و ٦٧	منزل ومقعد وقبة وسبيل وكتاب قانصوه الغورى بالغورية	٩٠٩—١٠	١٥٠٣—٤
١٤٨	مسجد السلطان قانصوه الغورى بالمنشية	٩٠٩	١٥٠٤
١٨٩	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	٩٠٩—١٠	١٥٠٤—٥
٦٤	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٩٠٩—١٠	١٥٠٤—٥
٢٩٤	قبة الأمير سودون	حوالى ٩١٠	١٥٠٤
٢٥٤	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٩١١	١٥٠٦
١٦٢	مسجد الأمير قرقماش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	٩١١—١٣	١٥٠٦—٧
١٢	جامع الدشطوطى بباب الشعرية	٩١٢	١٥٠٦
٧٨	قناطر المياه (عصر الغورى) بفم الخليج	٩١٢—١٤	١٥٠٦—٨
٣٢٢	بقايا قصر الغورى بالصليبة	٩٠٦—٢٢	١٥٠١—١٦
٥٤	باب خان الخليلى بخان الخليلى .	٩١٧	١٥١١
٥٦	« « « « «	٩١٧	١٥١١
١٧٠	قبة قرقماش بشارع باب الفتوح	٩١٧	١٥١١
٣٥١	خان الزراكشة	أول القرن العاشر	اول القرن السادس عشر
٤٢٥	وكالة الجلابة	أوائل القرن العاشر	القرن السادس «

الفصل السابع

القاهرة فى أيام العثمانيين

من ١٥١٧ إلى ١٨٠٠

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

« بدر الدين الزيتونى »

الأتراك فى مصر

لعل تاريخ مصر الإسلامى لا يشمل عصراً غامضاً كالعصر الذى كانت فيه البلاد ولاية عثمانية بحتة يحكمها ولاة يرسلهم السلطان العثمانى من قبله ، ذلك العصر الذى يبدأ باستيلاء السلطان سليم على مصر عام ١٥١٧ وينتهى بقيام الدولة المصرية الحديثة سنة ١٨٠٥ .

فالمصادر التاريخية عن هذا العصر ليست وافرة ، وإن يكن بعض الأدباء المصريين وكتاب الإفرنج قد دونوا حوادثه ، فان المؤرخ لا يسعه إلا ملاحظة ما فى كتاباتهم من نقص وغموض .

استقر السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل ، قضى أكثرها بحى المقياس بالروضة ، ولم يجلس على سرير الملك بالقلعة ، كما كان يفعل سلاطين المماليك .

وفى يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شعبان (٩٢٣ هـ/١٥١٧م) خرج السلطان سليم من بيت ابن السلطان قايتباى الذى كان خلف حمام الفارقانى ، واخترق الصليبة وصعد إلى الرميلة وخرج من القلعة بموكب عظيم يسبقه ملك الأمراء خير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب الشام وأمام الحرس السلطانى فرقة موسيقية . وكان السلطان يعتلى ظهر بغلة صفراء عالية ، قيل إنها من بغال السلطان الغورى . وكان معه فى الموكب يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء وأعيان البلاد . وصل الموكب إلى الصوة فمقبرة الأشرف قايتباى حيث وقف السلطان لقراءة سورة الفاتحة ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى وطاق

(خيمة) بركة الحاج . ولا ندرى لماذا لم يخترق الموكب السلطانى قلب القاهرة ، وفضل السلطان السير فى خارجها وعلى حين فجأة .

بعد ذلك سار الموكب إلى الخانقاه فنزل للاستراحة ، وقيل أن السلطان سليم خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ذهباً وفضة وتحفاً وسلاحاً وأوانى من الخزف والصينى والنحاس ... الخ .

وغادر السلطان سليم عاصمة الديار المصرية دون أن يترك فيها أثراً قائماً يكون تذكاراً لفتحه مصر أو كفارة عما تركته جيوشه فيها من آثار الخراب والدمار وما سلبها إياه من تحف وصناع وفنانين كان لهم بعد ذلك فضل كبير فى إزدهار صناعات عديدة فى الامبراطورية العثمانية .

ومهما يكن من شيء فقد كتب المؤرخ المصرى محمد بن أحمد بن إياس فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فوصف فيه حوادث السنين الأولى للفتح العثمانى حتى سنة ١٥٢٢م . وألف ابن أبى الفضائل كتابه « تاريخ سلاطين المماليك » . كما أن كتاب « عجائب الآثار » للجبرتى مصدر أساسى لتاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفى خلاله . ومن المحتمل أن تكون فى اللغة التركية كتب صنفها مؤرخو العثمانيين لذلك العصر باللغة التركية عن حكم ولاتهم الذين أوفدهم الخليفة ليحكموا مصر .

وقد زار مصر كثير من الرحالة فى عهد العثمانيين ووصفوا أحوالها وآثارها وعادات سكانها فى مؤلفاتهم . وفى مقدمة هؤلاء الحسن بن محمد الوزان، وأوليا جلبى والدكتور القس « ريشارد بوكوك » الذى زار مصر عام ١٧٣٧ م وكتب مؤلفه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » وفى نفس ذلك الوقت زار مصر « فردريك نوردون » الضابط بالبحرية الدنماركية ، وكتب عنها كتاباً ليست له قيمة من الناحية التاريخية . كذلك كتب « دى ماييه » قنصل فرنسا فى مصر عام ١٦٩٢ كتاباً نفيساً عن أحوال مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر .

* * *

استولى السلطان سليم على مصر وشرع فى تأييد سلطته على البلاد فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا وخشى أن يخرج الباشا على الآستانة ويستقل بمصر، فاهتدى إلى طريقة تضمن له بقاء البلاد تحت سيطرته . فجعل فى مصر ثلاث إدارات كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمردها . فالقوة الأولى « الباشا » وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها ، وكان عليه أن لا يغادر القلعة بأى حال من الأحوال ، والقوة الثانية « الوجاقات الستة » وواجباتها حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الخراج ، وقد وزع هذه الوجاقات فى القاهرة وفى المراكز الرئيسية من القطر ، وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة .

وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه فى الآستانة ضابط برتبة « سكبان باشى » وهى رتبة تعادل «المقيد» اليوم .

أما القوة الثالثة فهى المماليك وهم بقايا المماليك البحرية والجراكسة، وواجبهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها إثنا عشر يحكمها البكوات المنتخبون من أمراء المماليك .

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أصحاب القوة الفعلية فى البلاد ، وإن كان السلطان هو الذى يعين الباشا ، فقد كان ميسوراً لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه ضده من المؤامرات وبغير ذلك من الوسائل . ومهما يكن من شىء فقد كان الباشا يصل إلى مصر تحف به حاشية مؤلفة من اثنى عشر شخصاً فينثر أكياس الذهب يمنة ويسرة فى الأعياد والحفلات ، ولكن ذلك لم يمنع ثورات الجند مما أدى إلى زيادة نفوذ المماليك حتى أصبحوا لا ينقصهم إلا لقب السلطنة الذى استبدلوه بلقب « شيخ البلد » .

كان كلما تقلص نفوذ الباب العالى قل نفوذ ولاته فى مصر، فيزيد نفوذ البكوات المماليك الذين شيدوا القصور العظيمة على حافة بركة الأزبكية أو بركة الفيل وفى الصليبة وفى حى سوق السلاح . وسكن بالقرب منهم أتباعهم المسلحون الذين كانوا يهجمون على أحياء منافسيهم بإشارة من مولاهم فيسرقونها وينهبونها ويقتتلون فى الشوارع ويتقاذفون الرصاص من النوافذ والمشربيات . وزاد الطين بلة ذلك العنصر المشاكس الذى تألف من أفراد الأورطتين التركيتين أورطة العزب وأورطة الانكشارية ومقرها ثكنات القلعة . وكان قائد الأورطتين من أقوى الأمراء أعواناً ونفوذاً فى القطر ، ولم تختلف أخلاقهما كثيراً عن أخلاق المماليك الأول .

إذن كانت مصر فى عصر العثمانيين لا تزال يحكمها المماليك ولا سيما أن ولاتها الباشوات كانوا دائماً يستبدلون بأوامر الباب العالى . وكانوا يخافون نفوذ زعماء رجال حاميتهم ويخشون بأس بكوات المماليك الأقوياء الذين كانوا يضمون صفوف بعضهم إلى بعض ويكونون شبه إئتلاف فيما بينهم كالقاسمية والفقارية وكانوا ينتهزون الفرص أحياناً للتعارك فى الطرقات أو محاصرة جنود أورطة العزب .

وقد تنبه رجالهم إلى إمكان الاستيلاء على القلعة إذا احتلوا التل الخلفى الذى يشرف عليها . وكثيراً ما نقرأ فى تاريخ الجبرتى أخبار الجنود الذين احتموا فى مساجد ابن طولون والماس والمحمودية . الخ وأطلقوا كرات المدافع من المآذن المجاورة . وقد وصل العسف والاستبداد إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت الطرقات تقفر أياماً من المارة . والبيوت يهجم عليها لتنهب ، ولم يكن يجسر إنسان على الذهاب إلى بولاق ومصر القديمة . فإذا مضت تلك الفترة المفزعة أعقبتها فترة أخرى سادتها السكينة وشملها الهدوء ، لماذا ؟ لأن أميراً قوياً تغلب على منافسيه فتخلص منهم واستطاع أن يعيد إلى البلاد طمأنينتها . ومن الصعب جداً أن نعثر على أمير من أمراء هذه الطبقة لكى نقارنه بأحد أمراء المماليك السابقين الذين جلسوا على عرش دولة قوية . عرش مصر القوية المستقلة الغنية المتحضرة .

الحسن بن محمد الوزان الفاسى

(ليون الأفريقى) فى القاهرة

زار مصر فى الفترة الأولى للفتح العثمانى الرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٤ — ١٥٥٢) فقدم لنا وصفاً طيباً للقاهرة، وقد اشتهر الحسن باسم ليون الأفريقى بعد أن وقع فى قبضة القرصان الفرنج فأخذوه إلى رومه ثم قيل عنه أنه اعتنق النصرانية بعد اتصاله بالبابا ليو العاشر الذى شجعه على الدراسة والبحث. وقد عاش سنين طويلة فى رومه وزار فى خلالها عدة مدن إيطالية، ولما مات البابا، عاد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى وفاته. وكان قد ألف كتابه القيم عن رحلاته التى قام بها فى أنحاء أفريقيا ومنها زيارته إلى مصر[1] ويعتبر هذا الكتاب الذى ترجم إلى عدة لغات من أهم مراجع الباحثين عن سودان المغرب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وصف القاهرة

تناول الحسن فى رحلته وصف مصر بإفاضة، ولا سيما القاهرة. وبدأ كلامه بوصف موقع مصر وحدودها وطبيعة أرضها. وتكلم بصفة عامة عن شعبها وما قيل من أصوله، ثم تحدث عن أهم المدن المصرية وجوها وفيضان نيلها.

وصف «بوصير» أول بلدة نزل فيها، وهى مدينة قديمة تقع على بعد عشرين ميلا غربى الاسكندرية وكان لها فى قديم الزمان سور منيع، كما كانت تحتوى على عدة مبان جميلة الطراز، ثم وصف الاسكندرية وأطنب فى ماضيها ومدارسها، ويمتاز حديثه عن القاهرة بالإصالة والدقة، قال عنها أنها أعظم وأشهر مدن العالم تقع على سهل يمتد من جبل المقطم وعلى بعد حوالى ميلين من نهر النيل، وتحيطها أسوار ضخمة تكتنفها أبواب من الحديد، أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة، وقد أقيمت على جانبيها القصور والدور الكبيرة، والمدارس والمساجد الشامخة، ومن أروعها مسجد الحاكم بأمر الله. وذكر الحسن شارع بين القصرين ووصف حوانيت بائعى المشروبات المحلاة بالسكر، وأتى على ذكر مدرسة السلطان الغورى

---

(١) The History and Description of Africa. John Pary. Hakluyt Society -1896

أنظر أيضاً الترجمة الفرنسية.

A. Epaulard : Description de L'Afrique. Paris 1956.

التى كان قد انتهى بناؤها قبيل وصول الرحالة بعـدة أعوام . ومر بحوانيت بائعى القماش حيث كانت تباع أنواع من نسيج الموصل وبعلبك ، ووصف مارستان قلاوون وعرج على حى زويلة ، وكان يقطنه حوالى اثنى عشر ألف أسرة ، وهو يبدأ من باب زويلة ويمتد ما يقرب ميلا ونصف إلى جهة الغرب . وعلى مسـافة ميل تقريباً فى اتجاه الجنوب الغربى يقع حى اللوق ويسكنه بعض العظماء والأعيان . وتقوم مدرسة السلطان حسن وهى عمارة رائعة بالقرب من قلعة المدينة وكان الثوار يلجأون إليها يمتنعون فيهـا ويرمون مقذوفاتهم على جنود السلطان ويقاومون رجاله حتى يستسلم أحد الطرفين .

أما ضاحية ابن طولون فتقع فى شرقى القاهرة وكان هذا الحى فيما مضى وقبل إنشـاء القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، وقد شيد عليه ابن طولون قصراً كبيراً ومسجداً فخماً ، ويزخر هذا الحى بحوانيت التجار وأصحاب الحرف وأكثرهم من المغاربة .

وبحى اللوق يقع مسجد ومدرسة الأمير أزبك[1] وكان من مستشارى أحد السلاطين المماليك ، وقد أطلق على الحى اسم هذا الأمير فصار يعرف باسم الأزبكية . وكان الحى أهم موقع بالمدينة يقصده الناس للترفيه عن أنفسهم حيث انتشر اللاعبون والحواة ومدربو الحيوان على تأدية الحركات المضحكة لتسلية الناس ، وحيث افترش الأرض كثير من « المنجمين » الذين يكشفون الطوالع بواسطة الطير ، وكان على من يرغب أن يقرأ أحدهم له طالعه أن يعطى الطير ما قيمته مليمين ، فيلتقطه الطائر بمنقاره ، وبعـد أن يودع المبلغ فى صندوق صغير ، يلتقط ورقة كتب فيها الطالع ، وقد أراد الحسن أن يعرف طالعه فكان نحساً . وقد اجتمع فى واحد من ميادين الحى اللاعبون بأنواع السلاح والمغنون والمنشدون ، ينشدون الأغانى الحماسية عن المعارك الدموية التى كانت بين العرب والمصريين .

وذكر الحسن شيئاً عن ضاحية بولاق المطلة على النيل وقال عنهـا أنها ملتقى تجار القمح والزيت والسكر تزخر بالمساجد والدور والمدارس ، يشاهد بالقرب من ساحلها السفن الشراعية محملة بالعروض وتفرغ بعضها حمولتها وأحياناً يتجمع منها ما لا يقل عن ألف سفينة ، وكان يزدحم الثغر بموظفى المكس الذين يقدرون المبالغ التى ينبغى أن تجبى من التجار لخزينة السلطان . وفى القرافة شيدت المبـانى العديدة والأضرحة والدور وهى تبدو مدينة كبيرة تقع على سفح المقطم وتمتد ما يقرب من الميلين إلى الشمال ، وقد يصل عدد مبانيها إلى الألفين ، وأكثرها فى حالة خربة ، ويقصدها الناس فى أيام الجمع لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين ، وهم يحملون سلال الطعام لتوزيعها على الفقراء ، وقد تـكلم الحسن على كثير من آثار القاهرة ومنها ضريح السيدة نفيسة ومقياس النيل .. الخ .. كما ذكر طرائف عن أزياء أهل المدينة رجالا ونساء ، وعن الحرية التى يتمتع بها نساء المدينة . ثم تحدث عن زينتها وأسلوب تجملها . . وانتقل

---

(١) هو جامع الأمير أزبك اليوسفى وكان من رجال دولة الأشرف جنبلاط .

إلى وصف طعام أهل القاهرة ، وتكلم الرحالة عن الطوائف الدينية وأصحاب المذاهب المختلفة ، كما أمدنا بثبت المناصب الرئيسة فى الحكومة بعد القضاء على دولة السلاطين المماليك فى أعقاب دخول سليم الأول إلى مصر (١٥١٧م) ووصف إدارة الحكومة فى أيام المماليك الباشوات — الدوادار والأمير الكبير ونائب السلطان والأستادار والخازندار وأمير السلاح ، ثم تكلم عن القوات المسلحة وعن أعمال المحتسب وأمير الحج.. الخ وذكر الحسن أشياء كثيرة عن مدينة الجيزة وحى كنيسة المعلقة ، والخانقاه ، وبنى سويف والمنيا والفيوم ومنفلوط وأسيوط وأخميم ، كما تكلم عن أهم أديرة الصحراء، ثم مر بإسنا وأسوان قبل أن يرحل إلى القصير فى طريقه إلى مكة ، ثم ركب البحر قاصداً مكة المكرمة .

القاهرة كما شاهدها العياشى

ليس فى رحلة عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى(١) الذى زار القاهرة سنة ١٠٧٢ هـ (١٦٦١-٦٢م) ، شىء أصيل ، وقد ذكر أنه دخل القاهرة ضحى ، ولم يجد داراً ينزل بها قرب الأزهر ، فاكترى داراً بعيدة عن الأزهر بمحل البردبكية ، وأنه وجد الوباء فى القاهرة إلا أنه ضعيف ، وقد نعت الأزهر بأنه « عديم النظير فى مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .. » .

تحدث عن زيارته لشيخه إبراهيم الميمونى ، فقال : « ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم الميمونى ، ومنزله قرب الجامع ، وقدم لنا طعاماً حسناً ، وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر . وإنما يتكارمون بشراب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها ، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة » .

ومما ذكره فى وصف مارآه خارج القلعة ، قال : « وهناك خلق من المصريين يلعبون فى سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ، ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب » ، ثم يعقب فيقول : «وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد ، وحيل غريبة ، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات ، فقليل من أصناف الحيوانات مالا يوجد عندهم مسخراً(٢) .

* * *

---

(١) نسبة إلى عياش إحدى قبائل البربر ، وقد توفى عام ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩م) . راجع الأعلام للزركلى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) الرحلة العياشية : ص ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، (طبعة حجرية بفاس عام ١٣١٦ هـ) .

خـــير بك

كان « خير بك » أول الولاة الذين ولاهم السلطان سليم على مصر ، وكان من كبار رجال قانصوه الغورى ، انضم إلى الأتراك فى الشام ، وكان يشغل منصب نائب حلب . وعـده السلطان سليم بأن يوليه ولاية مصر جزاء له على معاونته فى فتحها وقد بر السلطان بوعده .

ففى يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر شعبان صعد الخائن خير بك إلى قلعة الجبل بموكب عظيم وأمامه بعض رجال العثمانيين ، فاخترق الصليبة فى الفجر وأقام بالقلعة ورغب فى إصلاحها ليعيد إليها شيئاً من مجدها القديم ، فأرسل فى طلب البنائين والنجارين والمبلطين ليرمموا ما أفسده العثمانيون فيها ، ثم أسند خير بك ولاية القاهرة لرجـل تركى كان مملوكاً له اسمه كمشبغا ، كما أسند عدة وظائف لبعض رجاله المخلصين ، أما يونس باشا الذى عينه السلطان سليم نائباً عنـه فى مصر وكان أعظم وزرائه فقـد قتله وتخلص منه .

وفى يوم من الأيام أشيع عقد قران « خيربك » على « خوند مصر » زوجـة الظاهر قانصوه . وقد تحققت تلك الأشاعة لمـا طلعت إلى القلعة قبل شروق الشمس وفى صحبتها جماعة من نساء الأعيان راكبات الحمير . ولـكن بعد مضى خمس سنوات على زواجهما غضب عليها « خير بك » وأنزلها من القلعة وأمرها بأن تسكن فى مدرسته القائمة بباب الوزير ورتب لها فى آخر كل شهر ما يكفيها من النفقة . وقيل أن سبب ذلك قدوم زوجتـه الأولى من الآستانة . وبعد شهر وصلت زوجته فصعـدت إلى القلعة ليلاً فى محفة على ضوء المشاعل .

كان أهم حوادث القاهرة فى أول ولاية خير بك تفاقم أذى العثمانيين للقاهريين ، ومن سيئات أعمالهم سطوهم على حى الأزبكية ونزعهم الأبواب والسقوف والشبابيك الحديدية ، فـكانوا يحملونها على الجمال لبيعها فى الأسواق بأبخس الأثمان ، كذلك كانوا ينزعون أخشاب طبـاق القلعة لاستخدامها فى النار المعدة لطهى طعامهم . ولمـا زاد الأمر تدخل قاضى القضاة واتصل بخير بك فعمل على تهدئة الأحوال وإن لم يكن قد نجح فى الوصول إلى ذلك دفعة واحدة ، فأخذ الأمن يستتب شيئاً فشيئاً ، وساعد على ذلك رحيل عدد عظيم من الجنود الانكشارية والدلاة الذين كانوا يعصون الأوامر جهاراً ويرتـكبون كل محرم علناً وجهراً ، ومالبث أن تخلص خير بك من جزء كبير من الجنود العثمانية .

فى أواخر شهر ذى القعـدة عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وصل إلى مصر رسول من الآستانة يحمل نبأ وفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان سليمان ، فأمر خير بك فى اليوم التالى بأن يطوف فى القاهرة أربعة من حملة المشاعل ، ينادى اثنان منهما باللغة التركية العبـارة الآتية : « ترحموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان » . .

وفى اليوم التالى وكان يوم الجمعة أمر خير بك بالصلاة على السلطان صلاة الغائب بجامع القلعة وفى سائر جوامع القاهرة والدعاء للسلطان سليمان على المنابر فى ذلك اليوم ، ثم أقيمت معالم الزينة فى القاهرة ثلاثة أيام لمناسبة ارتقاء السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية، فارتدت الدولة ثياب الفرح ، لاسيما خان الخليلى إذ قام تجاره بتزيينه زينة فاخرة وصار إلى القاهرة الأمير على الكخيا يطوف يومياً عدة مرات يحث الناس على الاكثار من معالم الزينة .

زينت مصر وأضحت　　بعد حزن فى تهان

مذ غدت بعد سليم　　لسليمان الزمان

وفى يوم الأحد (٢٤ ذى القعدة ٩٣٨ هـ / ١٥٢٢م) مات خير بك ونعى بالقلعة بعد الظهر وبات تلك الليلة فيها . وفى اليوم التالى غسلت جثته وكفنت وحمل الناس نعشه وصلوا عليه ثم نزلوا به من سلم المدرج وسار فى جنازته الجنود العثمانيون وأمراء الجراكسة والقضاة الأربعة الذين التقوا بالموكب عند مدرسة اينمش بقرب باب الوزير وانتهوا به إلى مدرسته التى أنشأها فدفن مع إخوته . وكانت مدة ولايته على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً وخلف أموالا تقدر بستمائة ألف دينار ذهب .

تولى الأمير سنان بك ولاية القاهرة بصفة مؤقتة حتى وصل الوالى الجديد من الأستانة وهو الوزير مصطفى باشا . هبط بولاق وكان فى استقباله الأمير سنان المذكور والأمير خير الدين نائب القلعة وبعض الأمراء ، فارتدى خلعة السلطان وامتطى ظهر فرس من الجياد الخاصة وسار موكبه إلى باب البحر ، واستمر إلى باب القنطرة وشق سوق مرجوش مخترقاً القاهرة ، وكان الأمير سنان عن يمينه والأمير جانم الحمزاوى عن يساره، ترتفع له أصوات الدعاء كما تنطلق زغاريد النساء وكان يوماً مشهوداً . ثم وصل الموكب إلى الرملة ودخل إلى الميدان ثم صعد إلى القلعة وتسلم مفاتيح بيت المال .

لم يدم مصطفى باشا فى منصبه هذا أكثر من تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، ثم أبدل بأحمد باشا الذى قطعت رأسه وعلق جسده على باب زويلة . ثم أرسل السلطان قاسم باشا ، فابراهيم باشا ، فسليمان باشا . وكان السلطان راضياً عن هذا الأخير واثقاً منه فأبقاه فى الولاية تسع سنوات وأحد عشر شهراً حتى استدعاه إلى الأستانة ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة فارس والهند . وقد شيد فى أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية بالقلعة ، وكان يعرف بجامع سليمان باشا، وكان أول جامع شيد فى مصر على الطراز العثمانى .

وقد جاء وصف مدينة القاهرة فى عام ١٥٢٦ م فى مؤلف ألمانى نشر نحو سنة ١٥٧٤ جاء فيه : ان القاهرة مدينة مصر الكبيرة هى التى نسميها كيروس ، ويدعوها العرب مصر أو مصر ، واقعة فى نقطة حسنة مناسبة أى حيث يبتدىء النيل بالتفرع إلى فروع عديدة فهى شبه سد للنيل .

وللمدينة ضواح كبيرة جداً يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على إثنى عشر ألف منزل ويقال أن « الـكاير » القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللـكثيرين من أهلها مساكن كبيرة جداً وفيها قصور وهيا كل فخمة عديدة تدعى (جيوما) جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التى يستخدمونها لتقديم الضحايا وفاقاً لعاداتهم (١) ووجد فى المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير ، وفيها أيضاً مبان كبيرة يجعـل منها الوجهاء مدافنهم (أضرحـة) ويظن حكام القـاهرة الظالمون أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم السيئـة ببناء بيوت، عظيمة قرب أضرحتهم ووقف مبالغ عظيمة عليها للفقراء والحجاج والطلبة والزهاد والنساك .

وقد وجدت الفقرات الآتية فى دليل قديم عن مصر (القاهرة) :

« الـكاير » مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف حجم مدينة باريس وفيهـا كثير من الـكنائس المسيحية وشوارعها مزدحمة ازدحاماً عظيما بالناس وبالخيـل والبغال فلا يستطيع أحـد أن يمشى بدون أن يعترضه عائق . ويشتغل الصناع أمام المنازل فى الشوارع وقليل منهم من يطبخون طعامهم فى منازلهم لأن هناك بائعين يقدمون جميع الأطعمة فى الشوارع مطبوخة أفضل طبخ ويوجد فى القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طباخ .

وقد أرفق المؤلف الألمـانى هذا الوصف بخريطة للقاهرة فى عصره وبين عليهـا مجرى النيل وتتخلله المدينة ونواحى العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل .

القاهرة كما وصفها الرحالة الأجانب

وصف القاهـرة فى العصر التركى نجـد فى طائفة كبيرة من المراجع العربية والأفرنجية ، وفى مقدمة المراجع العربية تاريخ ابن إياس والجبرتى وابن أبى السرور . وفيها يضل الباحث كثيراً لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث التافهة التى لا يهتم بها القارىء إلا للتسلية، وإن كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع إليها المؤرخ فيستنتج منها كثيراً من الحقائق . ومهما يكن من شىء فإنه إن لم يكن قديراً موفقاً فإن كثيراً من الموضوعات الهامة يخفى عليه فى ثنايا هذه القصص والذكريات .

أما المراجع الأفرنجية فتشتمل على ما كتبه الرحالة الأجانب فى أثناء زياراتهم لمصر أو التقارير الوصفية التى كتبها بعض الرجال السياسيين . وأكثر هذه التقارير ليس ممتعاً بحيث يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البـلاد . فأكثر هؤلاء الأجانب متفرجون يشاهدون عن بعد ويثبتون أحكامهم على أساس سطحى ، وعلى كل حال فإن آراء أغلبهم سريعة . غير أن علينا رغم ذلك أن نلم بما نعثر عليه فى تلك المؤلفات القديمة، وندقق بين آراء كل منهم لـكى نعطى صورة صحيحة للقاهرة فى أثناء العصر التركى .

هؤلاء الرحالة الأوربيون ، ولا سيما الذين زاروا مصر في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يذهبون مذاهب شتى في تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية ، فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح أفكارهم ، ولم يستطيعوا أن يلمسوا محيط الحياة المصرية . ولعل خير مصدر يعطى صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو كتاب (الحاج الفرنسى) « جريفا أفاجار »(١) . وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها في عدة صفحات من كتابه قال :

تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس ، وهي ذات شوارع ضيقة ملتوية وقصيرة ، وأكثرها غير منظم ، ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف ، والتي بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم ، وفي أثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم .

وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة ، فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعاقبة والنسطوريون ، وبالاختصار فإن حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة حسب قوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية . . .

وذكر الرحالة « كاربيه دى بنو Carbier de Pinon » أن القاهرة أرحب من الأستانة ، وقال « فيرمانل Fermanel » وقد زارها أثناء القرن السابع عشر ، أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الإمبراطورية العثمانية ازدحاماً ، أما الرحالة « ديلافالى Della Valle » ، فقدرها تقديراً تفوق به الأستانة وروما وكل البلدان التي شاهدها في أثناء رحلاته . فلما زارها « كوبان Coppin » وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكاناً على عكس ما ذكره فيما بعد « تيفنو Thévenot » .

وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالين أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريس في المساحة وعدد السكان . وأولهم الطبيب جرانجر وكان قد استهوته القاهرة ، كما وصفها إليه صديقه المسيو « بيليون » قنصل فرنسا في القاهرة وثانيهم « لوما سكريه Le mascrier » وثالثهم « دانفيل Danville » .

ولم تتفق كلمة الرحالة الغربيين على مساحة القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فبينما ذكر « هاكلو » في القرن السادس عشر أن دورة القاهرة أي محيطها ٣٣ كيلومتراً ، قال كوربييه دى بنو أن طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات ونصف . وذكر « فيرمانل » أنها ٣٦ كيلومتراً في محيطها . وذكر « بوفو Beauvau » أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون

---

(١) Greffin Affagart : Relation de Terre Sainte.

يخص القاهرة منها أربعون ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » و « جرانجو » يقولان أن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة بينما ذكر يروس وبروين أنهما قطعا بعدها الطولى فى ثلاث ساعات مشياً على الأقدام !

ولا شك أن ذلك التناقض فى التقدير وتضارب الآراء فى الأبعاد ، يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لانتجاوزه فى الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مددا تتفاوت فى القصر ، فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات .

كانت مساحة المناطق المزدحمة الآهلة بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة لكنها كانت خداعة أيضاً ، فضيق الشوارع يوهم بارتفاع مبانيها القامة على جانبيها مع أنها تكون عادية العلو ، كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحياناً تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان . هذه الاعتبارات لم يلتفت إليها أكثر الرحالين .

القاهرة فى أثناء القرن السادس عشر

شهدت القاهرة فى أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا تشجيع الفنون والآداب أنواع العمائر الجميلة تشيد فى جميع أنحائها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلدا لاتربطهم به أى عاطفة من حب الوطن ولا يرون فيه إلا أشبه شىء بمزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها ليكونوا لأنفسهم بعض الثروة كان لذلك عواقب وخيمة على مصر ، فبدأ الهزال على وجه القاهرة ومالبث أن تغلب النعاس عليها فنامت نوماً عميقاً . وأهملت وفقدت جاذبيتها الرشيقة ، وأصيبت فى أكثر مبانيها وعمائرها المجيدة التى كانت رمزاً لعصورها الزاهرة ، وظهرت عليها كل عوامل الفساد ، ولكن مع ما لحق القاهرة من تشويه كبير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد قد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت ، أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك .

وفى سنة (٩٤٥هـ — ١٥٣٨ م) عهدت ولاية مصر إلى داود باشا فبقى عليها إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقد تمتع الأهلون فى مدة حكمه بالعدل والطمأنينة ، وعند وفاته (٩٥٦ هـ) تولى منصبه على باشا الذى قام بترميم عدة مبان عامة فى القاهرة واستنسخ كل ما ظفر به من المخطوطات لجمع مكتبة عظيمة وجاء بعده آخر حكم عليه بالقتل (٩٦٣ هـ — ١٥٥٦ م) .

كان الوالى يجىء بعد الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر ، فاهتم بتأييد النظام والحفاظ على العمران ، وبنى فى بولاق شارعاً ووكالات وجامعاً لايزال معروفاً باسمه لليوم .

والمامات خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر، وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه إلى إبطال السرقات ، وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف ، ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحى القرافة عرف باسمه، وقد خرب الآن ، وتولى بعده واليان خاملان .

تولى عويس باشا حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦م ، وأراد تدريب الجنود فعصوه وهجموا عليه فى الديوان وأهانوه ونهبوا بيته ، وفى جملة ما نهبوه ساعة كبيرة تعرف منها الأيام ، وقاموا بثورة فى جميع أنحاء القطر، وأخيراً استقال من ولاية مصر (٩٩٩ هـ — ١٥٩١ م) وخلفه خادم حافظ أحمد باشا الذى شيد فى بولاق وكالتين وعدة قيساريات وبيوت خصص ريعها لعمل الخبز ، وتبعه الكردى باشا وكان مجيداً لمساعدته للفقراء ورعايته للأدباء ، وخلفه السيد محمد باشا ، ومن أهم أعماله أنه أعاد بناء الجامع الأزهر ورمم المشهد الحسينى . وفى أيامه قامت ثورة عسكرية فشل فى إخضاعها وانتهت باستبداله بخضر باشا فى عام (١٠٠٦ هـ — ١٥٩٨ م) وولى مكانه على باشا السلحدار وكان يكرم الجند ، سفاكاً للدماء لم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها حتى يقتل عشرة أشخاص على الأقل تحت حوافر جياده . وفى أيامه حدثت مجاعة وعم الخراب فترك القاهرة فراراً من العاقبة واستخلف على الحكومة « بيرى بك » وبوفاته انتخب السناجق الأمير « عثمان بك » ليقوم مقامه حتى عين الباب العالى إبراهيم باشا فثار عليه الجند ، وقتلوه وحملوا رأسه مع أحد أعوانه ، وطافوا بهما شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويله . ثم أرسلت الأستانة محمد باشا الكورجى فاستطاع بيقظته معاقبة الثائرين، وقتل منهم نحو مائتى رجل .

القاهرة فى أوائل القرن السابع عشر

وفى سنة ١٠٢٢ هـ — ١٦١٣ م أرسل السلطان عشرة آلاف جندى إلى اليمن إجابة لطلب حاكمها لإخماد ثورة شبت هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر، وكان قد أصدر أمراً إلى الوالى بإمدادهم بالمؤونة وبوسائل النقل فى داخل البلاد وإيفاد الحملة إلى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه ، ادعوا أنهم جاءوا ليقيموا فى مصر ، وقد راقت لهم المعيشة فيها ولم يذعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح ، وطردوا أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا المتاريس فى أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع فى برجه . فاضطر الباشا إلى الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة ، وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد أمرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهريج مياه فارغ لإحدى المدارس المجاورة المعروفة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم ففوجئوا وسلموا ، ولكن ذهبت كل محاولة لمعاقبة رءوس الثورة سدى، وتسلموا نقودهم وأمروا بمغادرة البلاد ، فسافروا .

بعد قليل عزل محمد باشا الصوفى فاعتزل فى قبة العادلية ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصول خلفه أحمد باشا الدفتردار (١٠٢٤ هـ — ١٦٥١ م) الذى جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل ، وبينما هو فى موكبه

بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فأصيب لـكنه لم يؤذه فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل في ذلك المـكان .

وتبعه سلسلة من الولاة الأتراك من بينهم الوزير « فرغلي مصطفى » و « جعفر باشا » و « مصطفى باشا» فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر ، ثم بيرم باشا، فموسى باشا ، والوالى حسين الدالى ، وأيوب باشا وغـيرهم ممن لم يكن لهم نفوذ ما ، وأخـيراً آلت القوة إلى المماليك البـكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبنـاء البـلاد وليسوا كبشوات الأتراك إذ أتوا مصر كان همهم اكتساب الثروة قبـل أن يأتيهم الأمر بالعزل .

وفى أيام الوالى مقصود باشا ١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م ، قاست مصر وباء الطاعون، فقد ظهر فى بولاق فى أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد إلى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة ، وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر فى الطريق الواحدة أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة ، وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة ألفان وتسعمائة وستون فى خلال ثلاثة أشهر ، وصار الناس فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتـكا ، وقيل أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا فى أماكن أخرى ، وبالرغم من أن فى هذا التقدير مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة فى تلك السنة .

الرحالة دى تيفنو

زار الـكاتب الرحالة « جان دى تيفنو » القاهرة بين سنتى ١٦٥٦ و ١٦٥٨م وذكر عنها فى كتابه عن سياحاته فى بلاد الشرق ما يسمح لنا بتـكوين فـكرة عما كانت عليه القاهرة فى سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً .

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حماراً ودار حول المدينة والقلعة فقطع تلك المسافة فى ساعتين وربع ساعة ، وفضلا عن ذلك فإنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة فقال أن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة ، وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم ، وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبركاً متعددة تحيط بها منازل كبيرة .

ومعظم الذين قالوا أن القاهرة أكبر من باريس (ومنهم أحد الرحالة الألمان الذى قال أن القاهرة

تبلغ أربعة أضعاف باريس) ضموا إليها مصر القديمة وبولاق ، وقال «دى تيفنو» فى ذلك الصدد أنه إذا جاز ذلك فيجب أن تضم إلى باريس القرى المجاورة لها لأن مصر القديمة كانت منفصلة عن القاهرة الجديدة وكان حى بولاق ضاحية ذات حقول خضراء .

وأشار « دى تيفنو » إلى حى القاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه (الأزبكية) وذكر أن الماء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه ، وكانت حوله قصور جميلة للبكوات ولكبراء البلاد يقيمون فيهامن وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة وإن كان «دى تيفنو» لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من « باريس » فى ذلك الوقت ، فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة فى عدد السكان ، وقال أيضاً أن الشوارع كانت مزدحمة فى كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء عامرة بالنساء والأطفال ، وأنه عند ماجرف الطاعون مائتى ألف نسمة من سكانها لم يكد أحد يقدر أن عدد السكان قد نقص .

وكتب كثير من الرحالة أنه لم يكن للقاهرة سور ، ولكن «دى تيفنو» قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جداً وكثيفة ومشيدة بحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ، ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال ، كانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطموراً بين الأنقاض وكانت الطرقات قصيرة وضيقة وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلى) والخليج الكبير الذى كان يجف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة ، إذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى فى بنائها تخطيط المدينة . فلم تكن هناك لائحة للتنظيم مثلا ، وكان كل إنسان ، يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكترث بخط الشارع أو استقامته ، ويظهر أن « دى تيفنو » حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان ربط كل منهما إلى الآخر بسلسلة لكى لا يسير كل منهما فى جهة ، وكان الرجال الذين عهدت إليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجرة حسنة . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل رئيس الحى ، فيفتحها أو يقفلها بواسطة أحد أتباعه ، وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة والتى تعلوها المآذن العالية المشوقة القد . وكانت المنازل بالقاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة ،كان منظرها من الخارج قبيحاً ولكن داخلها كان مزيناً أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقاء لا سيما بيوت البكوات والكبراء ، إذ كانت دورهم تحتوى على مخادع بديعة وقاعات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب ، فيها الحدائق التى تتدفق فيها المياه وتندفع نوافيرها إلى علو شاهق ، وكانت جميع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها فيسهل فتحها بدون المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس ، وفى نهاية ذلك الشارع كان شارع قصير عريض اسمه خان الخليلى وهو يحوى على جانبيه مخازن للبضائع الحريرية ، ويتصل به خان كبير يحتوى

على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالا ونساء . أما الرقيق الأسود من الجنسين فكان يباع فى خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلى كان المستشفى أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة ، وفى هذه النواحى أيضاً كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنعون السجاجيد الجميلة التى ترسل إلى الآستانة وأوربا . وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطىء النيل فى حالة خراب ، على أنه كان لايزال باقياً فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجة ودير مارجرجس . وكان فى مصر القديمة مجرى المياه الذى كان ينقل فيه الماء من النيل إلى القلعة . وفى أعلاه ثمانى سواق تديرها الجواميس ، فترفع الماء وتصبه فى حوض كبير يجرى منه إلى القلعة .

قلعة القـــــاهرة

وكانت القلعة أشهر مكان فى القاهرة تشرف عليها ، ولها مركز هام يعزز نفوذ حكام مصر ، وقد تهدم فى ذلك العهد أكبر قسم من مبانيها لكن بقيت فيها بعض الأبنية الصغيرة الجميلة احتوت على ردهات رحبة . وكانت قاعة يوسف بأعمدتها الثلاثين من حجارة طيبة قد أصيبت بأضرار جسيمة ولكن نقوش جدرانها الذهبية كانت باقية . وبقربها قاعة يوسف التى كانت مصابة بأضرار أكثر من سابقتها ، فلم يكن باقياً منها سوى إثنى عشر عموداً وكانت فى القلعة أيضاً قاعة كبيرة جيدة البناء يعمل فيها ستار الكعبة ويرسل سنوياً لمكة باحتفال عظيم . وكانت القلعة تحت إمرة أغا الإنكشارية الذى يقيم فيها ، وإلى جانب القلعة قصر الباشا يفصل بينهما جدار ، وكان قصراً جميلا جداً يشرف على منظر جميل من مناظر القاهرة وأرباضها ، وكان أجمل مافى القصر الديوان الكبير وقد علقت على جدرانه عشرة تروس من الخشب مثقوبة بطعنات رماح . قيل أن السلطان مراد وكان قوياً يحسن الرماية أصابها برمحه دفعة واحدة ثم أرسلها مع الرمح إلى مصر ليظهر للمصريين قوته . وقد أثار منظر القلعة دهشة « دى تيفنو » وقال فى كتابه : أنه لم ير قط فى العالم كله أجمل وأضخم من أبنيتها وأمنع منها .

وتاريخ القلعة فى عصر العثمانيين مملوء بالحوادث الجسام ، وقد ذكر العلامة « كازافوفا » كثيراً من أحوالها فى عهد الباشوات منذ استولى السلطان سليم على مصر ، وقال ابن إياس :

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الجنود فى الحوش إلى باب القلعة عند الأبواب الكبيرة وباب الجامع الذى بالقلعة وقد صار زبل الخيل هناك كالكيمان ، وخرب أكثر الأماكن التى بها وفك رخامها ونزل به فى المراكب وتوجهوا به إلى استنبول .

وذكر المؤرخ المصرى « الجبرتى » وأيده القنصل الفرنسى « دى ماييه » أن اسماعيل باشا التركى (١١١١ — ١١١٦هـ) قام بإصلاحات كثيرة فى مبانى القلعة لاسيما فى زاويتها الجنوبية الغربية حيث

سكن الباشوات . ومن مآثره أيضاً أنه عمر الأربعين الذى بجوار باب قرة ميدان وأنشأ فيه جامعاً ، وأنشأ فيما بينها وبين بستان الغورى حماماً فسيحاً بالرخام الملون ، وجدد البستان المذكور وغرس فيه الأشجار ، ورسم قاعة الغورى التى بالبستان وبنى صهريجاً بداخل القلعة .

وكان من عجائب القاهرة حوض العشاق ، وهو بيضاوى الشكل مصنوع من قطعة واحدة من الرخام الأسود طوله ستة أقدام وعلوه ثلاثة أقدام وعلى ظاهره كتابة دقيقة بالهيروغليفية ، ويقص بعض الأهالى قصصاً عديدة عن هذا الحوض ويعتقدون فيه اعتقادات خرافية كثيرة ، وهناك تفاصيل كثيرة ذكرها «دى تيفنو» يمكن جمعها وسردها لرسم صورة واضحة جلية لما كانت عليه قاهرة البكوات منذ ثلثمائة عام . وهذه الصورة تختلف اختلافاً عظيما عن صورة قاهرة اليوم لاسيا فى القسم الواقع بين الخليج (شارع بورسعيد) والقلعة وباب الفتوح ، فعند ما نخترق القاهرة من باب زويلة إلى الشمال سائرين فى شارع السكرية فالخردجية حتى جامع الحاكم ونرجع من باب النصر من طريق الجمالية فى الأزهر ، نجد أنفسنا بين آثار العصور الماضية ذات الروعة والجمال والفن ولا سيما تلك الأبواب التى مرت بها الأجيال جيلا بعد جيل فهى الآن تحدثنا عما شاهدته من عظمة ماضية ومجد غابر .

فانسلب والقنصل دى مايه

جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » فى عهد الباشا التركى ابراهيم رحالة آخر اسمه « فانسلب» (Vausleb) زار مصر عام ١٦٧٢ م وكان يقيم فى مصر المسيو دى مايه قنصل فرنسا فى القاهرة ، وكان عمره يقرب من الثلاثين عاماً حين جاء إلى مصر يمثل الملك لويس حيث قضى فى مهمته ستة عشر عاماً وكان مغرماً بالماديات الشرقية والأبحاث المصرية وتعلم اللغة العربية وألف كتابه القيم فى وصف مصر عام ١٧٣٥ .

وفى أثناء وجوده بمصر هبت فى القاهرة عاصفة شديدة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م فظن الناس أن الساعة قد أوشكت وأن يوم القيامة قد دنا واظلم الجو من التراب الكثيف وكان الناس فى صلاة الجمعة فى رمضان وسقطت المركب التى على منارة جامع ابن طولون وأصيب جزء منه بأصداع وهدمت دور كثيرة .

وفى العام الأخير من القرن السابع عشر توفى المؤرخ شمس الدين من مشاهير علماء مصر الأقباط ، وقد كتب عدة مؤلفات علاوة على ما كتبه فى تاريخ مصر مما يعتبر مرجعاً لحوادث ذلك العصر ، ونحن نقتطف هنا شيئاً مما كتبه دى مايه القنصل الفرنسى عن القاهرة فذكر أن الذى كان يشغل منصب الوالى حينئذ هو اسماعيل باشا بينما كان نفوذ شيخ البلد (حاكم القاهرة) يتزايد يوماً بعد يوم . وكانت هناك أسرتان تتنازعان السلطة هما الفقارية والقاسمية . وقد كتب « دى مايه » فى كتابه بحوثاً طويلة عن الكنيسة المصرية وعلاقاتها مع الحبشة ، وذكر أن عدد سكان القاهرة بلغ إذ ذاك نصف مليون نفس ، لكن الطاعون والمجاعة أنقصتا منه عدداً كبيراً .

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٢ إلى ١١١٩ هـ إثنان وعشرون والياً . وفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م فى أيام السلطان أحمد ، تولى أمور مصر حسن باشا وكانت مشيخة البلد فى يد قاسم عيواظ بك، وبوفاته تولى مشيخة البلد من بعده ابنه اسماعيل بك فظل فيها ست عشرة سنة تقلب فى أثنائها على مصر عدة باشوات كانوا لا حول لهم أو شأن، وانتهى أمره بأن قتل بيد أحد مماليك « ذى الفقار بك » فكانت نهاية مشيخته عام ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م .

ومن الحوادث التى ذكرها القنصل الفرنسى وأيدها المؤرخ الجبرتى ماحدث فى الأزهر عام (١١٢٠ هـ/ ١٧٠٩ م) بعد وفاة شيخه الشيخ محمد النشرتى، فقد وقعت بعد موته فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالأقبغاوية ، وانقسم الأزهريون قسمين: فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى ، وأخرى تريد الشيخ عبد الباقى القلينى، ولم يكن حاضراً بمصر، فتصدر الشيخ أحمد النفراوى للتدريس بالأقبغاوية فمنعه طلبتها ، وحضر القلينى فتعصب له جماعة النشرتى . وحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم البنادق وصوبوها على المسجد وأخرجوا جماعة القلينى وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان النشرتى ، فهجمت جماعة القلينى على الجامع وقفلوا أبوابه، وثضاربوا مع جماعة النفراوى ،فقتلوا منهم نحو عشرة أشخاص ونهبت خزائنه وتحطمت القناديل. وأخيراً حضر الوالى فأخرج القتلى وفرق الطلبة ولم يبق بالجامع أحد . وفى اليوم التالى صعد النفراوى إلى ديوان القلعة ومعه كشف بأسماء القتلى، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه وأمره بلزوم بيته، وأمر بنفى الشيخ أحمد شنن من الزعماء إلى بلده واستقر القلينى فى المشيخة .

قصة واعظ

وذكر الجبرتى بين حوادث عام (١١٢٣ هـ / ١٧١١ م) أن رجلا رومياً واعظاً جلس يعظ الناس بجامع المؤيد وازدحم عليه المسجد وأكثرهم من الأتراك ثم انتقل من موضوعه إلى مايفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل عليها وشنع على ذلك وذكر أنه لايجوز بناء القباب على الأضرحة والتكايا ويجب هدمها ، فلما سمع رجاله بذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة فهرب الذين وقفوا بالباب قائلين : « أين الأولياء » وذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر وأخبروهم بما حدث فأفتى الشيخ النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وأن على الحاكم زجره عن ذلك وأخذ بعضهم تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب، وقال : « أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بغير ماذكرت لكم وأود أن أباحثهم فى مجلس قاضى العسكر، فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق ؟ فقالوا له : « نحن معك لا نفارقك » فنزل عن الكرسى ، واجتمع به نحو ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى قرب العصر فانزعج القاضى وسألهم عن مرادهم، فقدموا له الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم. فقال القاضى : « اصرفوا هذا الجمع ونسمع دعواكم » فقالوا ما تقول فى هذه الفتوى ؟ قال : « هى باطلة » . فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة

يبطلانها . فقال إن الوقت قد ضاق والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم . وخرج المترجم وقال لهم ذلك فضربوه واختفى القاضى بحريمه .

وفى وقت الظهيرة اجتمع الناس بالمؤيد لسماع الواعظ على عادتهم ، فلم يحضر لهم الواعظ، فسألوا عن المانع لحضوره فقال بعضهم : أظن أن القاضى قد منعه من الوعظ فقال رجل منهم : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى . فتبعه الجم الغفير، فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رآهم القاضى ومن فى المحكمة طارت عقولهم من الخوف وفر الشهود ولم يبق إلا القاضى فدخلوا عليه . وقالوا له أين شيخنا « فقال لا أدرى » فقالوا له : « قم فاركب معنا إلى الديوان (القلعة) لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين قضوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم، فإن ثبتت دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم » . فركب القاضى معهم مكرهاً، وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلعوا إلى الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فى غير وقته فقال . « أنظر إلى هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا بى » وعرفه عن قصتهم وما وقع منهم بالأمس . وأنهم ضربوا المترجم وأتوا اليوم وأركبوه قهراً . فأرسل الباشا إلى كتخدا الانكشارية وكتخدا العزب وقال لهما . « اسألا هؤلاء عن مرادهم » .

فسألوهم، فقالوا : «نريد إحضار النفراوى والخليفى ليحبسا مع شيخنا » فأعطاهم الباشا مهلة ، ونزلوا إلى جامع المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه على الكرسى ، فصار يعظهم ويحرضهم على اجتماعهم فى الغد بالمؤيد ليذهبوا جميعاً إلى القاضى وحضهم على الانتصار للدين وافترقوا على ذلك .

ثم جمع الوالى الأمراء السناجق والأغاوات قواد الأورط فى بيت الدفتردار وأجمعوا على أن ينفوا الواعظ من القاهرة .

لم يظهر الواعظ بعد ذلك اليوم ، وقيل أنه قتل . فنامت الفتنة ، وفى ذلك قال الشيخ حسن الحجازى :

مصر قد حل بها واعظ   عن منهج صدق قد أعرض

فأساء الظن بسادات   أحكام الدين بهم تنهض

القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار

(١٧١٩ — ١٧٣٠)

استطاع الأمير شركس محمد بدهائه أن يتفق مع الوالى راغب باشا بعد قتله الأمير اسماعيل ، وتولى حكم البلاد وشيد قصراً جميلا وقلد رجاله أهم مناصب الحكم فى مصر، وقد قاست القاهرة فى أيامه كثيراً من حوادث مماليكه واعتداءاتهم وسرقاتهم ، فقد اعتدوا على الحمامات العامة فى أثناء الأوقات المخصصة للسيدات

والأطفـال، واختطفوا ملابسهن وأظهروهن عرايا على قارعة الطريق ، ولم تنته تلك الحوادث حتى عزل الوالى فاتحد مع أحد البكوات واسمه ذو الفقار ، وألف الإثنان حزباً لم يلبث طويلا حتى فشلت أغراضه .

جاء بعـده الوالى الجديد ، فجمع حوله فريقاً من أعداء شركس وسلحهم بالبنادق والمدافع وحاصروا قصره، وكان يحتمى معه داخله لفيف من رجال حزبه المخلصين ، فتبادل الفريقان النيران مدة طويلة ، وفى نهاية الأمر تمـكن الأمير شركس من الهرب تاركا وراءه قصره وما احتواه من الرياش الفخمـة والأثاث الثمين لأيدى الناهبين الناقمين عليه الذين قبضوا على أعوانه ونـكلوا بهم تنكيلا .

لم يمض عام على هذه المأساة الحزينة حتى ظهر الأمير شركس ثانية ، فـكأن الحوادث لم تنته بعد وبطـله لايزال يمثل دوره وإن كان قد اختفى قليلا خلف الستار ؛ وكان بعد هزيمته عام ١٧٢٦ قد ولى وجهه شطر طرابلس الغرب فاستقبله واليها بإجلال واحـترام . وسهل له جمع أربعمائة مغربى من المرتزقة قام بهم فى أوائل عام ١٧٢٨ قاصـداً الصعيد حيث ألف جيشاً منهم ومن بعض الناقمين على ذى الفقار من أعدائه السابقين ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الفريقين . وكان ذو الفقار قد جمع ثلاثة آلاف من أشياعه القاهريين ووضعهم تحت قيادة عثمان بك ، فانتصر عليهم الأمير شركس، وقتـل قائد القوة ، ولـكنه لم يستطع دخول القاهرة بالرغم من هذا النجاح .

فى ذلك الحين قام فى القاهرة منافسان من البـكوات ، كلاهما يريد اغتصاب القاهرة من الآخر ، فانتهز شركس هذه الفرصة واشترك فى الميدان ، ولم يطل الأمر حتى استولى ذوالفقار على المدينة وهلك المنافسان . وفى إحـدى الليالى كان اثنان من بكوات المماليك هما يوسف بك وسـليمان أبو دفية على رأس ثلاثين من الشجعان ينجحون فى المرور بين بوابات قصر ذى الفقار ويذبحونه . وكان هذا قد أمر قبيل مؤامرة هذين البـكوين بتجريد قوة بقيـادة على بك ، ومع حيطة شركس لتلك المفاجأة ، فقـد هجمت على رجاله وأفنتهم. وحاول شركس أن يعبر النيل فأصيب جواده برصاصة، ولم يستطع أن ينجو بنفسه . وعقب المعركة كان يتنقل فلاحان بين جثث القتلى لاختلاس ما تقع عليه أيديهما من الغنائم فوقع نظرهما عليه لما حاولا انتزاع زرده . وفى ذلك الحيـن لمحه أحد المماليك، فعرفه فى الحال من خاتم أصبعه فقدموه للقائد على بك، فأمر بضرب عنقه وحده باحترام وأخذ رأسه وقدمها للوالى ليبعثها إلى الخليفة . ودخل على بك مدينـة القاهرة ظافراً وفى ركبه المماليك والحشم والأتباع وأمامهم الموسيقيون يعزفون بطبولهم وزمورهم ويدقون الصاجات النحاسية.

مشيخة عثمان بك

ابتدأت بعد ذلك مشيخة عثمان بك، فاشتهر بعدله وحزمه وحسن تدبيره ، وكان يلازمه فى مجالسه العالم الفاضل حسن الجبرتى والد المؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتى ، وفى أيامه هدأت القاهرة قليلا . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوى المطامع، وفى مقدمتهم الأميران ابراهيم كتخدا الانـكشارية، ورضوان كتخدا

العزب وأولهما من طائفة القزغلية ، وثانيهما من طائفة الجلفية ، وقد تزوج إبراهيم من ابنة محمد البارودى أحد تجار القاهرة الأغنياء فاستفاد من مالها الكثير وارتفع شأنه حتى ارتقى إلى رتبة البكوية لتقربه من بيت شيخ البلد . وتشاء الصدفة أن يرتقى صديقه رضوان فى ذلك الوقت ، فيعرف اسم رضوان بك ، فاتحد الإثنان قلباً وقالباً وتوليا أمور القاهرة فيما بينهما .

فلما رأى عثمان بك نمو مكانة هذين النافسين الجديدين ، ضم إليه ثلاثة أحزاب حزب إبراهيم بك قطامش وحزب على بك الدمياطى وحزب على بك الطويل ، وشاورهم فى الأمر فأقروا قتلهما ، ولكن لم يطل أمر تحالف عثمان معهم ، فقد أبعد عن مصر بحيلة وكيله فوصل سوريا ومنها إلى الاستانة . واستمر ابراهيم بك قطامش إلى النهاية مع خمسة بكوات من حزبه فتحصنوا فى قصره للمقاومة . فلما علم بذلك الوالى اتصل بالأميرين ابراهيم ورضوان، فأخذ كل منهما وجاقه وقصدا قصر قطامش وصبوا نيران بنادقها نحو القصر فقاومتها قوة قطامش عدة ساعات ، واستمرت النيران متبادلة بين الفريقين حتى أقبل الليل واستطاعت جماعة قطامش أن تنجو بنفسها فولت الأدبار قاصدة الوجه القبلى .

القاهرة بين الأميرين إبراهيم ورضوان

ومع ذلك لم يصف الجو أمام إبراهيم ورضوان فكان فى انتظارهما كثير من الحوادث الجسام، وسترى القاهرة وقد تحولت إلى مسرح تمثل عليه المآسى . فلقد صمم الزعيمان على إبادة فئة البكوات الباقية واتفقا على ذلك مع الوالى « كيور أحمد » ، واستعانوا بالمؤامرة وبالمال . فقتلوا على بك الدمياطى بيد وكيله سليمان، ثم أمر الأميران ابراهيم ورضوان بقفل جميع منافذ القلعة ، وجعلا الحرس على بابى الانكشارية والعزب من جنودهما المخلصين . وابتدأت المذبحة الرهيبة فكانت الجثث تلقى من النوافذ والدرج وسالت الدماء فى جميع نواحى القاهرة .

وكانت مؤامرة ناجحة ، تخلصت القاهرة فى أثرها من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ماتم فى القاهرة من أعمالهما .

كان لكل من هذين الأميرين وجهة يتجه إليها فى رياسته ، فكان ابراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدبر السياسة، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين فقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفا .

هناك على ضفة الخليج المصرى اشترى رضوان داراً كانت بيت التاجر الغنى الشرايبى، وهى التى كان بها العمودان الملتفان المعروفة « بثلاثة ولية » ، وكانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم ما يلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك متنزهاً من متنزهات القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . فلما اشتراها الأمير رضوان بالغ فى زخرفتها ، وعمد على قاعاتها العالية قبابا عجيبة الصنعة

منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع فى هذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار ، وكان للأمير فوق ذلك فى الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج القاهرى مما يلى قنطرة الدكة ، وأنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجاً ، بعضه على عدة قناطر لطيفة، وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المهدية . وبوسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلى وينصب منها إلى الحوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان لسقى الأشجار ، وبنى قصراً آخر بداخل البستان مطلا على الخليج فكان يتنقل فى تلك القصور التى نسقها أبدع تنسيق .

وقصارى القول أن قصور رضوان كانت تتألق دائماً بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والإبداع ، ويجتمع فى أبهائها رجالات ذلك العصر من الأدباء والعلماء ، فلا غرو أن تفنن الشعراء فى مدح رضوان وفى العمل على الاتصال به ، من هؤلاء عبد الله بن سلامه المعروف بالادكاوى نسبة إلى بلدته التى ولد فيها « ادكو » ومصطفى اللقيمى والسيد السديدى وقاسم التونسى وغيرهم . فقد مدحه هؤلاء جميعاً وأنشأوا فيه المقامات والتوشيحات ، ورأينا الادكاوى يجمع كل ماقاله الشعراء فى هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ولا يكاد يوجد شاعر فى ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان . إلا أن الأمير قد أضله ما هو فيه من نعمة ، فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصى ، وقد ذكر الجبرتى انه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لأهل المجون فصارت القاهرة ميادين للغزلان ونعيما للعشاق .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم فى البلاد حتى أنعم الأمير إبراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله فشق ذلك على ابراهيم بك الشركسى، ونمت بينهما الضغائن حتى قتله بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده ، إلى أن ظهر شأن عبد الرحمن كتخدا الانكشارية فأخذ يعضد مماليك الأمير ويقربهم على أمراء رضوان وتآمروا على اغتيال الأمير رضوان والقضاء على سلطته، فتنبه رضوان لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهرة وجامع المحمودية وجامع السلطان حسن ، واجتمع إليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة ، لولا أن سعى إليه الأمير عبدالرحمن كتخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم إلى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسنت نيته وسلم بنصحهم .

وبعد أن نزل إلى داره فى « قوصون » اغتنم أعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا واستولوا على القلعة وبعض الأبواب بينما كان رضوان آمناً فى بيته فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجلل على داره ، فأمر بالاستعداد وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحداً منهم يقف بجانبه ، فحارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب فى ساقه برصاصة من مملوكه الصغير « صالح » الذى التجأ إلى خصومه . ولما أصيب رضوان طلب الخيل وخرج من نقب نقبه فى جدار بستانه، وخرج قاصداً البساتين فلم يتبعه أحدونهبوا داره ، ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ، ودفن فيها

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة وهو الباب المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمين الباقيتين إلى اليوم بعد أن جددتا .

أسرة الشرايبى

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة فى القاهرة ، فقد كان من بين قصور الازبكية قصر التاجر الغنى الشيخ أحمد الشرايبى الذى استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها مماليك وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء ، وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأمهم أهل العلم والأدب وامتلأت خزائن كتبهم بالمخطوطات الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى ثمن لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فإذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل زائر يقصدهم . وكان الأديب إذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ الشرايبى ، فكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد إعادته إلى مكانه . وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد المتمسكين بمذهب المالكية ، ويتزوجون من بين أفراد أسرتهم ، وكانوا غاية فى التحفظ ، لا تخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن ، فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن عظمتها ولا حرج . . وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه الشىء الكثير عن هذه الحفلات فقد كانوا على كثير من الحذر لا يظهرون بناتهن أمام الناس . كانوا ينتهزون فرصة المدعوين فى جامع أزبك (الذى شيده الأمير المشهور أزبك ططخ ومنه اتخذت الازبكية اسمها ، وقد هدم عام ١٨٦٩) المواجه لبيتهم فيأخذون العروس، ويسرعون بها إلى زوجها السعيد، ويقصدون بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المماليك والعبيد ، ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء .

الحيـــــــاة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة ، تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن حال التربية والتعليم فى تلك الأيام . فلقد أنشئت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المماليك الأولى . ويستطاع الإلمام بفكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرنين السابع والثامن عشر عند ما نقرأ «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للمؤرخ العلامة عبدالرحمن الجبرتى . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى عصره . وأورد فى تاريخه بالجزء الأول مناقشة حدثت بين الوالى أحمد باشا والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م وكان الباشا من أرباب الفضائل ميالا للعلوم الرياضية، فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله كبار العلماء فى ذلك الوقت، وهم: الشيخ سالم النفراوى، والشيخ سليمان المنصورى، والشيخ عبدالله الشبراوى تكلم معهم وناقشهم، ثم حدثهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا : « لا نعرف هذه العلوم » .

فتعجب وسكت، وكانت للشيخ عبدالله الشبراوى وظيفة الخطابة بجامع سارية بالقلعة يطلع إليه كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة ، وربما تغذى معه ثم يخرج إلى المسجد ، وفى ذات يوم قال له الباشا :

وننقل ما جاء بتاريخ الجبرتى من حديث هذا الباشا :

« عنـدنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضـائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . فقال له الشيخ « هى يامولانا كما سمعتم موطن العلوم والمعارف » ، فقال وأين هى وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتـكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلـكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المتصدرون لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحـكام وغالب أهل الأزهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجـة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب ، فقال له : « وعـلم الوقت كذلك من العـلوم الشرعيـة ، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك ، فقال نعم معرفة ذلك من فروض الـكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم الفقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فتندر فيهم القابلية لذلك . فقال وأين البعض ؟ فقال :موجودون فى بيوتهم يسعى إليهم» . ثم أخبره عن والد الشيـخ الجبرتى ، وعرفه عنـه وأطنب فى ذكره فقال : » ألتمس منكم ارساله عنـدى »

فقال : « يا مولانا إنه عظيم القدر ليس هو تحت أمرى »

فقال : « وكيف الطريق إلى حضوره »

قال : « تـكتبون له رسالة مع بعض خواصـكم فلا يسعه الامتناع » ففعل ذلك وطلع اليـه ولبى دعوته وسر برؤياه وواصله بالبر والإكرام ولازم المطالعة عليه مدة ولايتـه ، وكان يقول : « لو لم أغنم من مصر الا اجتماعى بهذا الأستاذ لـكفانى » .

واتفق للوالى أنه لم يوفق فى حـل مسألة من المسائل ، فاشتغل ذهنه وتحير فـكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى الميعاد، فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة، فـكشف له علة ذلك . فلما انجـلى وجهها على مرآة عقله كاد يطير فرحاً وحلف أن يقبل يده، ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور باعها (والد الجبرتى) بثمانمائة دينار، وكان يشتغل برسم المزاول على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزميل ، وكان ينقش عليها أبياتاً من الشعر المناسبة ومنها :

مزولة متقنـة نظيرها لا يوجـد راسمهـا حاسبهـا
هذا الوزير الأمجد تاريخهـا اتقنهـا وزير مصر أحمد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وأخرى بمشهد السادات الوفائية .

ويمكن أن يستنتج مما ذكره الجبرتى أن دراسات العلوم لم تكن عميقة بل سطحية بعكس دراسة العلوم الدينية التى كانت أعمق ، والواقع أن ذلك كان فى أغلب الأحيان ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية فى مصر الإسلامية ، ومن عجائب حوادث ذلك العصر أن أشيع بين الناس بمصر أن القيامة ستقوم يوم الجمعة فى السادس والعشرين من ذى الحجة (١١٤٧ هـ/١٧٣٤ م) فودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول الإنسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثيرون من الناس إلى الحقول والمتنزهات قائلين لبعضهم البعض : « دعونا نودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا للاغتسال فى النيل . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الهم والوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى ، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المحدد ليوم القيامة فلم يقع شىء . ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت ، وهم يقولون فلان العالم قال إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك ، وقبل الله شفاعتهم فيرد عليه الآخر : « اللهم انفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . » .

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفى أثناء ولاية أمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م) زار مصر الرحالة الانجليزى القس ريشارد بوكوك وكتب مؤلفه النفيس « رحلة للشرق وبلاد أخرى » فى سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية ، وقصد رشيد لزيارة البطريرك « كوسماس » ، وتعرف إلى كبار السامبين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليك من رهبان الفرنسسكان ، وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الانجليز ، وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى ، ثم قصد القاهرة . وقضى فيها أياماً لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها ، وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلى وآثاره .

وفى نفس العام (١٧٣٧ م) جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه « رحلة إلى مصر وبلاد النوبة » فى ثلاثة أجزاء ، ويعد مؤلفه من أهم ما كتب فى الرحلات وأدقها وأوفاها ، وله ملحق مصور فيه بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباى وقلعة أبو قير ورشيد والبحيرة ومصر القديمة ، وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة .

وفى عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) شهدت القاهرة والياً جديداً هو « محمد اليدقجى » ، وكان يريد القيام بحملة اصلاحية . فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف فى طرقات القاهرة لتفتيش المارة والقبض على المدخنين أو الذين يحملون الدخان ، ولا نزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة ، لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالى واستدعى للأستانة . وجاء من بعده « راغب محمد » ، ثم الوالى

العالم أحمد باشا الوزير الكبير (١٧٤٨ م) الذى ذكره فى عدة مناسبات المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .

قاهرة على بك الكبير

(١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

قدر لقاهرة تلك الأيام أن ترى عجباً بعد عجب : فإذا كنت من أحياء ذلك العهد وأتيح لك أن تركب متن طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر ، إذن لرأيت فى أنحائه وميض نار يشتعل لهيبها وفتناً قد تفاقم شرها . .

فحكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإدارى يستمتعون بما حصلوا عليه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام معارك لا يخمد لها لهيب . فاذا سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات الله من ناحية إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق والا نهبت عروضه ، وكان هؤلاء طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف ، احترفت السلب وأيقنت أساليبه وتفننت فيه وحصلت منه على الثروات الطائلة .

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحداً من بين ألفى مملوك للأمير ابراهيم لكن كتب له أن يكوى ذا شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكاً جزءاً كبيراً من حياته ، امتاز بأساليب القسوة والغدر ، وكان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . كان يحبه مولاه فجعله حامل سيفه وكان الحظ يحالفه ويطيعه . صحب سيده مع قافلته إلى بلاد النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن رقاه كاشفاً فسار فى طليعة الركب، وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق، فقاومهم على بقلب ثابت ودحرهم فلما عاد الأمير إبراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة « بك » لكن صغر سنه ودسيسة أحد رؤساء المماليك حالا دون ذلك . واستمر القدر يخدم علياً حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر ، وبدأ يتخلص تدريجياً من مزاحميه زعماء المماليك المشاغبين ورقى أتباعه المخلصين ، وكان أعزهم لديه واحد منهم اسمه محمد . قلده البكوية ثم لقب بأبى الذهب، وسنرى أنه لم يكن مثلاحسناً لعرفان الجميل بل أن فضل سيده عليه لم يزده إلا كفراناً بنعمته !

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ماحدث فى أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير ، لكننا لا يسعنا إلا التنويه بإعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية . فقدانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحربها مع الروس (١٧٦٨) وأعلن استقلاله وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مرافقها وعين على ماليتها مدير الجمرك القديم المعلم « رزق القبطى » ونظم التجارة الخارجية والمواصلات ، واستمتعت البلاد فى عهده بالأمن

وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره ، ونما فى البلاد نوع من الشعور الوطنى إذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول .

وفى أيام على بك الكبير مر بالقاهرة الرحالة الإنجليزى « جيمس بروس » فى طريقه إلى « اثيوبيا » وقد تقابل مع المعلم رزق الذى كان من المتبحرين فى علم الفلك ، فأفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل الرحالة إلى المعلم رزق هدية ثمينة اعترافاً بجميله ، ولكنه أعادها إليه وبصحبتها هدية منه وأعطى رسوله كتاباً دعا فيه الرحالة إلى زيارته فى بيته بعد الاستراحة من عناء رحلته لكى يطلعه على عدده وآلاته الفلكية . ثم نال اذناً من على بك الكبير لكى يقوم برحلته وهو فى أمان واطمئنان ، وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه فى القاهرة ضيفاً فى حى قلعة بابليون ، وأوصى البطريرك بأن تهيأ له بعض الغرف ، وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ، ومنها أخذ طريقه إلى القصير فأثيوبيا عن طريق البحر الأحمر ، ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد على بك إذ انتقل الحكم إلى مملوكه أبى الذهب .

أبو الذهب فى القـــــــــاهرة

إن قصة المعارك التى دارت بين على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب طويلة وليست فى متناول هذا الكتاب ، ولكنها تدل على ما كانت عليه أخلاق أبى الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . تمادى على بك فى ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسيه فى الشام والحدود ، وأخيراً تحصن مع جيشه الباقى عند دير البساتين الذى استولى عليه من الأقباط وجعله حصناً حربياً وبنى المعاقل والحصون من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطىء النيل حتى سفح المقطم ، ووضع المدافع الكبيرة فى ذلك الخط الكبير الطويل بين تلك الاستحكامات القوية ، ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فإن أبا الذهب جاء لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التى خانه أغلبها وانضمت إلى جيوش أبى الذهب .

دخل أبو الذهب القاهرة دخول الفاتح المنتصر دون أن يضطر لعمل حربى لأن الأهالى وعدداً كبيراً من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ، ولكن مع سنوح تلك الفرصة لأبى الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه .

ولا شك أن على بك الكبير من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر ، لكن اشتغاله بالسياسة وبالحروب التى استلزمتها محاولته للاستقلال بمصر لم تجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار ، ومع ذلك فإنه أمر بتجديد خشب قبة مسجد الإمام الشافعى بالقاهرة ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد وطلاها بالألوان الزاهية . وقد ضمن النقوش برقبة القبة تاريخاً شعرياً منظوماً مكتوباً بالخط النسخ الجميل ، يبدأ بالبسملة وبعض الآيات الكريمة ، ثم عبارة تنص على ماقام به من التجديد وتاريخ ذلك فى عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢م . وعلاوة على ذلك فقد هدم الميضأة التى كان قد شيدها عبد الرحمن كتخدا ، وبنى أخرى مستطيلة متسعة حولها صنابير المياه ومقاعد الراحة المستديرة .

وشيد على بك قصراً بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى ، فى المكان الذى تشغله دار الأوبرا ، ولا يزال الشارع القريب منها يسمى باسم شارع سيدى عبد الحق السنباطى ، وكان القصر يطل على بركة الأزبكية ، الحق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسة متولدته .

وأنشأ قيسارية كبيرة قرب شاطىء النيل ببولاق قريباً من وكالة الحطب تحت ربع الخرنوب ، وبنى خاناً تعلوه مساكن بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطىء النيل ويتوسط الجميع مسجد . وكان ذلك فى عام ١٧٧١ ، وقد انتهى العمل فيها بعد وفاة على بك(١) .

ولما توفى على بك ١١٨٧ هـ ١٧٧٣م عقب هزيمته ، دفن بالقرافة الصغرى قرب الإمام الشافعى ، وتوجد مقبرته الرخامية إلى اليوم وحولها بعض النقوش والكتابات بخط واضح ، والمعروف أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل المقبرة .

* * *

دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلا بثمار نصره إذ توفى ودفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر وكان خاتمة الجوامع العظيمة التى أنشئت فى القاهرة فى عهد حكم الباشوات الأتراك .

ولقد تمتعت مصر فى أيام أبى الذهب بعهد من الرخاء والطمأنينة ، وترك له الباب العالى الأمور تجرى كما يريد ، وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ /١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب فى بناء مدرسته تجاه الجامع الأزهر وكان محلها رباع متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع سنان ببولاق . ولما تم البناء فرشت بالحصر ومن فوقها البسط حتى فرجات الشبابيك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة فى (شعبان ١١٨٨ هـ) . ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى ، فألبس الشيخ الصعيدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتيين الثلاثة فراوى سمور وباقى المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا . ومن آثار عهده أيضاً سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياتم وبيت الست حفيظة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق ووكالة أبى الذهب بالصنادقية وسبيل محمد أبى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ الطاهر بالخردجية وقصر المسافرخانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ / ١٧٧٩) .

---

(١) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير . ص ١٠١ — ١٠٣ . القاهرة ١٩٥٠

عمائر عبد الرحمن كتخدا

كان الأميرعبد الرحمن بن حسن جاويش كتخدا مصر (محافظاً لها) فى عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٤ م ؛ وكان مغرماً بالبناء فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة . .

وليس من شك فى أن عبد الرحمن كتخدا يعتبر فى مقدمة الساعين فى تجميل القاهرة وتعميرها ، وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير . وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذى استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها مدرسة ومسجداً ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية . وفى يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأوانى بالشراب ليسقى الأهالى ، وبنى أيضاً مدرسة للعميان فى الأزهر ومنشآت خيرية أخرى ...

أما ابنه عبد الرحمن فقد بزه فى هذا المضمار إذ جمع فى أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك فى سبيله الرائع الواقع فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف بإسمه حتى اليوم . له ثلاث وجهات وبالدور الأرضى منه الكتاب . وأنشأ عند باب الفتوح مسجداً وصهريجاً وكتاباً . وأنشأ بالقرب من قرافة الأزبكيه سقاية وحوضاً لسقى الدواب وكتاباً . وزاد فى مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضاً اشتملت على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت وبنى به محراباً جديداً وأقام له منبراً وأنشأ له باباً عظيما جهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن . وبنى المدرسة الطيبرسية وجعلها مع مدرسة الاقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المبانى فخامة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسينى وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهريجاً وحوضاً وسقاية ومكتباً . وشيد جامعاً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً وميضأة وساقية ومنارة . وبنى مشهد السيده زينب بقناطر السباع ، ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية وجدد المارستان المنصورى وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التى شيدها خارج القاهرة .

ومن عمائر عبد الرحمن كتخدا دار سكنه بحارة عابدين ، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان ، لم تماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقاشانى والذهب المموه وأنواع الأصباغ وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعدة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام وأرضها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً ، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر .

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدا أمر « على بك الكبير » يستفحل، فأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك فى أوائل ذى القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثنى عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج فى (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العمى والهرم فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ومات ودفن بالمدفن الذى أعده لنفسه بجوار باب الصعايدة بالأزهر عند بابه القبلى وسار فى جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته .

سونينى وسافارى

بعد مرور عشر سنوات على مجىء الرحالة الإنجليزى « بروس » أوفدت الحكومة الفرنسية المسيو سونينى فيما بين عامى (١٧٧٧ هـ و١٧٨٠ م) للوقوف على الأحوال السياسية والعلمية التى احتاجتها حكومة الملك لويس السادس عشر لوضع خططها فى الاستيلاء على مصر. تلك الخطة التى لم تتحقق إلا على يد نابليون حين غزا مصر سنة ١٧٩٨ على رأس حملته المشهورة . ولقد كان سونينى باحثاً وعالماً إنما كانت طبيعته لاتتفق مع مهمته التى جاء من أجلها إلى مصر . فكان يصدق كل ما يقال له وما يسمعه ممن اختلط بهم فى أثناء رحلته ولو كان ما قيل ضد المصريين أنفسهم أو المماليك . ولقد قضى معظم سنى رحلته فى رشيد حيث قامت جالية كبيرة العدد من الأجانب . وذكر « سونينى» فى كتابه الذى طبع على نفقة الحكومة الفرنسية بعنوان : « رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى » إن شوارع القاهرة كانت أقذر شوارع رآها فى جميع البلدان التى شاهدها ، وأنه إذا سار أحد المماليك أو رجال الدين أو الموظفين فى الطريق تحتم على الأهلين السائرين سواء أكانوا من الوطنيين أو الأوربيين أن يفسحوا له الطريق ويقفوا فى أماكنهم ويضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم تحية الاجلال والخضوع يظلوا وقوفاً حتى يغيب عن أبصارهم . وإذا قصر أحدهم فى تأدية هذه التحية عوقب فى الحال فيحاط بستة من القواصين ويوسعونه فى الحال ضرباً مؤلماً بعصيهم الطويلة .

ويستطيع القارىء أن يلمح صورة للقاهرة وقد استعدت لاستقبال أحد الولاة الأتراك الذين وفدوا عليها للحكم باسم الخليفة من خلال ما كتبه « سافارى » وقد وصف حفلة استقبال شاهدها فى المدة التى قضاها فى مصر بين عامى (١٧٧٧ و ١٧٧٩ م) قال :

عند ما يصل الباشا الجديد إلى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله فيرسل شيخ البلد (زعيم المماليك) وفداً من أكفأ البكوات لاستقباله والحفاوة به فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة، وفى خلال مقابلتهم يتحسسون ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التى جاء بها من الأستانة ، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد فى القاهرة ، فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لايريدونه ، ثم يرسل إلى الباب العالى بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين ويطلبون استدعاءه ، فلا يرفض الباب العالى طلبهم . أما إذا آنس

الرسل من الباشا أن لاخيفة منه فإنهم يدعونه إلى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة فخمة وينحدرون فى معيته تحيط به السفن المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، ويتقدم الباشا هذا الأسطول على ظهر سفينة تختال فى سيرها تصحبهم السفن التى تلقاهم فى النيل إلى أن يصلوا إلى بولاق ، وهناك ترسو السفن وينتدب شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا فى الميناء أو يستقبله بنفسه فيهنئه أمراء المماليك بالقدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها » .

قال سافارى : « وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة فى موكبه وزينته . رأيت الموكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة يسيرون صفين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم خفاقة فوق رءوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسيرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة فتكسبهم منظراً حربياً يبعث الروعة فى النفوس . يلى هؤلاء البكوات مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . ورأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة وعلى خيولهم السرج تتلألأ من الذهب . وكل « بيك » يسير فى الموكب على هذه الصفة . كانت جيادهم مجتمعة غاية فى الرونق والفخامة يزينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، يليهم الباشا يسير الهوينا تتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة موسيقيين وأمامه أربعة جياد يقودها أربعة من السواس عليها غواشيها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها فى أشعة الشمس . رأيت فى هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التى كانت تحيط ملوك آسيا وسلاطينها عندما يظهرون للجماهير . بدأ الموكب فى الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الظهر وفى اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات إلى حضوره وجلس على منصة فكأنه السلطان على عرشه . وتلا كخياه (وكيله) كتاب الباب العالى . فطأطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتعهدوا بتنفيذ مالا يعارض امتيازاتهم .

وبعد انفضاض الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك سمور فاخراً وجواداً مطهما وخلع على كل « بيك » قباء (قفطاناً) وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا الذى لا يستطيع بعد تلك الحفلة العظيمة أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ! » .

ولا يبعد أن يكون هذا الوصف هو الذى أعد لاستقبال إسماعيل باشا الذى عين لولاية مصر عام (١١٩٢ هـ — ١٧٧٨ م) . وذلك فى أثناء الفترة التى قضاها « سافارى » فى القاهرة وكان على مشيختها إما إسماعيل بك أو ابراهيم بك . .

القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم

مات أبو الذهب فتولى الأمر بعده البكوات الثلاثة إسماعيل ومراد وإبراهيم، وكانوا من مماليك على بك فخانوه وخرجوا عليه. وكان أولهم يحكم مصر فى أثناء فتوحات أبى الذهب فى الشام، وثانيهم تولى قيادة الجيش المصرى بعد وفاة أبى الذهب. وكان إبراهيم بك حاكماً للقاهرة. ولم تمر الأيام على اتحادهم حتى انقسموا فريقين فاستعد إسماعيل لمقاومة زميليه ومناظريه على مشيخة البلد، واستطاع أن يتقلد مهام الأمور متذرعاً بكل وسائل الشدة والخشونة مستنداً إلى نفوذ الوالى. ومع جبروته كان منافسوه المماليك ينتهزون الفرص لمقاومته ومحاربته للتخلص منه، فأفلحوا فى إبعاده عن مصر إذ فر مع أتباعه إلى الشام وبذلك خلا الجو لمراد بك وإبراهيم بك. وانقسم أمراء مصر إلى جماعتين: جماعة قيل لهم المحمدية نسبة إلى محمد بك أبى الذهب، وقسم يسمى العلوية نسبة لعلى بك الكبير. وقد كان هذا الإنقسام سبباً فى فتن وحروب ومكائد. وأحس العلوية من مراد بك الغدر، فتجمعوا وتحصنوا فى حوش الشرقاوى، وأقاموا المتاريس فى جهة باب زويلة وباب الخرق والسروجية. أما إبراهيم بك فقد تحصن بالقلعة وصوب مدافعه على أحياء العلوية اثنين وعشرين يوماً، بينما كان جنوده يهجمون على أتباعهم فى الحارات والدروب فخربوها. فاضطر العلويون للفرار إلى الشرقية فتبعهم أعداؤهم وأفنوهم عن آخرهم إلا القليلين.

وساد السكون، وأقر الصلح على أن يعطى إسماعيل بك أخميم وأعمالها، ووزعت على بعض أتباعه مناطق لا يتعدونها. ولكن بعد قليل انتقض الصلح، وعادت الأمور إلى سابق مجراها وازداد الموقف تعقداً بما أحدثته المنافسة بين الزعيمين إبراهيم ومراد ووقفت جيوش كل منهما أمام الأخرى بالمرصاد. جموع مراد فى الجيزة وجموع إبراهيم بك فى مصر القديمة. واستمرت الحال عشرين يوماً بين قصف المدافع وأزيز الطلقات، واشتد البلاء بالأهالى حتى عقد الصلح بين الأميرين. فخشى أمراء حزب إسماعيل عاقبة هذا الصلح وهاجروا من مصر فسبقتهم جموع إبراهيم ومراد وجماعة من العرب من خلف الجبل وقطعوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، ولما عادوا استولوا على أملاكهم وأموالهم وأولادهم. وبالتخلص من إسماعيل بك عاد النفور ثانية بين الزعيمين حتى سعى بينهم بعض المشايخ والأمراء، واصطلحا ثانية!

وكانت سنة ١١٩٩ هـ من أسوأ السنين التى عرفتها مصر، فانتشر وباء الطاعون وانخفض النيل وانقطعت الطرق، وخربت أقاليم بأسرها وانتشر الفلاحون فى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر. واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الخيل والحمير والجمال بينما كان الأمراء كعادتهم ينهبون المدينة ورجالهم يسطون على الأرياف كأنهم لا يشاهدون أمامهم تلك الكوارث التى تفتت الأكباد. وكثرت حوادث الإعتداء على الأوربيين، فأرسلت الدولة العثمانية عام ١٢٠٠ هـ حسن باشا القبطان على رأس جيش عثمانى جاء عن طريق البحر أفنى به عدداً كبيراً من قوات المماليك فى رشيد والرحمانية. ودخل القاهرة ونزل في بيت إبراهيم بك عند قصر العينى على

شاطىء النيل وعكف على إصلاح الإدارة . ثم استقدم إسماعيل بك وزميله حسن بك الجداوى من الصعيد فأرسلهما فى جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدى الحملة العثمانية التى جاءت مصر عن طريق البر للقضاء على مراد بك وأتباعه فى الصعيد فهزموهم وظلوا يتبعونهم إلى الشلالات ، ثم عادت الجنود العثمانية منصورة إلى القاهرة .

فى تلك الفترة تقلد ولاية مصر عابدين باشا ، وانتهت مهمة حسن باشا القبطان . لكنه قبل مبارحته القاهرة ، أقام عليها إسماعيل باشا شيخاً للبلد . فعهد هذا إلى صديقه القديم حسن بك الجداوى بامارة الحج ، واتفقا معاً على اقتسام الإيراد . ثم أكمل إسماعيل بك بناء قصره وشيد مقعداً فخماً لم يكن له مثيل فى مقاعد بيوت الأمراء (١) .

وفى عام ١٧٩٢ م وفد على مصر وباء الطاعون ، وكان شديد الوطأة بلغ عدد موتاه نحو الألف فى اليوم الواحد فى القاهرة وحدها وتقلد حكومتها فى يوم واحد ثلاثة حكام وفنى كل بيت إسماعيل بك . وقد أصيب بالوباء وتوفى . فتنازع على مشيخة البلد حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار واتفقا فيما بينهما على تأمير « عثمان بك طبل » فسكن بيت سيده وتولى مشيخة البلد أياماً قلائل ثم سلمها لخصومه . وفى تلك السنة خلف محمد باشا عزت الوالى اسماعيل التونسى.فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة فى (١٢٠٥ هـ ١٧٩٢ م) وفر حسن بك الجداوى إلى الصعيد واستلم الإثنان أزمة الأمور بالتناوب أحدهما مشيخة البلد وثانيهما امارة الحج .

وفى تلك السنة أشيع بين الناس انه فى ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى فى نصف الليل ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة خرج أكثر الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن الفسيحة مثل بركة الازبكية وبركة الفيل وغيرها ونزلوا فى السفن وباتوا ينتظرون إلى الصباح . فلم تحدث زلزلة وأصبحوا وهم يتضاحكون على بعضهم ؟

وذات يوم غيمت السماء غيما كثيفاً وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد شديد الصوت وبرق متتابع قوى اللمعان واستمر طول ليلة الجمعة الخامس من شهر صفر فسقطت الدور القديمة على ساكنيها ونزلت السيول من ناحية الجبل الأحمر فملأت الصحراء وخارج باب النصر وامتدت إلى جهة الجمالية وجامع الحاكم على مسافات بعيدة فى الحارات المجاورة وخرب بسبب المياه أكثر خطط الحسينية وصادف ذلك اليوم دخول الحجاج إلى القاهرة فأفسد مواكبهم وجرف السيل سرادق أمير الحجاج وخيام الأمراء والكبراء . وامتلأت الوكالات بالمياه وهدمت مئات القبور وتحول خارج باب النصر إلى بركة ممتدة كبيرة .

---

(١) ذكر الجبرتى أن إسماعيل بك شيد فى طره على شاطىء النيل قلعة ، وجعل بها مساكن ومخازن وأبراجاً وأبنية أخرى تمتد من القلعة إلى الجبل . .

القاهرة بين الأميرين ابراهيم ومراد

فى أيام سطوة إبراهيم ومراد الأولى استأذن «سليم أغا» مستحفظان منهما فى فتح الباب الكبير لجامع السلطان حسن المواجه لسوق السلاح وهدم الحوانيت التى أنشئت بأسفله ، وكان قد سد احدى وخمسين سنة بسبب المعركة التى قتل فيها أحد عشر أميراً من أمراء محمد بك الدفتردار (١١٤٩ هـ) فأذنا له بما أراد . فقصد بنفسه إلى الجامع راكباً ومعه العمال والصناع وفتح بابه المسدود وصنع له باباً جديداً وبنى له درجات واسعة ومصاطب وأحضر نظاره وأمرهم بالصرف عليه ، وكان يأتى كل يوم لمباشرة العمل بنفسه وأصلح ما تهدم من أجزائه ونظف جدرانه ورخامه وأعاد إليه سابق رونقه وبهائه .

على أننا لم نقف على شىء من آثار مراد بك أو زميله إلا ما وصفه بعض الكتاب الأوربيين عن قصورها الجميلة . فقد قدم إلى القاهرة «فيفان دينون» بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد ، وألف كتاباً عن رحلته وصف فيه ما كان فى « قصر مراد بك » بالجيزة وصفاً بليغاً بما فيه من طرقات وبساتين وأثاث . وكان القصر يشغل مساحة كبيرة من الأراضى التى تحتلها اليوم حدائق الحيوان والقصور الجميلة المواجهة لها . وقل أن يجد المرء مفخرة لهذا العصر فهو فى الواقع فترة من تاريخ مصر لم تسجل لها حسنات تستحق الذكر، بل كانت اضطراباتها وقلاقلها أكبر ممهد للحوادث التى أدت إلى نجاح الحملة الفرنسية .

كانت مصر مزرعة تقدم للأميرين ما شاءت أهواؤهما من مال وخيرات، وكان أتباعهما يمرحون فى المدن والأسواق ويدخلون الحوانيت والوكالات وينهبون ويسرقون ويخطفون ثم يقتلون ويحرقون ويولون الأدبار . إن تاريخ تلك الحقبة فى الزمان وصمة سوداء فى تاريخ هؤلاء المماليك الذين أتاحت لهم أسوأ الأقدار التصرف فى أمور مصر والتسلط على حكم أبنائها .

فلقد تتابعت حوادث الخراب حتى مات كثيرون من الجوع ليلاً ونهاراً فى الطرقات، بينما كانا وحدهما يسعدان ويمرحان بالنعيم . وفى تاريخ الجبرتى بين حوادث عام (١٢٠٦ هـ /١٧٩٢ م) وصف حفلة زواج ابنة ابراهيم بك « عديلة هانم » بالأمير أحمد ابراهيم بك المعروف بالوالى أمير الحج سابقاً ، وأنه عمر لهما بيتاً خاصاً بجوار بيت الشيخ السادات وأسرف أبوها فى جهازها وشراء الحلى والجواهر وغيرها من الأوانى الفضية والذهبية . وأقام ليالى الأفراح ببركة الفيل حيث نصبوا أمام بيوت الزعماء الصوارى الكبيرة والملاهى وأصحاب الألعاب ، وقد دعا ابراهيم بك الأعيان والأمراء والتجار وقدموا للعروسين أثمن الهدايا . كما دعا أيضاً « الباشا » فنزل من القلعة وأهدى للعروس جواهر ومصاغات نفيسة . وأقيمت حفلة العرس فى رابع المحرم وخرجت العروس من بيت أبيها فى عربة عجيبة الشكل وسار أمامها الكشاف والأمراء .

وبعد انتهاء الأفراح بمباهجها وأغانيها خرج الأميران مراد وابراهيم من القاهرة مع بعض أمرائها إلى جهة العادلية حيث أقاموا مدة ، ومنها قصد « مراد بك» ناحية أبى زعبل، وقصد ابراهيم بك وجماعته ناحية

الجزيرة . وفى أثناء خروجهما نهب أتباعهما ماصادفوه من الدواب وهجموا على الوكالات التى بباب الشعرية وأخذوا ماعثروا عليه من الجمال والحمير . ولما وصل مراد بك إلى أبى زعبل نهب عرب الصوالحة فى خيامهم واستولى على أغنامهم وقتل منهم نحو خمسة وعشرين شخصاً ، ثم قبض على مشايخ أبى زعبل وحبسهم وفرض عليهم غرامة أحد عشر ألف ريال .

وفى أيام مشيخة الأميرين حضر الصدر الأعظم يوسف باشا للاسكندرية متوجهاً إلى الحجاز ، فعنى الأمراء باستقباله . ولما وصل إلى القاهرة ، أعد له قصر العينى وذهب الأميران مراد وابراهيم للقائه فى موكب عظيم فخلع عليهما خلعاً ثمينة وقدم لهما جوادين هدية . كذلك ذهب إليه الوالى مسلماً عليه وعاد إلى القلعة . وعين لحراسته عبد الرحمن بك الإبراهيمى ، وخصص له البيت المواجه لقصر العينى . وبعد أيام صعد يوسف باشا إلى القلعة فى موكب كبير وعاد إلى قصره محملا بالهدايا التى قدمها إليه الزعماء، وكانت خمسمائة أردب قمح ومائة أردب أرز وأقمشة هندية . ولما انتهت زيارته سافر إلى السويس ليبحر منها إلى جدة .

فى الوقت الذى كانت فيه مظالم الأمراء تتوالى كان مراد بك يشيد قصره العظيم فى الجيزة ، وقد وصفه وصفاً بليغاً الكاتب الفرنسى « فيفان دينون » فى كتابه كما سبق ذكره .

وقد ذكر المسيو « مارسل » المستشرق ، ومدير المطبعة التى أحضرها نابليون إلى مصر ، أن مراد بك فرض ضريبة كبيرة على اليهود ، ولما كانت ثقيلة لاتحتمل عبئها تلك الطائفة ، اجتمع زعماؤهم وتداولوا فى الأمر وقر رأيهم على ارسال حبرين للاجتماع بمراد بك وإقناعه بأن عمرو بن العاص لما شيد جامعه دفن فى أرضه كنزاً عظيما ، فرفع مراد الضريبة وأمر فى اليوم الثانى بترميم الجامع . وكان غرضه الحقيق التنقيب عن هذا الكنز الموهوم . ولما تهدم الجامع ولم يجد شيئاً اضطر إلى إعادة بناء الجامع وصرف عليه أموالا عظيمة فأقام معظم عمده وشيد منارتين، وجدد جميع سقفه بالخشب وبيض جدرانه ، فتم على أحسن صورة ، وصليت به الجمعة فى آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ ، وحضرها الأمراء والأعيان والفقهاء . وبأعلا قبلته الرخامية لوح مكتوب فيه أبيات من الشعر منها :

أنظر لمسجد عمرو بعد ما درست   رسومه صار يحكى الكوكب الزاهى

نعم الوزير الذى لله جدده   مير اللواء مراد الآمر الناهى

وعلى أحد أبواب الجامع الغربية اسم مراد بك بتاريخ ١٢١١ هـ وستة أبيات من الشعر منها :

أحيا لنا ربنا بيتاً لطاعته   وكان من قبل مصباحاً بها فطفى

وانقض بنيانه والمسلمون غدوا   من أجله قاصرين الباع فى أسف

العلم والعلماء فى العصر العثمانى

كان الأزهر المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر . ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل . وإليهم عاد الفضل فى انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين فى مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج ، والوراق ، وابن نباتة المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى والأبشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوى ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن دقماق والمقريزى صاحب الخطط وأبو الفداء الجغرافى المؤرخ والذهبى والنويرى صاحب نهاية الأرب وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطى والدميرى وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى ، وأرخ له . واستضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون .(١)

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وخمدت القرائح . وأصبحت القاهرة بعد أن كانت مدينة خليفة المسلمين ، وعاصمة دولة مستقلة ومشعل الشرق العربى ، عاصمة لولاية تابعة للآستانة وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة حتى نهاية دولة السلاطين والجراكسة ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عصور الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والجراكسة ، وتبددت خزانات الكتب التى أنشأها الفاطميون والمماليك ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، كمكتبة الأزهر التى احتوت إلى عهد الحملة الفرنسية على نحو ٣٣٫٠٠٠ مجلد . وآلت بعض المدارس الفخمة والمبانى العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق فى أغلب الأيام ، كما أن بعضها قد زال وصارت زرائب أو أحواشاً يسكنها البائسون .

وقصارى القول أن العلوم والآداب انحطت كثيراً فى العهد العثمانى ، فلم ينبغ فيه إلا عدد قليل جداً من علماء الدين والأدباء ، بل اننا لانكاد نرى من يستحق الذكر منهم ، سوى شهاب الدين الخفاجى ، والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس . وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى تاريخه من علماء ذلك الحين ، لما رأيت منهم من يصح عده عالماً نابهاً فى الفلسفة أو العلوم أو الآداب . واقتصر التدريس فى الأزهر على العلوم

(١) د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، عدة أجزاء ، القاهرة .

الفقهية واللسانية ، و بطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب إلى الحد الذى أصبحت تطلق فيه كلمة « شاعر » على جماعة يجلسون فى القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس ، وينشدونها على نغمات الرباب ، ومع ذلك فقد ترك لنا هؤلاء تراثاً طيباً من الفن الشعبى .

القاهرة خلال الحكم العثمانى

هـذه هى القاهرة فى أثناء الاحتلال العثمانى ، فهل امتدت مساحتها وازداد عمرانهـا ؟ اننا نجد جواباً سلبياً على هـذا السؤال . فقد تدهورت القاهرة وخربت فى أثناء حكم العثمانيين . وعلى كل حال فإن نظرة واحدة إلى خريطة تخطيطية للقاهرة عند ما دخلها نابليون ، وأخرى تمثلها فى أوائل الاحتلال التركى لكفيلة بإقناعنا بأن سنة النمو والارتقاء لم تعرفها هذه المدينة فى عهد العثمانيين .

دخـل الأتراك مصر فوجدوا لها عاصمة زاهية مجيدة احتلت لنفسها مركزاً سامياً بين عواصم الدول الشرقية والغربية، فكانت مكانة القاهرة لاتقل عن مكانة الأستانة . ولم يكن قد مر عليها أكثر من ستة قرون منذ أنشأها جوهر . وشاهد الأتراك مدينة تزدحم بالقصور والعمائر والمساجـد والوكالات والمدارس ، فـكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لـكى تصبح جوهرة امبراطوريتهم العظيمة، لـكنهم أهمـلوها ففقدت تدريجياً هيبتها الأولى .

أنشأ الفاطميون القاهرة وجملوها بابتكاراتهم فى فنون العمارة ، وجاء الأيوبيون فحصنوها بالأبواب والأسوار القوية وجعلوها عاصمة جديرة بملكهم الواسع ، حتى إذا جلس على عرش الدولة سلاطين المماليك البحرية ، فالمماليك الجراكسة ، رأيناهم يتنافسون فى تجميلها ورفع شأنها ، وأصبحت عاصمة زاهرة للعالم الإسلامى ، ومقراً لخليفة المسلمين .

ولـكى نحلل بإيضاح عوامل الخراب التى شوهدت آثارها بالقاهرة قبيل دخول الفرنسيين ، نتبع السائح الأجنبى الذى وصل على ظهر السفينة النيلية إلى ميناء بولاق التى نمت بدون انتظام أمام الزوارق والسفن التى كانت ترسو أمامها . كانت بولاق تمتد أربعة كيلومترات طولاً بدون عمق يذكر ، تشبه مدينـة صغيرة معزولة احتوت فى أواخر القرن الثامن عشر على مالا يزيد عن أربعة آلاف بيت وعشرين ألفاً من السكان ، واشتملت على عدد كبير من الوكالات والشون والخانات والحمامات والأسواق ، تتوسطها بعض المناظر الجميلة والحـدائق الغناء وتلال من المواد التى ينفر الذوق السليم منها والمقابر المبعثرة . ولقد تمتعت بولاق بنعيم الرخاء فى أثناء منتصف القرن الثامن عشر أيام ولاية على بك الـكبير فـكانت مقصد الخاصة وملتقى الأحباب يذهبون إليها للنزهة والترفيه بعيداً عن غبرة القاهرة . ولـكن لم يتسع لعلى بك الوقت لـكى يتم

ما بدأ به من مشروعاته العمرانية في تلك الجهة ، فقد شغل بحروبه فى سوريا وبلاد العرب ، واستمرت أعمال الحفر والأنقاض تعوق نواحيها وتعرقل تقدمها مدة ليست بالقصيرة .

وحول بولاق من الجهة المقابلة للنهر افترشت الحقول الخضراء المنوعة وهى تكسو أخصب بقاع وادى النيل تغطيها مياه الفيضان بجمال ودعة .

وابتدأ من بولاق طريقان يؤديان إلى القاهرة : الطريق الأولى زرعت على جانبيه أشجار اللبخ والنخيل وكان ينتهى أمام باب الحديد حيث كانت ترى إذ ذاك بقايا ميناء المقس القديم .

أما الطريق الثانية وهى أقصر من الأولى ، فكانت خلواً من الأشجار ينتهى بسالكها إلى الازبكية . وكانت تطل عليها من الجانبين الحوانيت والبيوت المأهولة بالسكان . واجتمعت على قارعة الطريق جموع الحواة والمشموذون يسلون زبائنهم في القاهرة بينما يغنى الشعراء على الرباب والدف أو الناى .

بعد أن يقطع السائح ما يقرب من الألف وخمسمائة متر يجد نفسه أمام حدود القاهرة الأصلية . . قاهرة الفاطميين ، فيجتاز القناة الغربية مستأنفاً السير فيما يشبه ضاحية المدينة ، ثم يقابل سوراً شاهقاً أمام بوابة ضخمة يحميها خندق متوسط العمق ثم يسير فى شارع ضيق مزدحم قاصداً حى الافرنج . ويصل هذا الشارع بين بركة الازبكية والخليج ، وعند نهايته تجده مسدوداً ببوابة حديدية لها حراس أقوياء . وكانت اضطرابات تلك الفترة ترغم أجانب القاهره على أن يتجمعوا فى ذلك الحى حول قنصل فرنسا بمساكنهم ومتاجرهم ليأمنوا شر الغوغاء أو الجند عند مطالبتهم بمؤخرات مرتباتهم . وكان أهم شوارع القاهرة شارع الموسكى وبالقرب منه قنطرة بذلك الإسم، شيدها عزالدين موسك أحد قواد صلاح الدين . وكان حى الافرنج موطناً لمعظم السياح الأوربيين والرحالة الذين جاءوا إلى مصر لزيارتها . وكان ذلك الحى من القاهرة فى أيام الفيضان من أجمل مناطق القاهرة تشرف منافذ بيوته على المياه من كل جهة ، وكانت حدائقه عامرة بأشجار الفاكهة وبالرياحين والزهور . فإذا أقبل فيضان النيل تحولت البساتين إلى بركة جميلة تتهادى عليها الزوارق الحسناء بخفة ورشاقة ، يزيدها ملاحة أغانى النوتى تحت ضوء القمر المنعش . حتى لكأن القاهرة فى ذلك الوقت (البندقية) عروس الادرياتى . وأشرفت على البركة من جوانبها الثلاثة قصور المماليك والأغنياء ذات البواكى والأعمدة المعقودة والمخنصرات المتقنة . وكانت تقوم على الجانب الرابع من ميدان الازبكية بعض بقايا قصر زوجة قايتباى حتى أوائل القرن الثامن عشر . واختفت خلف هذا الاطار الجميل مجموعة قبيحة من الخرائب والمدافن وطاحونة مهدمة وصهريج كبير وساقية وسبيل مياه وأنقاض . وعلى الجانب البحرى من الميدان ، قام الحى القبطى ببيوته وشوارعه الضيقة ومنعطفاته المظلمة .

وفى عام ١٧٧٤ شب حريق خرب جانباً كبيراً من الأحياء المحيطة بالأزبكية . فانتهز الأغنياء تلك الفرصة واشتروا ممتلكات الفقراء الذين لم يقدروا على إعادة البناء ، وبدأ أصحاب الأموال يشيدون البيوت

الوجيهة التى قامت على أنقاض بيوت الفقراء . ومن ذلك اليوم بدأت أناقة بركة الأزبكية وتغنى بحسنها الفاتن ومنظرها البديع الشعراء والأدباء والرحالة من الافرنج .

وإذا عبر السائح الخليج الناصرى التقى بحى اليهود . يحده شرقا، بين القصرين، وغرباً، حى الافرنج، وشمالا بقايا سور القاهرة حيث بوابتا الفتوح والنصر يتوسطهما جامع الحاكم . وعلى مقربة من الباب الأول مقبرة باب النصر . وقد هددت تلك الناحية سيول الأمطار الغزيرة التى تساقطت على تلال المقطم فتهدمت بيوت الفقراء .

وفيما وراء السور القاهرى من الشمال شيد فقراء المماليك طائفة كبيرة من البيوت التى التصقت بالسور فاختفت معالمه فى تلك الجهة . وتكون بالتدريج حى الحسينية ، وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخربوه تقريباً . ولكن بعد مضى زمن عمر الحى مرة أخرى . ومما ساعده على النهوض إشرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين التى أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجاً عن حدود المدينة ، فقد امتدت إليه العمارات وبدا على ذلك الحى طابع ارستقراطى .

هذا التوسع كان فى غربى الحسينية . أما فى شرقيها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانبها تلال القاذورات المتراكمة منذ أجيال .

لم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير ، فقد ظل على ماهو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والمماليك بين الفينة والفينة . وكان أصحاب الحوانيت والوكالات اعتادوا هذه الحال . فكانوا إذا رأوا طلائع الحركات العدائية تتقدم نحو الحى ، أغلقوا أبواب متاجرهم على أن تظل موصدة حتى تزول العاصفة وتعود الامور إلى نصابها .

وإذا تابع السائح مسيره للجنوب عابراً باب زويلة تاركاً خلفه مسجد المؤيد ، سار فى قصبة رضوان. وامتدادها إلى المغربلين فميدان الرميلة أو انحرف إلى باب سعادة قاصداً حى باب اللوق .

والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار . كانت تحيط به من شماله جملة برك ومن جنوبه مدافن ومن شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين . واشتمل هذا الحى فى وسطه على ميدان واسع يطل عليه قصر الأمير يشبك ومدرسته التى عرفت باسمه ، كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأماكن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القريبة منها وامتاز بحيوية أهله وكثرة عددهم .

أما جنوبى حى بولاق فكان المار فيه يسير بين المقابر والمزارع ، وعلى يساره امتداد المدينة محاذياً للخليج الكبير ماراً بين بركتى السقايين وأبى شممة . فإذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج قد التف نحو الغرب متخذاً مجراه إلى الحقول التى لا تبعد كثيراً عن قصر العينى . وكان هذا القصر منذ أربعمائة عام

مقراً فخماً لسيده ، ثم أضيف إلى بنائه الأصلي مسجد . ثم شيد مدفن للعيني ، واستخدمه الأتراك عند وصولهم لمصر قصراً أقام فيه من كانوا يعرون بالقاهرة . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ازدحم حي السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأتربة والأنقاض من الجنوب .

بركة الفيل :

واستجدت منطقة بين بركة الفيل والقلعة . . حي ابن طولون . مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعلو أكمانه كلما ازدادت الأنقاض والقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أكمات جبل يشكر من الناحية العسكرية فى ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكراً لاجتماعاتهم . وكان أغلب سكان تلك الجهة من الفقراء ومعظمهم من سلالة الطوائف الشركسية وقدماء الأتراك . وبالاختصار فإن هذا الحي فى مجموعه لم يتغير إلا قليلا عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى . إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن، فقد اختنق سكانها الأغنياء بعد أن أفزعتهم حركات المشاغبين المستمرة . وفى ذلك الحى بميدان الرميلة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أو جامع السلطان حسن . كما كان يقصدها التجار المتنقلون الذين يدفعون أمامهم عربات الأيدى. وبتوالى الأيام تحولت منازل الأغنياء إلى أحواش سكنها الرعاع . أما أغنياء الحي ، فقد هجروه إلى منطقة بركة الفيل ، أو الأزبكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة .

وفى ذلك الزمن كانت القلعة دائماً مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة ، لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومأوى الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت مابلغته من المجد والشرف فى أثناء حكم سلاطين المماليك، ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى ... نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لايستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية العثمانية . وفى غالب الأحايين كانوا يتسلمون أوامر العزل أو فصل الرأس ! فلم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل إلى الخراب . ولما زار « سافارى » القلعة فى أثناء القرن الثامن عشر قال عنها : أنها لا تتألف إلا من خرائب وأنقاض ، ولم يبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكن . وكانت تقام فى القلعة المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الاعياد القومية والدينية ، كغرة شهر رمضان ، والمولد النبوى ، ووفاء النيل .

كان الوالى العثمانى يحتفل بزيادة النيل جرياً على العادة التى ألفتها البلاد ، فيبدأ الموكب الرسمى من القلعة فى صبيحة يوم الاحتفال وينزل مع حاشيته إلى بولاق حيث تلتظره سفينة مزينة أعدت له ولسناجقه وأمرائه أمام دار صناعة السفن ، فينزل هناك بها ، ويقلع فى مقدمة السفن تتبعه سفائن السناجق ، وتطلق

الدافع حتى يصل إلى المقياس بالروضة .وهناك يقيم هناك يوماً أو اثنين حتى ينتهى الإحتفال وتعمل العرائس النفيسة ، ويقام من مظاهر اللهو الشيء الكثير .

وفى اليوم الذى يريد فيه الوالى فتح السد يمد سماطاً قبل شروق الشمس للسناجق وللجاويشية المتفرقة وغيرهم من الجند ويشترك فى الحفلة قاضى مصر.وبعد الانتهاء يخلع الوالى الخلع على كاشف الجيزة (مديرها) وشيخ عرب الجيزة وحاكم القاهرة وبولاق ومصرالقديمة وأمين الشون وحاجى باشا وأمين البحرين وناظر الحسبة وغيرهم .ثم ينزل مع قاضىالعسكر والسناجق فىالسفن النيلية إلى أن يصل للسد ، ثم يصعد إلى القلعة فىاحتفال شائق .

وإلى الطرف الجنوبى منقره ميدان وإلىالشرق منمجرى العيون المشهورة ، كانت تقوم إحدى بوابات القاهرة المؤدية إلى « القرافة » . وكان إلى شمال القلعة طريق مترب يؤدى إلى حى باب الوزير ومنه إلى مدينة الأموات .

* * *

آثار القاهرة العثمانية وفنونها

قلما تتجاوز بحوث أكثر المشتغلين بدراسة العمارة الإسلامية فى القاهرة العصر المملوكى ، فهم يعتبرون أن معظم الآثار التى شيدها العثمانيون فى مصر غير جديرة بالعناية ، ومن هؤلاء من يقول بأن طراز تلك المشيدات لا يخرج عن طراز أبنيتهم فى استانبول . فهى من هذه الناحية « عثمانية » بحتة ليس ثمة كبير علاقة بينها وبين الطرز الفنية التى نشأت على ضفاف النيل . وأكبر ظنى أن فى الفكرتين شيئاً من المبالغة .

ومما لا شك فيه أننا إذا نظرنا إلى بعض مبانى القاهرة التى يرجع تاريخها إلى عصر الانتقال بين حكم المماليك وفتح العثمانيين ، وجدنا أموراً جديدة طرأت علىطراز العمارة التى كانت شائعة إذ ذاك . فهى ليست بعثمانية من ناحية الشخصية، كما أنها لا تعد تافهة من الناحية الفنية . ولدينا من أمثلة المبانى التى تعتبر نماذج بارزة للعمارة فى العصر المذكور مسجد خيربك ، ومسجد أمير أخور ومسجد بيبرس الخياط .

وإذا قلنا أن سلاطين المماليك كانوا حقيقة قساة سفاكى دماء ، فنحن لانستطيع أن ننكر أنهم كانوا غزاة أقوياء ، لهم بلاط من زهرة الأمراء المقربين يقلدونهم فى شجاعتهم، ويشملون مثلهم الآداب والفنون برعاية سامية وعناية كبيرة، فلما انتهت دولتهم وضاع استقلال مصر، صارحكمها إلى ولاة كان يبعث بهم سلطان

العثمانيين لا يحملون أكثر من لقب « باشا » ليست لهم صولة ولا قوة ، يعزلون ويستبدلون بكلمة منه ، لاينظرون إلى خير البلاد بمقدار ماينظرون إلى خير أنفسهم .

ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن العثمانيين لما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور فنون العمارة القاهرية ، مع أن الحقيقة التى يدركها كل مطلع على التاريخ المصرى ، دلت على أن الأيام الأخيرة للحكم المملوكى كانت قد أصابها جراثيم التدهور والانحطاط ، والآثار التاريخية خير دليل نستشهد به على ذلك .

جاء العثمانيون وقد حملوا معهم أساليب جديدة فى فن العمارة ، وعلى الأخص عمارة المساجد وكان أهم شىء فى الوضع الجديد اتخاذ القباب والأفنية ذات الأروقة المستمدة من بناء الكنائس فى الفن البيزنطى وأول مانلاحظه فى التصميم العثمانى ذلك البهو الذى تغطيه قبة يحيط بها نصفا قبتين أو أربعة أنصاف منها . ثم تلك المئذنة المشوقة الرفيعة ذات الشكل الأسطوانى المنتهى بمخروط . وهذا الطراز الجديد المخالف لتقاليد العمارة القديمة اختص به العصر العثمانى فى مصر فأصبح من أهم مميزاته ، وأصبحت القباب تتخذ فى وسط المساجد بعد أن كانت اشارة الأضرحة والمقابر فى الزمن السابق . وقلما تجد عمارات فيها آثار دقة الصناعة المعهودة فى أيام المماليك الجراكسة . وما نجده من أبنية فيها بعض الإبداع والإتقان إنما يرجع إلى القرن الأول من حكم الأتراك فى مصر مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين ومن بعد هذا العصر أخذت الأساليب المعمارية فى الاحتضار .

* * *

شيد فى القاهرة فى أثناء الفتح العثمانى كثير من المساجد . أولها مسجد خير بك الذى دفن فيه بجهة باب الوزير . وكانت أرضية هذا المسجد مرتفعة نحو ثلاثة أمتار ومفروشة بالرخام الملون . ومسجد سارية بالقلعة ومسجد المحمودية وجامع السنانية ببولاق ، ومدرسة الملكة صفية ، ومسجد البرديني الذى يزدان بفسيفسائه البديعة ، وصدفه المنمق ، وميناءه الزرقاء والخضراء . وأسقفه المزوقة التى تعيد إلى ذاكرتنا ماكانت عليه الصناعة فى أيام قايتباى ، وزجاجه الفاخر ومشربياته الجميلة . كذلك مسجد الفكهانى الذى جدده أحمد الخربوطلى (١١٤٧ هـ) . وأخيراً جامع أبى الذهب الذى شيد على طراز جامع السنانية . وقد جدد العثمانيون أضرحة كثيرة ومساجد قديمة كجامع عمرو بمصر القديمة ، أو ضريح الشافعى ، وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وأصلحوا أيضاً عدة نواح فى القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح فى الأزهر ، فقد أصلح الوالى القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح فى الأزهر ، فقد أصلح الوالى سيد محمد (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م) أروقته ودهنها باللون الأخضر . وجاء الدفتردار حسن ، فبنى رواقاً للطلبة اليمنيين ، ومحراباً صغيراً كما جدد أرضيته . وفى عام (١١٣٦ هـ) أعيد دهان أسقفه . وبنى محمد أبو الذهب أروقة جديدة لكل من المفتى الشافعى والمالكى والحنفى . ثم أعاد الوالى إسماعيل التونسى دهان جدرانه (١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م) .

وكانت أهم أعمال التجديد بالأزهر ، تلك التي قام بها عثمان كتخدا القزدجلي ، فقد أنشأ رواق العميان . ووسع عبد الرحمن كتخدا المدرستين القديمتين الطيبرسية والأقبغاوية ، وأقام خمسين عاموداً من الرخام لحمل العقود وأقام أيضاً محراباً ومنبراً ومدرسة وصهريجاً ومسكناً ومحلا لدراسة الفقراء القادمين من الصعيد وشيد مئذنة ، كما شيد ضريحاً له أقام عليه قبة عظيمة . وكانت أعماله الخيرية تسير دائماً بجانب أعماله في البناء ، يوزع الصدقات والعدس والقمح على الفقراء ويقيم لهم المطاعم ويقدم لهم الأكل بالمجان . ولا شك أن عبد الرحمن كتخدا كان أكبر مصلح للعمائر في تلك الفترة . فقد شيد أو جدد ثمانية عشر مسجداً وأقام الزوايا والمدارس والأسبلة والصهاريج والبيوت والأسواق وأوقف على تلك المنشآت أوقافاً هامة .

على أننا لا نشاهد في ذلك العصر الآثار البديعة الخاصة بالأضرحة . تلك المشيدات التي امتاز بها العصر المملوكي السابق بقبابها الجميلة المغطاة بالنقوش المزركشة الرفيعة . وتلك الكتابات المنقوشة على أفاريزها . فإن المقابر العثمانية تتسم بالبساطة . والنوع الوحيد الذي ظل كاملا سليما في تصميمه هو السبيل الكتاب . ففي أسفل البناء وجدت حنفيات الشرب بصهريجها ، وفي أعلاه مدرسة لحفظ القرآن وتعلم مبادىء القراءة والكتابة وشيد من هذا النوع عدد كبير . ولكننا نلاحظ أن السبيل كان في العهد السابق يلحق بالمدرسة في زاوية من زوايا البناء . أما في تلك الفترة فقد أصبح قائماً بنفسه ومستديراً في تصميمه مع ما يتجلى فيها من ذوق في صناعة الرخام والنحاس ، وتحمل تلك الأسبلة أجمل معاني الإحسان والتقوى . وفي القاهرة عشرات من تلك الأسبلة ، منها سبيل خسرو باشا المواجه لجامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا الذي لا يبعد عنه كثيراً .

وكثر في العصر العثماني بناء تكايا الدراويش والأسواق والوكالات ، وشيد أغنياء القرن الثامن عشر كثيراً من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق النزهة على شاطىء النيل أو على الخليج المصري . وكانت بركة الأزبكية وبركة الفيل تحيط بها القصور الفخمة ، ولقد وصف الجبرتي في تاريخه المشهور تلك البيوت وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المماليك التي كانت لا تزال قائمة في أيام الاحتلال العثماني جذبت أنظار الرحالة الذين شاهدوها .

وإذا كان العصر العثماني قد سادته الروح الدينية ، فمن الطبيعي أن تصحب ذلك عناية بالمؤسسات الدينية . ومن الخطأ أن تتهم الباشوات الأتراك بأنهم تعمدوا إهمال آثار القاهرة من مساجد ومقابر ووكالات وغيرها . فلم يبلغ معاصروهم من الفنانين والصناع مكانة رفيعة من البراعة . تعادل ما وصل إليه أسلافهم .

وإن كانت مباني العصر العثماني ذات عمارة تترك في مجموعها أثراً جميلا في النفس يشهد بما في تلك الأبنية من تآلف وما يسودها من مسحة فنية ، فإن هناك شيئاً يقلل من جمال هذا الأثر ، ذلك هو ما في الزخارف التركية من عيوب ملموسة ، بينما لعبت الزخارف في العصر السابق دوراً كبيراً كان لها أكبر عامل في جمال الطراز وفخامة العمارة . على أن الزخارف المعمارية في عصر الأتراك كانت كثيرة ولكنها متأخرة .

فلم نعد نجد ما يشبه زخارف أيام قايتباى ولم تكن الكتابة المنقوشة مهذبة ، بل كادت أن تكون بدائية ليس لها طابع تنفرد به .

وكانت آثار القاهرة والبلاد هدفاً للمهانة وعرضة للتخريب . فانهارت قبة الإيوان الكبير لجامع الناصر محمد بن قلاوون المشيد داخل سور القلعة (١٥١٢) ووقعت مئذنة جامع السلطان حسن (١٦٥٧ م) كما تخربت قبة الجامع المذكور (١٦٦٠م) وهبت زوبعة شديدة خربت مئذنة جامع ابن طولون (١٦٩٤م) كما أتلفت المياه أساس جامع الحاكم (١٧٩١ م) . ولكن كل هذه الأضرار لم تكن شيئاً يذكر بجانب الخرائب التى أحدثتها الحروب والفتن ، وعوامل التلف التى جلبتها روح الإنتقام . وكثيراً ما اقتلع القوم قصوراً من أسسها للانتفاع بموادها فى تشييد مبان أخرى !

لقد ذكرنا أن السلطان سليم نهب كثيراً من نفائس مدينة القاهرة واستولى على كل الشمعدانات الفضية التى كانت بمسجد السيدة زينب ، ونقل كميات عظيمة من الرخام الذى احتوته قصور القلعة إلى ميناء بولاق لينقلها إلى الآستانة . وفى عام ١٠٧٦ هـ ضرب جامع المؤيد بالمدافع ثم أصلح فيما بعد .

وكان طلبة الأزهر كثيرى المشاغبات طالما ثاروا ... ففى عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) ثارت ثورتهم وكسروا أحد أبواب الأزهر احتجاجاً على تعيين أحد الأساتذة بالرغم منهم ! وفى سنة ١٧٩٦م هدم أحد المشايخ المدرسة الملاصقة لجامع سنان ببولاق واستخدم عمدها وحجارتها المنحوتة لبناء فندق خاص ! وجدد اسماعيل بك فى عام ١٧٩١ م عمارة منزله بمواد أخذها من أنقاض مسجد كان يقع على فم الخليج . وفى العام المذكور قام شيخ آخر ودمر قصراً لعبد الرحمن كتخدا وباع مواده الأولية . وفى ذلك العهد استخدمت مساجد كثيرة كمخازن للبضائع أو ورشاً للغزل أو مصانع لنسج الأقمشة . ومن تلك المساجد مسجد ابن طولون الذى استخدمه محمد بك أبو الذهب ورشة للغزل .

عمارة القاهرة العثمانية

قلنا أن طراز العمارة العثمانية تسرب إلى مصر قبل الفتح التركى بقليل بدليل أن تصميم رسم مسجد السلطان الغورى (١٥٠١ هـ/١٥١٦ م) ومسجد خير بك وطراز القباب المتعامدة التى تغطى سقف المسجد الغورى والإيوان المتوسط لمدرسة قايتباى (١٥٠٣) والعقود الرئيسية لمسجد خير بك . كل هذه المنشآت تثبت لنا أن الأساليب العثمانية لفن البناء كانت قد تسربت إلى مصر قبل الاحتلال العثمانى . وقد عرفت المئذنة الأسطوانية فى مصر قبيل الاحتلال العثمانى فإن إحدى مآذن بيت المقدس التى شيدت فى عام ١٣٦٧ م قد أقيمت على نسق المآذن المستديرة فى شمال الشام واقتبست من المآذن السلجوقية ، كما شاهد القاهريون مئذنة جامع محمود الكردى مشيدة على ذلك الطراز منذ عام ١٣٩٥م ، وهو الجامع الكائن فى آخر قصبة رضوان فى أول الخيامية .

حاول العثمانيون أن يدخلوا على القاهرة تصمياتهم وأساليبهم وبعض حلياتهم الزخرفية الجديدة ، غير أنه لم يكن من السهل أن يغير المهندسون والمعماريون تغييراً كلياً ما كان لديهم من طرز معمارية وأساليب فنية وكان من الصعب عليهم أن يروا مسحة أجنبية تسود فنونهم وصناعاتهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين عاشوا فى زمن المماليك .

وبالرغم من تصميم المدرسة الذى أدخله السلطان صلاح الدين فى مصر ، فقد كان المسجد ذو الإيوانات هو التصميم المألوف حتى القرن الخامس عشر . وقد احتفظ العصر العثمانى بجملة أمثلة باقية من هذا التصميم ولو أن ذلك الطراز أصابه الفساد فى هندسته الأصلية . وأوضح ما نلاحظه من هذا التدهور الفنى نجده فى جامع آق سنقر الفارقانى (١٦٧٠ م) فهو صورة ضئيلة إذا قابلناه بما كان عليه الفن القاهرى فى أيامه الزاهرة .

أما جامع عثمان كتخدا (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فنلاحظ فيه إنسجاماً منظماً جداً . يتألف إيوانه الرئيسى من ثلاثة صفوف فى كل منها أربعة عمد موازية لحائط القبلة أما الإيوانات الجانبية والإيوان الشمالى فتتألف من بلاطة واحدة (رواق) ولا توجد الدكة بالقرب من نهاية الإيوان الرئيسى كما هو الحال فى مساجد العصر المملوكى فإنها أصبحت توضع فى الإيوان الشمالى معادلة للمحراب . ولما كانت عمد الإيوان الشمالى والعمودان الخارجان فى الصف الأول من الإيوان الرئيسى من العمد الجرانيتية القديمة عالية جداً عن الأعمدة الأخرى . فقد أصبحت عقودها المشيدة فوقها أقل حجماً من العقود المنشأة على العمد الأخرى .

وشيدت عدة مدارس فى العصر التركى ، كان تصميمها بعيداً عن الجمال ، فقد شيدت مدرسة الدشطوطى فى السنة التالية للفتح العثمانى . وكانت صليبية الشكل بنى على طرازها الهندسى فيما بعد مسجد محب الدين أبو الطيب (١٥٢٨) وهو يقع على عتبة السالك من الخرنفش . ذو إيوانين باقيين إلى اليوم وصحنه مفروش بالرخام الملون ومنبره دقيق الصنع مرصع بالعاج والأبنوس . ولم يبق من هذا الجامع سوى إيوانه فقط .

فإذا انتقلنا إلى مساجد عبد اللطيف قرافى « وقالمطاى » والهياتم وهى من مشيدات القرن الثامن عشر شاهدنا اختلافات أخرى . ففى المسجد الأول نرى أن الإيوانين الجنوبى والشمالى يشغلان معظم البناء ويفصلهما عن بعضهما رواق علوى فى وسطه منور سماوى ، وفى المسجد الثانى نلاحظ أن الإيوان الرئيسى أقل اتساعاً من البلاطة الوسطى . بينما نرى أن الرواق العلوى المقابل يؤدى مقام الدهليز وترتكز القناطر فوق عمود متوسط ثم لا نشاهد إيوانات جانبية فإنها لا وجود لها فى هذا الطراز .

ولا يختلف كثيراً طراز مسجد الهياتم (١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م) ، عن طراز المسجدين السابقين ، إلا أننا نرى أربعة أعمدة متجمعة تقوم مقام العمود الواحد السابق وطرازه من ناحية عامة ، يشبه المصلى بمسجد برسباى فى مقابر الخلفاء . وفى جامع حسن باشا طاهر (١٨٤٣) نجد المنور أمام المحراب يشغل المكان الذى كان للقباب فى المساجد ذات الأروقة ، ويشتمل على ثلاثة أروقة كما كان الحال فى مساجد العصور السابقة .

وهناك مساجد أخرى من الصعب أن نحكم بتبعيتها لأى طراز معين ، فمسجد البرديني مثلاً يختلف كل الاختلاف عن أى مسجد آخر بنى فى عصره أو قبله .

ويمكن القول أن الطرز التى أدخلها العثمانيون فى مصر يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام هى :

(١) طراز الأناضول وأصله بيزنطى ، ومن أمثلة هذا الطراز جامع سليمان باشا وجامع الملكة صفية .

(٢) طراز القباب والإيوانات كالكنائس القديمة ، ولا سيما ماشيد منها فى ديار بكر فى القرن السابع . ومن أمثلة هذا الطراز جامع سنان الذى شيد حوالى عام ١٥٧١م) وجامع أبى الذهب (١٧٧٣ م) وهو صورة مطابقة للجامع الأول .

(٣) طراز الآستانة : وقد نقله العثمانيون من آسيا الصغرى وشيد على طرازه جامع محمد على فى القلعة .

(٤) طراز الصحن بدون القباب . ومن أمثلته جامع المحمودية أمام باب العزب بالقلعة وجامع محمود محرم والقسم الذى أعاد تشييده الخديو عباس بجامع الأزهر .

ومن المظاهر المعمارية التى تطورت على أثر دخول العثمانيين ما نشاهده فى بعض المآذن والقباب ، وإن كنا نرى بعض المآذن التى شيدت فى عصر العثمانيين قد احتفظت بطابعها المملوكى كمئذنة جامع البردينى مثلا التى إذا نظرنا إليها حسبناها لأول وهلة من عصر قايتباى ، وعلى كل حال فإن المئذنة الغالبة فى العمارة المصرية فى العصر التركى هى مئذنة رفيعة ممشوقة على نسق مآذن الآستانة التى أخذها الأتراك عن السلجوقيين ، يحيط بمستواها الأسطوانى طنفان أو ثلاثة ويعلوها مخروط كما هو الحال فى أبراج الكنائس الأرمنية .

ولا نشهد فى عصر الأتراك تلك الأضرحة الكبيرة التى كانت فى العصر المملوكى . فالضريح العثمانى يمتاز ببساطته ، ولازالت القاهرة تحتفظ ببعض أمثلة من هذه الأضرحة . كضريح مصطفى أغا جالق فى مقبرة المماليك . ويرجع عهده إلى القرن السابع عشر وضريح عثمان بك قزدغلى بشارع الإمام الليث (١٧٦٧م) .

ولا شك فى أن المآذن والقباب والعقود والعمد والطنف العثمانية قد غيرت فى مظاهر القاهرة من ناحيتها المعمارية وذهبت بشىء من شكلها المملوكى . كما أن الزخرفة العثمانية كانت أحياناً تميل إلى الوفرة والغزارة كما شوهدت فى أيام قايتباى السعيدة . ولا تقل الزخرفة بالقاشانى عما كانت عليه فى البلاد العثمانية نفسها وإن كانت القاهرة قد عرفت القاشانى من قبل .

والمحراب العثمانى بحلياته الرخامية صورة صادقة لمحراب العصر المملوكى ، ونظرة إلى محراب مساجد سليمان ومحب الدين بن الطيب وسنان باشا ومحمد أبى الذهب تؤيد صحة هذا الرأى .

السبيـــل الـكتاب

ومن المبانى التى لحقها بعض التطور على أثر دخول العثمانيين البلاد المصرية « السبيل الـكتاب » فقد كان هذا إلى أواخر القرن الرابع عشر ملحقاً بإحدى المدارس أو يشغل ركناً من أركان الجامع . ولـكنا نجـده فى العصر العثمانى قد أصبح بناء مستقلا . كان فى بادىء أيامه مربع الواجهة تزينه من ناحيته أو من نواحيه الثـلاث النوافذ النحاسية الجميـلة ، يستطيع أن يمد المـار يده منها ليشرب ماءها الصافى من حوضها الرخامى الناصع البياض . وكان الصعود إلى المدرسة بواسطة سلم يقود إلى أعلا المـكان فيجد الداخل نفسه فى غرفة الدراسة، تتصـل بشرفة واسعة متجددة الهواء أقيمت حولها الأعمدة ، تتوسطها قطع المشربيات الأنيقة وتحت الأعمدة توجد الـكوابيل الخشبية المزخرفة .

كان هذا الطراز السبيل العثمانى الذى أدخل إلى القاهرة فى أول أيام حكم الأتراك ، وعلى نسقه شيدت أسبلة عدة ، أهمها سبيل خسرو باشا (١٥٣٥م) أمام ضريح الملك الصالح أيوب وسبيل القزلار (١٦١٩م) وسبيل حسين كتخدا وشاهين أغا وعبد الباقى وحسن كتخدا ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا .

وفى أثناء القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر استدارت واجهة السبيل وأصبحت تشتمل على تقويصات تعلو شبابيك السبيل . وصارت له قاعدة تلف حوله بدرجات من المرمر النفيس ، وعلى هذا الطراز شيد سبيل أم عباس بالقرب من جامع وخانقاه شيخو وسبيل رقية دودو . أما سبيل سليمان أغا حنفى (١٩٧١) فينفرد بطابع هندسته ، وهو يختلف عن بقية الأسبلة الأخرى إذ نجده ملحقاً بالضريح كجزء من البناء نفسه .

على أننا لا نستطيع أن نستطرد فى وصف مميزات العمارة المصرية فى عهد العثمانيين ، فإن لهذا الموضوع كتبه الفياضة بالوصف والإيضاح . ولعلنا نرى فى المستقبـل القريب كتاباً بالعربية يبحث فى تطور العمارة والفنون الإسلامية المصرية فى عصورها المختلفة ، فالقاهرة كانت فى يوم من الأيام ملتقى المعماريين والأثريين ومحط رحال أهـل الفن . وقد كان لها من أيامها المجيـدة عمارة نعتز بها ، تمتعت بالعظمة والجلال فى أيام ازدهارها ثم أصابها الفتور والهزال . وأصبحت الآن وليس لها عمارة مستقلة تباهى بها العمارات الأخرى . فعمارتها خليط بين العمارات الإيطالية والألمـانية والإنجليزية . ولو سار العثمانيون على وتيرة أسلافهم المماليك فى الإنشاء والتعمير لـكانت القاهرة اليوم تباهى بطابعها الشرقى . لـكن العثمانيين لم يعبأوا بثروتنا البنائية . وبنوا لأنفسهم فقط .

الدور فى القاهرة العثمانية

دار محمد بن الحاج سالم الجزار

(المعروف بمنزل الكريدلية)

تتألف هذه الدار من بيتين ، هما بيت محمد بن الحاج سالم ، وبيت السيدة آمنة بنت سالم ، ويقعان شرقى جامع ابن طولون ، فيمر بينهما دهليز يوصل إلى الباب الشرقى لهذا الجامع . فالبيت الأول وهو الذى الآن باسم بيت الكريدلية يقع إلى يمين الداخل من هذا الدهليز إلى باب الجامع ، بينما يقع البيت الثانى إلى يساره. ولكن البيتين متصلان بممر أو «ساباط» فوق هذا الدهليز محمول على عقد ، وبيت الكريدلية يرجع إلى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣١م ، وقد أنشأه الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم الحاج جلمام الجزار ، كما ذكر فى شريط من الكتابة بسقف المقعد ، وفى ركنه الشرقى القبلى سبيل ذو سقف به زخارف جميلة متعددة الألوان ، والباب الرئيسى لهذا البيت إلى يمين الداخل فى الدهليز ، ويؤدى هذا الباب إلى « صفة » تبدأ عندها « طرقة » ذات سقف معقود تسير إلى اليسار وتنتهى إلى فناء الدار .

ويمتاز فناء بيت الكريدلية ببعض الأساليب المعمارية الطريفة ، ولا سيما بروز الطابق الأول على خرجة من ثلاث حطات من المقرنصات فضلا عن تنوع عقود الأبواب ، ثم النوافذ الجميلة المصنوعة من الخشب والجص ، ومقعد بيت الكريدلية فى الجنب القبلى تطل على الفناء بعقدين محمولين على عمود من الرخام ويتصل المقعد « التختبوش » بقاعة كبيرة تطل على الواجهة القبلية للدار كما تطل على الفناء ، وتؤدى إلى غرفة . صغيرة تطل على الواجهة الشرقية ، ثم إلى قاعة كبيرة تطل على فناء الدار وعلى الوجهتين البحرية والغربية . وفى هذه القاعة الأخيرة سقف غنى بالزخارف الجميلة ، وفيه أفريز من الكتابة قوامه ، أبيات من قصيدة البردة ، كما أن فيها مشربيات جميلة (١) .

أما بيت آمنة بنت سالم فإن بعض الأساليب والزخارف المعمارية فى بابه تدل على أنه يرجع إلى عصر السلطان قايتباى (١٤٦٨ هـ / ١٤٩٥م) ولعله آل بعد ذلك إلى صاحب بيت الكريدلية ، وأهم مشتملات هذا البيت قاعة كبيرة ذات إيوانين ، بينهما جزء أو صفة منخفضة قليلا (الدرقاعة) . وفى عام ١٩٢٨م نزعت مصلحة التنظيم ملكية هذين البيتين وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسيع حول جامع ابن طولون ، ولكن لجنة حفظ الآثار العربية اعترضت على ذلك ، واستطاعت أن تتسلمهما ثم بدأت فى تجديدهما وإصلاح ما فيهما ليصبحا من أبدع الأمثلة القائمة لطراز العمارة فى العصر العثمانى . وأتيح لهذين البيتين

---

(١) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة . ص ١٩٧ — ٢٠١ ورقم هذا الأثر ٢٢١ .

أن يعود إليهما ماكان لهمامن روعة وجمال ، حين تقـدم الميجور جاير أندرسون سنة ١٩٢٥ وكان من بين الضباط الإنجليز الذين خدموا الحكومتين المصرية والإنجليزية فى وادى النيل ، إلى اللجنة طالباً أن يسكن هذين البيتين على أن يقوم بتأثيثهما على الطراز العربى ، ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة ، وعلى أن يصبح الأثاث والتحف النفيسة ملـكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً .

وأقبل الضابط على تنظيم البيتين فى همة لا تعرف الـكلل وذوق فنى وخبرة فى الفنون ، وأنفق الأموال الطائلة فى شراء الأثاث والألطاف من البيوت الأثرية ومن أسواق العاديات فى مصر وغيرها من البلدان . وأصبح بيت الـكريدلية من معالم القاهرة الجميلة . كما أضاف إلى ذلك كله مكتبة عامرة بالـكتب النفيسة على مصر ولا سيما وصف الرحالة لها(١) .

دار جمال الدين الذهبى

بحارة خشقدم

شيد هذا البيت جمال الدين الذهبى كبير التجار بمصر فى عام ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧م كما دون على طراز سقف المقعد ، ويشرف على فناء البيت اللطيف مقعد ذو عقدين متـكئين على عمود من الرخام . ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الـكبرى ذات الإيوانين اللذين تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وأسفال جـدران القاعة مكسية بوزرة جميلة من الرخام البديع الصنع الملون ، وبها جزء على هيئة محراب ، وبالإيوان البحرى مشربيات ، وبصدر القاعة مشربية لطيفة تطل على الشارع ، تعلوها شبابيك صغيرة من الجص وقطع الزجاج الملون . وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان ومزوقين بالذهب وأرضية القاعة مغطاة بالرخام .

ويدل تخطيط هذا البيت الأنيق على براعة مهندسه . وبوسط الفناء نافورة من الرخام نقلت إليه من منزل آخر .

دار الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى(٢)

المعروف ببيت السحيمى (١٦٤٨ — ١٧٩٦)

يقع هذا البيت بشارع الدرب الأصفر بالجمالية، وقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى فى سنة ١٠٥٨ هـ

---

(١) دكتور زكى محمد حسن : بيت الـكريدلية ، مقال نشر فى مجلة الثقافة .

(٢) رقم هذا الأثر ٣٣٩٩

(١٦٤٨م) وقد دون هـذا التاريخ على طراز خشبي جميل فى أحد جدران البيت . ويتكون من قسمين أحدهما قبلى ، والآخر بحرى .

أما القبلى فقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب سنة ١٦٤٨ م وأهم ما يشتمل عليه هذا الجزء ، القاعة التى على يمين الداخل والمشتملة على إيوانين بينهما درقاعة أرضيتها مفروشة بالرخام المختلف الألوان ، وعلى يسار الداخل قاعة أرضيتها من الرخام وعلى بابها تاريخ تجديدها .

وأما القسم الآخر ، وهو البحرى فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبى عام (١٢١١هـ) ١٧٩٦ — ٩٧م وأدمجه فى القسم الأول وجعل منهما بيتاً واحداً .

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول ، فهو يشتمل على قاعة بحرية شرقية تعلوها غرفة كبيرة ، ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية بوسطها فسقية من الرخام وبها نافورة تعد من أجمل ما صنع من نوعها . وأمام القـاعة ردهة يتوسطها سقفها « شخشيخة » حديثة . ويكتنف هذه القاعة من جانبها البحرى والقبلى سلمان يؤديان إلى الطابق العلوى للبيت ، وتعتبر الغرفة البحرية الكبرى الراكبة على تختبوش محمول على عمود من الرخام أفخم حجر المنزل ، وهى مكونة من إيوانين تتوسطهما درقاعة والجزء السفلى من جدرانها مكسى بالقاشانى المتنوع . وللبيت درجات أخرى تؤدى إلى بقية الغرف ، وبالركن البحرى الشرقى للحديقة طاحونة وساقية .

دار محمود محرم

تعرف أيضاً بدار الضيافة (المسافر خانة) وتقع بين دربى المسمط والطبلاوى بحى الجمالية ، شيدها الحاج محمود بن محرم فى سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩) وأتحفها وزخرفها فأصبحت من أجمل دور القـاهرة فى القرن الثامن عشر ، وقد تعاطى التجارة واشتهر ذكره وعرف بالصدق والأمانة وأحبه الأمراء المصريون ، وتداخل معهم بعقل وذكاء وحسن سياسة .

وفى عام ١٧٨٤ زوج ولده أحمد وأقام له الأفراح التى دعا إليها الأكابر والأعيان والتجار ، وأسكنه معه فى داره . وفى سنة ١٧٩٢ عمر مسجداً بجـوار بيته على رأس درب المسمط ووقف عليه أوقافاً ورتب فيه التدريس . وفى السنة التالية حج ، وفى أثناء عودته مع الحجاج مرض بالحمى .

وللدار ثلاثة أبواب ، إثنان فى درب المسمط أحـدهما الباب العام والثالث فى درب الطبلاوى . فالباب العام يؤدى إلى دركاة (دهليز) يوصل إلى صحن كبير مكشوف ، به على اليمين قاعة تحوى إيوانين ودرقاعة بصدرها صفة كانت توضع فيها النارجيلات والطشوت والأباريق ... الخ . وبه فى الجهة الغربية باب يؤدى

إلى سلم وبجواره باب آخر يؤدى إلى فضاء ربما كان فى الأصل من الحديقة ، ويتبعه غرف ومرتفعات للدار ، وبه من الجهة القبلية « التختبوش » بعموده الرخامى البديع الحامل للعتب الخشبى المنقوش والذى كان فوقه مشربية جميلة من الخرط وقد استبدلت بشبابيك « شيشة » .

والجنب الشرقى للصحن به ثلاثة أبواب . الأيسر يؤدى إلى سلم يصعد منه إلى الغرف العليا وبخاصة إلى الجناح الشرقى حيث ولد اسماعيل خديوى مصر الأسبق ، والأوسط يؤدى إلى قاعة « الأنس » نقش تاريخها على العتب سنة ١١٩٣ هـ وهذا نصه :

ألا أن هذى روضة الحسن والمنا ... وجنة فردوس السرور المقيم
تفوق على الجوزا بحسن جمالها ... وبهجة منشيها الجواد الكريم
وأقسم داعى الخط فيها مؤرخاً ... لقاعة أنس وسط دار النعيم

والباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه ومصراعه من خشب معشق آية فى البهاء والرونق ، وقد نقش على عتبة الرخام ما يأتى :

شاد العلا قاعة من حسن رونقها ... أضحى الدير من جمله الخدم
على قواعد حفظ الله قائمة ... وقد غدت بعزيد الأمن كالحرم
فى بيت عزلك العليا تؤرخه ... بشراك فيه بطول العمر والنعم

ويؤدى هذا الباب إلى رحبة توصل إلى قاعة المجد وهى القاعة الكبرى القبلية الخاصة باستقبال التجار وغيرهم وإلى أماكن أخرى ، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

لك يا ذا العزيز قاعة حسن ... هى فى مصر جنة القاعات
صانعها الله من حسود ودامت ... بك مأوى العلياء واللذات
من يشاهد إشراقها قال أرخ ... أنها قاعة من الجنات

وتحتوى قاعة المجد على ثلاثة أواوين بينها دور قاعة ، فالإيوان القابل للداخل به شرائح خشب خرط دقيق ، والإيوان الأيسر به خزانة خشب جميلة الصنع وبأرض الدور قاعة نافورة جميلة من فسيفساء رخام ، أما السقف فمن الخشب ويوجد بدائر القاعة طراز من الخشب مكتوب عليه بالخط الثلث الجميل تاريخ الانشاء فى قصيدة مكونة من ٢٦ بيتاً أولها .

هـذه نزهة لها المجد شيد ... وعلى غيرها لها الله أيد
وبأسماء ذى الجلال تعالى ... وبآياته لها الحفظ يسند ... الخ

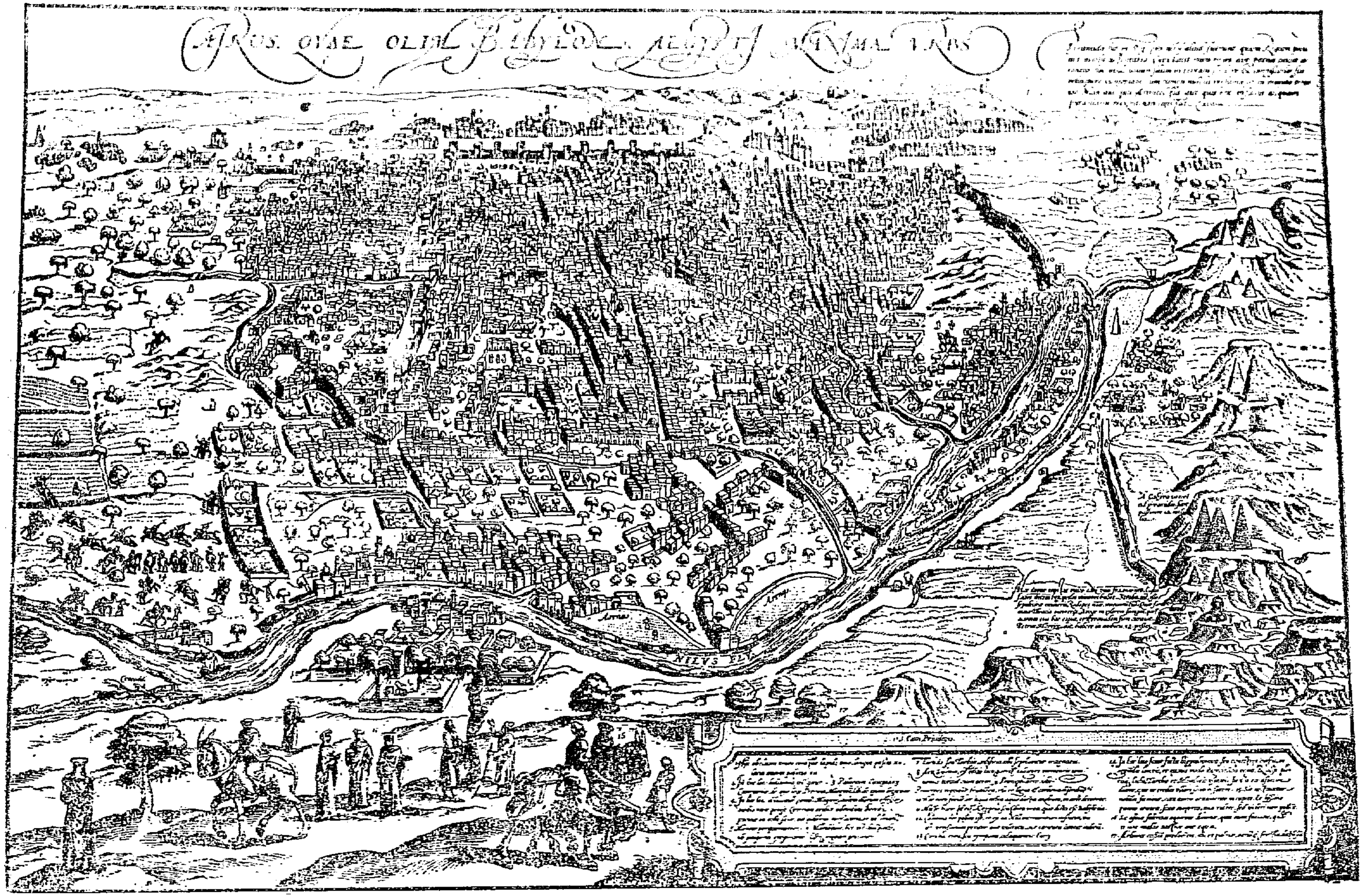
وبالدور العلوى فى هذه الدار قاعة الاسعاد وتحوى إيوانين ودور قاعة بينهما ، فالايوان الأيسر يشرف على درب المسمط من مشربية من الخشب المخروط الدقيق الصنع وبجانبيه خزانات فوقها طراز دائر حول القاعة كلها ، وبالدور قاعة باب يوصل إلى طرقة بها حمام وفريزة وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة .

والقاعة القبلية بهذا الطابق هى التى ولد بها الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب سنة ١٢٤٤هـ (٢٢ يناير ١٨٢٩) وبهذه الغرفة خزانة بمصراعين بينهما مصراع يؤدى إلى سلم على اليمين وإلى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدى إلى القاعة الشرقية الكبرى العليا وإذا صعد الزائر من السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى إيواناً واحداً ودور قاعة بها مشربية جميلة ، وهذه تؤدى إلى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى(١) .

وينسب إلى هذا العصر بعض دور أخرى ، رأينا أن نذكرها فى الفصل التالى ، وذلك لارتباطها بالأحداث المتعلقة بثورات القاهرة ضد الفرنسيين .

---

(١) أحمد يوسف : المجلة الجديدة .



خريطة للقاهرة نشرت فى مؤلف ألمانى حوالى عام ١٥٧٤ (أوائل العصر العثمانى)

آثار العصر العثمانى

(٩٢٣ / ١٢١٩ هـ — ١٥١٧ / ١٨٥٦م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٣٣٢	باب وتكية وقبة الكلشنى	٩٢٦—٣١	١٥١٩—٢٤
٢٥٨	زاوية حسن الرومى بالحجر	٩٢٩	١٥٢٣
١٤٢	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلعة	٩٣٥	١٥٢٨
٥٢	سبيل وكتاب خسرو باشا بالنحاسين	٩٤٢	١٥٣٥
٢١٢	قبة جاهين الخلوتى بسفح المقطم	٩٤٥	١٥٣٨
٥٥٩	منزل آمنة بنت سالم	٩٤٧	١٥٤٠
٥٣٩	وكالة سليمان باشا	٩٤٨	١٥٤١
٢٢٥	تكية السليمانية بالسروجية	٩٥٠	١٥٤٣
٤٧٢	مسجد داود باشا	٩٥٥	١٥٤٨
١٣٥	« المحمودية بالمنشية	٩٧٥	١٥٦٨
٥٩	قبة عبد الوهاب الشعرانى بشارع الشعرانى	حوالى ٩٧٥	١٥٦٨
٣٤٩	مسجد سنان باشا ببولاق	٩٧٥—٩٧٩	١٥٧١
١٦٠	« نور الدين (مسيح باشا) بعرب اليسار	٩٨٣	١٥٧٥
١٨١	جامع مراد باشا بالموسكى	٩٨٦	١٥٧٨
٢١٣	سبيل يوسف الكردى بدرب الجماميز	القرن العاشر	القرن السادس عشر
٣٥٥	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشي	« «	« « «
٢٠٠	مسجد الملكة صفية بالداودية	١٠١٩	١٦١٠
٢٠١	« البرديني «	١٠٢٥—٣٨	١٦١٦—٢٩
٢٦٥	سبيل وكتاب القزلار بالسيوفية	١٠٢٨	١٦١٨
١٩٦	مسجد يوسف أغا الحين بشارع درب الجماميز	١٠٣٥	١٦٢٥
٢٤٦	سبيل مصطفى سنان بسوق السلاح	١٠٤٠	١٦٣٠
١٦	« وكتاب وقف قيطاس	١٠٤٠	١٦٣٠
٥٨٧	مسجد عابدين بك (الفتح)	قبل ١٠٤١	١٦٣١
٣٢١	منزل وسبيل الكريدلية ببئر الوطاويط	١٠٤١	١٦٣١
٧١	سبيل وكتاب خليل القاطعجى بالدرب الأحمر	١٠٤٢	١٦٣٢
١٦٧	« « سليمان جاويش بباب الشعرية	١٠٤٢	١٦٣٢
٤١١	« « ووكالة جمال الدين الذهبي	١٠٤٧	١٦٣٧

آثار العصر العثماني

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ: الهجرى	التاريخ: الميلادى
٧٢	منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم	١٠٤٧	١٦٣٧
٢٣٨	سبيل ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	١٠٤٩—٥٠	١٦٣٩—٤٠
٣٣٩	منزل السحيمي بالدرب الأصفر	١٠٥٨—١٢١١	١٦٤٨—١٧٩٦
٣٦٥	زاوية رضوان بك	١٠٦٠	١٦٥٠
٢٠٨	مقعد « « بالخيامية	١٠٦٠	١٦٥٠
٥٩٥	منازل وقف ابراهيم أغا	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٩	منزل وقف « «	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٣	« « « «(مستحفظان)	١٠٦٢	١٦٥٢
٥٣٥	مسجد سيدى عقبة	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٧	سبيل اسماعيل مغاوى بالقرب من مسجد الحسين	١٠٦٨	١٦٥٧
٤٦٣	منزل وقف السادات	١٠٧٠—١١٦٨	١٦٥٩—١٧٥٤
٥٢٤	مسجد عابدى بك	١٠٧١	١٦٦٠
٣٢٠	رباط الآثار بأثر النبي	١٠٧٣—١٢٢٤	١٦٦٢—٨٠٩
٤٤٥	منزل وقف الست وسيلة	١٠٧٤	١٦٦٤
١٩٣	مسجد آق سنقر الفرقاني بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٠٨٠	١٦٦٩
١٧	سبيل وكتاب أوده باشى بحارة البيضة	١٠٨٤	١٦٧٣
٥٩١	« « وقف اوده باشى	١٠٨٤	١٦٧٣
١٩	واجهة منزل ووكالة اوده باشى بالجمالية	١٠٨٤	١٦٧٣
٢٦٨	سبيل وكتاب على أغا دار السعادة بالسيوفية	١٠٨٨	١٦٧٧
٤١٥	مسجد ذو الفقار بك	١٠٩١	١٦٨٠
٥٥٣	سبيل مصطفى جوربجى مستحفظان	١٠٩٤	١٦٨٣
٤٠٦	منازل وقف رضوان بك	القرن الحادى عشر	القرن السابع عشر
٤٠٧	« « « «	« « «	« « «
٣٩٨	وكالة بازرعة	« « «	« « «
٣٦٣	سبيل ابراهيم شوربجى	١١٠٦	١٦٩٤
٢٤٣	« وكتاب حسن أغا كوكليان بسويقة العزى	١١٠٦	١٦٩٤
٣٩٦	وكالة وسبيل عباس أغا	١١٠٦	١٦٩٤
١٤٥	مسجد أحمد كتخدا العزب بالقلعة	١١٠٩	١٦٩٧
٣٤٣	« مصطفى جوربجى ميرزا ببولاق	١١١٠	١٦٩٨
٤٦١	سبيل وكتاب أحمد سليم	١١١١	١٦٩٩

آثار العصر العثمانى

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٤٠٥	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	١١١٣	١٧٠١
٣٧٧	مسجد الحاج محمد باشا	١١١٣	١٧٠١
١٩٧	سبيل وكتاب على بكر الدمياطى بدرب سعادة	١١٢٢	١٧١٠
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادار	١١٢٥	١٧١٣
٤٧١	« وقف مصطفى جعفر السلحدار	١١٢٥	١٧١٣
٥٠٨	سبيل ابراهيم المانسترلى	١١٢٦	١٧١٤
٢٣٢	« موصلى	١١٢٧	١٧١٥
٣٢٩	« وكتاب محمد مصطفى المحاسبجى بالداودية	١١٢٩	١٧١٦
٣٠٩	« بشير أغا	١١٣١	١٧١٨
١٥٠	« محمد كتخدا بشارع التبانة	١١٣١	١٧١٨
٤٥٢	« الأمير عبد الله	١١٣٢	١٧١٩
٦٣	منزل وقف الشعرانى بالخرنفش	١١٣٨	١٧٢٥
٤٤٦	« « عبد الرحمن الهراوى	١١٤٤	١٧٣١
٦١٠	مسجد الكردى	١١٤٥	١٧٣٢
٢٦٤	« عثمان كتخدا بشارع عابدين	١١٤٧	١٧٣٤
١٠٩	جامع الفكهانى بالعقادين	١١٤٨	١٧٣٥
٣١٣	سبيل وكتاب الست صالحة بدرب الجماميز	١١٥٤	١٧٤١
٤٠	« « الشيخ مطهر (ومسجده) بالخردجية	١١٥٧	١٧٤٤
٢١	« « عبد الرحمن كتخدا فى بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
٢٢٦	« ابراهيم خلوصى بعطفة الليمون بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨٣	تربة رضوان بك	١١٦٢	١٧٤٩
٣٠٨	تكية وسبيل السلطان محمود بالحبانية	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢٨	المدرسة الكاملية	١١٦٦	١٧٥٢
٣٣١	سبيل ابراهيم بك الكبير بالداودية	١١٦٧	١٧٥٣
٥٥٥	باب العزب	١١٦٨	١٧٥٤
٣٨٧	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	١١٦٨	١٧٥٤
٤٤٨	مسجد عبد الرحمن كتخدا	١١٦٨	١٧٥٤
٣١٤	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب	١١٧٣	١٧٥٩
٤١٤	مسجد الخلوتى	١١٧٣	١٧٥٩
٣٧٦	« سبيل الأمير خليل	١١٧٤	١٧٦١

آثار العصر العثمانى

رقم الأثر	اســـــــم الأثر	التـــــــاريخ الهجرى	التـــــــاريخ الميلادى
٣٧٨	مسجد السيدة عائشة النبوية	١١٧٥	١٧٦٢
٢٥٩	« الأمير يوسف جوربجى (جامع الهياتم بالحنفى)	١١٧٧	١٧٦٣
٢٧١	تربة عثمان بك القازدوغلى بالركبية	١١٨٠	١٧٦٦
٦٠٠	مسجد أحمد العزبان ؟	١١٨٤	١٧٧٠
٢٦٢	سبيل يوسف بك بشارع السيوفية	١١٨٦	١٧٧٢
٣٨٥	تربتا على بك الكبير واسماعيل بك الكبير	١١٨٧	١٧٧٣
٩٨	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	١١٨٨	١٧٧٤
٦٢	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	١١٨٨	١٧٧٤
٥٤٠	منزل على كتخدا (الربعمائة)	١١٩٠	١٧٧٦
٢٣٥	قاعة ومقعد أحمد كتخدا الرزاز بسويقة العزى	١١٩٢	١٧٧٨
٢٠	المسافرخانة بقصر الشوق بالجمالية درب المسمط	١١٩٣—١٢٠٣	١٧٧٩—٨٨
٥٩٢	حمام الملاطيلى	١١٩٤	١٧٨٠
٦٠٨	مسجد السادات الوفائية	١١٩٩	١٧٨٤
٥٩٦	حمام السكرية	القرن الثانى عشر	القرن الثامن عشر
٥٦٤	« الطمبلى	« « «	« « «
٢٦٠	سبيل وحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة	« « «	« « «
٤٢٣	وكالة الصنادقية	« « «	« « «
٦١٥	« وكالة بدوية بنت شاهين	« « «	« « «
٤٩٧	منزل على لبيب	اخر « «	اخر « «
١٦٥	« وقف العروسى والعريان بسوق الزلط	« « «	« « «
٣٠	جامع محمود محرم برحبة باب العبد بالجمالية	١٢٠٧	١٨٩٢
٢٨٣	منزل ابراهيم كتخدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب	١٢٠٩	١٧٩٤
٥٦٨	« حسين كتخدا شنن	١٢١٧	١٨٠٢
٥٩٩	مسجد زين العابدين	١٢٢٠	١٨٠٥
٦٠٢	سراى محمد على بشبرا	١٢٢٣	١٨٠٨
٠٠٠	مجرى مياه (محمد على باشا)	١٢٢٣	١٨٠٨
٢١٠	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	١٢٢٤	١٨٠٩
٤٥٥	قلعة محمد على	١٢٢٥	١٨١٠
٦٠٦	دار الضرب	١٢٢٧	١٨١٢

آثار العصر العثمانى

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٥٠٥	قصر الجوهرة والعدل	١٢٢٩	١٨١٤
٦١١	مسجد جوهر الكعيفى	١٢٢٩	١٨١٤
٥٦٥	مدفن أحمد باشا طاهر	قبل ١٢٣٣	١٨١٧
٤٠١	سبيل محمد على بالعقادين	١٢٣٦	١٨٢٠
٦١٢	قصر الحرم	١٢٤٣	١٨٢٧
٦٠٥	دار المحفوظات	١٢٤٤	١٨٢٨
٤٠٢	سبيل محمد على بالنحاسين	١٢٤٤	١٨٢٧
٦٠٤	وكالة السلحدار	١٢٥٣	١٨٣٧
٣٨٢	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	١٢٥٥	١٨٣٩
٤٦٢	جامع الجوهرى	١٢٦١ — ٦٥	١٨٤٥ — ٤٨
٥٠٣	مسجد محمد على الكبير	١٢٦٥	١٨٤٨
٤٣٣	سبيل وكتاب وقف الحرمين	١٢٧٢	١٨٥٦
٥٦٧	حمام العدوى	القرن الثالث عشر	القرن التاسع عشر

الفصل الثامن

القاهرة فى أيام الحملة الفرنسية

من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١

نقدم الآن صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على رأس حملته . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين الحسينية وباب الحديد ، وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقا من القلعة فباب الوزير فالغريب فباب الحسينية . وغربا من باب الحديد إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب. وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطىء النيل الشرقى وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تعد من ضواحى العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت على شاطىء النيل الشرقى بعض مبان قديمة كقصر ابراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناءوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج عمران القاهرة .

لقد اتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر فى تلك الفترة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج ، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعه آلاف وستمائة وأربعة عشر متراً . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة : ميدان قره ميدان تحت القلعة، وميدان الرميلة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان ، وميدان بركة الفيل، وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية .

وقدر العلماء الفرنسيون مساحات الأحياء المسكونة فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة بثمانمائة هكتار أى أقل من ربع باريس فى القرن الثامن عشر . ولما وصلت الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة ، وتعذر النقل بين أحياء القاهرة وطغت مؤامرات الاستبداد ، فأهملت مرافق البلاد الإقتصادية وفقدت القاهرة حيويتها . وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والخنفى والموسكى والسيدة زينب تبدو فيها مظاهر البؤس البشع، مما أثر فى نفوس الرحالة «تيفنو» و«سونينى» و «فولنى» وأما من الناحية الفنية فإن عصر الازدهار الذى نعمت به فى عهد السلاطين المماليك كان قد

ولى وعفى أثره — ولم تكن ملامح الفن قد اندثرت تماماً فكانت لا تزال بقاياها موجودة فى تلك المبانى التى خلفها الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين الذهبى وبعض المساجد المملوكية .

أما قاهرة المقريزى ، وكانت عروس الشرق — تلك التى وصفها فى خططه الخالدة بما احتوت عليه من رحاب ومتنزهات وقصور للخلفاء والأمراء وغيرها من المناظر والمدارس والمساجد ودور الكتب فلم يبق منهـا إلا القليل . ومع ذلك فقد احتفظت القاهرة بصورتها الشرقية الجميلة لما احتوت عليه من الوكالات والحمامات والأسبلة والمساجد وبعض العمائر الجميلة .

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها ، أجمل الميادين الأربعة تحيط بهـا القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفى أيام الفيضان تمتلىء بمياه النيل فتصير لجة من المـاء يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والمساء والليل . وتوقد المصابيح من البيوت المطلة عليها ، فيكون منظر البركة من أبهج المناظر ولا سيما فى الليالى القمرية .

وكانت المدينة فى حالة سيئة من الاهمال وعدم العنـاية بالمرافق الصحية . وقد كتب الجنرال « ديبوى » أحد قواد نابليون ، وكان قد عين حاكماً للقاهرة إلى صديق له يقول «المدينة بغيضة جـداً ، فقذارة شوارعها لا تحتمـل ورائحتها كريهة وأهلها يبطشون . وأكاد للآن لا أعرف المدينة التى تكبر باريس حجماً إنمـا تختلف عنها من جميع الوجوه » .

ولقد دفع هذا البؤس رجال الحملة الفرنسية إلى العمل على تخليص القاهرة من طاعون يكتسحها . فأمر نابليون بإنشاء محاجر صحية بجزيرة بولاق . كما أمر باقامة مستشفى عسكرى فى قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل عنه ونقله إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة . وأنشأ لجنة لإدارة الشئون الصحية فى القـاهرة ومصر القديمة وبولاق ، فوضعت اللوائح لنظافة المدينة . وطالبت باضاءة قناديل بالطرق والأسواق بحيث يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يداوم الأهالى على الكنس والرش وتنظيف الطرق من القاذورات ونبه عليهم بمنع دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكية والرويعى ، وأن يدفنوا موتاهم بالمقابر البعيدة ، وفى حالة الدفن يجب العنـاية بالحفر ، وطالبت اللجنة أيضاً بنشر الثياب والأمتعة بالأسطح عدة أيام وتبخير المنازل بالمطهرات اجتنابا للطاعون .

نابليون فى القاهرة

بعد أن انتصر نابليون على المماليك فى معركة امبابة ، سار فى طليعة جنوده إلى الجيزة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له وقد استولى على مصنع ذخيرته الذى أنشأه بالجيزة . وفى مساء اليوم احتلت قوة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة . وفى مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديبوى » القاهرة على رأس قوة من الجند

فلم يلق بها مقاومة وعسكر ليلا فى بيت ابراهيم بك . فكانت هذه القوة طليعة الجيش المحتل . وفى ٢٣ يوليو ١٧٩٨ تبعتها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها وأصبحت العاصمة المصرية فى قبضة امبراطور فرنسا .

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فمكث فيها حتى رحل إلى سورية فى اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩ . وفى تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى فى أثناء مطاردته لابراهيم بك ، والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وقد جعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة فى قصر محمد بك الألفى بالأزبكية .

قصر محمد بك الألفي

كان هذا القصر بخط الساكت الذى لم يكد يتم تشييده وتأسيسه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون ، فكأن الألفى قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من المبانى الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدائق الغناء . وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ فى بادىء الأمر أن يعدل كثيراً فى مبنى هذا القصر لكى يصير مطابقاً لحاجته . لكنه طلب أخيراً فى فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللى » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لا يتجاوز نفقات إقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفى طرف هذا الصالون البديع كان يوجد الديوان المستطيل . وكانت جدرانه عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية . ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التى أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون ، فكنت ترى صور مشاهير الشيوخ يعمل على إخراجها « دوترتر » و « ريجو » وغيرهم من مشاهير الفنيين الذين صحبوا الحملة .

وقد تغالى الفرنسيون فى بدء الاحتلال فى الاعتداء على ممتلكات الأهالى ومن فيها من القاطنين الهادئين وذكر الجبرتى الكثير من ذلك ، فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرية[1] . ونهب الغوغاء قصرى الأميرين إبراهيم بك ومراد بك بخط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ومن ذلك أيضاً أن جماعة من الجنود الفرنسيين بصحبة مترجم ومهندس قصدوا بيت رضوان كاشف بباب الشعرية فانزعجت زوجته لمباغتتهم لها وكانت قد دفعت من قبل للخزينة العسكرية ألف وثلاثمائة ريال ولصقت الايصال على باب دارها لتبعد المطالبين عنها ولتطمئن على حياتها . فلما حضر إليها الجند لتفتيش بيتها صدتهم قائلة أن

---

(١) راجع وصف هذا القصر فى ذيل الفصل .

ليس عندها أسلحة أو ملابس للماليك . فلم يقتنعوا بقولها وصعدوا إلى الدور العلوى وفتحوا مخبأه فوجدوا فيه أنواع الأسلحة والذخيرة والملابس ، كما عثروا على دراهم كثيرة مخبأة فأخذوا كل ما وجدوه وقبضوا على السيدة وجواريها فأقمن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ما وجدوه بالدار من أثاث ورياش وقرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى دفعتها السيدة فأطلقوا سراحها ورجعت إلى دارها .

ووزع نابليون قصور أمراء المماليك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه ، فسكن الجنرال « ديبوى » قصر إبراهيم بك فى بركة الفيل . وقد كتب فى خطاب أرسله لوالديه يقول :

« أسكن فى أجمل قصور القاهرة » ...

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديترورى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان . . . له ردهات رحبة وإيونات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى « برتوليه » وكان يلى العالم « لافوازيه » فى شهرته بيت يحى كاشف الكبير بحارة عابدين (١) . أما « جور » واثنان من مترجمى الحملة فكان نصيبهم أحد قصور مراد بك الفخمة واستولت بعض فرق المشاة على بعض البيوت المطلة على الأزبكية وحولتها إلى ثكنات كما تقتضى الحاجات العسكرية . أما الخيالة فاحتلت إحدى وكالات الأرز فى بولاق .

وبعد أن انهزم الفرنسيون فى معركة أبى قير أمروا بإقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم إليها كما هدموا كثيراً من المبانى والآثار والمساجد لتحصين القاهرة كما سنوضح ذلك .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ [١٧٩٨] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة للسكن فيها ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وغيروا معالم القلعة وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار العظماء . وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط ... الخ » .

نابليون يتودد إلى القاهريين

وسارت جنباً إلى جنب مع سياسة الحزم والشدة التى اتبعها نابليون مع المصريين سياسة أخرى، هى التقرب إليهم عن طريق احترام تقاليدهم والاشتراك فى أعيادهم فأمر مثلا بالاحتفال بوفاء النيل . وقام نابليون ورؤساء

(١) راجع وصف هذا البيت فى ذيل الفصل .

الجيوش الذين معه وكيخيا القاهرة والباشا وجميع أعضاء ديوان مصر والقاضى وأغوات الانكشارية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وتوجهوا إلى المقياس وقد اجتمع هناك فوق التلال المجاورة ألوف الناس، كما وقفت جماهير غفيرة على ساحل النيل والخليج وركبوا السفن وهى مزينة بأجمل الزينات . وكانت الجنود مصطفة بنظام ، وحين وصل الموكب إلى المقياس أطلقت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية والأفرنجية والآلات العربية بالألحان اللطيفة وبدىء العمل فى قطع الجسر حتى فتح ، فاندفع ماء النيل بقوة وبشدة ونثر نابليون على الناس النقود الصغيرة وقطعاً من الذهب على أول سفينة دخلت من الخليج وأنعم بجملة إنعامات على بعض الكبراء ثم عاد إلى بيته بالأزبكية . ودام الاحتفال بوفاء النيل سنوياً أثناء الأعوام الثلاثة التى أقامها الفرنسيون فى البلاد .

وكان يوم ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨ يوم ذكرى ميلاد النبى سيدنا محمد (ﷺ) . فانتهز بونابرت هذه الفرصة لتوطيد سلطته على أساس احترام تقاليد الأمة المصرية . فأصدر أوامره بأن يحتفل بهذا العيد فى القاهرة فى مظهر أبهى وأفخم مما كان لمهرجان وفاء النيل ليكتسب ثقة زعماء الشعب ويتودد إليهم . ولكى يبلغ مراده عنى العناية كلها بأن يكون الاحتفال جامعاً بين الأبهة الأوربية والعظمة الشرقية فأمر بتوزيع الأموال والعطايا على الأسر الفقيرة وأن يسير فى الاحتفال (رجال الأشاير) وطوائف الأذكار وأرباب الطرق الصوفية وجوقات الموسيقى وكوكبات الجند، وأن تقام الزينات وتطلق الألعاب النارية والصواريخ وأن تعد الموائد الفخمة وعليها ما لذ وطاب من صنوف الأطعمة .

بعد ذلك طلع نابليون على الناس فى بذلة فخمة على الطراز الشرقى (جبة وقفطان) وعلى رأسه العمامة وتوجه على هذه الصورة مع الضباط الكبار وأركان حربه إلى الجامع الكبير وكان فيه لفيف من المشايخ فأخذ مجلسه بينهم على وسائد صغيرة طرحت فى الأرض ويداه مرسلتان إلى صدره مثلهم واستمع معهم تلاوة القصة النبوية وكان نابليون فى أثناء تلاوتها يهتز كما يهتزون ويميل برأسه كما يميلون. فدهش الحاضرون فى الجامع بما بدا عليه من الخشوع ! وانصرف نابليون مع الذين كانوا معه من الضباط على مرأى من الجماهير المحتشدة قاصدين بيت السيد خليل البكرى لتقديم مراسيم التبريك والتهانى . فذهب إليه وعلى رأسه الأعلام النبوية ومن حوله جموع الشعب ومهللين منشدين الأناشيد ، ثم جلس بجوار المنشدين وهو يشاركهم فى التلاوة والنغمات وأظهر أناة وصبراً فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها ، ثم مدت موائد الطعام وكان عددها يربو على عشرين مائدة رتبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير . وكانوا يجلسون على وسائد وحول كل مائدة خمسة أو ستة أشخاص وجلس نابليون بجوار السيد البكرى إلى إحدى هذه الموائد وتفرق كبار القواد حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم .

واشتركت الفرقة الموسيقية العسكرية الفرنسية فى الاحتفال ، وأطلق الفرنسيون الألعاب النارية في الجو فكانت حفلة شائقة بلغت منتهى العظمة والجلال .

القــــاهرة الثائرة

شبت ثورتان داميتان فى أثناء الاحتلال الفرنسى : الثورة الأولى قبل سفر نابليون إلى سوريا والثورة الثانية فى أثناء تولية كليبر . وكانت كل ثورة بدورها تقضى على عدة أحياء . فلما اشتعلت الثـورة الأولى بحى الأزهر قضى الفرنسيون على أهم أجزائه وهرب معظم ساكنيه . ولما نشبت الثانية فى بولاق تخربت عدة نواح كاملة اشتملت على عدد كبير من البيوت المطلة على ضفة النيل كما هدم الجانب الشرقى المطل على حديقة الأزبكية وبعض جهات بركة الرطلى .

قضت الضرورة العسكرية بإزالة عدد كبير من المبانى وشق الشوارع الواسعة والميادين ، كما تم فى ميدان الرميلة ومصر العتيقة والجيزة وشبرا ، وذلك لتنظيم مخازن المؤن وتوفير الثكنات للجند وتسهيل المواصلات بين أنحاء العاصمة وضواحيها . وكانت تلك الأعمال العمرانية الفجائية تشعر العـامة بأنهم يفقدون مخلفات أجدادهم العزيزة. ويظهر أن القاهرة كان قد كتب لها أن ترى المصائب تتوالى عليها ، فلم تنج من مصـائب الاحتلال العثمانى حتى وقعت تحت نيران الفرنسيين ، ولم تكد تتخلص من تلك النكبة حتى وصل إليها العثمانيون والانجليز عام (١٨٠١ م) فاختل الأمن مرة أخرى وعاد الاضطراب وعمت الاعتداءات وانتشر قطاع الطرق من اللصوص والبدو على جانبى طريق بولاق ، فلم يأمن المارة على أرواحهم وتعطلت قوافل التجارة الداخلية وهجر أهل الريف قراهم هرباً من مظالم حكامهم وفضلوا الالتجاء إلى القاهرة حتى إذا عين محمد على والياً استطاع تهدئة الحال وقضى على صلف المماليك كما تخلص من زعمائهم بقسوة .

كانت القاهرة حتى عام ١٨٠٢ مسرحاً دامياً للمعارك والفوضى والهياج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها ، وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من مماليك بعض البكوات الذين يلتقمون لأمير آخر ، وفى ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط فتلقى بضحاياها المساكين فى الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث الموتى فى كل مكان .

وشاهد رحالة تلك الآونة ومنهم « كلارك » و « هنيكر » و « ويتمان » تلك المصائب بأعينهم ودونوا مشاهداتهم فى كتب رحلاتهم. وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواماً تعيسة من الأنقاض واتخذها الفقراء ملاجىء أقاموا بين أنقاضها بعد أن كانت قصوراً للعظمة والجـاه . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة . فصدق على القاهرة ما قاله عنها الرحالة الأسبانى على العباسى :

« سادها الخراب واتخذتها اللصوص وقطاع الطرق أوكاراً للغنـائم والمنهوبات » .

ثورة القاهرة الأولى

تهيأت أسباب ثورة القاهرة الأولى باعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية والحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عليه رمياً بالرصاص في ميدان الرميلة في السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، يضاف إلى هذا تفنن الفرنسيين في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم لم يكونوا يأذنون لنساء المماليك بالبقاء في بيوتهن إلا بعد دفع ضريبة كبيرة ،وبلغ مجموع ما فرضه الفرنسيون على السيدة نفيسة زوجة مراد بك عن نفسها وعن نساء المماليك أتباع زوجها ستمائة ألف فرنك فاضطرت في سبيل دفع هذه الغرامة الفادحة أن تتنازل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان قد أهداها لها القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها . فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية الفرنسية احتجاجاً شريفاً منها . أما الضرائب التي فرضها نابليون على التجار المصريين لا سيما تجار القاهرة فكانت ثقيلة جداً إذ كان على تجار المنسوجات بالقاهرة أن يدفعوا ستين ألف ريال نقداً وأربعين ألف ريال (ملابس وأحذية) للجنود . وعلى تجار البن والبهارات مائتي ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يحصلون ضرائب الأقاليم مائة ألف ريال وهكذا مما كانت لا تحتمله الأحوال الاقتصادية في تلك الأيام .

وأحرج الفرنسيون صدور القاهريين بإخراج الكثيرين من أصحاب البيوت من مساكنهم بحجة حاجتهم إليها وهدمهم الكثير من المباني والآثار والمساجد لتحصين القاهرة .

فلم يكن عجيباً أن اختلطت الدعوة إلى الثورة بآذان المؤذنين الذين دعوا إلى الله وإلى الثورة على مآذن المساجد صباح مساء . فبلغ هياج النفوس أشده وكان الشعب في انتظار حادثة واحدة لينفجر بركان هياجه . وتألفت في الأزهر لجنة لتدبير الثورة وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها (١).

* * *

في اليوم الواحد والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت القاهرة في حالة لم يألفها شعبها من قبل الخطباء في كل مكان يشعلون الحماسة في قلوب الأهالي. والأسلحة تظهر في أيدي العامة في الطرقات والميادين والفلاحون أهل الضواحي يقبلون إلى القاهرة للاشتراك في الثورة وقد علت صيحات السخط على الفرنسيين وأقام الثائرون المتاريس والموانع على منافذ الطرقات المؤدية إليها، فأصبح من المستحيل أن تقتحمها المشاة قبل أن تقوم المدفعية بأعمالها الابتدائية المخربة .

على أن الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكري لم يقدر في بادىء الأمر خطورة الحالة حق قدرها . فاكتفى بإرسال بعض داوريات من الجند ، لكنه لم يلبث أن وقف على جلية الأمر . فعزم على مواجهة الثورة بنفسه وخرج مع ياوره ومترجمه ليتعرف أسباب الهياج . وأصدر أوامره إلى الجنود المرابطة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية .

ببركة الفيل بأن تتأهب للقتال . ومضى فى كتيبة من الفرسان من بيته ببركة الفيل قاصداً مركز الهياج . فقصد الموسكى واتجه إلى شارع الغورية وأراد الذهاب إلى بيت القاضى . لكن الشوارع ازدحمت بالجموع فكان يتنقل بصعوبة وابتدأت تتساقط الأحجار عليه من النوافذ . وبينما كان فى طريقه إلى الأزهر جاء إلى نجدته أحد الأروام المتطوعين (برطولومى الرومى) فى شرذمة من رجاله وأطلق الرصاص على الجموع فكانت تلك الرصاصة كافية لتشعل حمية الثائرين . فانهالوا على الفرنسيين ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار وطعنا بالرماح فجرح ديبوى وياوره وقتل بعض أفراد كتيبته .

أدرك القائد العام خطورة الموقف وأغضبه انتصار الثائرين على عدد كبير من الجند وهجومهم بعد ذلك على مقر فرقة المهندسين العسكريين ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر . فأمر الجنرال « دومرتان » قائد المدفعية أن يركب المدافع على أكمات المقطم إلى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق قنابلها على الجامع الأزهر . وأمر نابليون بتعيين الجنرال « بون » قائد القاهرة خلفاً للجنرال « ديبوى » كما أمر بوضع المدافع على منافذ الشوارع المهمة .

وفى اليوم الثانى والعشرين بينما كان الثائرون مجتمعين فى الأزهر ، قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم فانفجرت فى المسجد وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينه بالمدافع وأخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له وأوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب . ومات تحت أنقاضه آلاف من السكان الآمنين وكانت الجهات القريبة من الأزهر كشوارع الغورية والصنادقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة .

... وأخيراً تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة الشعب المجرد من السلاح ، واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الإنتقام . وبلغ عدد الضحايا من المصريين بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيلا منهم جماعة من العلماء العسكريين .

ووصف الجبرتى مأساة الأزهر فقال « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيل وبينهم المشاة وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل ما صادفوه به عروه (لتفتيشه) .

لم تقف مظالم الفرنسيين عند ذلك الحد فقد كانت التعليمات التى أصدرها الجنرال « برتيه » رئيس أركان الحرب تنطوى على الصرامة والقسوة، ومن أوامره إلى الجنرال « بون » بتاريخ ٢٣ أكتوبر:

« يهدم الجامع الأكبر ليلا إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » .

لقد جاوزت أعمال الفرنسيين الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب . واعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سرا فى القلعة من غير محاكمة . وأمر نابليون الجنرال « برتييه » أن يصدر تعليماته « بقطع رءوس جميع الأسرى الذين أخذوا ومعهم أسلحة وترسل جثثهم إلى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها » وكان من بين القتلى كثير من النساء ! وأعدم ستة علماء من مشايخ الأزهر ولم تنفع فيهم شفاعة أحد. جيء بهم فى صباح يوم ٤ نوفمبر إلى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود وتلى عليهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برطولومى الرومى » ثم ألقوا بجثثهم خلف سور القلعة !

وكان من نتائج الثورة أن أبطل نابليون اجتماع الديوان عقاباً لسكان القاهرة وعنى بتحصين المدينة .

القاهرة معسكر كبير

اعترف نابليون فى مذكراته التى أملاها على الجنرال « برتران » فى جزيرة سنت هيلانة ، أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها . وقد ساور سكان القاهرة قلق شديد عندما رأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم . ولما كانت شوارع القاهرة وأحياؤها منفصلة بعدد كبير من الأبواب الكبيرة، رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود فى أحوال الفتنة والثورات ، فأمر بهدمها وبدىء بهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابى الفتوح والنصر وخرب مسجد الجنبلاطية المجاور للباب المذكور ورمم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا فى تحصين أبراجه. كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعاقل فى أهم طرقات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة. وهدموا مسجد المقسى والكزرونى بالروضه وآخر بامبابة وجامعاً كان مجاوراً لقنطرة الدكة فضلا عن سلسلة القلاع التى أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التى أقيمت على رابية قرب القلعة للإشراف على حى الأزهر ، وقد عرفت باسم قلعة الغريب . وطابية « سلكوفسكى » التى أنشأوها فى جامع الظاهر ، واتخذوا مئذنته مرصداً للاستكشاف . وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابية « موريور » فى حى طولون وطابية الناصرية فوق تل العقارب قريباً من دار المجمع العلمى، وعرفت باسم طابية قاسم بك . وقد بلغ عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون فى خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة ذكرها المسيو « جومار » .

وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية فى كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . وحصن شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية ، وجعل فم الجراة طابية حصينة سميت طابية المجراة (أو السبع سواقى) وجعل قصر إبراهيم بك (قصر العينى) مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح ، وألحق به البيت الذى كان بجواره ، وقد عرف وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناءوطى وجعله مخزنا ومصنعاً لفرقة الهندسة ،

ولما بدأت الحال تهدأ ، أخذ بونابارت فى تنفيذ برنامجه بالقاهرة . فانتهز فرصة الهدوء التى خيمت على المدينة وأمر بردم بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المقابلة لسكنه ، فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وما خلفها من الحدائق ،فقطعوا أشجارها واستقرت أنقاضها فصارت طريقاً معبداً إلى قنطرة المغربى التى جددها الفرنسيون . وكانت قد آلت إلى السقوط وبنوا جسراً ممتداً من الأزبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى قسمين : قسم إلى طريق أبى العلاء وقسم إلى جهة التبانة وساحل النيل، وحفروا إلى جانبى ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجاراً وسيسباناً كما أحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ، وقطعوا جانباً كبيراً من التل المجاور لقنطرة الحاجب وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وهدموا الأبنية التى بين باب الحديد والرحبة وكانوا يدفعون للعمال أجورهم « وبنوا أماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير فى حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا مافيه من بيوت الأمراء واستخدموها لتلك الغاية ، وجعلوا ابيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها كل من يرغب فى أوقات معينة من النهار ، وكان إذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به » ومن الشوارع التى جاءها الإصلاح على أيدى الفرنسيين شارع الفجالة الذى كان يعسر السير فيه وقد ،أصبح ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى ، ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول: إلى طريق أبى العلاء والثانى إلى التبانة وساحل النيل .

وذكر الجبرتى بين حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٣ هـ أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدراً من النقود يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة ، وقد سماه الفرنسيون « كازينو تيفولى » .

وأقام الفرنسيون مسرحاً لتمثيل الروايات، تم إنشاؤه فى عهد الجنرال « مينو » وهو الذى سماه الجبرتى « كمرى » والمقصود « كوميدى » وقد وصفه بقوله . وفى شعبان سنة ١٢١٥ هـ كمل المكان الذى أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى بلغتهم بالكمرى ! وهو محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلى والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة !

وكان من أهم أعمال الفرنسيين فى القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن يصل بين قصر العينى والروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجيزة ، وقد أعجبوا بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون فى جعلها مقراً للجالية الفرنسية ، وأن ينشىء فيها مدينة فرنسية ، ولكن مشروعه لم ينفذ . وكذلك وضع الجنرال « مينو » تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن لم تنفذ فكرته أيضاً .

نابليون يودع القاهرة

انتهت حملة بونابرت إلى سوريا بالفشل أمام عكاء فعاد إلى مصر . وفى يوم الجمعة ١٤ يونيو عام ١٧٩٩ أعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيراً دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقلية وغيرهم ، وقرعت الطبول فى نواحى المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفى الحكومة والأعيان إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ثم انتقلوا جميعاً لاستقبال نابليون خارج المدينة وللاشتراك فى موكبه العظيم . فقابلهم نابليون وأهداه الشيخ خليل البكرى جواداً مطهماً يقوده المملوك رستم الذى اصطفاه نابليون واستصحبه فى رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين . وأهداه المعلم جرجس الجوهرى هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان ، ودخل نابليون القاهرة من باب النصر مخترقاً شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول . وروى « الجبرتى » أن الموكب استمر خمس ساعات متوالية فى شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى الأزبكية .

ولم تكد الجند تستريح من أهوال الحرب الشامية حتى جاءت أنباء حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر . فأمر نابليون بإعداد حملة تسير إلى الإسكندرية ، وكان الأتراك قد احتلوا قلعة أبى قير (١٧ يوليو ١٧٩٩) واستطاع الفرنسيون أن يدحروا القوات العثمانية فحاصروهم فى القلعة المذكورة حتى انتهت ذخائرهم واحتلوها فى اليوم الثانى من أغسطس ، وقد اعتبر الفرنسيون معركة أبى قير البرية فوزاً كبيراً ابتهج له فأقاموا الحفلات فى القاهرة ثلاثة أيام، ثم عاد نابليون إلى القاهرة فى يوم ١١ أغسطس ١٧٩٩ ونزل بدار الألفى بك بالأزبكية وكان فى ركابه جماعة من أسرى الجيش التركى، فأمر باستعراضهم فى ميدان الأزبكية ثم ساروا بهم فى شوارع القاهرة للتأثير فى نفسية الجماهير وإقناعهم بفوزهم فى معركة أبى قير .

ولم يلبث نابليون إلا قليلا حتى وردت له من فرنسا رسائل تلح فى عودته إليها نظراً لاضطراب الأحوال السياسية فى أوربا . فنظم الحامية الفرنسية فى البلاد المصرية ، وأسرع إلى مغادرة القاهرة نهائياً فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ بتكتم شديد بعد أن تسلم الجنرال كليبر حكم البلاد .

عودة العثمانيين إلى القاهرة

حاولت حملة عثمانية أخرى إخراج الفرنسيين من مصر فهاجمتها من شواطئها الشمالية بأسطول كبير . لكن يقظة الفرنسيين لم تتح لهم سوى الهزيمة فى معركة عزبة البرج بالقرب من دمياط . وكان ذلك فى أول نوفمبر ١٧٩٩ وبالرغم من استعداد كليبر الحربى وتفوقه على الأتراك كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبوجوب إنهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تستعد لها بإرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف

باشا ضيا . وعقدت معاهدة العريش وأهم نصوصها جلاء الفرنسيين عن مصر . ولكن نقض الإنجليز حلفاء الآتراك تلك المعاهدة بالرغم عن استعداد كليبر للجلاء النهائى ، وبعد أن وصل مندوب من الحكومة العثمانية لتولى إدارة البلاد .

رأى كليبر أن نقض الإنجليز لمعاهدة العريش بالرغم من اشتراكهم فى مفاوضتها إنذار للحرب فأخذ يستعد لقتال الجيش العثمانى . وكانت معظم قواته قد اصطفت للمعركة فى سهول القبة، فطلب إلى الصدر الأعظم الانسحاب إلى الحدود الشامية ، فلما لم يفعل ابتدأ تحركه فى صبيحة يوم ٢٠ مارس قاصداً مواقع جيش ناصيف باشا فى المطرية .

استطاعت قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته الانفصال عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا فدخلتها فى الوقت الذى كانت نيران المعركة مستمرة فى المطرية وعين شمس . ولما علم كليبر بذلك كلف أحد قواده بتتبعها خوفاً من أن تقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى .

انتصر كليبر على الأتراك بسهولة وتقهقر الجيش العثمانى شمالا دون انتظام بعد أن تكبد خسائر جسيمة وتمكن القائد العثمانى من الانسحاب من ميدان القتال مع بعض قواته بعد القوات العثمانية التى قصدت إليها بقيادة نصوح باشا بصحبة عثمان بك كتخدا الدولة وجماعة من كبار رجال المماليك .

ولا شك فى أن عودة العثمانيين إلى القاهرة فى مثل تلك الظروف شجعت روح الثورة فى نفوس الشعب . وبدأ التحريض إلى قتال الفرنسيين يتجدد فى مختلف البلاد ولا سيما القاهرة . وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة أعظم وأشد من ثورتها الأولى .

ثورة القاهرة الثانية

« ٢٠ مارس — ٢١ ابريل ١٨٠٠ »

شبت نيران الثورة فى القاهرة يوم ٢٠ مارس بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى(١) .

فلم يكد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع فى ميدان معركة عين شمس حتى بدأت الثورة فى حى بولاق فأقام أهلها حول الحى الموانع والمتاريس واقتحموا مخازن الغلال والودائع التى للفرنسيين ، وكان يتزعم

(١) رجعنا فى كتابة هذا الفصل إلى كتاب الحركة القومية للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى .

ثورة بولاق. الحاج مصطفى البشتيلى . حمل الثوار ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاقتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم ، فأرسل الجنرال « فرديه » مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا شمل الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل فى هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

ثار الأهالى فى الأحياء الأخرى للمدينة ، فاتجهوا إلى معسكر القيادة العامة بالأزبكية (بيت الألفى بك) فتلقى الثائرين الجنرال « فيراتفو » بنار شديدة فردهم على أعقابهم واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر . فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم ، ثم كرر الثوار هجومهم فثبتت لهم الجنود وكان نطاق الثورة قد اتسع وغامرت فيها طبقات الشعب فأراد الجنرال « فريان » إعادة النظام فى القاهرة لكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة متاريسها ومنازلها المحصنة . فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها كباب اللوق وناحية المدابغ والمحجر والشيخ ريحان والناصرية وقصر العينى وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب القرافة وباب البرقية والسويقة والرويعى ، وكانت المتاريس منيعة جداً بلغ علو بعضها اثنى عشر قدماً . وأنشأ الثوار فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش وأنشأوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع وآخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصناع للعمل فيه . وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع لاستعمالها قذائف جديدة . وتطوع الأهالى لإمداد الثوار بالطعام وتوزيعه وباشر السيد المحروقى وباقى التجار مايلزم لها من النفقات .

عـــــودة كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود فى الصالحية والمدن الأخرى ، فوجد نار الثورة تضطرم فى أحياء القاهرة وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصون الثوار ووجد جميع الوكالات والمخازن التى على النيـــل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . فأدرك خطر الموقف ، ورأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدى إلى إخماد الثورة لاستبسال الثوار فى المقاومة وتحصنهم وراء المتاريس المنيعة فضلا على توزيع وحدات جيشه فى أنحاء الوجه البحرى .

تبين له أن المبادرة إلى مهاجمـة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لاتؤمن عواقبها ورأى من الحـكمة أن يأخـذهم بالمماطلة ويستخدم الزمن فى بذر الشقاق بين صفوفهم . على أنه من جهـة أخرى أخذ فى فترة الانتظار يعد المعدات لقمع الثائرين ويحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ويركب المدافع ويعد المواد الملتهبة التى عزم على استخدامها لإحراق القاهرة .

أفلحت فكرة كليبر وبدأ المماليك والأتراك يلقون سلاحهم وأخذ مراد بك يفاوض الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين تمهيداً لمواجهة الثورة والتغلب عليها .

وبهذه السياسة أخضع كليبر الوجه البحرى ثم اتفق مع مراد بك بينما كانت المدافع الفرنسية تمطر سكان القاهرة وابلا من قنابلها . وقبل مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا واشترك مع أعداء البلاد فى مأساة إحراق القاهرة بما قدمه للقائد العام من الأحطاب ! !

ولما وصلت فرقة الجنرال « رينييه » من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة « كامان » إلى قلعة « سلكوفسكى » (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم فأحاطت المدينة شمالا وشرقا . وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل فاقتلعت متاريسهم واقتحمت منازلهم وأضرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجند . واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم وميمنتها إلى مواقع الفرنسيين فى ميدان الأزبكية . واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون واستردها الثوار المرة بعد المرة . ولكن تمكن الفرنسيون فى المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها وظلت المناوشات بين الفريقين إلى اليوم العاشر من ابريل .

وفى اليوم الثانى عشر أجلى الفرنسيون الثوار عن كوم أبى الريش بين جامع الظاهر والمعسكر العام بالأزبكية . وكانت نقطة ارتكاز هامة للثوار واقتحمت قوة المنازل المحيطة ببركة الرطلى وأضرمت فيها النار واستبقت بعض المنازل الصالحة للتحصين فيها . وكان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة بميدان الأزبكية فضربه الجنود بالمدافع واحتلوه بعد جلاء الثوار والعثمانيين . فامتنع الثوار فى بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة عرف ببيت أحمد أغا شويكار . وركبوا مدفعاً فى حديقة منزل السيد البكرى وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين حتى أصابوا المدفع المركب فى حديقة البكرى وأتلفوه ، فانحصر الثوار فى بيت أحمد أغا وظلوا فيه حتى اليوم الثامن عشر لما دس الفرنسيون لغماً تحت جدران البيت ونسفوه ، فاحترق كل من فيه . ثم استأنفت القوات الهجوم على أحياء المدينة هجوماً عاماً من الناصرية . وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبى الريش وباب الشعرية ، فوطد الفرنسيون مراكزهم وضيقوا على الثوار ، فاشتد الضيق بالأهالى وبدأت فكرة الصلح لوضع حد لمأساة القتل .

ولكن كانت هناك مأساة أخرى . ففى اليوم الرابع عشر أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولما لم يعبأ الثوار بالإنذار هجمت الجنود الفرنسية صبيحة اليوم الخامس عشر على حى بولاق وأمطروا وابلا من القنابل على حصون الثائرين ففتحت فيها ثغرات كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع الحى ، وأضرموا النار فى كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت إلى مبانى الحى من مخازن ووكالات فالتهمتها . ودمرت ذلك الحى الكبير الذى كان ميناء القاهرة وهدمت الدور على سكانها فبادت أسرات كاملة تحت الأنقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالى بولاق انتقاماً مروعاً بعد ما استبسلوا فى الدفاع عن منطقتهم

بشجاعة نادرة ، وكانت الدماء تسيل أنهاراً فى الشوارع وتحولت تلك المدينة الباسلة إلى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام .

طلب الأهالى التسليم فى نهاية الأمر ، لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حل ببولاق ففرضوا على أهاليها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضاً تسليم المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما فى المخازن من أخشاب وغلال وشعير وأرز وعدس ،وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجة وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب فى حل بهم فضرب بالعصى حتى مات .

واستمر الفرنسيون يسرفون فى ارتكاب الفظائع لإخماد بقايا الثورة ، واتبعوا وسيلة إضرام النار فى الأحياء الآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعاً فى القاهرة واحترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها وباب ، البحر والخروبى والعدوى إلى باب الشعرية ،فأصبح منظر القاهرة بعد ما حل بها مفزعاً يملأ القلوب حزناً وأسى .

وأخيراً أبرمت معاهدة التسليم بعد ثورة دامت ثلاثة وثلاثين يوماً . وأخذ الأتراك والمماليك يعدون معدات الرحيل وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار . وعادت السلطة إلى الفرنسيين واحتفل كليبر بانتصاره فى مهرجان عظيم .

الجنرال كليبر والحلبى

فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ دعى كليبر إلى غذاء عند أركان حربه الجنرال « داماس » فى منزله بالقرب من ديوان الجيش بالأزبكية ، وخرج بعدتناول الطعام هو والمسيو « بروتين » مهندس الحملة يتمشيان فى رواق موصل بين بيت الجنرال « داماس » والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفى أثناء حديثهما وثب رجل من نهاية الرواق وفى يده خنجر طعن به صدر الجنرال كليبر فنادى الحرس وهجم « بروتين » على الرجل فنال منه مثل ما نال كليبر فسقط « بروتين » على الأرض ثم تركه الرجل وعاد إلى كليبر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهزعليه ، ولما سمع ضجة فر إلى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط ، فلما أتى الخفر لم يروا إلا رجلين يتخبطان فى دمائهما فحملاهما إلى البيت وأتوا لهما بالطبيب . فمات كليبر بعد قليل وظل « بروتين » تحت المعالجة .

قبض على الجانى وكان اسمه سليمان الحلبى وحكم عليه بالموت على الخازوق ، وكذلك أعدم شركاؤه الأربعة الذين اتضح لهم أنهم حرضوه .

تولى القيادة العامة بعد كليبر « الجنرال مينو » الذى تظاهر بالإسلام ودعا نفسه عبد الله . وفى أيامه

زاد ارتياب الفرنسيين فى الأزهر، فلمارأى علماؤه ذلك عرضواعلى « مينو » إقفاله مؤقتاً ، فأقفلت أبوابه (محرم ١٢١٥ هـ / ٢١ يونيو ١٨٠٠ م)وظل مقفلافترة طويلة .

الانتقام من عروس الشرق

استمر الفرنسيون فى سياسة الهدم والتخريب من أجل أغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التى كان الجنرال كليبر قد شرع فى إنشائها . وهدموا كثيراً من البيوت والعمارات، إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون ، وإما لكشف الجهات التى شرعوا فى إقامة الحصون فيها، كما هدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها واتخاذها وقوداً . فدمرت خطط بأكملها كالحسينية والحروبى (بمصر القديمة) وبركة جناق (بباب الشعرية) وبركة الفيل وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالحطابة وباب الوزير وهدموا أعالى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة وجعلوا من جامع الرويعى حانة يحتسون فيها الخمر ، كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتخدا القزدغلى وجامع خيربك بالقرب من بركة الفيل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ، ولم يبق منه فى أيامهم إلا بعض الجدران .

وهدموا مصاطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم فى توسيع الطرقات والأزقة لمرور العربات وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة ، وهدموا كذلك المصاطب فى أحياء كاملة ، كالصليبة وقناطر السباع ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشعرية. فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن ينزلوا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون، ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح .

وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين المقاتلين بها، وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من تمكن الأهالى منها والرمى على القلعة .

وصادروا الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع حدائق بساتين القاهرة وبولاق وقصر العينى والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك عملوا فى

الأقاليم،وأخذوا أيضاً أخشاب السفن مع شدة الحاجة إليها للنقل، فتعذر إنشاء سفن جديدة وتعطلت المواصلات وصعب النقل وارتفعت أجور الشحن .

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل فغرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق ، فصارت الأرض كلها لجة ماء وتهدمت الدور المقامة على الشواطىء . وجرى الماء في المدينة من جهة الناصرية ، وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسي وطريق قنطرة عمرشاه .

رحيل الفرنسيين ووصول الانجليز

انتهت أيام الفرنسيين في مصر على يد « مينو » فقد هزمه الإنجليز في معركة « كانوب » (٢١ مارس ١٨٠١) بعد أن خسروا نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى وفقد الإنجليز نحو ألف وخمسمائة قتيل منهم قائد الحملة « الجنرال ابروكرومبي» وجرح بعض قوادهم ومنهم السير «سيدني سميث » الذي اشترك في القتال ،ولهذه المعركة (ويسميها الإنجليز معركة الاسكندرية)في تاريخهم الحربي منزلة ممتازة . وقد مهد هذا النصر للانجليز الاستيلاء على رشيد مع الجيش التركي (ذى الحجة ١٢١٥ هـ/ ابريل سنة ١٨٠١) .

بدأ الجيش الانجليزي التركي يزحف على القاهرة وحدثت عدة معارك في الطريق من أهمها معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) . وقد ذكر الجبرتي نبأ احتلالها في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ وفي خلال تلك المدة استولى الأتراك على دمياط بعد انسحاب الفرنسيين منها ، كما أخلوا قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس . وبدأ الفرنسيون ينفذون خطة الدفاع عن القاهرة ، ففكر الجنرال بليار في الاستنجاد بحليف فرنسا مراد بك . ولم يكد هذا يرسل له الامداد من رجاله حتى أدركته المنية وتوفي وهو في طريقه إلى مصر فدفن بسوهاج (١٢١٥ هـ/ ١٨٠١ م) .

وصل الإنجليز إلى امبابة بعد أربعين يوماً من وصولهم إلى الرحمانية ، واحتشدت القوات الإنجليزية على الشاطىء الأيسر للنيل، وقوات يوسف باشا على الشاطىء الأيمن، وأقام الإنجليز جسراً من القوارب شيد لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو ٤٠٫٠٠٠ من المقاتلين بينما كان الجيش الفرنسي بالقاهرة لايزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الأكثر موزعين على خط طويل يمتد من الجيزة إلى حدود القاهرة شرقاً وشمالا ومن مصر القديمة إلى بولاق .

وأخيراً اجتمع مجلس حربي بقيادة الجنرال « بليار » في القلعة فشرح موقف الجيش الفرنسي وكان ميالا إلى التسليم وعارضه بعض أعضاء المجلس . لكن المفاوضات انتهت بين الفريقين على جلاء الجيش الفرنسي عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن جميع الجهات التي تحتلها الجيوش الفرنسية في الأراضي المصرية ،وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق إثنا عشر يوماً ، وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق .

أخلى الفرنسيون قلعة القطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس، وانتقلوا إلى الروضة وقصر العينى والجيزة استعداداً لنزولهم فى السفن التى أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد ودخلت الجنود العثمانية المدينة . وفى (٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ / ١٤ يوليو ١٨٠١م) أخلى الفرنسيون قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت سفنهم وعددها ثلثمائة إلى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر وساروا من رشيد إلى أبى قير، وأبحرت بهم السفن فى أوائل أغسطس سنة ١٨٠١ إلى فرنسا.

ولما جلا الفرنسيون آلت السلطة الفعلية فى القاهرة إلى قواد الجيش التركى والإنجليزى ، أما فى الاسكندرية فكان الجنرال « مينو » لايزال قابضاً على ناصية الحال، فاضطر إلى الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ، وبدأ فى تسليم قلاع الاسكندرية وحصونها ثم رحل عنها يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ .

وهكذا بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى . وبدأت تتنازع السلطة فى مصر ثلاثة قوات : الأتراك والانجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى .

* * *

تقلد خسرو باشا ولاية مصر فكان أول عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين . وبدأ الجيش الإنجليزى ينسحب من معسكراته ، فسلم الجيزة إلى خسرو باشا فى مايو ١٨٠٢ ولم يبق من الجيش الإنجليزى فى مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية فظلت بها حتى أبرم صلح اميان (١٨٠٢) فتم جلاء الإنجليز .

قاهرة المجمـــــع المصرى

أقام الجيش الفرنسى فى مصر نحو ثلاث سنوات ، كان فى أثنائها ضيفاً ثقيلا على البلاد ، وقد يقال أنه دفع ثمناً باهظاً فى سبيل حملته . وإذا كنا لانذكر الحملة الفرنسية واحتلالها لبلادنا الجميلة إلا بالكراهية ، إلا إننا نذكر شيئاً واحداً أفادت منه البلاد . هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضواً فيه ومعه أولئك العلماء الأدباء وكبار القواد والضباط ممن لهم باع فى العلوم والآداب . أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الأسطول الفرنسى فى أبى قير وعهد إلى سبعة من العلماء من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء : مونج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجينت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى .

أصدر نابليون أمره بإنشاء هذا المجمع فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧ . وقد تألف من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعيات والاقتصـاد السياسى والآداب والفنون . واختار

العالمان مونج وبرتوليه والجنرال كافاريللى قصر حسن كاشف شركس بالناصرية ليكون مقر الهيئة المجمع، وألحقوا به القصور المجاورة له التى شيدها المماليك ، وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون ، كقصر قاسم بك وبيت إبراهيم كتخدا السنارى، وبيت أمير الحج . وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك فى القاهرة (ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية) وصفها الجبرتى خلال كلامه عن حسن كاشف فقال : « انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب ، كما وقع لغيرها من الدور » . وذكرها المسيو « جوفرواسان هيلير » أحد الأعضاء فى رسائله المنشورة بكتابه رسائل من مصر وظاهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية فى الفخامة ، فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، رسالة إلى العلامة « كوفييه » قال : عدت من المجمع العلمى بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (حسن كاشف وقاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء . وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون وفيها من وسائل الفخامة مالا يقل عن اللوفر . وانا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما فى اللوفر وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فداناً جيدة الغراس خصصاها للزراعة . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل مافى قصور المماليك من الأثاث،وكان هذا القصر الجميل أول مقر لنواة التحف المصرى إذ أودعت فيه بعض الموميات وحجر رشيد الذى اكتشفه الكابتن بوشار .

وقد بذل أعضاء المجمع المصرى جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين. فقد أخرجوا الكتاب النفيس الذى يعتبر إلى اليوم فى مقدمة المراجع الثمينة فى الشئون المصرية . . وهو كتاب وصف مصر . (Dsrciption de L'Egypte) ذلك المؤلف الفخم الذى يعد بحق عنواناً صريحاً يشهد بكفاءة علماء الحملة الفرنسية .

صورة عامة للقاهرة

تلك كانت صورة القاهرة حينما غادرها الفرنسيون . . ونحن نستدل من خريطة القاهرة التى قام برسمها علماء الحملة الفرنسية فيما بين ١٧٩٩ — ١٨٠١ أن القاهرة كانت حينذاك مكونة من ثلاث مدن تكاد أن تكون منفصلة عن بعضها بالمزارع والتلال وهى : بولاق ، والقاهرة ، ومصر القديمة .

كانت بولاق ثغر القاهرة على النيل وتبعد عنها حوالى كيلو متر ، وقد نهض المسيو لوبير كبير مهندسى الطرق والكبارى فى عهد الحملة بتمهيد طريق أبى العلاء (شارع ٢٦ يوليو الآن) وغرس الأشجار على جانبيه ، وكان هذا الطريق يصل بين بولاق والأزبكية بعد مروره فوق قنطرة المغربى التى كانت تقوم فوق خليج الطوابة (الخليج الناصرى القديم) وكان هذا الخليج يخرج من النيل بالقرب من موردة البلاط عند كوبرى محمد على (المنيل) شمالى قصر العينى ، ويصب فى الخليج الكبير فى نهاية أرض الطبالة ، على المنطقه المعروفة اليوم بمنطقة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى . وكان على هذا الخليج قناطر أخرى منها قنطرة البكرية ، وقنطرة الليمون (حيث محطة كوبرى الليمون) وقنطرة الدكة (حيث ميدان قنطرة الدكة) ، وقنطرة المدابغ (بشارع جامع جركس) وغيرها من القناطر .

وكان هذا الخليج فى زمن الفيضان يتصل ببركة الأزبكية وببركة الشيخ قمر وببركة الفراعين (ميدان عابدين) وببركة السقايين .

أما القاهرة الوسطى فكانت عامرة بمئات المساجد والمدارس ، وأهم عمائرها قلعة الجبل حيث كانت قصور الباشوات والولاة فى العصر العثمانى ،وأهمها الديوان وكان عدد سكان القلعة لا يقل عن ثلاثين ألفاً .

ويتضح من تلك الخريطة التى رسمت حوالى عام ١٨٠٠ أن عرض مجرى النيل فى منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالى تقريباً ، وكان الشاطىء الغربى للنيل واقعاً تحت الأماكن التالية :

بعد مروره على الجيزة كان يسير شمالا مائلا إلى الغرب قليلا ، ثم يمر تحت بولاق الدكرور فالدقى فامبابه .

أما المدينة الثالثة وهى مصر القديمة فكانت عامرة بكنائس القبط وجامع عمرو .

بعض دور القاهرة

وننتقل الآن إلى بعض ما عرف عن دور القاهرة التى اتصلت بأهم الأحداث المعاصرة أو التى كانت ذات مكانة فنية مرموقة ...

دار الملطيلى

تعرف هذه الدار باسم ناظرها على لبيب وبدار الفنانين ، وتقع خلف مسجد قانىباى أمير أخور فى حارة درب اللبان بالمنشية . أنشأها السيد الشريف عمر الملطيلى وشقيقه ابراهيم فى أواخر القرن الثامن عشر . لها واجهة تشرف على درب اللبان ، حليت ببارزات محمولة على كوابيل وبها المشربيات الجميلة . ويشرف على الحوش الأول مقعد صغير يشتمل على بارزة ذات ثلاث قناطر ودرابزين ورفرف من خشب الخرط . ويعلو باب المقعد شباك من خشب الخرط الدقيق به شكل قنديل .

ونشاهد على جدران حجرات الدار العليا رسوماً شعبية تمثل مبانى وبساتين يلاحظ أمثالها فى الدور القاهرية التى بنيت فى القرن الثامن عشر . وقد وقع اختيار بعض رجال الفن الأجانب والمصريين على هذه الدار فاستأجروا غرفها وجعلوها مراسم ، وفيها تدرب وتخرج عدد كبير من كبار الرسامين المصريين وما زالت الدار تزخر بصفوة منهم .

ولدرب اللبان باب يلاصق باب تكية تقى الدين البسطامى التى تقع فى صدر الحارة وقد خصصت منذ

القرن الثالث عشر لفقراء الأعجام ونالت رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم الملك الظاهر أبو سعيد جقمق . ويرجع باب التكية الحالى إلى سنه ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م . أما باب درب اللبان فيرجع إلى منشآت القرن الرابع عشر وهو باب جميل به تطعيم بالرخام وعقوده متنوعة[١] .

دار إبراهيم كتخدا السنارى بالسيدة زينب

(حوالى ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٤ م)

كان إبراهيم السنارى من أهالى دنقلة وكان بواباً بالمنصورة ثم أقام بالصعيد ، ولنباهته اتصل بالأمير مصطفى بك الكبير وتعلم اللغة التركية ثم اتصل بالأمير مراد بك وتقرب منه وأثرى وأصبح من أعيان القاهرة ، وقد انتهى من تشييد هذه الدار قبيل وصول الفرنسيين إلى القاهرة. وقد توفى سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١ ودفن بالاسكندرية .

ولهذه الدار وجهة ساذجة لا يوجد بها ما يسترعى النظر سوى بابها والمشربية الكبيرة التى تعلوه . وتدخل إلى فناء الدار ماراً بمجاز سقفه مقبى . وبالجنب القبلى للفناء تختبوش ومقعد بابه مشحون بالزخارف وسلمه يؤدى إلى بابين : الأيمن يوصل إلى غرف الدار ثم القاعة الكبيرة والحمام . والباب الأيسر يؤدى إلى المقعد والجناح الشرقى للدار . ويوجد فى هذا الجناح در قاعة تتوسطها نافورة .

وقد هدم جزء من الدار وتشغل هذا الجزء اليوم حديقه صغيرة . وقد أقام فى الدار أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) بعض مصورى الحملة وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومااللوس ولانكريه وتيراج وجولو ، وبها عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب « وصف مصر » .

وشغل الدار المؤرخ جليار دوبك فيما بين ١٩١٧ و ١٩٢٦م ، وأقام بها متحفا باسم بونابرت ثم أغلق بعد وفاته[٢] .

وكان بالقاهرة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدة قصور ودور خربت وزال أثرها ، ومن هذه الدور :

---

(١) حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، رقم ٥٦ فى المكتبة الثقافية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) فى المجلد الأول الخاص بالصور من كتاب « وصف مصر » ، توجد اللوحات الخاصة بدار السنارى أرقامها ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

دار حسن كاشف جركس بالناصرية

كان هذا القصر من أجمل قصور المماليك فى القاهرة ومكانه اليوم المدرسة السنية بالناصرية[١] وصفها الشيخ المؤرخ الجبرتى خلال حديثه عن حسن كاشف فقال : « إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية ، وصرف عليها أموالا عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور » ومما يذكر أن المجمع العلمى عقد أولى جلساته فى هذه الدار .

وقد زار عبد الرحمن الجبرتى الدور التى عمل فيها المجمع العلمى ووصفها وصفاً دقيقاً . وقال عن مكتبة المجمع التى كانت فى هذه الدار « بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك[٢] فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى ﷺ ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . . . ولديهم كثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض والبردة للبوصيرى . . الخ وقد تكلم أيضاً عن قسم الفلك وقسم الرسم والتصوير وقسم الهندسة والطب والكيمياء وغيره .

ومما قيل عن هذه الدار أنها كانت تشغل مساحة كبيرة فى جنوب غربى القاهرة يحف بها الخليج من كل الجهات — ولم يبق من هذا القصر أى أثر . ومن الوصف الملخص فى كتاب وصف مصر عرفنا أنه كان يفصله عن الحديقه ممر مصنوعة جوانبه من النباتات الخفيفة. وقد مثلت فى القصر جميع عناصر الدور المصرية — دهليز مقبى ، تختبوش تعلوه ميدة تقوم على عامود من الرخام . وكان لمقعد القصر ثلاث حنيات (أقواس) ويصل إليه المرء بدرج مستقيم له باب أنيق البناء .

وللقصر منظرة كبيرة لها ثلاثة إيوانات — يطل إيوانها الأوسط على الحديقة الكبرى . وتتوسط الدرقاعة نافورة . وتعلو الإيوانات الثلاثة التى تحيط الدرقاعة قبة صغيرة ذات نوافذ تزيد المكان بهاء وروعة . وتغطى الجدران والرفوف والدواليب المصنوعة من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين .

---

(١) كتاب « وصف مصر — » E M — المجلد الأول — من اللوحة ٥٤ — ٦٠ .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ص ٣٤ — ٣٥ . طبعة بولاق .

قصر قاسم كاشف (أبو سيف)

وها هو ذا قصر آخر ، قد زال من القاهرة ، ومن حسن الحظ أن كتاب «وصف مصر» احتوى على لوحة تبين التختبوش والفناء ويرى فيها المقعد وبابه والشرفة (Loggia) ، وكان هذا القصر على مقربة من قصر حسن كاشف ، وتفصلهما عن بعض حارة صغيرة . وكان المجمع المصرى يضم هذا القصر وقصرى حسن كاشف وابراهيم السنارى .

وقد أنشأ هذا الأمير بقصره حديقة أجرى فيها مياه النيل بطريقة مبتكرة وشق فيها طرقاً ممهدة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وجعل هذه الحديقة طبقات يعلو بعضها بعضاً والمياه تصعد إلى أعلاها من طريق أنابيب خاصة وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكاناً للجلوس . وقد أباح قاسم بك دخول هذه الحديقة لمن يشاء ، وسماها « حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والائتناس » . . ونقش ذلك على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة على مدخل الحديقة .

قصر إبراهيم بك

وكان لهذا الأمير قصران أحدهما فى بركة الفيل وقد سكنه الجنرال ديبوى ، أما قصره الآخر فهو قصر العينى .

قصر مراد بك بالجيزة

وكان لهذا الأمير قصر كبير فى الجيزة ، رأى نابليون فى بادىء الأمر أن يجعل منه مستشفى عسكريا ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة ثم اتخذ القائد قصر مراد بك معسكراً له . وقد وصف « فيفان دينون » الذى قدم إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، فى كتابه ما احتواه قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً ، من طرقات وبساتين ومفروشات .

بيت الشيخ الأمير

وبيت الشيخ الأمير ، من هيئة كبار العلماء المصريين ، لم يبق منه أثر اليوم وهو من مبانى القرن السابع عشر . رسمه المصور بريز دافن فى كتابه « الفن العربى من آثار القاهرة » ، وقد ظهر عام ١٨٧٨ . وقد احتوى على ثلاث لوح لبيت الشيخ الأمير إحداها للفناء الداخلي ، وثانيتها للمقعد والأبواب المحيطة به

والأشغال الخشبية واللوحة الأخيرة لتكسيات . وقد ورد فى هذا الكتاب ذكر لدارى رضوان بك واسماعيل بك .

دار يحيي الكاشف

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديترونى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان ... له ردهات رحبة وإيوانات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من الرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى برتوليه — وكان يلى العالم لافوازيه فى شهرته — بيت يحيى كاشف الكبير بحى عابدين .

دار عثمان بك الأشقر

أنشئت أول مطبعة عربية فرنسية بالقاهرة فى أيام بونابرت ، خلال الحملة الفرنسية . وقد عهد بإدارتها إلى المسيو مارسل المستشرق ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون . وكانت تسمى مطبعة جيش الشرق فى مستهل الأمر . ولما نقلت من الاسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها المطبعة الأهلية . واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفى بك الذى سكنه نابليون . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ثم إلى القلعة حتى جلا الفرنسيون عن مصر (١٨٠١) — فاستصحبوها معهم ، ولم تعد الطباعة إلى مصر إلا فى عهد محمد على .

ومما يؤسف له غاية الأسف أن فقدت معالم معظم القصور والدور التى كانت تزين القاهرة أثناء إقامة الحملة الفرنسية فى مصر . ولولا ماسجله الرسامون ورجال الآثار فى لوحات مؤلف « وصف مصر » الذى نشر فيما بين عامى ١٨٠٩ و ١٨٢٨ ، وكتاب « دى كوست » — الذى ظهر فيما بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ، وكتاب « بريز دافن » (١٨٧٨) لما كنا قد عرفنا تلك العمائر الجميلة .

دار السيد سعودى

وكان لهذا الفقيه بيت كبير على بركة الأزبكية ، غرس فيه حديقة اشتملت على القناطر والبوائك ، وأباح دخولها للناس ، فكان يجتمع فيها الناس من جميع الطبقات . وفيها مقاهى وبياعون وفكهانية ومغانى وغير ذلك . وتقف عندها المراكب والقوارب ، وقد اشترى الأمير محمد الألفي هذا القصر وأضاف إليه غيره .

دار الشيخ عبد الله الشرقاوى

كان الشيخ عبـدالله الشرقاوى من أعظم علماء عصره ، تولى مشيخة الأزهر ، واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . وكانت له دار عظيمة بناها على بركة الأزبكية وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وقد جمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عنى بتجليدها .

دار الشيخ محمد المهدى

وكان لهذا العالم الجليل دار كبيرة اشتراها بناحية الموسكى وتطل على الخليج ، وكانت بها قاعات فسيحة ، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملون والقيشانى وتطل على بستان عظيم . واشترى الشيخ المهدى فى آخر عمره داراً فى الكعكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلوها إلى قرافة المجاورين . وبقى فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدى مشيخة الأزهر، ثم مات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة ، على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . فقد انشغل بجمع المال وحبه للدنيا[1] .

دار السادات

استطاع بوساطة الوالى محمد باشا العزتى أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من الخزينة ، لينفقه فى إصلاح بعض زوايا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها ، أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تكن فيها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب وأنواع الرخام الملون والعمد الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع لإقامة حريمه .

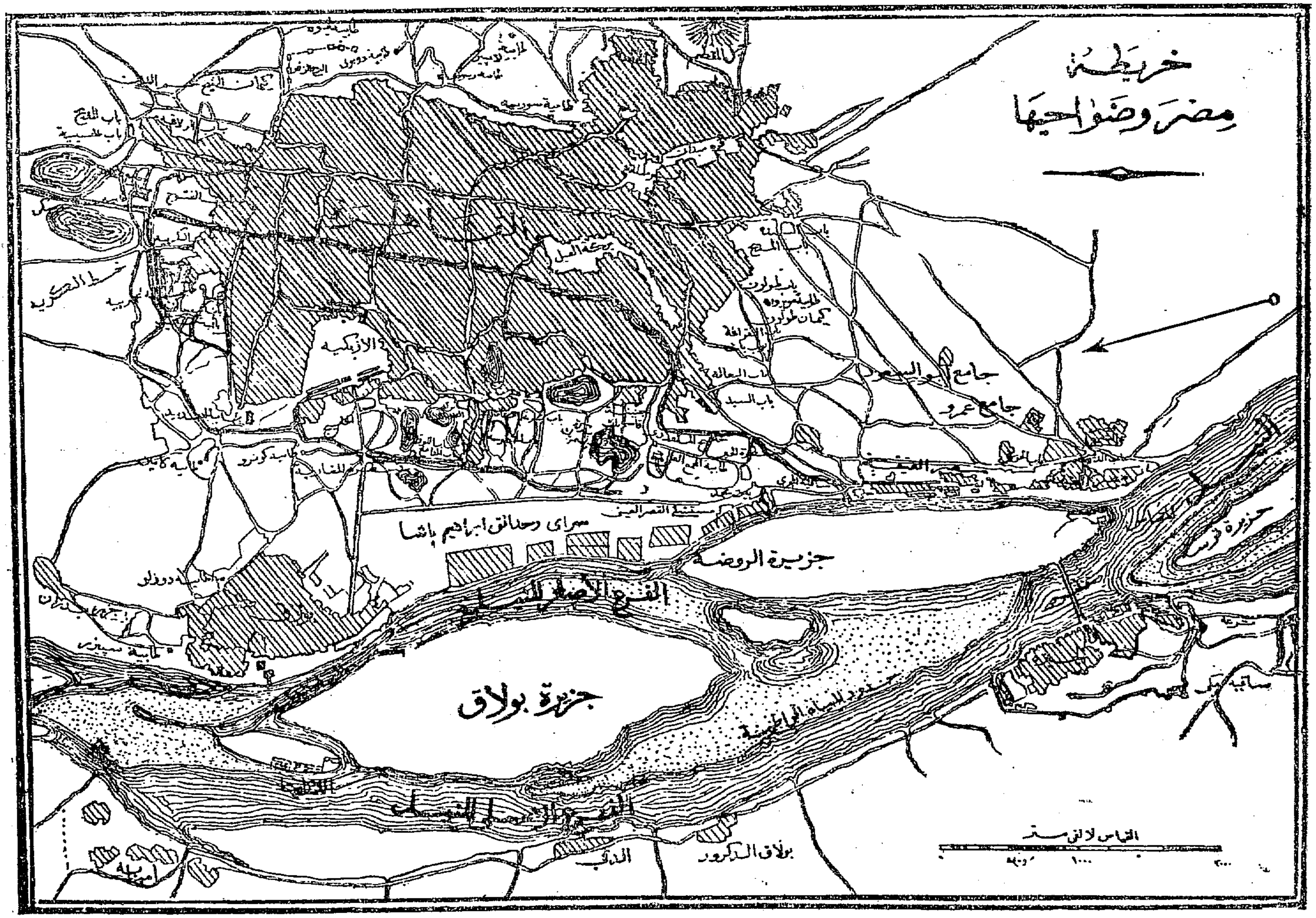
ثم أنشأ داراً أخرى ، جعل فيها رواشن وسواقى وبستاناً عامراً بأنواع الشجر، وأدخل فيه بيوتاً لبعض الأمراء كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة وبستان فسيح ، فقهرهم على بيع البستان له بثمن بخس وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطاً كبيراً حجب النور والهواء عن بيت البكرى حتى باع له البيت أيضاً بثمن قليل .

وقد أفنى الشيخ السادات غالب عمره ، كما قال عنه الجبرتى ، فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والخصيان والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس[2] .

---

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج١ ص ١٤٨ . القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .



خريطة مصر وضواحيها فى أوائل القرن التاسع عشر

الفصل التاسع

القاهرة فى أيام

عبد الرحمن الجبرتى

لاتكمل صورة القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، دون الحديث عن مجتمع القاهرة على أيام المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، صاحب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، فقد شاهد أحداث القاهرة منذ أخريات القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن الذى يليه ، وقد دون لنا تلك الأحداث ، متحرياً الصدق والدقة ومتوخياً الحق . لم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه . وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتى من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه ، وبخاصة فى تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ، ذاكراً لكل منهم ماله وما عليه . وإن كنا نلاحظ أحياناً ميله إلى بعض الأمراء والمماليك .

ولا شك فى أن « عجائب الآثار » تعتبر وثيقة فريدة ونادرة ، يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسى وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الإجتماعية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فلم يكتب مؤرخ آخر مثل ما كتبه الجبرتى بمثل إسهابه وتحقيقه . ولولاه لغابت عنا حوادث مصر فى ذلك العهد الطويل ، وإن كان رجال الحملة الفرنسية قد دونوا ماشهدوه من الحوادث خلال الفترة الوجيزة التى مكثوها فى مصر .

ويعتبر كتاب الجبرتى مرجعاً ثميناً لمن يريد الكتابة فى خطط القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فنحن نستطيع أن نتصور معالم القاهرة فى أيام الجبرتى ، ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور وبساتين، وما استجد فى بعض أحياء القاهرة فى أثناء حكم الفرنسيين مما تتطلبه الأغراض العسكرية من تدبير وإزالة، أو تشويه وبناء .

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتى وكما يسميه الفرنسيون « يوميات عبد الرحمن » أصدق الصور عن خطط القاهرة القديمة . وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة المماليك فى أثناء العصور الوسطى، وقاهرة الخديو إسماعيل فى منتصف القرن التاسع عشر .

وقد ترجم « عجائب الآثار » للفرنسية مرتين الأولى بقلم « كاردان » مترجم القنصلية الفرنسية بمصر وطبعت

عام ١٨٣٨، والثانية وهى ترجمة وافية قامت بها نخبة من الأدباء المصريين برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن، وظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ . .

كان الشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا عبد الرحمن من العلماء الموسرين[١] له ثلاثة منازل بالقاهرة ، أحدها بالابزازية على شاطىء النيل ، والثانى تجاه جامع مرزا جوربجى ببولاق، والثالث فى خطة الصنادقية قرب الجامع الأزهر[٢] .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ فى بولاق ، إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى ، لأن منزله فى الابزازية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء حيث حرارة الجو لطيفة .

ولد عبد الرحمن الجبرتى فى سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م بالقاهرة ، ثم أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القريبة من منزل الأسرة بالصنادقية ليحفظ فيها القرآن ، ولما أتم حفظه فى سن الحادية عشرة ، رغب الشيخ عبد الرحمن العويشى إلى أبيه أن يلحقه برواق الشام ، فسلمه إليه ليجاور ويتلقى العلم عليه .

وكان ميدان لهو عبد الرحمن وهو فى حوالى السابعة يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالمشهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من الغورية من خطط وحارات وعطفات ، ولا شك أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمع والأعياد .

وذكر لنا عبد الرحمن أنه صحب أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٣ / ٤ م إلى منزل السادة الوفائية ، فتكرم الشيخ أبو الامداد إسماعيل ، فكنى عبد الرحمن أبا العزم .

ورأى الوالد فى سنة ١١٨٢ هـ أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، وقد أرخ الشيخ عبد الله الإدكاوى هذا الزواج بأبيات بعث بها إلى الشيخ حسن الجبرتى وبيت التاريخ قوله :

---

(١) آل إلى الشيخ حسن الجبرتى من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى عقارات أهمها وكالة الصنادقية والحوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الاقبغاوية بالأزهر ، وفضلا عن ذلك فقد كانت زوجه ابنة رمضان جلبى (المعروف بالخشاب) من أسرة تملك عقارات عديدة فى بولاق ، منها وكالة الكتان وربما وحوانيت تجاه جامع الزردكاش وبيتاً كبيراً بساحل النيل ومنزلا تجاه جامع مرزا الجوربجى، ولا بد أن حصة زوجته كانت ذات بال ، فشاركها فى قسم كبير من هذه العقارات . .

(٢) خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبرتى ، من كتب سلسلة اقرأ رقم ٧٠، دار المعارف ، القاهرة . .

والحـال قـد أرختـه   شمس البها زفت لبدرك

(١١٨٢)

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ فى الأزهر بعد ذلك ، ثم يعضى إلى بيته فيتلقاه أبوه متحدثاً إليه فى التاريخ وأحداث عصره ، وكان عبد الرحمن يفيد من علم زائرى أبيه وأدبهم وحسن توجيههم ، فتمكنت العلائق بينه وبين الأمراء خاصة .

وبقى حاله كذلك حتى دخلت سنة ١١٨٨ هـ ، حينما بلغ الشيخ حسن السابعة والسبعين ، وفى ١٨ محرم أصيب بالهيضة الصفراوية ، ولم يلبث إلا اثنى عشر يوماً حتى توفاه الله فى غرة صفر من تلك السنة . ودفن بتربة الصحراء بجوار الشمس البـابلى والخطيب الشربينى رحمهم الله جميعاً . وكان عبد الرحمن فى سن الثانية والعشرين . وقد ترك له والده ثروة ضخمة ، منها بيوته فى بولاق والصنادقية ومصر القديمة وأرضاً له بالقرب من كفر الزيات فى بلدة ابيار وأوقافاً أخرى كبيرة .

وانتقل عبـد الرحمن إلى بولاق ، ولم يمنعه هذا الانتقال من المثابرة على الحضور إلى الأزهر والاشتراك فى الحلقات . وفى العام التالى ، أى فى الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ هـ برح عبد الرحمن ، القـاهرة فى رحلة إلى طنطا وكفر الزيات وزار ابيار ، ثم سلك طريق النيـل إلى فوه ورشيد . وبعد أيام سافر إلى ادكو حيث تفقد أوقاف الجبرتية ، وهى مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة ، ثم رحل إلى أبى قير والاسكندرية حيث اجتمع بالشيخ السيرى عالم الاسكندرية وشيخها الأكبر(١) .

ورحل بعد ذلك إلى دمياط ومر بالمنصورة ، ثم عاد الجبرتى إلى القـاهرة وعاد سيرته الأولى ، يحضر حلقات التدريس فى الأزهر . وفى سنة ١١٩٠ هـ أجازه شيخه عبد ربه العزيزى ، كما أجازه أيضاً أكثر الأشياخ فى الفقه واللغة . . وما عتم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشياخه ، فأصبح دارساً ومدرساً .

وذكر الجبرتى أنه أجرى عمارة فى بيت الصنادقية ، بدأها فى سنة ١١٩١ وأتمها فى سنة ١١٩٢ هـ . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوى فى ذلك قصيدة نقشها الجبرتى فى مجلسه من البيت ، قال فيها :

مكان على التقوى تأسس مجـده   وفى سور التوفيق والهدى سوره

ومجلس أنس كل ما فيه مشرق   ومقعـد صدق قد تسامى حبوره

بناء يروق العين حسن جماله   ورونقه يشفى الصدور صدوره

ومن مجـد بانيه تزايد بهجـة   وقـلـد من دور المعـالى نحـوره

---

(١) خليل شيبوب : ص ٣٥ — ٣٦

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السعود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتى نوره

(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتى هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس ، وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد محمد مرتضى الزبيدى واخوانه الأشياخ والطلبة . . وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه بولاق ومشتاه بالصنادقية.

وكانت هذه الدار تقع إلى يمين السالك فى الخطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة ، فرسم لها الجبرتى باباً شارعاً على الخطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر ، ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس فى وسطها حديقة ، وشاد إلى يمين الرحبة أقبية منها اصطبل للدواب وهرى للغلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم ، وحفر بئر بجانبه وبنى بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها يسكن الخدم وبعضها للضيوف، وواحدة منها واسعة للطلبة وانعقاد حلقات التدريس، وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرحبة عقوداً تنتظمها عمد من الرخام الملون ، ونسق حول الممشى غرفاً شق وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على باسكتين بدلا من واحدة ، وتأنق فى تنظيمه فزين سماءه وجدرانه بالخشب المحفور والمبخور وأنواع القاشانى الملون ، وأقام حوله خزانتين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد ناثراً عليها الطرارح الحريرية وسماه : «مجلس العقد الداخل» وجعل له بابين ملبسين بالأصداف والنحاس البراق ، أحدهما يفضى إلى القاعة الكبرى التى يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشنا فى سمائها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنثورة فى الأركان والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المفضة بالبلور والشماعد الوهاجة وافتن فى زخرفتها وفرشها .وأما الباب الآخر فيفضى إلى خزانة الكتب وغرف النساء والأطفال ، وعلق فى عقود الدار وأفنيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع ، وكسا الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش الغالى والأثاث الثمين ، وأنفق عليه مالا جما حتى استتمها[1] .

وسكن الجبرتى فترة من الزمن فى بيت يطل على بركة الرطلى ، وكانت كما يقول : « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرى ، وليس فى برها الا خر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبرها المراكب والسفائن » .

وفى أواخر سنة ١١٩٥ هـ تزوج الجبرتى مرة أخرى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ،

---

(١) خليل شيبوب : المصدر نفسه ٤٣ — ٤٥ .

برغبة منه ، وكان « وجيــه الطلعة ، سليم الطوية ، ينف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه » . وكان مثقفاً غزير الإطلاع(١) .

ولمـا قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ترك القاهرة إلى مزرعته فى ابيار ، ثم عاد إليها بعد قليــل ، عند ما أرسل العلماء باشارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولمـا ألف القائد « مينو » قائد الجيش الفرنسى بعد سفر نابليون ، الديوان الثالث اختير الجبرتى عضواً فيه .

وهكذا كان كتاب الشيخ الجبرتى من أهم مراجع العصر الذى عاش فيه ، بل نستطيع القول بأنه أهم المراجع الوطنية كلها .

وقد أصيب الجبرتى فى آخر حياته بمحنة قاسية ، ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٩ يونيو ١٨٢٢ م . كان ابنه خليل عائداً من قصر محمد على فى شبرا بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس . وقد أصيب الجبرتى بموت إبنه وهو بين المرض والكبر والضيق بنازلة شـديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره ، وبقى فى داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات فى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥م ، وأعقب بنتا عاشت مغمورة من بعـده وولداً . ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه .

وبعد موت الجبرتى احترق منزل الصنادقية وأكلت النار مكتبة الجبرتى ، فلم يبق لها من أثر وضاعت كراريس تاريخه بعد عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .

قاهرة الجبرتى

لم يكن بالقاهرة فى تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها ، فكنت تجد بعض البيوت خارجاً عن حدود الطريق العام ، وترى البعض الآخر داخلا ، كما ترى بيوتاً لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى له منافذ . ومن شيد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه فى المنزل ما أحب بلا قيد . وكذا الشـوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة (إذا صح القول بأنه كان هناك فى ذلك العصر شىء جدير بهذا الاسم) إعتناء بأمر النظافة أو الصحة ، فكانت تلق القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة . وما تبقى من أنقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقى به بالقرب من أبواب المدينة ، فتصير تلالا

---

(١) محمود الشرقاوى : ص١٣ و١٤

حتى إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة الرائحة تنقل معها شتى العلل والأمراض . وكانت مقابر الموتى فى وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب ، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفى المساجد وفى المدارس .

انقسمت القاهرة إلى بضعة أحياء تجارية ، فكان يباع فى الجمالية واردات الشام والحجاز وحضرموت، ويباع فى الحمزاوى الجوخ والحرير وما يرد إليه من الهند وأوربا ، وامتاز خان الخليلى بتجارة البلاد التركية . وكانت للقاهرة أسواق وقتية فمنها ما يكون فى يوم معين كسوق الجمعة والإثنين والخميس . ومنها ما يكون كل يوم بعد العصر كسوق العصر ، وكانت تلك الأسواق تنتقل من مكان إلى آخر حسبما يراه الحاكم . واجتمع أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذون كالحواة والقرادين بميدان الرميلة التى تحولت مبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وأخصاص . واستحوذ كل إنسان على ما استطاع من أرض تلك الجهة حتى المساجد والمدارس، وبنوا حول المساجد مبان قذرة شوهت محاسنها . وكذا ضيقوا واسع أرض الميدان وسوق السلاح ، فكان المار بتلك الجهات يخطو على القاذورات ويمر بين أقوام لا أخلاق لهم . وانحطت صناعات القاهرة ، فكنت لا تشاهد غير الحرف الوضيعة يقوم بها صناع فقراء يحاولون العيش بصعوبة فى حوانيتهم .

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة فى تلك الآونة ، فلا ترى إلا أبنية مخربة وأسواراً وأبواباً مهدمة . وإذا قادتك قدماك إلى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكيمان وأطلال . تلمح الشقاء فى كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين والداودية والقربية والخليفة . أما جهات المدابغ وباب اللوق فلا تسل عما احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة .

وخلاصة القول أن القاهرة وصلت إلى حال تعس حال فى العمارة والتجارة والصناعة ، فأصبحت المدارس خاوية ، ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد . وإذا هبت الريح لا ترى إلا غباراً ينبث على البيوت فيسترها ساعات طويلة حتى تهدأ الحال . وكان يوجد على حافة النيل الشرقية بعض مبان كقصر العينى وبيت محمد كاشف قبليه ، وبيت محمد بك الألفى بحريه — محل القصر العالى وغيرها — وامتدت مبان قليلة إلى جزيرة العبيط مكان ميدان التحرير الآن ، وكان الوصول إليها من بوابة أزبلت ، كانت تجاور غيط قاسم بك الذى عرف فيما بعد بحديقة وهبى باشا .

ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين ، كانت مخربة تنعق على أنقاضها البوم ، واستأنف الألبانيون ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم ، وعمت كوارث القتل والخطف والنهب وعاد المماليك إلى رذائلهم ومفاسدهم . بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات مرتباتهم . فهجموا على بيت الدفتردار (بيت محمد بك الألفى القديم) وبيت المحروقى (بيت الشيخ البكرى) فصوب الوالى عليهم مدافع القلعة وخرب حى الأزبكية ونهب الرعاع ما فيه ، وأقيمت المتاريس عند رأس الوراقين

والمقادين والمشهد الحسيني . ووزع الجنود بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على وكوم الشيخ سلامة، ونشبت الحرب بين العثمانيين والألبانيين بالقاهرة وبولاق والقصر العينى، وانهزم الوالى خسرو باشا بقواته فانتحى ناحية جزيرة بدران ومنها توجه إلى المنصورة فدمياط .

وفى مساء يوم ما باتت القاهرة فى قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين الذى شغل منصب الولاية . فطلب إلى المشايخ وكبار العلماء ورؤساء الوجاقات أن يختاروا من يشغل منصب الولاية الذى خلا فأعلنوه باختياره « قائمقاما » حتى يصل له إعلان الولاية أو يعين وال آخر .

واستمرت المظالم كعادتها ، وأطلق طاهر باشا لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وتوقيع الغرامات الفادحة على التجار ، وقام الجنود الانكشارية يطالبون برواتبهم المتأخرة أسوة بالألبانيين .

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب رهط من الأنكشارية يبلغ عددهم نحو ٢٥٠ بأسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من رؤسائهم ، فدخلا عليه وكلاه فى الشكوى من تأخير دفع الرواتب فانتهرهما ورفض أن يسمع شكواهما ، واشتد الجدال بينهم فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورميا جثته من النافذة وأحرقوا داره ونهبوها وكانت أيام حكمه قليلة . قال الجبرتى « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

عادت السلطة مؤقتاً إلى الأنكشارية ، فولوا أحمد باشا والى المدينة المنورة على ولاية مصر . وفى ذلك الحين كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة .

يوم وليلة

جاهر محمد على بتحالفه مع المماليك ، واجتمع بابراهيم بك فى الجيزة ، وأفهمه أنه يؤيده ، وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد على وابراهيم بك وعثمان بك البرديسى، وباقى زعماء مماليك القاهرة متحالفين وطردوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوماً وليلة !

بدأت سلطة محمد على تظهر فى الميدان ، ونادى المنادون فى القاهرة « بالأمان حسب مارسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » فكان هذا النداء فى شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين ابراهيم بك ومحمد على .

اتفق محمد على وابراهيم والبرديسى على التخلص من الأتراك فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر وكان الأنكشارية يقيمون بها حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردوهم من القاهرة ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم .

بالغ محمد على فى التودد إلى المماليك فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة الوالى خسرو باشا الذى كان لا يزال محتمياً بها ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية فى رشيد . فنجحت الحملتان وقبض على خسرو باشا وأرسل إلى القاهرة سجيناً ، وابتهج المماليك لهذا النصر ونادى إبراهيم بك بنفسه «قائمقام مصر» .

فلما علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وعودة نفوذ المماليك عزمت على استرداد سلطتها ، فعينت على باشا الجزائرلى والياً لمصر ، وأرسلت معه قوة من ألف جندى . فبقى فى الاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ، ثم قصد القاهرة ليتقلد منصب الولاية بناء على دعوة من الأمراء المماليك متظاهرين فيها بالرغبة فى الوفاق . لكن هذه الدعوة كانت له شركاً نصبوه للفتك به ، فلما وصل إلى « شلقان » التقت به جماعة من أمراء المماليك وجنودهم ، وهنا أبلغوه أنهم يمنعونه من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته للذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه فى الطريق .

لم يبق أمام محمد على إلا قوة المماليك فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتمهيداً لتلك الغاية ترك لزعماء المماليك ولا سيما البرديسى السلطة ظاهراً ، حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ، ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب وتبعة المسئولية أمام الباب العالى .

محمد بك الألفى

كان هناك زعيم آخر من زعماء المماليك هو « محمد بك الألفى » وقد رحل إلى انجلترا وقت جلاء الحملة الإنجليزية (١٨٠١) لمفاوضة حكومتها فى عودة المماليك إلى الحكم، ثم عاد لمصر، ولو قدر له النجاح فى مسعاه لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

علم محمد على بعودة الألفى إلى مصر فأوجس فى نفسه خيفة لأنه كان يحسب للألفى حساباً كبيراً ويعده أقوى خصومه ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه ، فأنفذ رجاله للقبض على الألفى بك وقتله . وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا اختفائه وفراره ، فنجا بنفسه وذهب إلى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم .

وفى مارس ١٨٠٤ عزم البرديسى على فرض ضريبة جديدة على الأهالى وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمطرون اللعنات على الأحكام ، وكانت غالب صيحاتهم منصبة على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادى :

« إيش تأخذ من تفليسى يا برديسى ! » وأغلق التجار وكالاتهم وحوانيتهم ، واتجهت جموع الناقمين

إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة ، فقام هؤلاء يطلبون من أمراء المماليك الغاءها .

لقد نفخ فى بوق الثورة ! وأخذت روحها تتنقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة .. فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الميادين والشوارع . وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده فبادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضبه ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجماهير وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا هم أيضاً بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضرائب وجاهروا بأنهم يطالبون برواتبهم من الحكومة لا من الأهالى !

كسب محمد على بهذه السياسة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك الفوضى الشاملة .

أما عثمان بك البرديسى ، فقد قابل تلك الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين الذين لم يمتثلوا لأوامر المماليك ، بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك فى الأقاليم ، فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

رأى المماليك أنفسهم حيال قوتين : ثورة الأهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة . وكان أول الفارين البرديسى بك ثم إبراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة .

قصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى القديم وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته ، فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية فى البلاد . فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل ، وعين من بعده خورشيد باشا .

نجح المماليك فى جمع شملهم وعادوا للجيزة بقيادة البرديسى وإبراهيم بك لفتح القاهرة ، واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر حتى ارتدوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد .

بدأ خورشيد يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، وقد رأى أمامه شخصية جبارة تطغى على نفوذه فاستصدر من الأستانة فرماناً بعودة محمد على وجنوده إلى بلادهم . فلما وصل الفرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة ، وتظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من الاستقامة .

اهتزت القاهرة لنبأ هذا الرحيل وأقفلت الأسواق ، وكاد حبل الأمن يضطرب ، وأخيراً قبل محمد على

طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد على عن السفر، أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك فى الصعيد ليتخلص منه ، وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمده بامدادات قوية فأوفدت إليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل إلى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة إلى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة فى البلاد .

ثورة القـــــــاهرة

فرض خورشيد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، فضجوا منها وأقفلوا حوانيتهم، وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، فمر الحافظ ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل . واشتد هياج الناس، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجماهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد الكثيرون منهم إلى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلعة دوى صياحهم ، وأخيراً اضطر خورشيد إلى رفع الضرائب وأعلن إبطالها ونادى المنادون بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش العثمانية ، فقد أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ، وقال عنهم الجبرتى الذى شاهد أفعالهم وهو يتنقل بين أنحاء القاهرة ليعود إلى بيته ويسجل فى تاريخه النفيس ما كان يراه كل يوم .

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ، فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر الضواحى، وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم » .

وكان خورشيد يرى أنه لا يهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد محمد على إلى المنيا مع حسن باشا بجنودها فى الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما فى مهمتهما .

وكان خورشيد قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصدهما عن التقدم بالقرب من طره . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هذا المعقل دون أن يلقى أية مقاومة . فإنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم على ألا يتعرضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريق .

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل ١٨٠٥ ليبدأ النزال بينه وبين خورشيد باشا وجهاً لوجه .

وفي يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالي مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالي الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر، وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق في المدينة كلها .

فاجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالي وخاطبوه في وضع حد لفظائع الدلاة . فأصدر الوالي أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس ، وكان هذا الأمر صورياً لأن الجنود لم ينفذوه .

خوطب الوالي ثانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة ، فلما علم الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها في المدينة .

وفي اليوم التالي عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت، واحتشدت الجماهير في الميادين والطرق .

أدرك الوالي خطر الحالة وأرسل وكيله صحبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لكبح الهياج فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوي وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له في الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل إليها دون أن ترجمه بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج، وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة .

لم يكن سهلا إجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالي في القتال . واستمر العلماء مضربين عن إلقاء الدروس وأقفلت الأسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالي طوال هذه المدة .

اعتقد خورشيد أنه نجح في مسعاه لإقصاء محمد علي عن مصر . فقد ورد فرمان سلطاني بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل في الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخلع عليه خلعة الولاية الجديدة . لكن محمد علي أدرك ما في هذا التعيين من الدسيسة وخشي الغدر به إذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقي أمر التعيين في المدينة في أي منزل يختاره الباشا .

غضب خورشيد من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد أغا في منزل وكيل دار السعادة وصديق محمد علي . فرضي خورشيد بهذا الحل مرغماً وذهب في الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة الفرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات :

« محمد علي لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لإعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظاً للقاهرة وواليٍ مصر وليذهب خورشيد لجدة » . .

نظم جنود الألبان أنفسهم واصطفوا بأمر قائدهم أمام الوالى وأحاطوا به ، وامتطى محمد على جواده فى طليعتهم لحراسة خورشـيد باشا إلى القلعة . وقد تم كل ذلك بهدوء ليحفظ بنفسه لممثـل خليفة المسلمين وقار منصبه .

وانتهت الفترة التى حـددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة ، يوم السبت ١١ مايو وكان لايزال باقياً نحو ١٥٠٠ . وعلم زعماء الشعب أنهم يمتنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحـكومة خالية .

ففى صباح يوم (١٢ صفر ١٢٢٠ هـ مايو ١٨٠٥ م) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجاقاية (الموظفين) والمشايخ أمام دار المحـكمة الشرعية الـكبرى (بيت القاضى) لإصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحاً . وتستطيع أن تتبين نفسية الشعب فى ذلك اليوم الرهيب وتحـكم عليهـا من ندائه « يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى » .

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا فى تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحـكمة ووافاهم وكلاء الوالى بعد أن طلبهم قاضى المحـكمة ، فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها إلى القاضى، وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة . فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل إلى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء إلى القلعة للتشاور معهم . ولـكن فطن السيد عمر إلى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب إليه .

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً ورفض إجابة مطالبهم .

السيد عمر مكرم

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع فى اليوم التالى بدار المحـكمة للمداولة ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحـكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم . واتفقت الـكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على والياً مكانه . وقاموا فى عصر اليوم إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية » .

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلا :

« إننا خلعناه عن الولاية » ، فسأله محمد على : « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير » .

فتردد محمد على فى بادىء الأمر لكى لا يقال عنه أنه المحرض للثورة ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « إننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة » فقبل محمد على الولاية ، وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية .

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيد باشا فرفض الإذعان لمطالبهم، وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لإخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار الوالى على التسليم .

احتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية ، وعبثاً حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم، فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة .

استمر القلق والاضطراب إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو ١٨٠٥ وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء، خرج جنود الوالى من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار، فتبادل الفريقان اطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جنود الوالى إلى داخل القلعة . واستمرت الحرب سجالا حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم . ولم يكن ذلك إلا خدعة منه ليتزود من الذخيرة ، وفى يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة على رأس الوجاقلية والشعب وأهل خان الخليلى والمغاربة . ومن العجب أن الفتور كاد يتسرب إلى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار فى القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد على فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا . فأبوا ولم يمتثلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا و فأخذ مكانهم جماعة من المصريين .

وكان السيد عمر مكرم حريصاً على نجاح حركته وصيانتها من الفشل ، وقد حدث فى مدة الحصار أن حضر أحد قواد الوالى بقواته ورابط بمصر القديمة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وأن يعد حاميتها بالمؤن والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد على لصرفهم عن حركتهم . ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبية فى أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة . وبينما كانت إحدى قوافل الجمال المحملة بالمؤن فى طريقها إلى القلعة خرج عليها « حجاج الخضرى » شيخ طائفة الخضرية وطائفة من أهالى الرميلة فضربوا « الجمالين » وحاربوهم وأخذوا جمالهم وتغلبوا عليهم.فلما رأى الوالي ذلك أمر بضرب المدافع على القاهرة

ولا سيما نحو جهة بيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر، واستمر الضرب من أول النهار إلى بعد الظهر فتهدمت بعض البيوت القديمة .

استمر القتال بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ ، حتى أرسل محمد على إلى السيد عمر مكرم مشيراً عليه بإرسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم المقطم التى تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته المعسكرة فيها . فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى المكان الذى عينه محمد على . وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين، وبهذه الفكرة أنقذ محمد على العاصمة من أذى شديد كاد يلحق بها .

وفى تلك الآونة وصل إلى الاسكندرية « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالى قادماً من الأستانة يحمل فرمان الولاية . وكان الشعب ينتظر وصوله ، ولم يكن للناس حديث سواه .

محمد على

وصل صالح بك إلى بولاق فى العاشر من أغسطس . . فتفرس فى وجوه المستقبلين قارئاً ما يجول فى أفكارهم ، وأعلن الملأ بأن السلطان قد لبى رجاء العلماء، وولى محمد على قائمقامية القاهرة المحروسة وولاية مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية .

خرج محمد على وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالى بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والخليفة والرميلة والحطابة والحبالة وفى الطليعة « حجاج الخضرى » وبيده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين ومعهم الطبول والزمور . وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا بيت محمد على ، وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم الذى أحضره « صالح بك » بولاية « محمد على » على مصر وبعزل خورشيد باشا .

فى اليوم التالى (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ / ١٩ يوليو ١٨٠٥م) قصد السيد عمر مكرم بيت محمد على فى جمع كثير من الجند والأهالى والمغاربة ، والصعايدة والأتراك ، وكانوا مسلحين ، وبعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده إلى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ، ثم عاد إلى بيته .

وامتنع رمى القنابل فى القلعة كما صدر أمر بوقف نيران مدافع الجبل ، واستمر الحصار حول القلعة منعاً للمفاجآت حتى أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ / ٥ أغسطس

١٨٠٥) وأنزل الوالى السابق حريمه وجنوده وأتباعه ، وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجهة الخروبى فبولاق . وقد ودعه محمد على وعمر بك وصالح بك ، وأقلعت السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية ، وأصبح محمد على حاكم البلاد .

وفى اليوم التالى عقب وصول خورشيد إلى الاسكندرية وصلت قوة من المماليك تبلغ الأربعمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم ومنهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى واحمد كاشف سليم وعباس بك ، وعبروا بوابتى الفتوح والنصر، ثم ساروا فى كوكبة عظيمة وأمامهم الطبول والزمور والنقرزان، فاخترقوا ميادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الأشرفية ، وكانوا كلما تقدموا داخل المدينة انضم إليهم أتباعهم حتى أنهم ما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجم عليهم الجنود الألبان وحاصروهم من كل جانب فلم يتقدموا ، ولما أرادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة ، فترجلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المساجد القريبة للاختفاء فيها . ولجأ آخرون إلى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديداً فلم ينج منهم أحد ، ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويعرى من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تفصل رأسه عن جسمه ثم تسلخ وتحشى بالتبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسياً فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد، ولكن عدوهم كان شديد الوطأة متيقظاً ، فأبادهم ولم ينج منهم غير القليل إذ وقعوا فى الشرك الذى أتقن حبكه ، ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه ، فقد كان ينتظرهم شرك آخر ... ...

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصراف الأهالى كل إلى داره ، فقاموا بمفاجآتهم وقد أيقنوا أنهم لابد ناجحون ... لكنهم فشلوا .

ثم مات البرديسى ، وبعد أيام مات الألفى مسموماً على يد حريمه ، فخلا الجو لمحمد على وفى أول مارس عام ١٨١١ تخلص من بقايا المماليك حينما دعاهم إلى وليمة القلعة ، ونكل بهم بقسوة

* * *

تلك كانت القاهرة حتى العشرينات فى القرن التاسع عشر ، مدينة شرقية فى روحها وفى عمارتها وفنها ، وفى مجتمعها . تحتفظ بملامحها البارزة من خطط وطرق وعمارات ومبان كثيرة ، بالرغم مما خرب منها على أيام العثمانيين ، أو دمرته مدافع الفرنسيين .

ملحق

ثبت بأسماء من تولوا حكم مصر

٩٦٩ م — ١٥١٧

الفاطميون

الاسم	السنة
المعز	٩٦٩
العزيز	٩٧٥
الحاكم	٩٩٦
الظاهر	١٠٢١
المستنصر	١٠٣٦
المستعلى	١٠٩٤
الآمر	١١٠١
الحافظ	١١٣١
الظافر	١١٤٩
الفائز	١١٥٤
العاضد	١١٦٠

الأيوبيون

الاسم	السنة
الناصر صلاح الدين	١١٦٩
العزيز بن صلاح الدين	١١٩٣
المنصور بن العزيز	١١٩٨
العادل بن أيوب	١٢٠٠
الكامل بن العادل	١٢١٨
العادل بن الكامل	١٢٣٨
الصالح بن الكامل	١٢٤٠
المعظم بن الصالح	١٢٤٩

المماليك البحرية

الاسم	السنة
شجرة الدر	١٢٥٠
عز الدين أيبك	١٢٥٠
المنصور على بن أيبك	١٢٥٧
سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر بيبرس	١٢٦٠
بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
المنصور قلاوون	١٢٧٩
خليل بن قلاوون	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاوون	١٢٩٣
زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور لاجين	١٢٩٦
الناصر محمد (للمرة الثانية)	١٢٩٨
ركن الدين بيبرس	١٣٠٨
الناصر محمد (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
أبو بكر بن الناصر	١٣٤١
علاء الدين بن الناصر	١٣٤١
شهاب الدين أحمد الناصر	١٣٤٢
اسماعيل بن الناصر	١٣٤٢
شعبان بن الناصر	١٣٤٥
حاجي بن الناصر	١٣٤٦

الاسم	السنة
حسن بن الناصر	١٣٤٧
صالح بن الناصر	١٣٤٧
حسن بن الناصر (للمرة ٢)	١٣٥٤
محمد بن حاجى	١٣٦١
شعبان بن حسين	١٣٦٣
على بن شعبان	١٣٧٦
حاجى بن شعبان	١٣٨١

المماليك الجراكسة

الاسم	السنة
سيف الدين برقوق	١٣٨٢
المنصور حاجى الملك	١٣٩٠
فرج بن برقوق	١٣٩٩
عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
فرج بن برقوق (للمرة الثانية)	١٤٠٥
المستعين الخليفة العباسى	١٤١٢
المؤيد شيخ	١٤١٢
أحمد بن شيخ	١٤٢١

الاسم	السنة
سيف الدين ططر	١٤٢١
محمد بن ططر	١٤٢١
الأشرف برسباى	١٤٢٢
يوسف بن برسباى	١٤٣٨
سيف الدين جقمق	١٤٣٨
عثمان بن جقمق	١٤٥٣
سيف الدين إينال	١٤٥٣
أحمد بن إينال	١٤٦١
خوش قدم	١٤٦١
سيف الدين يلباى	١٤٦٧
تيمور بغا	١٤٦٧
سيف الدين قايتباى	١٤٦٨
محمد بن قايتباى	١٤٩٦
الظاهر قنصوه	١٤٩٨
الأشرف جنبلاط	١٥٠٠
العادل طومان باى	١٥٠١
قنصوه الغورى	١٥٠١
الأشرف طومان باى	١٥١٦

مراجع عن القاهرة

١ – الرحلات والمصادر الأصلية

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧) : تحفة النظار فى عجائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ٣ مجلدات ط باريس ١٨٥٣ ؛ المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ ؛ المطبعة الأزهرية ١٩٢٦

ابن جبير : (ت ١٢٠٤) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، نشرها المستشرق رايت سنة ١٨٥٢ ؛ ودى خوية بليدن ١٩٠٧ ، ط . القاهرة دار الفكر العربى ، حققها حسين نصار .

ابن حوقل : (ت حوالى ٩٨١) : المسالك والممالك ، دى خوية بليدن .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشره وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجى ، لجنة التأليف والنشر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١

ابن سعيد المغربى : (ت حوالى أواخر القرن ١٣) : كتاب المغرب فى حلى المغرب؛ ط جامعة القاهرة ١٩٥٠

أبو الصلت ، أمية بن عبد العزيز (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧) : الرسالة المصرية ، نشرها الأستاذ عبد السلام هارون من مخطوط رقم ٦٠١ أدب بمكتبة أحمد تيمور ، ط . لجنة التأليف والنشر عام ١٩٥١

البلوى ، خالد بن عيسى : (القرن الثامن هـ / ١٤م) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، مخطوط رقم ٢٠٢ ؛ ٤٠٠ بدار الكتب المصرية

بنيامين التطيلى الأندلسى : رحلته إلى المشرق (٥٦١ — ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ — ١١٧٣ ، ترجمها عن العبرية عزرا حداد ونشرها عباس العزاوى ، بغداد ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .

الخيارى ، ابراهيم بن عبد الرحمن: (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢) : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء (وتعرف برحلة الخيارى) ؛ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٥

عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ / ١٢٣١) : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ط أوربا . وطبعة موجزة ؛ (المجلة الجديدة) بالقاهرة

عبد الغنى النابلسى (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١) : الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز (حوالى ١١٠٥/١١٠٦ هـ) ، مخطوط رقم ٣٤٤ بدار الكتب المصرية ؛ حققها ونشرها فون كريمر ١٨٥٠

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ؛ مخطوط رقم ١٧٦٧ (١٤٨ ورقة) ينسب إلى القرن ١٦ ، المكتبة الوطنية بباريس .

ليوناردوفرسكو بالدى (ت حوالى القرن ١٤) : رحلته إلى مصر وفلسطين فى القرن الرابع عشر ، ٥١ ص ، ترجمة بنت بطوطة ، ط بروكاشيا بالاسكندرية . أنظر : المراجع الأجنبية .

ناصر خسرو : (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١) : سفرنامه ترجمه إلى الفرنسية شارلس شيفر ، باريس ١٨٨١ ؛ وإلى العربية دكتور يحي الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥

الهروى ، أبو الحسن بن أبى بكر (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤) : رحلة الهروى ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٣ تمت كتابته سنة ٦٠٢ هـ

ابن إياس ، محمد : (ت ١٥٢٤) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ط بولاق عام ١٣١١ هـ .

ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن (ت ١٤٦٩) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبع ١٢ جزءاً ، ط دار الكتب المصرية ، حقق بعضها الأستاذ محمد رمزى .

ابن الجيعان ، شرف الدين يحي (ت ١٤٥١) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط الأهلية بالقاهرة ١٨٩٨

ابن دقماق ، ابراهيم المصرى (٨٠٩ هـ/١٤٠٦) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط ١٣١٤هـ/١٨٩٦ [بعض الأجزاء]

ابن عبد الحكم : (ت ٨٧١ م) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربى ١٩٦١

ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ / ١٣٤٨) : مسالك الأبصار ، طبع منه جزء واحد .

الجبرتى ، عبد الرحمن (ت ١٨٢٥) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جزءان ، ط بولاق عام ١٢٩٧ / ١٨٧٥ ، طبعة (١٨٨٩ — ١٨٩٠)

السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ/١٤٩٧) : تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات (٤٠٧) ص) ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ؛ ط العلوم والآداب ١٣٥٦هـ/١٩٣٧

السيوطى ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ط الشرقية بالقاهرة ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩ .

الشيزرى ، عبد الرحمن : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، نشره الدكتور السيد الباز العرينى، ط لجنة التأليف والنشر، ١٣٦٥/١٩٤٦ .

على مبارك (ت ١٤ نوفمبر ١٨٩٣) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة ٢٠ جزءاً فى ٥ مجلدات ، ط الأميرية ببولاق ١٣٠٥ — ١٣٠٦/١٨٨٨ ، تناول فى الأجزاء الستة الأولى تاريخ القاهرة المعزية ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها الحالية (٨٨٥) وخطط القاهرة وشوارعها وحاراتها وجوامعها ومدارسها وأسبلتها الخ

القلقشندى ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ط دار الكتب المصرية (١٩١٣ — ١٩١٧)

المقريزى ، تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مجلدان ، ط بولاق ، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣

— : السلوك فى دول الملوك ، حقق الأجزاء الأولى الأستاذ م . مصطفى زيادة ، ط لجنة التأليف والنشر . القاهرة

النـويرى : (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣) : نهـاية الأرب فى فنون الأدب ، صدرت جملة أجزاء ، دار الكتب المصرية (١٩٢٣ — ١٩٦٠)

٢ — مراجع حديثة

حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص ، ط المعارف ١٩٢٦ .

: الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجة خاص . ط بولاق ١٩٣٢

حسن عبد الوهاب: تخطيط القاهرة وتنظيمها من نشأتها . ط دار النشر للجامعات المصرية ١٩٥٧

زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . ط دار المعارف .

: كنوز الفاطميين ، ط دار الكتب ١٩٤٠ .

وعبد الرحمن زكى : فى مصر الإسلامية ، ط المقتطف ١٩٣٧ .

ستانلى لين بول وترجمة حسن ابراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن وإدوار حليم : سيرة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ، ط دار الهلال ١٩٥٩ .

على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، ط حجازى ١٩٣٣ .

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . ج ١ ، ٢ ، ٣ . ط القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٣٠ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة ، ج ١ . تاريخ القاهرة إلى نهاية عصر المماليك ، ط حجازى ١٩٣٢
ج ٢ القاهرة من العصر العثمانى إلى نهاية القرن ١٩ ، ط حجازى ١٩٣٤ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة من المعز إلى العصر الحديث ، ط المستقبل ١٩٤٢ .
: فى مصر الإسلامية ص ٩٨ — ١٠٨ ، عواصم مصر الإسلامية ، المقتطف ١٩٢٧ .
: مراجع تاريخ القاهرة منذ إنشائها إلى اليوم . الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٦٤ .

عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلامية ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٢ .

فؤاد فرج : القاهرة ، ثلاثة أجزاء . الأول يشمل تاريخ عواصم مصر القديمة فى العصر الفرعونى . الثانى يشمل تاريخ عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة . الثالث يشمل تاريخ القاهرة منذ عصر الفواطم حتى عام ١٩٤٥ . ط دار المعارف ١٩٤٦ .

كلوت بك (ترجمة محمد مسعود) : لمحة عامة إلى مصر ، جزءان ، ط أبو الهول القاهرة ، ١٩٣٠ .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦
: مذكرة ببيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم فى تسمية الشوارع والطرق بمدينة القاهرة ، بمقدمة لوزير الأشغال ، ١٩٢٥ .

محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣١ .

محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى — مصر فى القرن ١٨ ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٥/١٩٥٦ .

محمود عكوش : مصر فى عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ط المقتطف ١٩٤٣ .

يوسف النبهانى : جامع كرامات الأولياء ، جزءان ، القاهرة ١٩١١ .

٣ — آثار القاهرة وفنونها

لجنة حفظ الآثار العربية : مجموعة محاضر الجلسات ، وتقارير الأعضاء عن الآثار العربية من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٤٥ من المجلد الأول إلى المجلد ٣٩ . المطبعة الأميرية .

ابراهيم محمد الجمل : جامع عمرو بن العاص ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٧ — ٢٢

أحمد تيمور : قبر الإمام السيوطى (٢٤ ص) ، ط . السلفية ١٣٤٦/١٩٢٧ .

أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ (٣٣٦ ص) ، ط دار المعارف ١٩٦١ .

إدارة حفظ الآثار العربية : نبذة تاريخية عن منطقة القلعة وما بها من آثار لمناسبة زيارة ضيوف مصر فى اليوبيل الفضى لجامعة فؤاد الأول ، ط الأميرية ١٩٥٠ .

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان : أولهما يشمل المتن (٤٣١ ص) ، وثانيهما يشمل الرسوم والصور ، ١٨١ ص ، ط دار الكتب ١٩٤٦ .

: الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية (١٢٣ ص) ، دار الطباعة الحديثة .

: الآثار الإسلامية بمصر ، مصلحة السياحة ، ط شندلر ١٩٥٥ .

: بين الآثار الإسلامية (٣٠ ص) ، القاهرة .

: جامع السلطان حسن وما حوله (١٢١ ص) سلسلة المكتبة الثقافية، دار القلم ١٩٦٤

حسن قاسم : المزارات المصرية والآثار الإسلامية فى مصر والقاهرة المعزية ، (٦٠ ص) ، مجلة هدى الإسلام ، ١٣٥٥/ ١٩٣٦ .

زكى محمد حسن : فنون الإسلام (٦٠٠ ص) مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

سليمان أحمد الزياتى الحنفى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر .

السيد محمود عبد العزيز سالم : الفسطاط وجامعها العتيق ، كتاب الشعب ٧٩ ص ٤١ — ٥٧

: العسكر والقطائع ، كتاب الشعب رقم ٨٨ ، ص ٤٠٥ — ٤١٤ .

عبد الرحمن زكى : قلعة مصر من صلاح الدين إلى فاروق ، مطبوعات المتحف الحربى بالقاهرة ط الأميرية ١٩٥٠ .

: قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، (١٨٤ ص) بالصور والخرائط ، ط نهضة مصر ١٩٦١ .

عبد الرحيم فودة : الجامع الأزهر ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ، ص ٢٤ — ٩٣ .

على عبدالواحد وافى : لمحة فى تاريخ الأزهر ، مطبعة الفتوح ، ١٩٣٦

: الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة مرتبة حسب أرقامها وعصورها التاريخية ، مصلحة المساحة ١٩٥١ [مرفق بها خريطة] .

كامل اسماعيل : دراسات أثرية — مسجد أحمد بن طولون (١٦ ص و ٢٣ لوحة) . ط دار الجيل للطباعة ١٩٦٠ .

كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر (٣٢٩ ص) مزين بالصور مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠
محب الدين الخطيب : تاريخ الأزهر . القاهرة .
محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، ١٢٢ ص ولوحات ط عطايا القاهرة ١٩٤٢ .
محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر (٢١٥ ص) مؤسسة الخانجى ١٩٥٨ .
محمود أبو العيون : الجامع الأزهر (١٥٢ ص) ، ط الأزهر ١٩٤٩ .
محمود أحمد : بيان تاريخى عن مسجد السلطان حسن وشرح مميزاته الفنية (١٠ ص) ، ط وزارة الأوقاف ١٣٥٤/١٩٣٥ :
: بيان تاريخى عن الجامع الطولونى وشرح مميزاته الفنية (١٩ ص) ط وزارة الأوقاف ١٣٥٤/١٩٣٥ .
: بيان تاريخى عن مشهدى الإمام الشافعى والإمام الليث (١٥ ص) ط وزارة الأوقاف ١٣٥٤/١٩٣٥ .
: دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة مطبعة بولاق ١٩٣٨ .
جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية (٩٨ ص وصور) ، ط الأميرية ١٩٣٨ .
: تاريخ العمارة الإسلامية بمصر ، نشوؤها وتطورها وارتقاؤها . أنظر كتاب فى مصر الإسلامية ، ص ٥٦ — ٩٦ .
: موجز تاريخ جوامع أحمد بن طولون والسلطان حسن والسلطان المؤيد ، (١٦ ص) ط دار الكتب المصرية ١٩٣٩ .
محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى (١٣٩ ص و ٢١ لوحة و ١٥ رسم) ط دار الكتب ١٣٤٦/١٩٢٧ .
مصطفى بيرم : الجامع الأزهر (٧٦ ص) ، ط التمدن ١٣٤١/ ١٩٠٣ .
منصور على رجب : الأزهر بين الماضى والحاضر (٨٨ ص) ، ط المقتطف ١٩٤٦ .
هرتس ، مكس بك ، وترجمة على بهجت بك : جامع السلطان حسن وبآخره ٢٠ لوحة ، ط بولاق بالقاهرة ١٣١٩هـ/١٩٠٢ .
ولفرد جوزف وترجمة محمود أحمد : العمارة العربية بمصر وشرح الميزات البنائية الرئيسية للطراز العربى فى القرنين ١٤ ، ١٥ ، ط الأميرية ١٩٢٣ (٣٦ لوحة بها أشكال لنماذج العمارة العربية فى القرنين المذكورين .
يوسف أحمد : جامع سيدنا عمرو بن العاص ، المحاضرة الأولى من المحاضرات الأثرية (١٦٤ ص) ، ط المعاهد ١٣٣٥/١٩١٧ .
يونس مهران : الجامع الأزهر ، أنظر فى مصر الإسلامية ص ١٣٠ — ١٥٢

European Sources مراجع أجنبية

— Affagart, Greffin : Relation de Terre Sainte. Edited by J. Chavnon. Paris, V. Lecoffre, 1902.

— Dopp, P. H. « Le Caire Vu par Les voyageurs occidentaux du moyen âge. » Bull. de la Societé royale de geographie d'Egypte. Tome XXIII, 117—49; Tome XXIV, 115—62. Cairo, 1950—51 .

— Carre, J. M. : Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte. Publications de L'Inst. Fr. A. O. 2 vols. Le Caire, 1932 .

— Leo Africanus (Al Hassan ibn al- Wazzan). Description de L'Afrique . Translated and edited by A. Epaulard. Paris, A. Maisonneuve, 1956 .

— Piloti, Emmanuel. L'Egypte au Commencement du quinzieme siécle. Edited by P. H. Dopp. Cairo, 1950 .

— Thenaud Jean. Le Voyage d'Otremer . Edited by Charles Schefer. Paris, Ernest Leraux, 1884 .

— Casanova, p. : Reconstruction topographique de la Ville Fustat ou Misr Mem. I. F. A. O. Tome 35. Cairo 1919 .

— Glerget, M. : Le Caire : Etude de géoraphie urbaine et d' histoire géographique. Le Caire, 1934 .

— Devonshire, R. L. : L'Egypte musulmane. Maison Freres Ed. Paris, 1926 .

— Ebers, G. : Egypt : descriptive, historical and piqturesque. 2 vols . London 1880—1883 .

— Fraser, : The City of the Caliphs. 1899 .

— Franz Pasha : Kairo, Leipzig 1903 .

— Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne. Tome IV. L' Egypte Musulmane par G. Wiet. Paris 1937.

— Hay, R. : Illustrations of Cairo. (drawan by Browne) . Tilt and Bogne, London, 1840 .

— Jomard, M. : Description de la ville et de la Citadelle du Kaire. Description de l'Egypte. Tome II. Etat . Moderne. p. 579—778. Paris, 1809—1822. 2 nd edition.

— Lane — Poole, S. : The Story of Cairo· Dent. London 1902.

— Margolioth, G. : Cairo, Damascus and Jerusalem 1907.

— Mehren, A. F. : Càhireh og Keràfat. 2 vols. Kjobehavn 1869—70.

— Ravaisse, P. : Eseair sur l' histoire et a topograohie du Caire d'apres Maqrizi. ler fasc. M. 489—80; III fasc. , 83—114. Mem. A. Fran. C. Cairo 1886—89.

— Reynolds — Ball : The City of the Caliphs, Boston. London 1898.

— Rusell, D. : Medieval Cairo and the Monasteries of Wadi Natrun. London 1962.

— Sehmeil, M. : Le Caire : sa vie, Son histoire. Son peuple. Le Caire 1949.

— Salmon, Georges : Etudes sur la topographie du Caire Mem. de l'institut francais d' archeologie orientale, Tome VII. Cairo, 1902.

— Wiet, Gaston : Cairo: City of Art and Commerce. University of Oklahoma Press. 1964.

Islamic Architecture

— Ahmad Isa Bey : Histoire des Bimaristans (hospitals) à l'epoque islamique Cairo 1928.

— Aly Bahgat & Albert Gabriel : Fouilles d'al — Foustat. pp. 128 . Paris 1921,

— Berchem, MaxVan : Notes d'archeologie arabe. J. Asiatique, 8 éme série, Tome XVII, XIX, Poris, 1891.

... ... : Corpus. Inscrip. Arab, (Egypte, t. 1) Paris. 1894.

— Briggs, M, S : Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine pp. 255. Clarendon Press, Oxford 1924.

— Butler, A. J. : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols.

— Casanova, P. : Histoire et description de la Citadelle du Caire. Mem. A. M. A. F. C. tome 6. Paris 1897 .

— Comite de Conservation des monuments de l'art arabe. Procés verboux des séances. 41 vols (1882—1963) Cairo.

— Coste, P. : Architecture arabe et Monuments du Caire. 1837—39.

— Creswell, K. A. C. ; A Brief Chronology of the Muslim Monuments of, Egypt. Bull. de l'Institut Francais d'Archéologie Orientale, XVI, Cairo 1919 .

... ... : Early Muslim Architecture. 2 vols. Oxford 1932—40.

... ... : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. Bull . de l'Inst. A. O. F. T. XXII 1924.

... ... : The Works of Sultan Bibars al-Bunduqdari in Egypt. Bull . de l'inst A. O. F. T. XXVI. Cairo 1926.

... ... : La Mosquée de' Amru. Bull. del' Inst. A. O. F. T. XXXII, pp. (12 pls & 16 figs) . Cairo 1931,

... ... : Muslim Architecture in Egypt. 2 vols. (1952—1959)

— Davies R. O. C. : The Mosques of Cairo. Middle East Publications. Cairo 1940 .

- Devonshire, R. L. : Some Cairo mosques and their Founders, London 1921 .

  ... ... : Quatre-vingts Mosquées. Le Caire

  ... ... : Rambles in Cairo .

- Fattol, Antoine : Ibn Tulun's Mosque in Cairo. pp. 39 and 80 illus. Beyrouth 1960 .

- Kamel. Othman Ghaleb : Le Mikyas ou Nilométre de l'ile de Rodah. pp. 180 with 46 plates. Le Caire 1951.

- Khan el-khalili : pp. 32 with illus. Cairo Tourist Adm. 1960.

- Lane-Poole, Stanley : The Art of the Saracens in Egypt.

- Mahmoud, Ahmad : Concise guide to the principal Arabic Monuments in Cairo.

- Mahmeud el-Gawhary : Ex-Royal Palaces in Egypt : from Moh. Aly to Farouk. with illus. Caire 1954.

- Mayer, L.A. : The Buildings of Qaytbay, as described in hisendowment deed. pp. 96 Text and Index. Probathein, london 1938.

- Ministry of Wakfs : The Mosques of Egypt, from 21 H. (641) to 1365 H. (1916) 2 vols. with plates. Survey of Egypt. 1949 .

- Pauty, E : Les Palais et les Maisons d'epoque musulmane au Caire. with figs & Plates. Le Caire 1932.

  ... ... : Les Hammams du Caire. with figs. and plans Le Caire 1933.

  ... ... : La Mosquée d'Ibn Toulun et ses environs. pp. 94 with illus. Le Caire.

- Popper, W. : The Cairo Nilometer. University of California Press. 1951.

- Prisse D'Avennes : L'Art Arabe d'aprés les monuments du Kaire depuis le VIIe. siécle Jusqu'a le fin du XVIIIe. 2 édit. with 34 Pls. and 73 figs and 130 coloured. Morel Paris (1869-1877) .

— Ross, Dennison : The Art of Egypt through the Ages. Chapter on Muslim Architecture by K.A.C. Creswell. London 1931.

— Sameh, K : The Architectural works of Abdel Rahmen Ketkhuda in Cairo. Thesis, University of Cairo Library. Cairo 1947.

— Tarchi, Ugo : L'Architettura e l'arte musulmane in Egitto e nella Palestina. 18 pp. of text with 166 pls. and 47 figs. Crudo, Torino 1923.

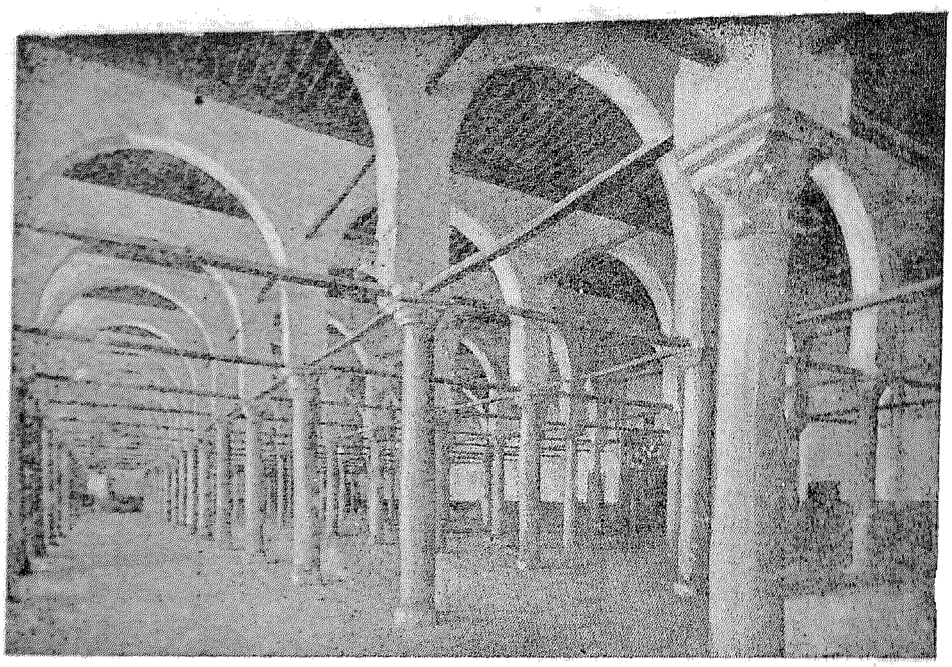
— Wiet, G. & L. Hautecoeur : Les Mosquées du Caire. 2 vols. Paris, Ernest Lerowx 1932.

كشاف الأعـــــــــلام

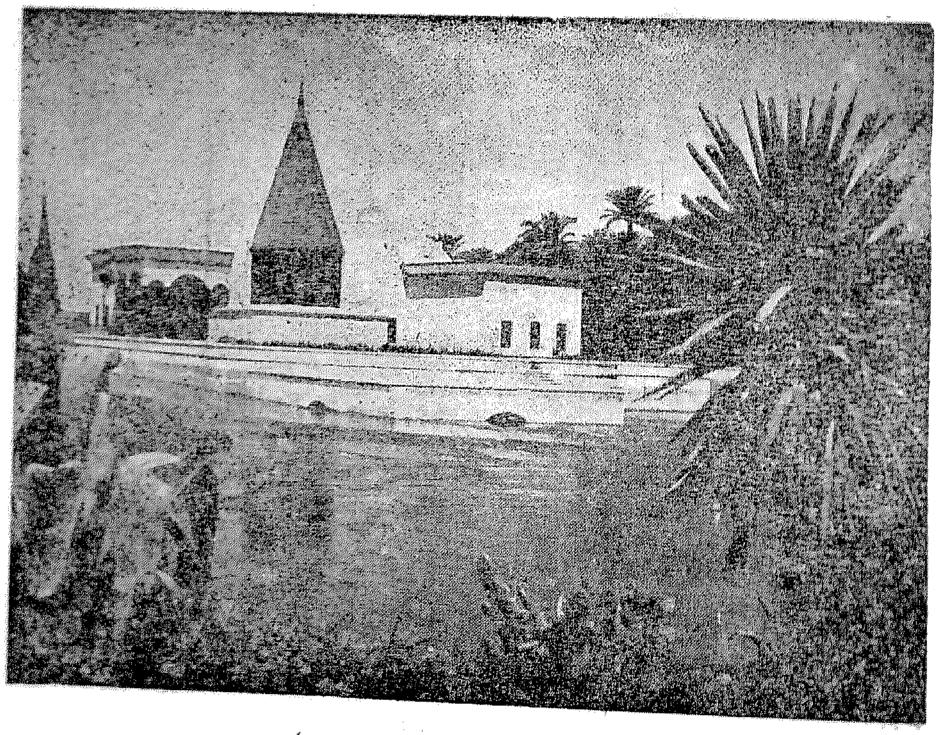
كشاف الأمـــــاكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

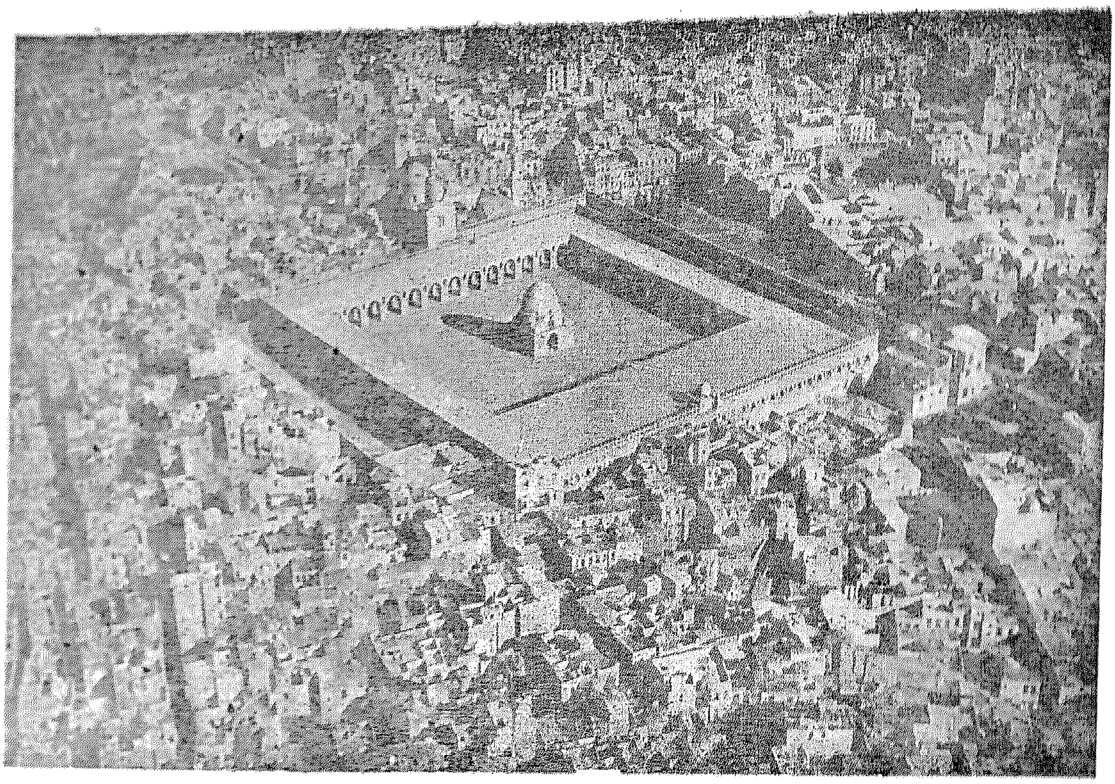
المحتـــــــــوى



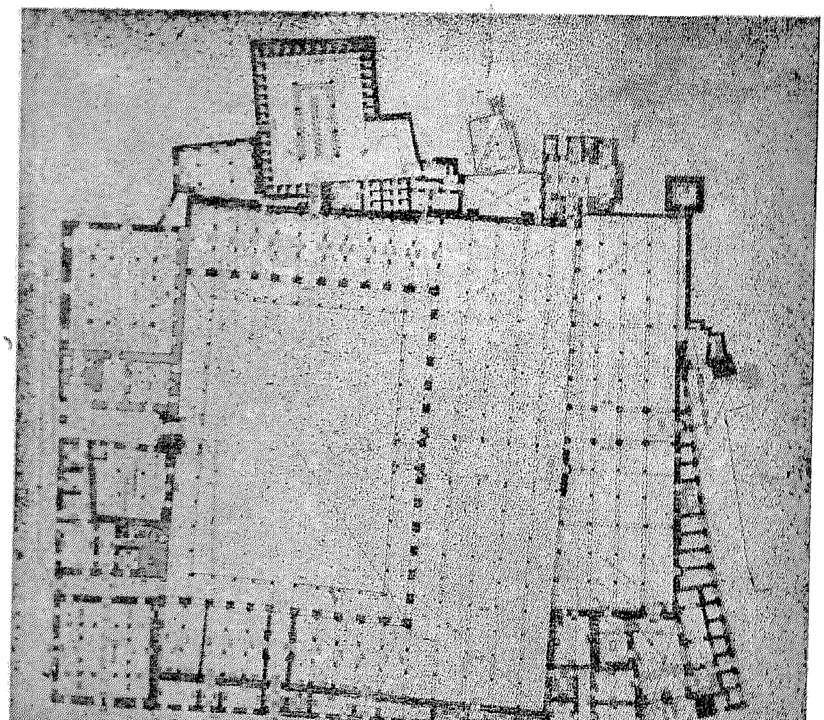
١ ـــ الإيوان الشرقي في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٦٤١)



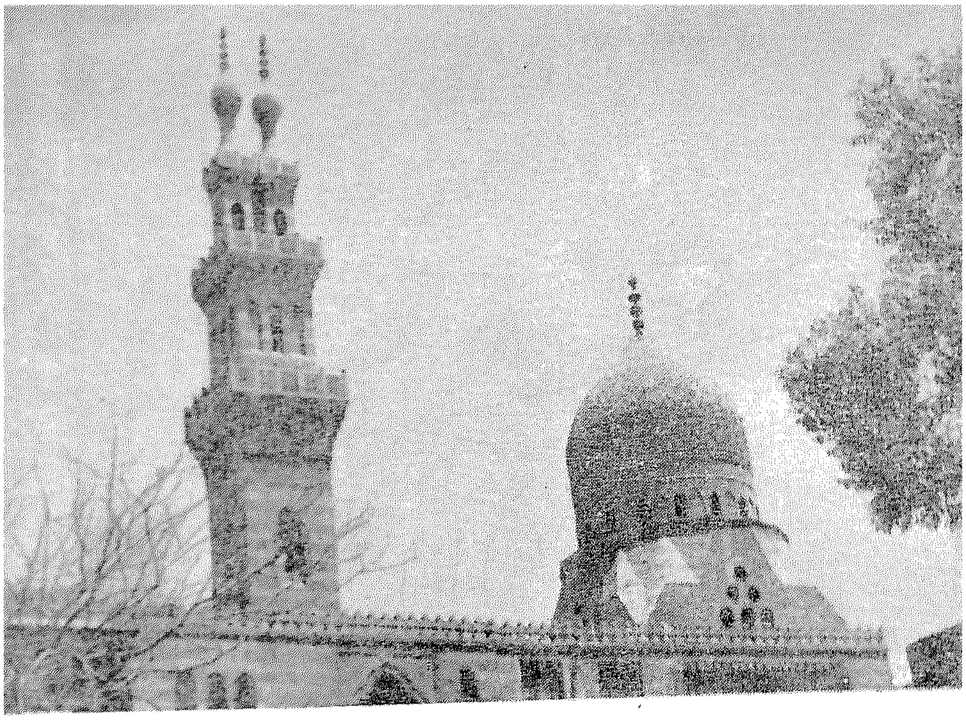
٢ ـــ مقياس النيل بالروضة (٨٦١م)



٣ ـــ جامع ابن طولون (٨٧٦ ـــ ٨٧٩)



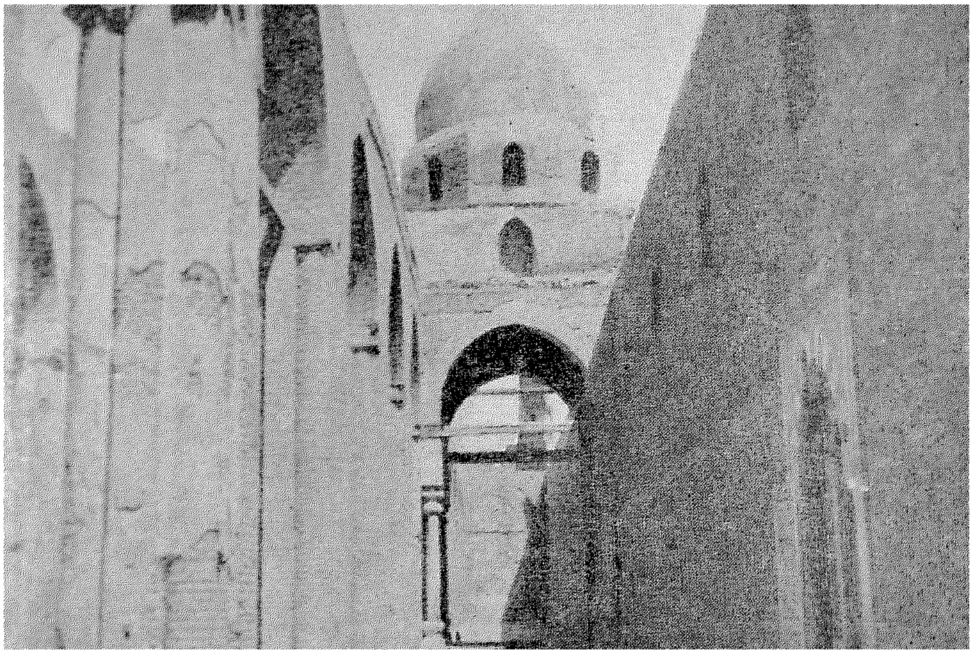
٤ ـــ مسقط أفقي للجامع الأزهر (٩٧٠ ـــ ٩٧٢)



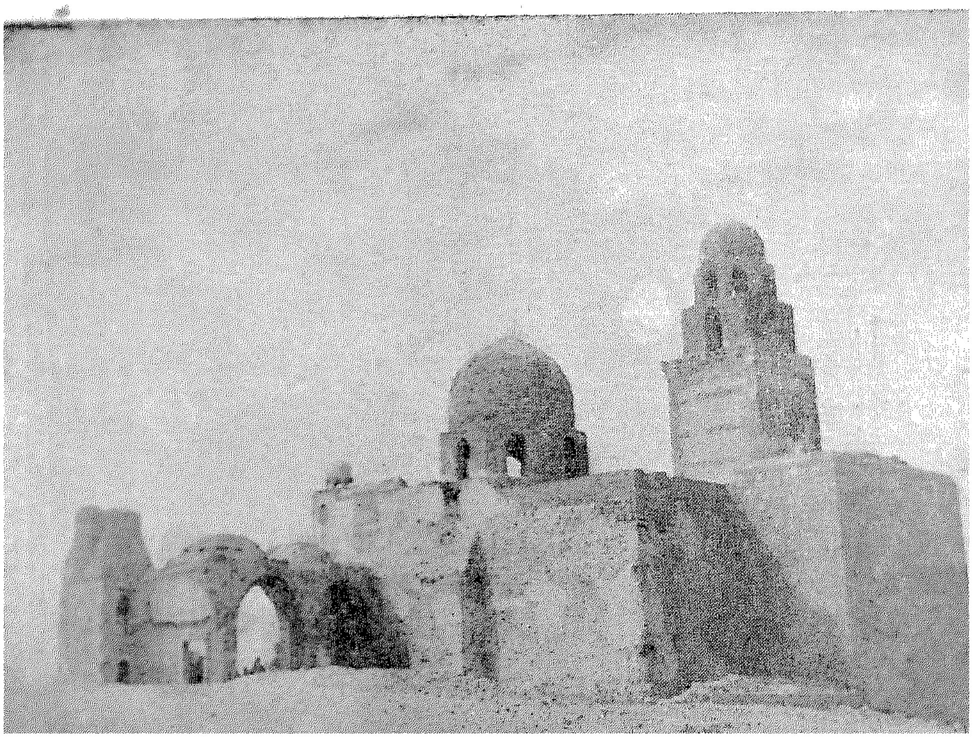
٥ — مئذنة وقبة بالجامع الأزهر



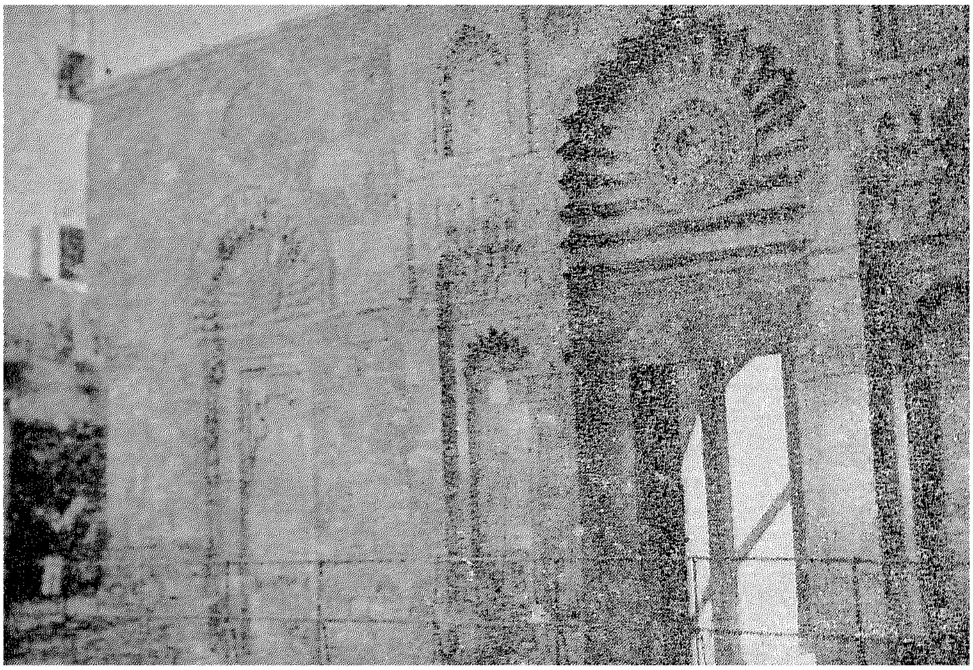
٦ — مئذنة وقبة بجامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ — ١٠١٣)



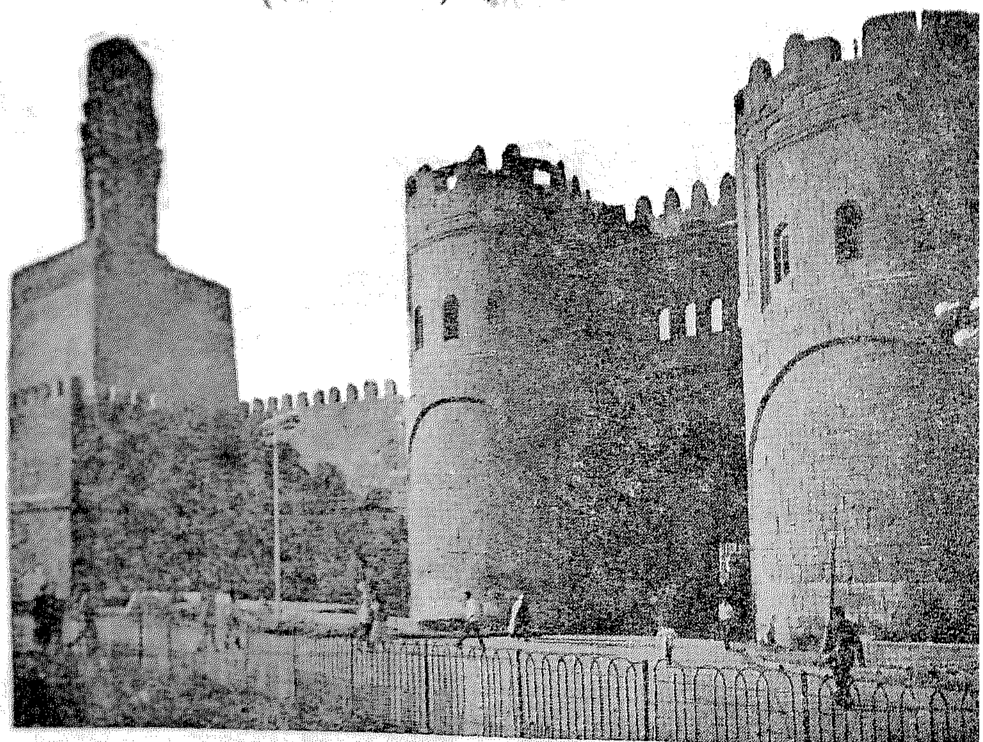
٧ -- جامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ — ١٠١٣)



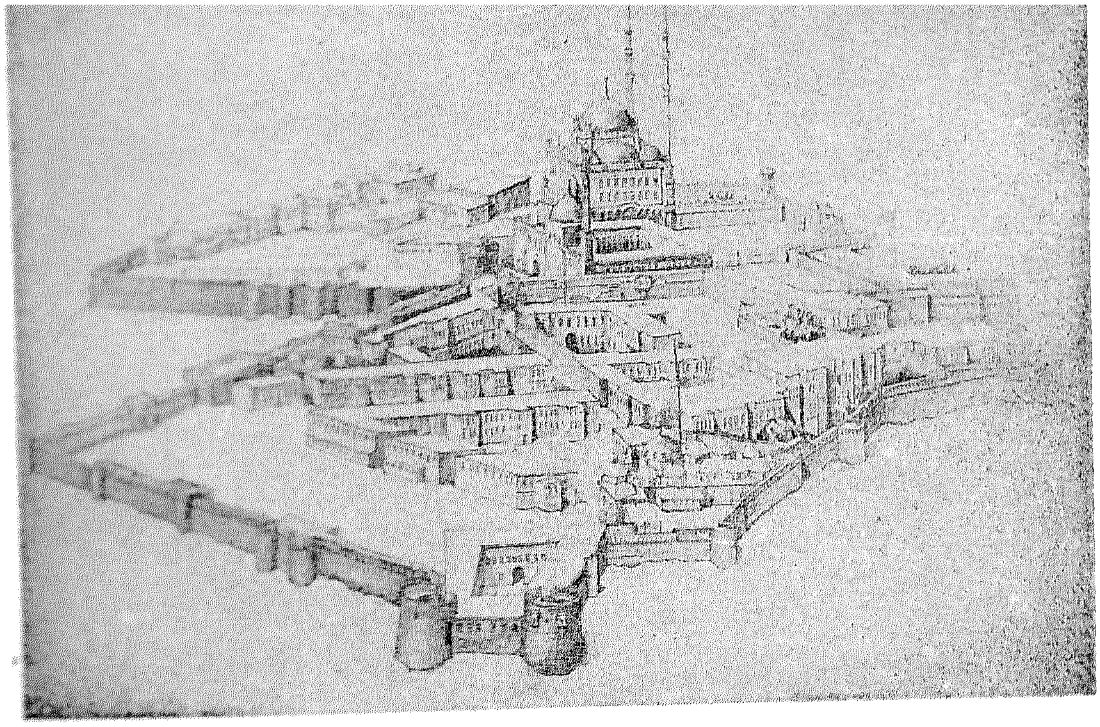
٨ — مسجد بدر الجمالى (الجيوشى) باعلى جبل المقطم (٤٧٨هـ — ١٠٨٥م)



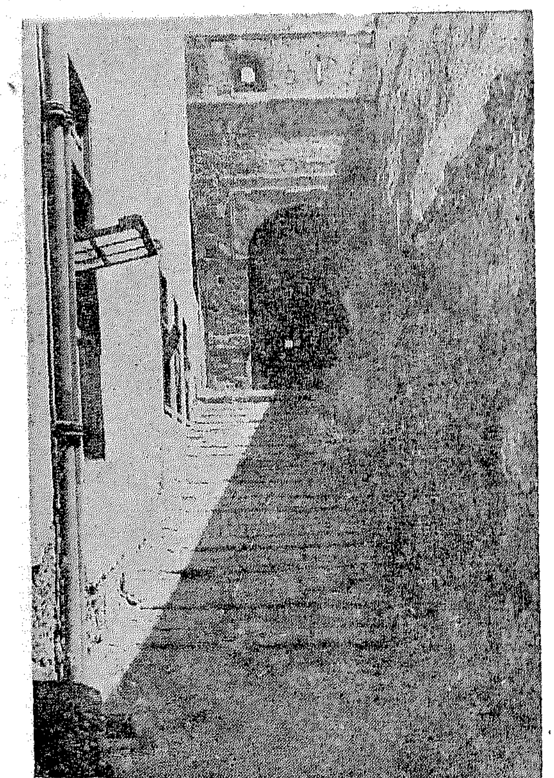
٩ ـــ مسجد الأقمر بالنحاسين (٥١٩ ـــ ١١٢٥)



١٠ ـــ باب الفتوح بسور القاهرة الشمالى (١٠٨٧)



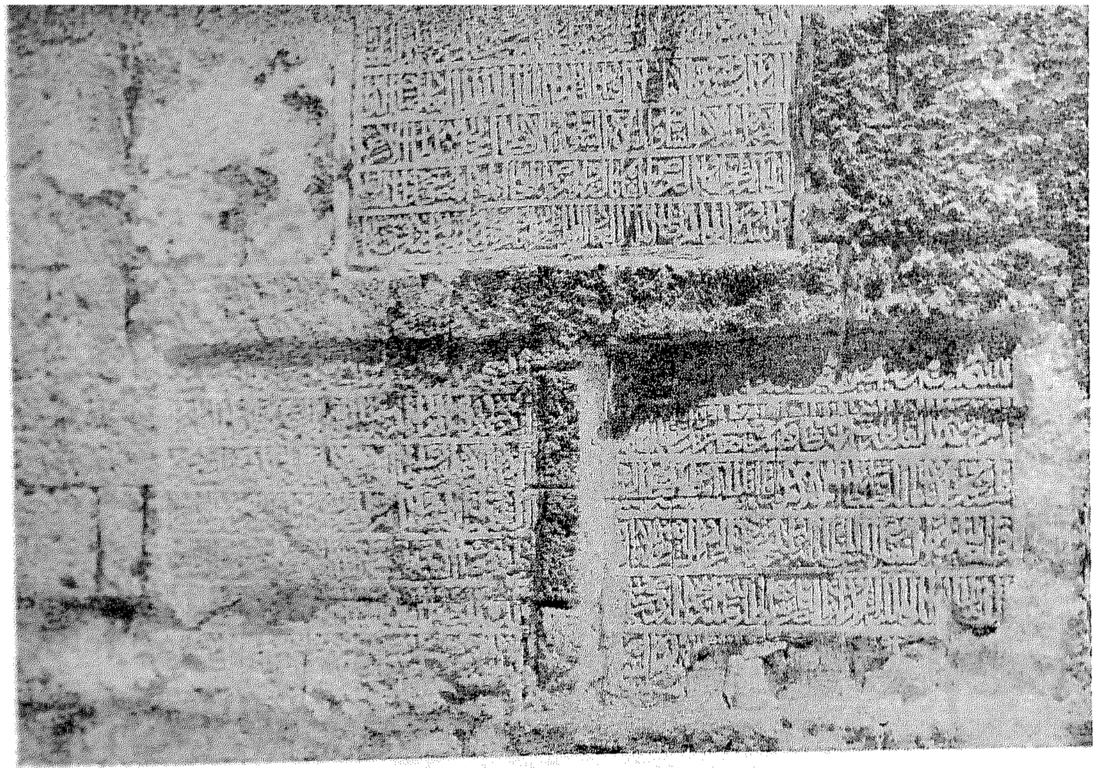
١١ — مخطط يوضح القسمين الرئيسيين لقلعة صلاح الدين
والمبانى الأثرية المتناثرة فيها (١١٨٣ — ١١٨٤)



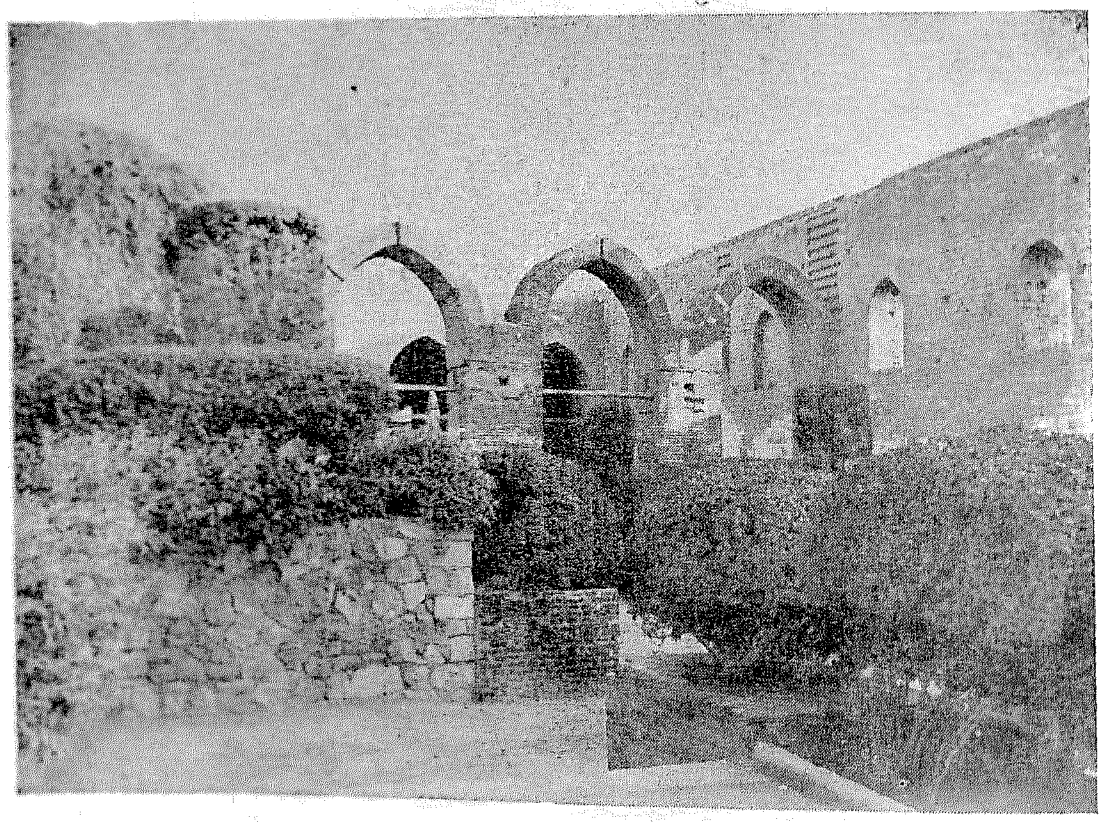
١٢ — الدرج المؤدى إلى باب المدرج القائم
خلف الباب الجديد بالقلعة (١١٨٣ — ١١٨٤)



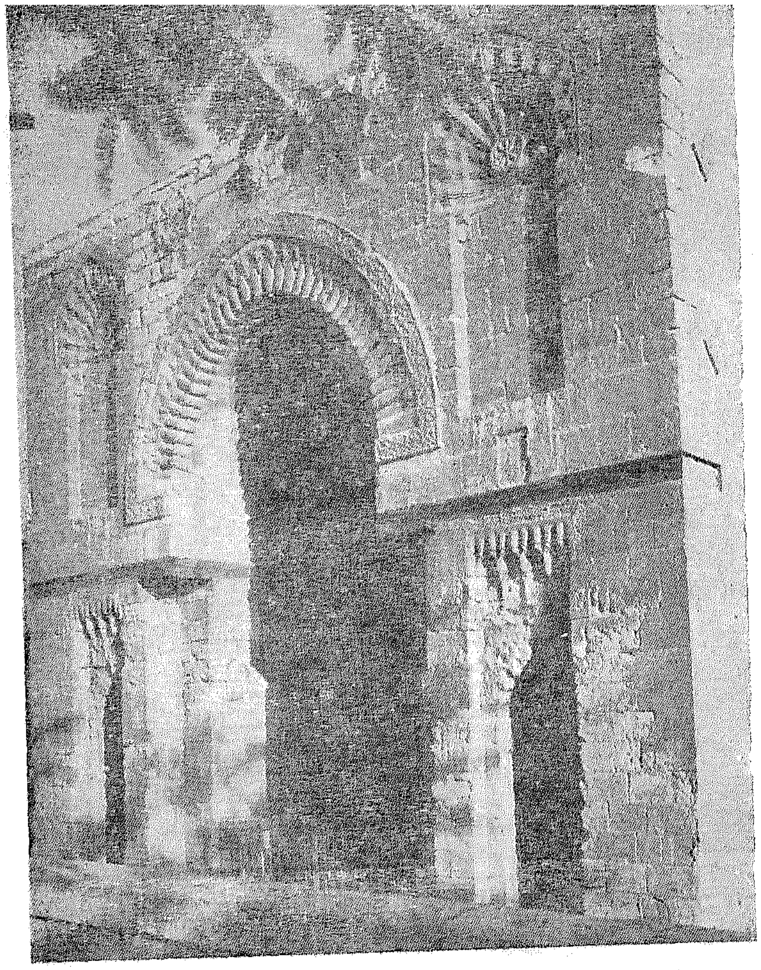
١٣ — مدرسة وضريح السلطان الصالح نجم الدين أيوب
بالنحاسين ٦٣٩ — ٦٤٨ هـ/ ١٢٤١ — ١٢٥٠ م



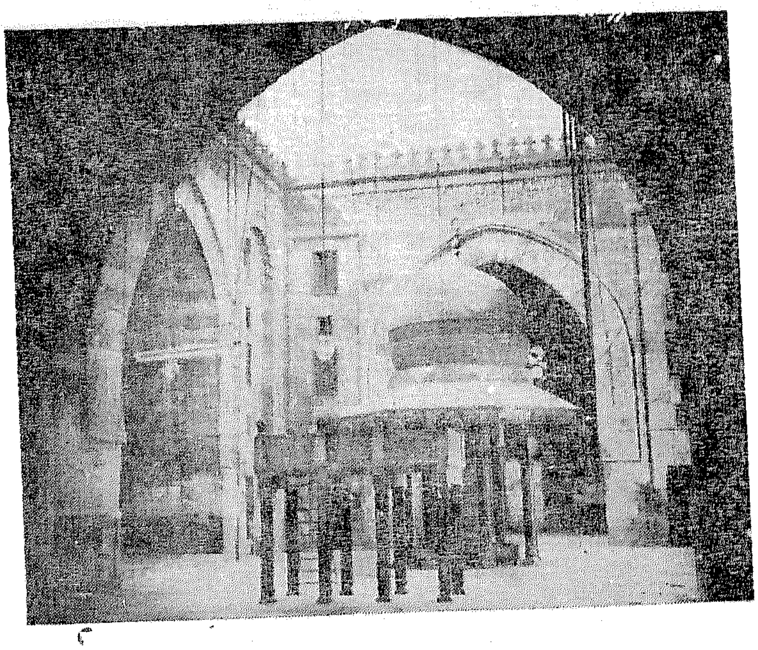
١٤ — كتابات منقوشة ومؤرخة تبين إنشاء وتجديد قلعة الجبل



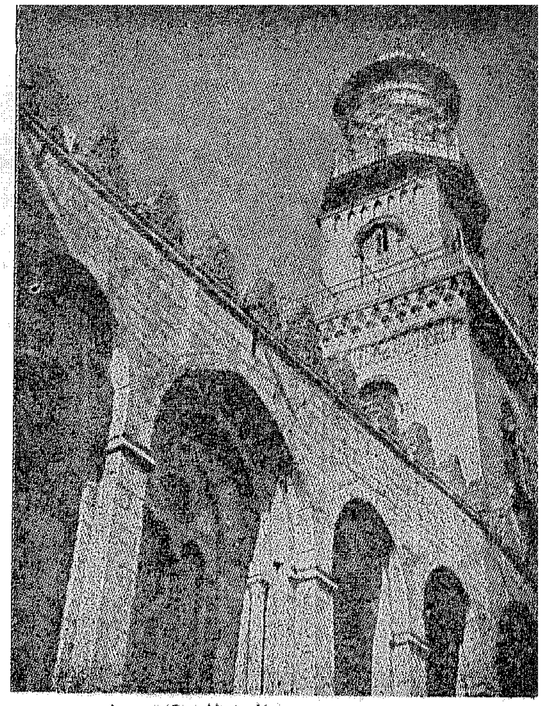
١٥ — مسجد السلطان الظاهر بيبرس بميدان الظاهر (١٢٦٦ — ١٢٦٩)



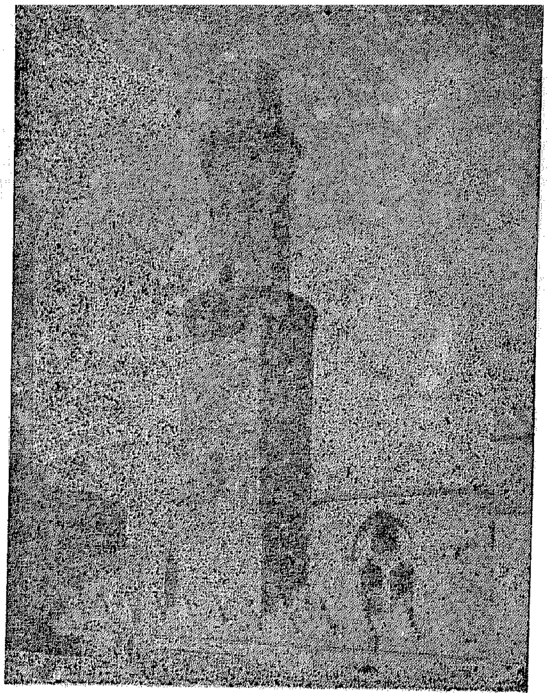
١٦ — الباب الغربى لمسجد الظاهر بيبرس بميدان الظاهر (١٢٦٦ — ١٢٦٩)



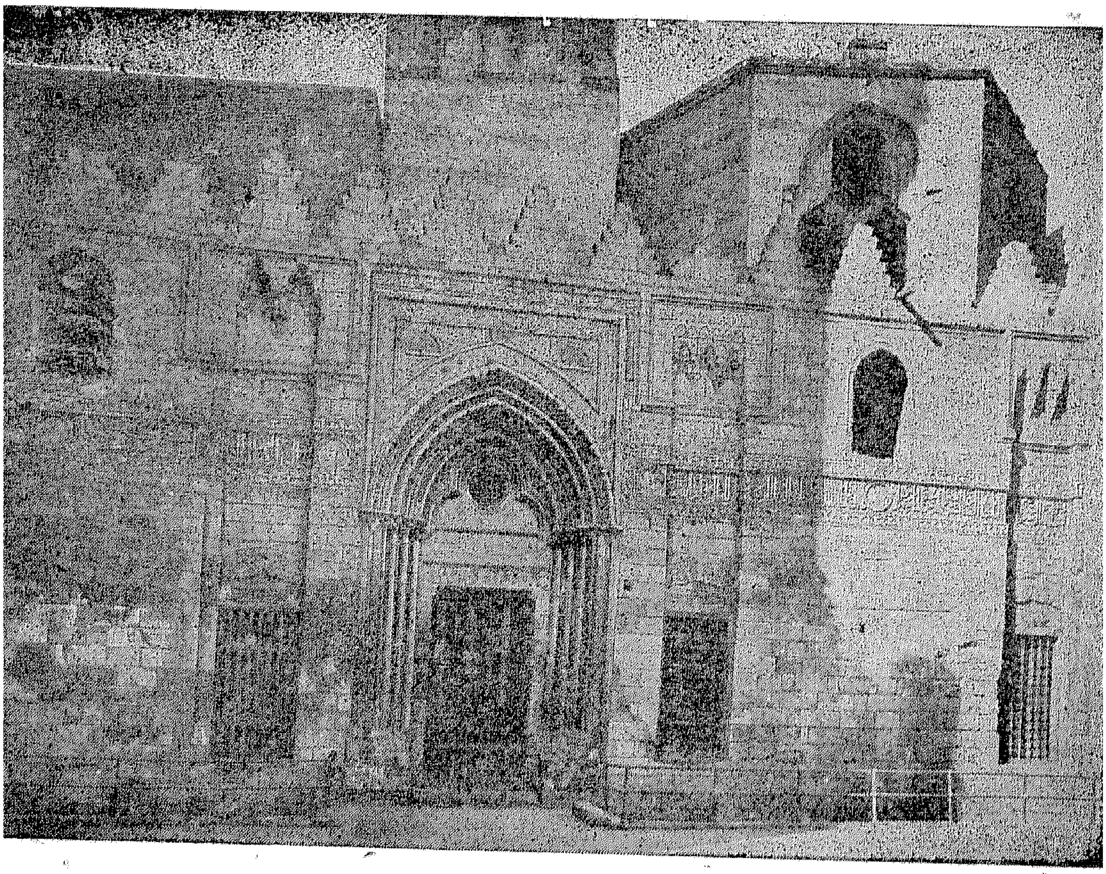
١٧ — مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين (١٢٨٣ — ١٢٨٤)



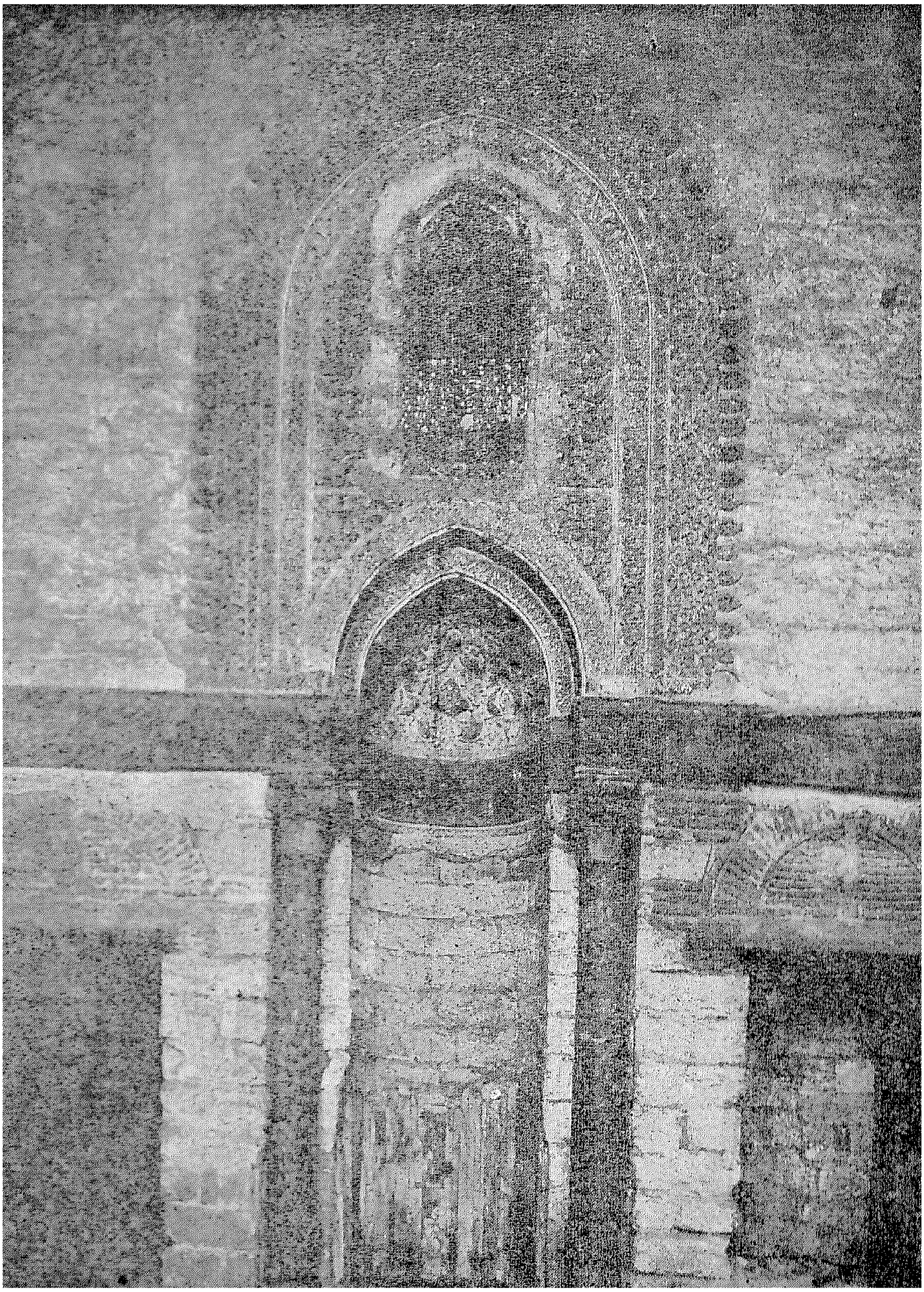
١٨ — مسجد وضريح السلطان قلاوون
بالنحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



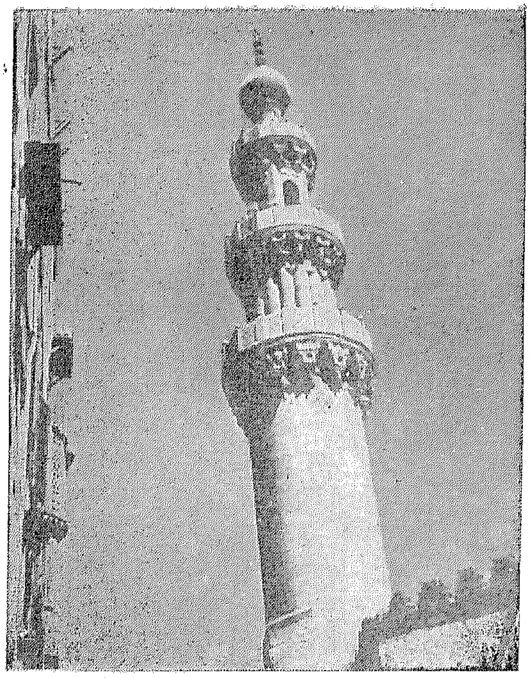
١٩ — مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون
بالنحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



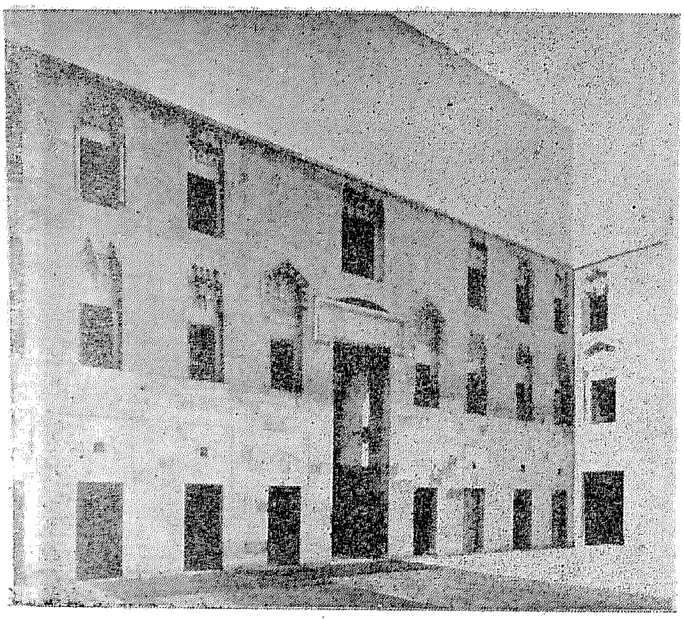
٢٠ — واجهة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



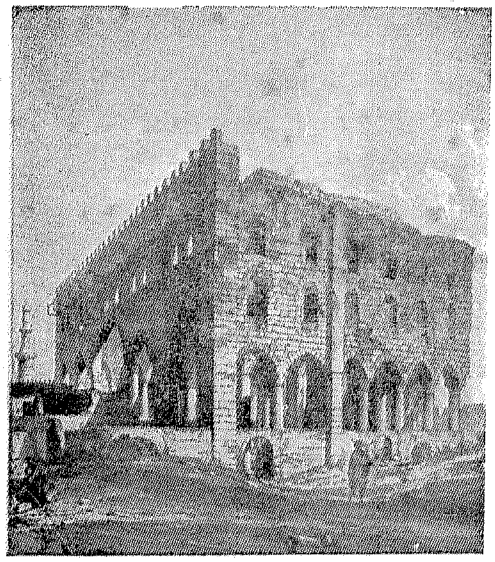
٢١ — محراب مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



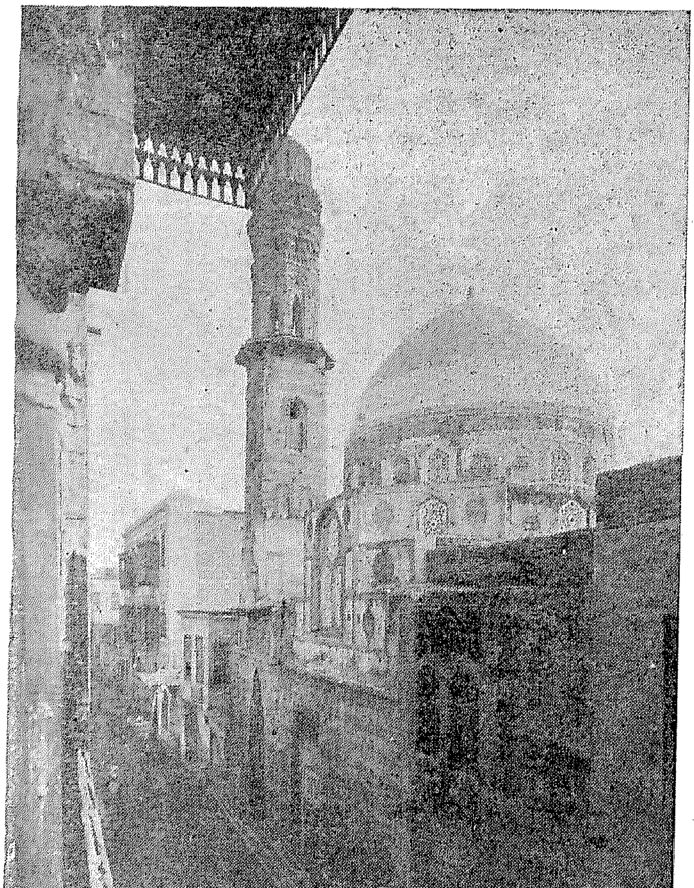
٢٢ — مئذنة آق سنقر (الجامع الأزرق)
(١٣٠٠ — ١٣٠١)



٢٣ — خانقاه وضريح السلطان بيبرس الجاشنكير
(١٣٠٦ — ١٣٠٩)



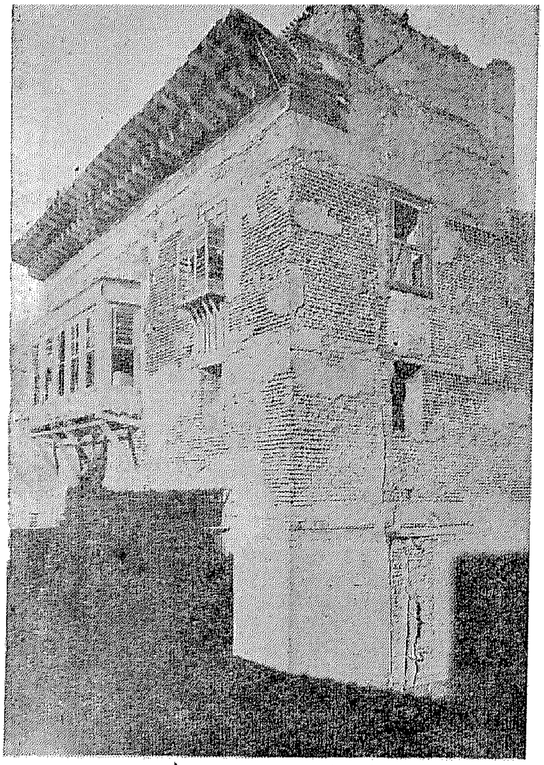
٢٤ — بقايا إيوان الناصر محمد بن قلاوون
بالقلعة (١٣١٤)



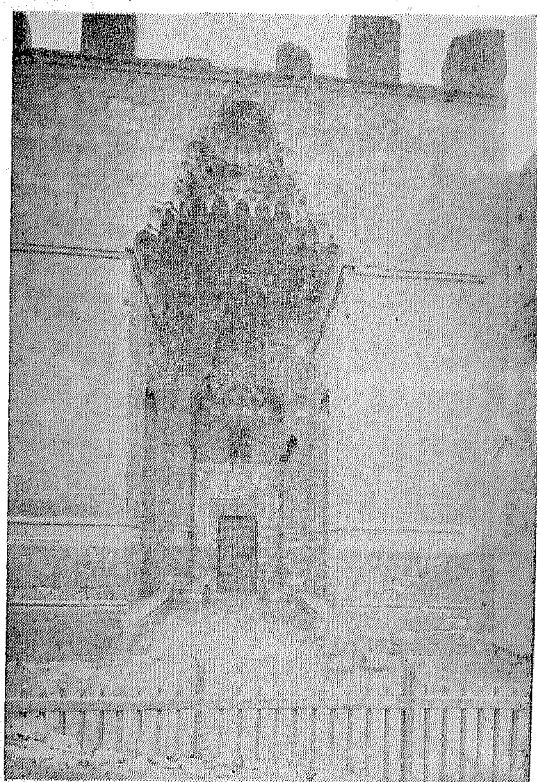
٢٥ — مئذنة وضريح ومدرسة الأمير سنقر
السعدى (حسن صدقه) بالصليبة (١٣١٥)



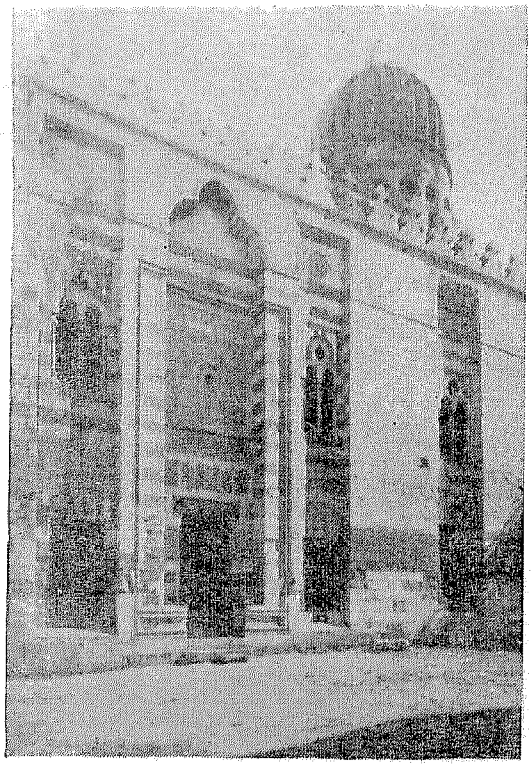
٢٦ — مسجد الأمير الملك الجوقندار (١٣١٩)



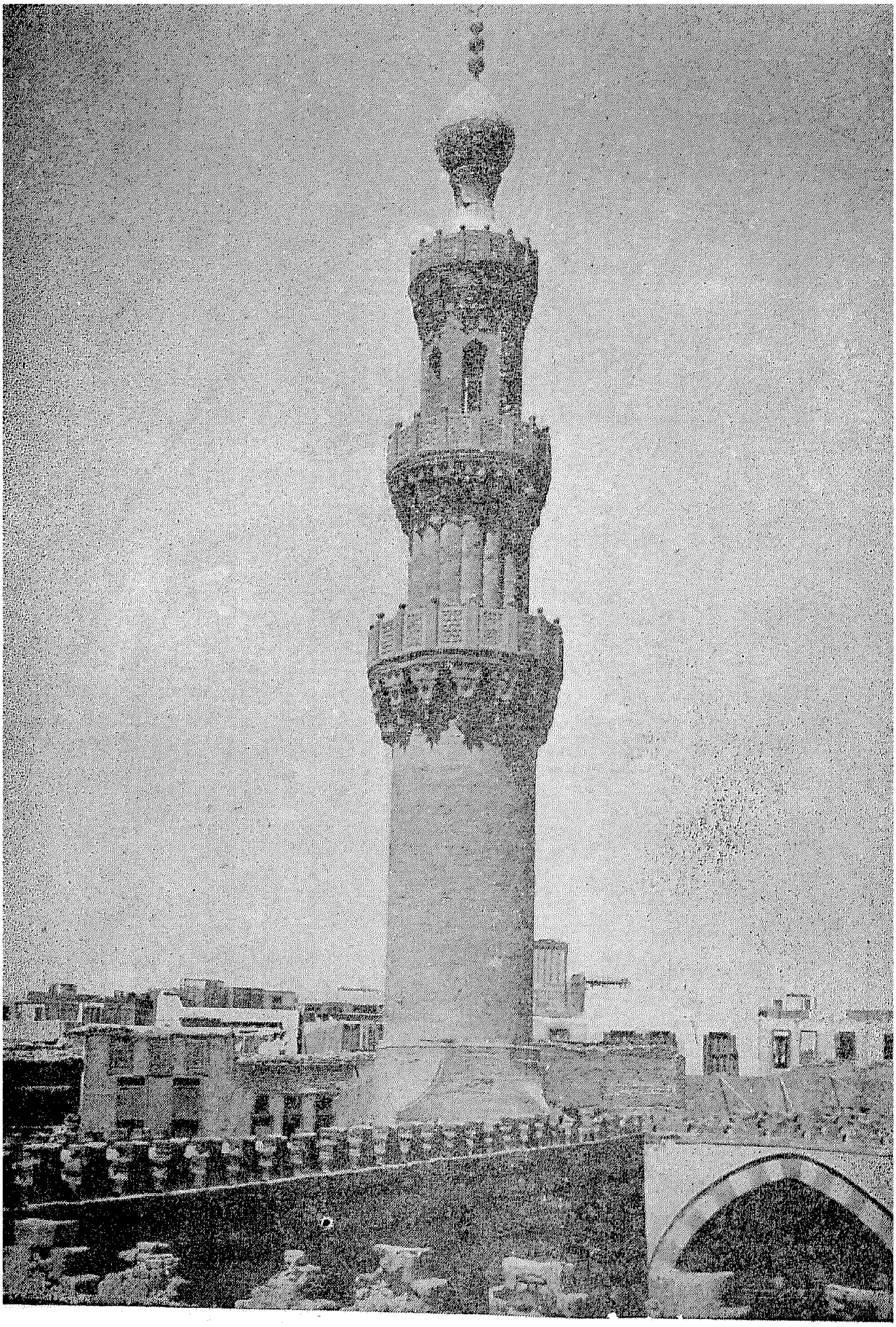
٢٧ — قصر بشتاك بالنحاسين حوالى (١٣٢٤ — ١٣٣٩)



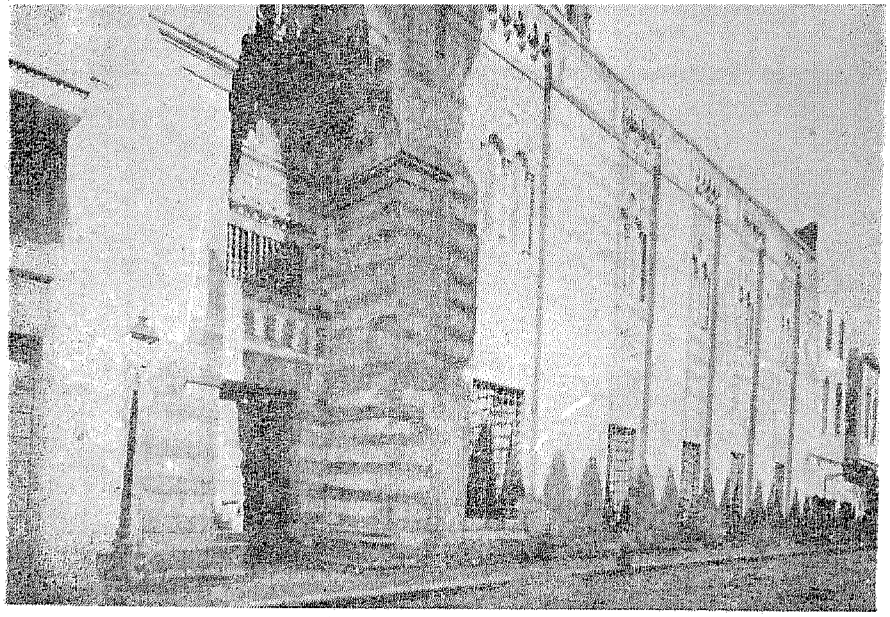
٢٨ — مدخل قصر يشبك بن المهدى قوصون (حوالى ١٣٣٧)



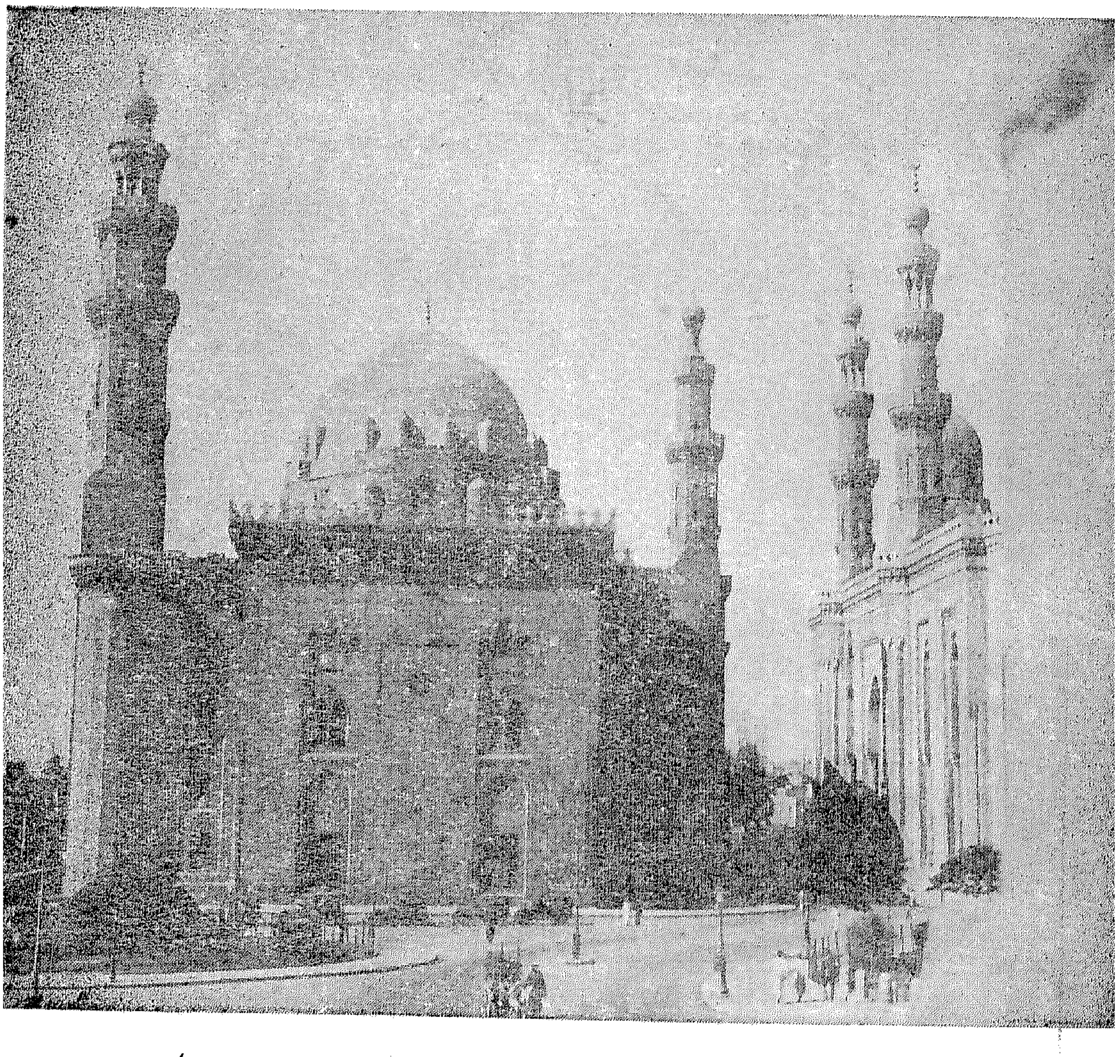
٢٩ — مسجد الامير أصلم البهائى (١٣٤٥)



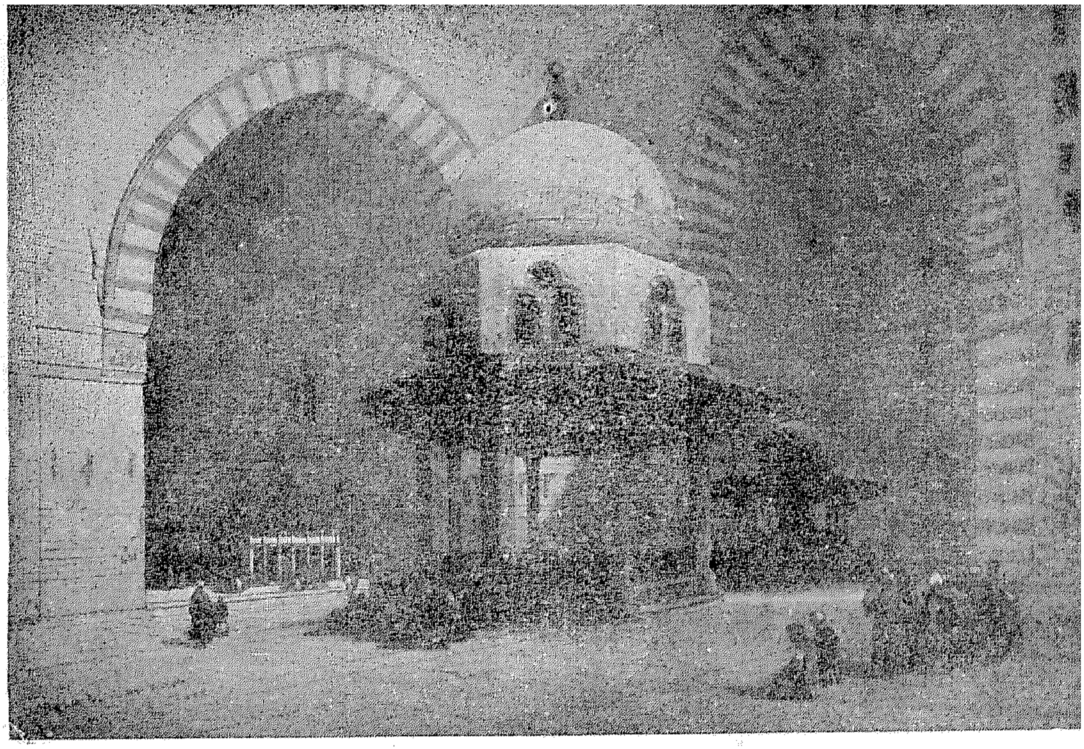
٣٠ ــ منارة ومئذنة مسجد إبراهيم أغا مستحفظان بالتبانة (١٣٤٦ ــ ٤٧)



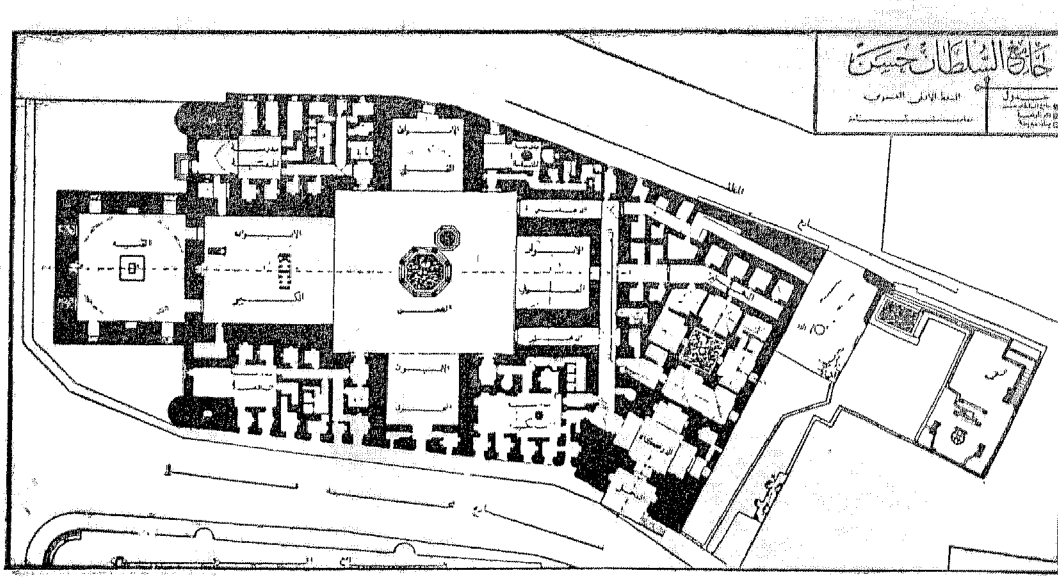
٣١ — مسجد الأمير شيخو بالصليبة (١٣٤٩ — ١٣٥٥)



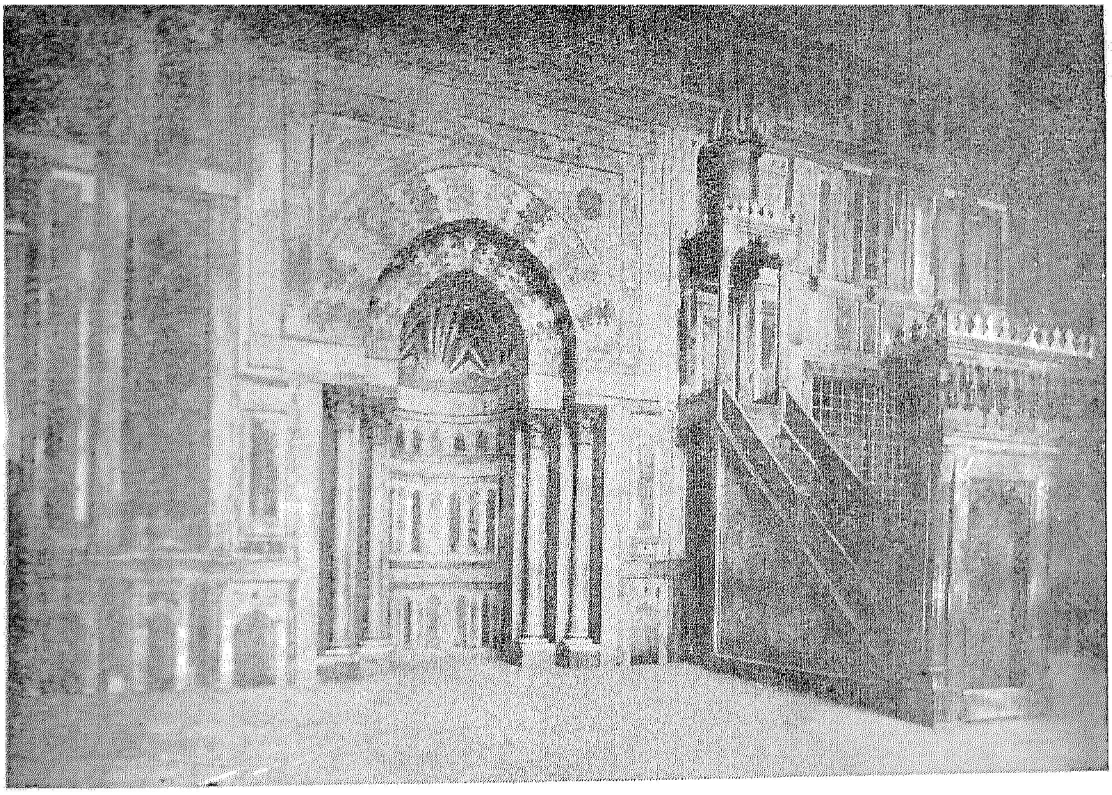
٣٢ — مدرسة ومسجد السلطان حسن المواجهة للقلعة (١٣٥٦ — ١٣٦٢)



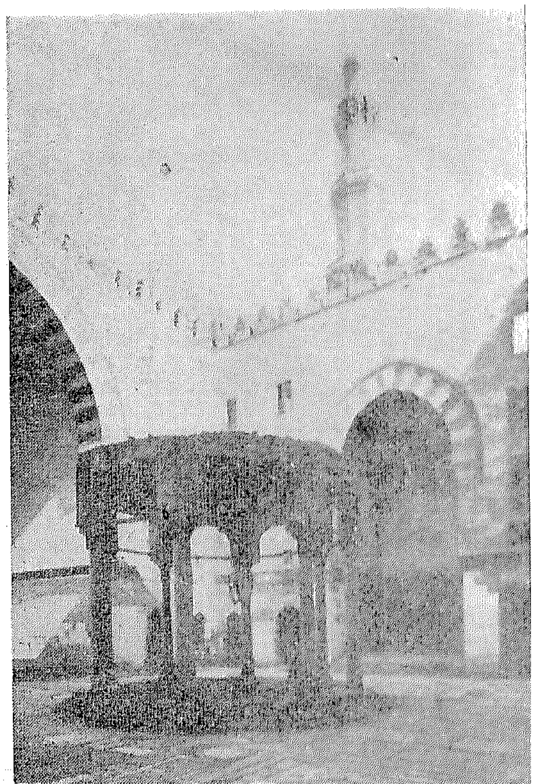
٣٣ — صحن مدرسة/ مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ — ١٣٦٢)



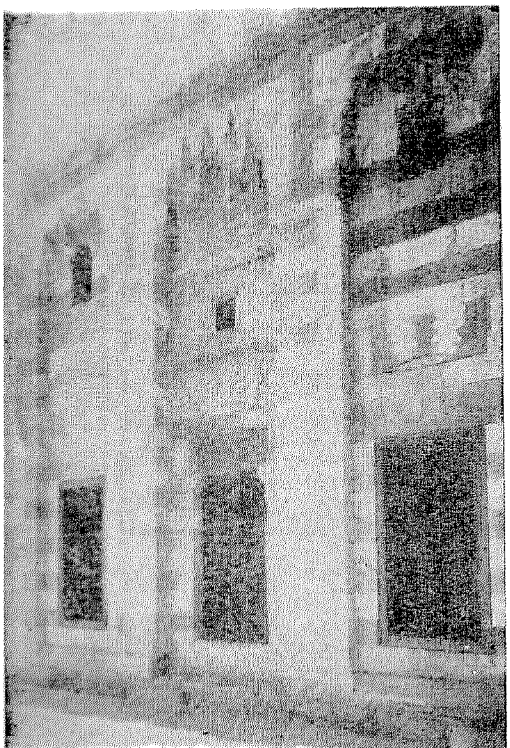
٣٤ — مسقط أفقي لمسجد السلطان حسن



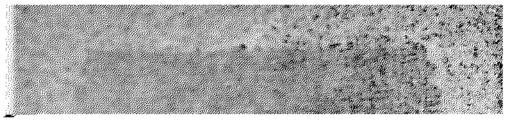
٣٥ — الإيوان الشرقي المشتمل على منبر ومحراب مدرسة السلطان حسن



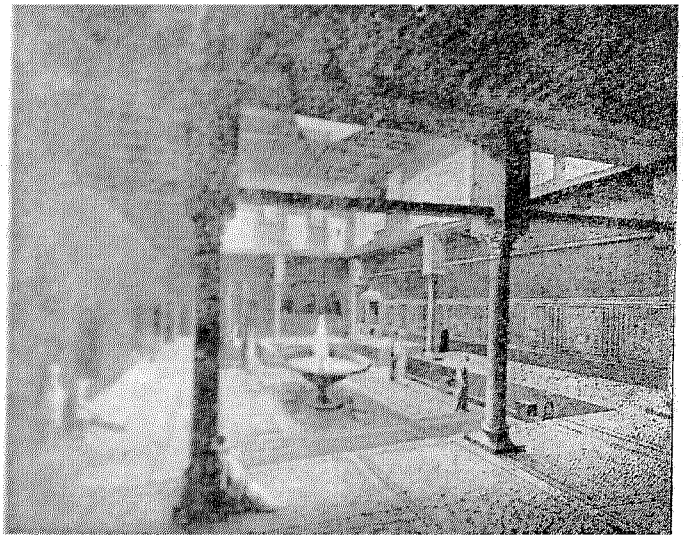
٣٦ — مدرسة وضريح الأمير صرغتمش
بشارع مراسينا (١٣٥٦)



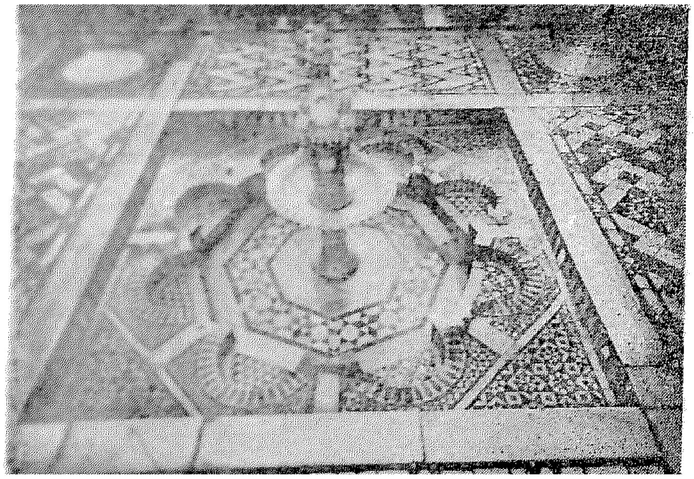
٣٧ — مدرسة الأمير بشير أغا الجمدار (١٣٦٠)







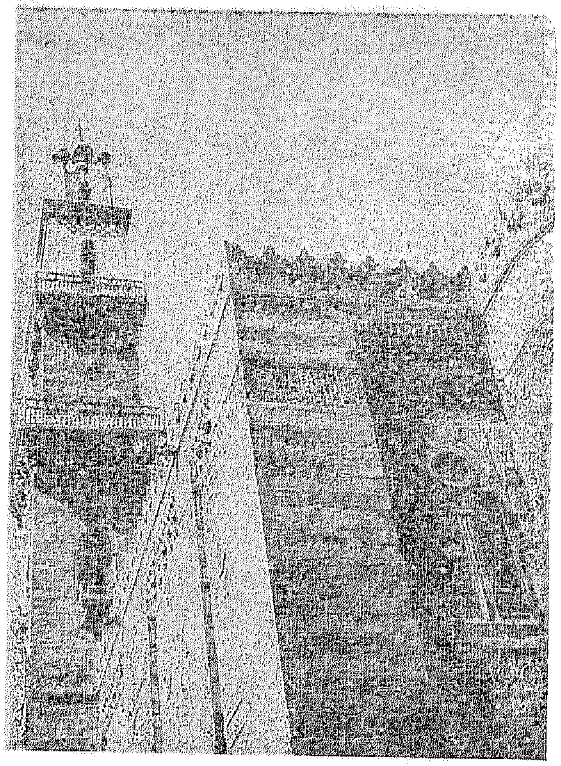
حمام قاهرى فى عصر المماليك



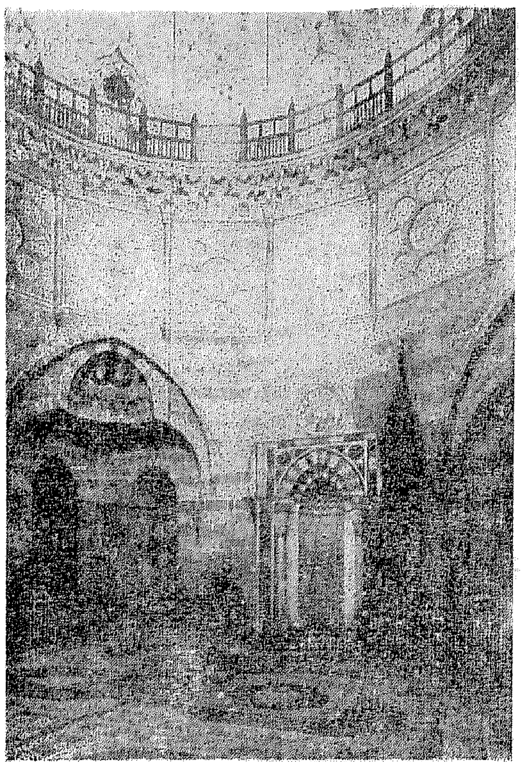
٤٧ ـــ نافورة فى أحد منازل
المماليك وتوجد اليوم فى متحف الفن الإسلامى



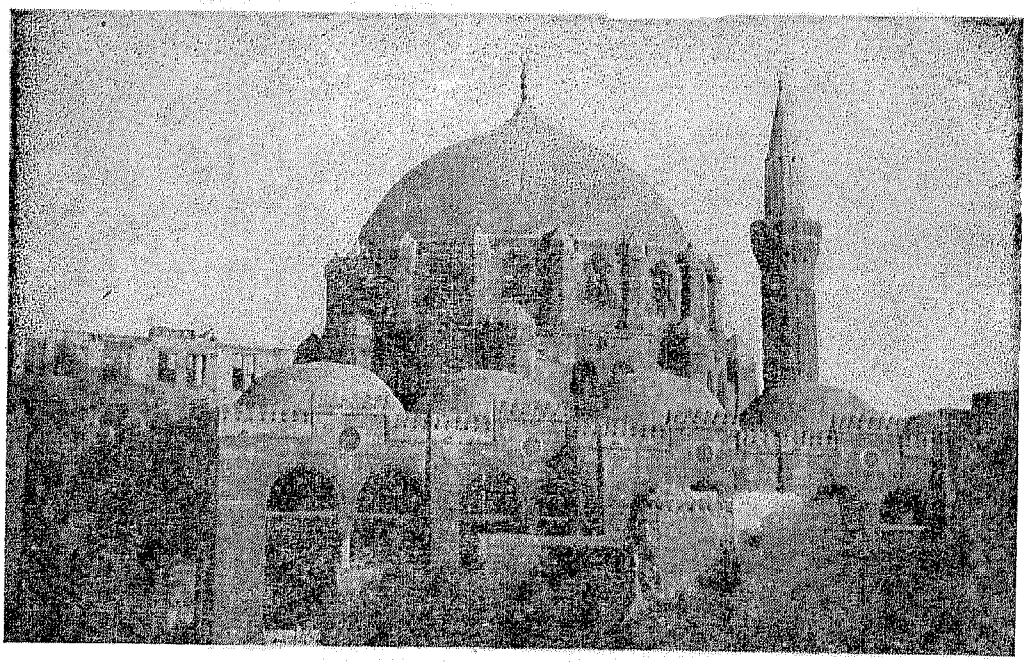
٤٨ ـــ صحن مسجد الغورى
بالغورية (١٥٠٤) للرسام روبرتس



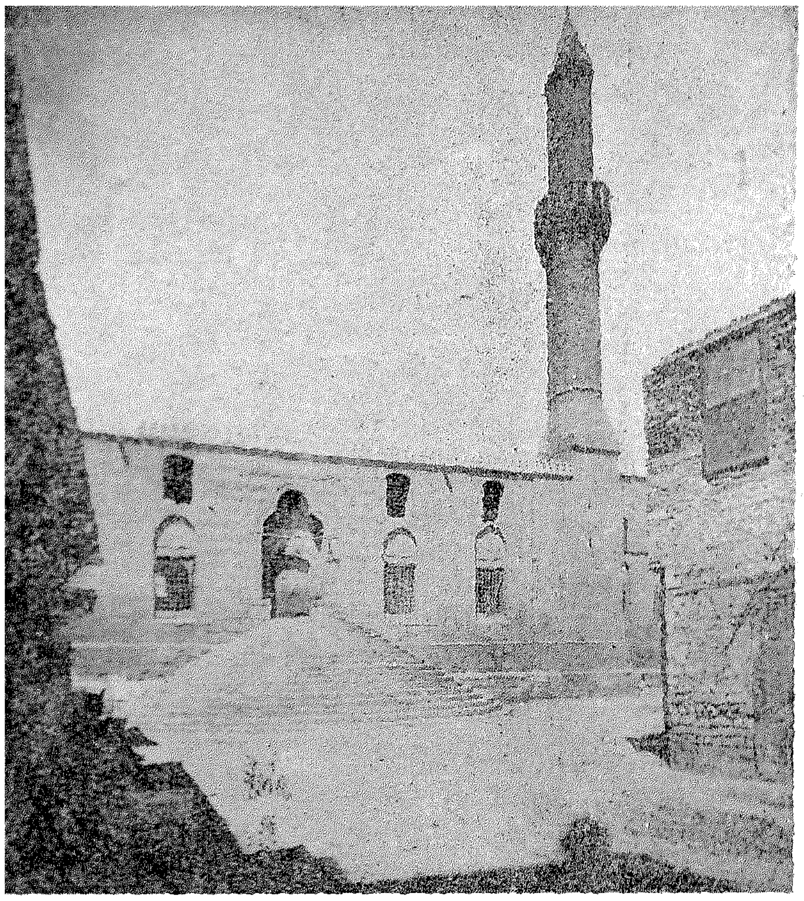
٤٩ — مدرسة السلطان الغورى بالغورية (١٥٠٤–١٥٠٥)



٥١ — مسجد سنان باشا ببولاق من الداخل (١٥٧١)



٥٠ — مسجد سنان باشا ببولاق من الخارج (١٥٧١)



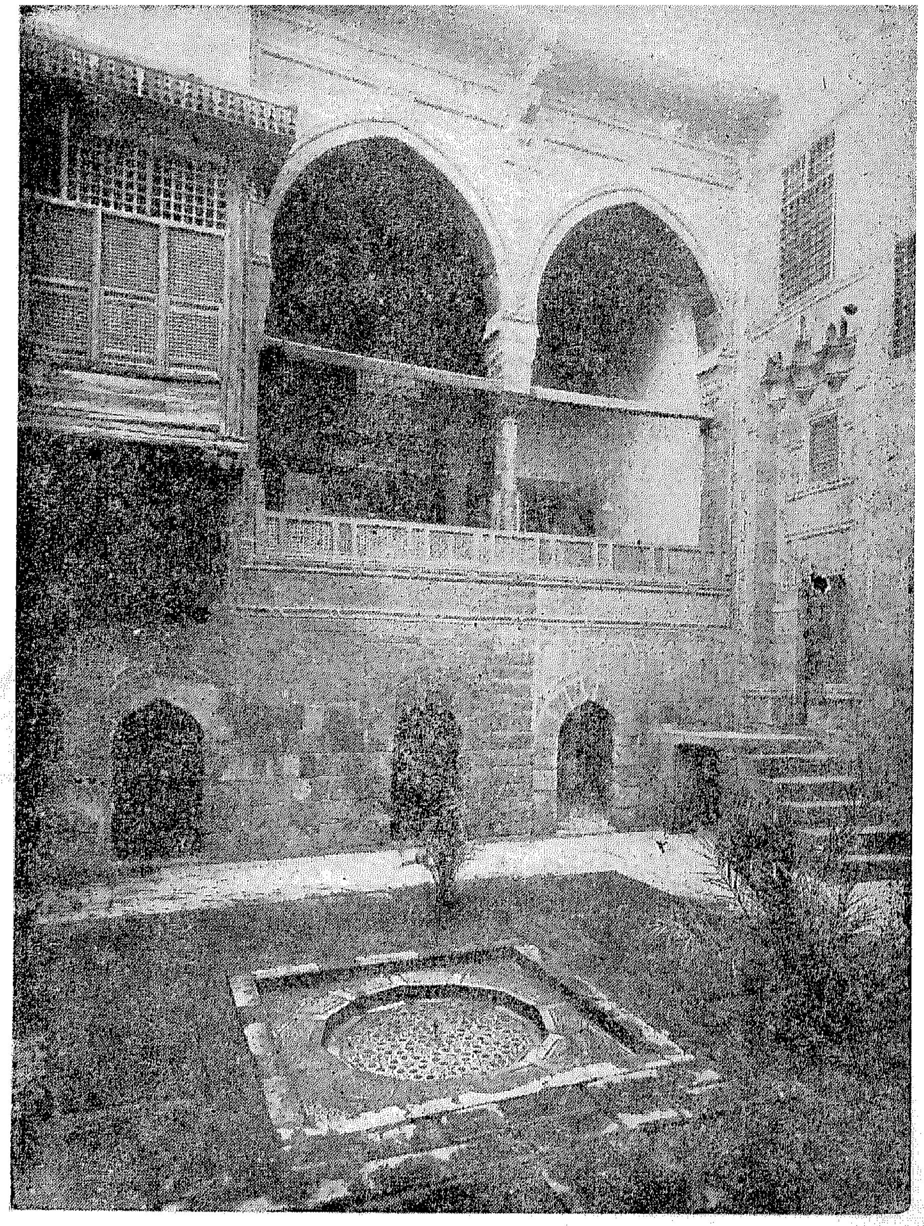
٥٢ — مسجد الملكة صفية بالداودية (١٦١٠)



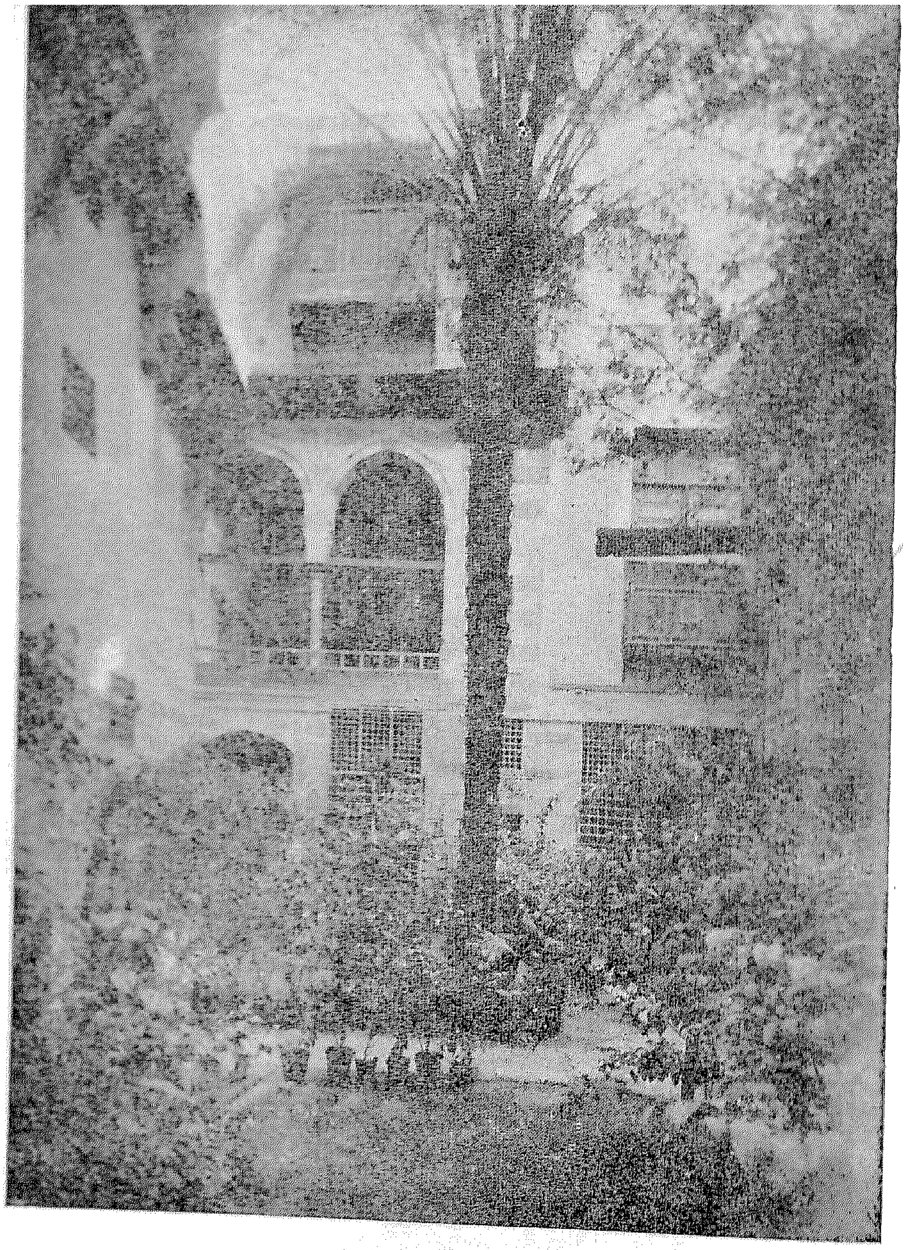
٥٣ — دار الجزار المعروف بمنزل الكريتلية الملاصق لمسجد أحمد بن طولون (١٦٣٢)



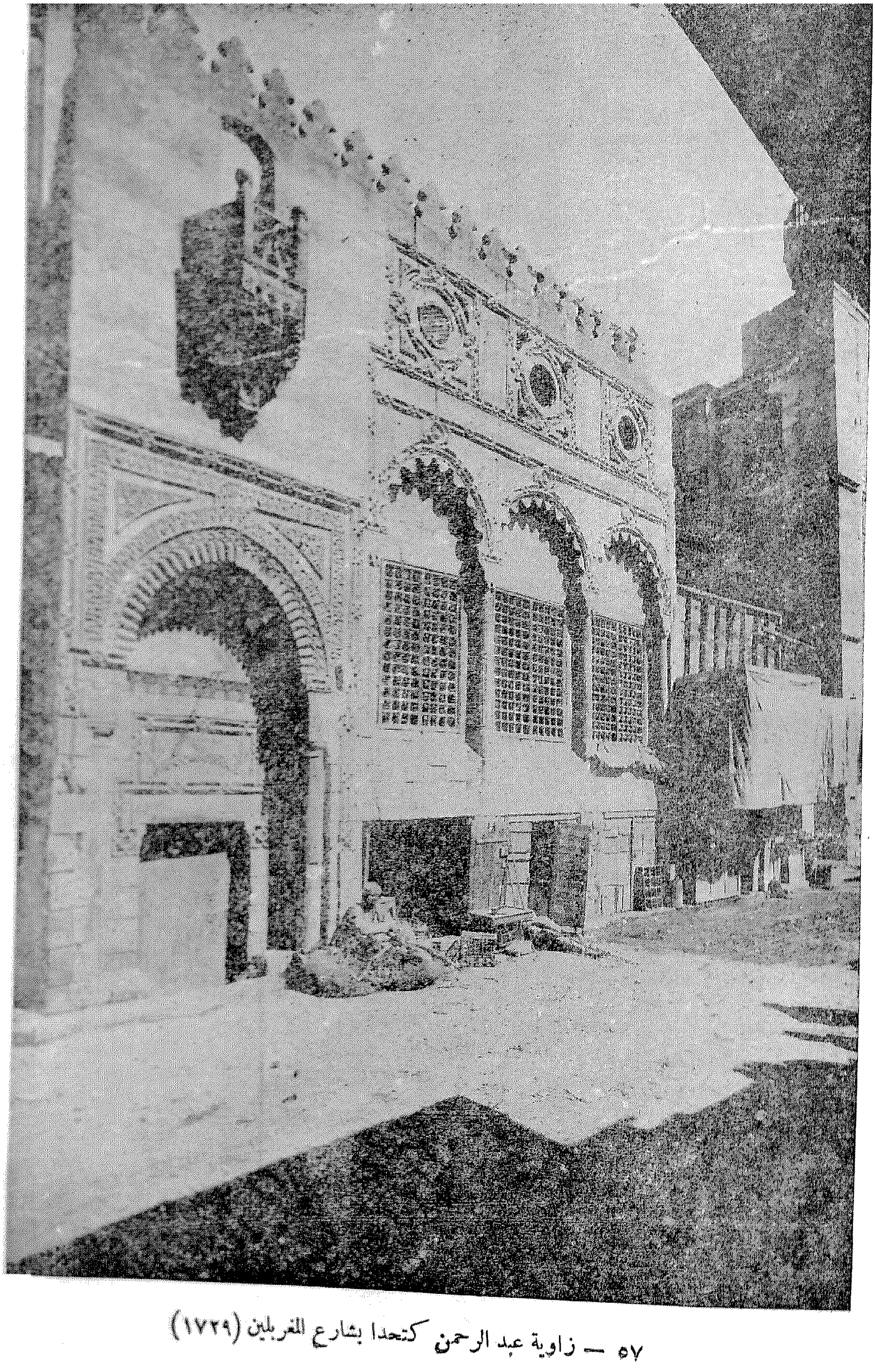
٥٤ — منزل الكريتلية من الداخل (١٦٣٢)



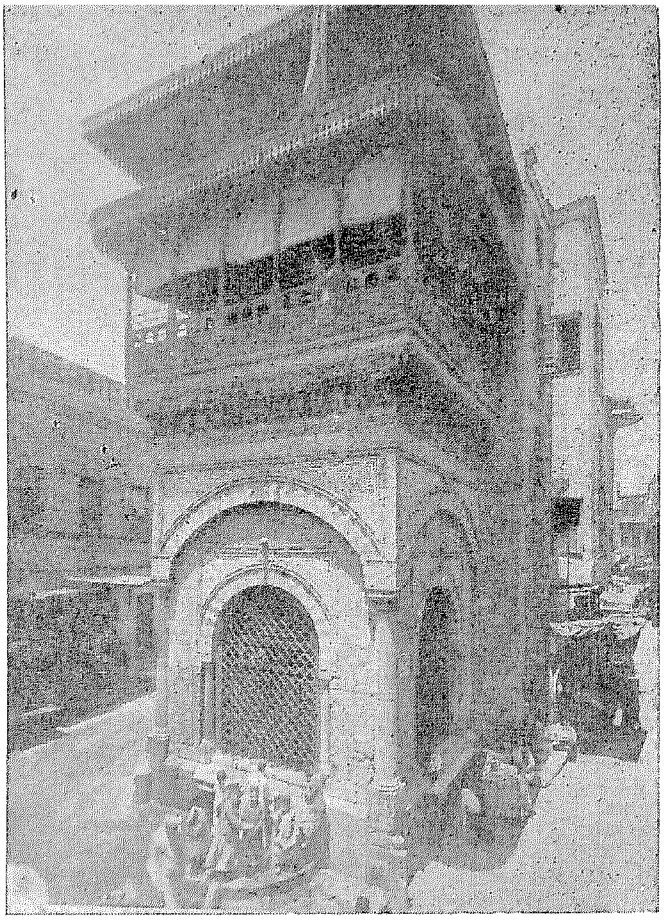
٥٥ — منزل جمال الدين الذهبي (١٦٣٧)



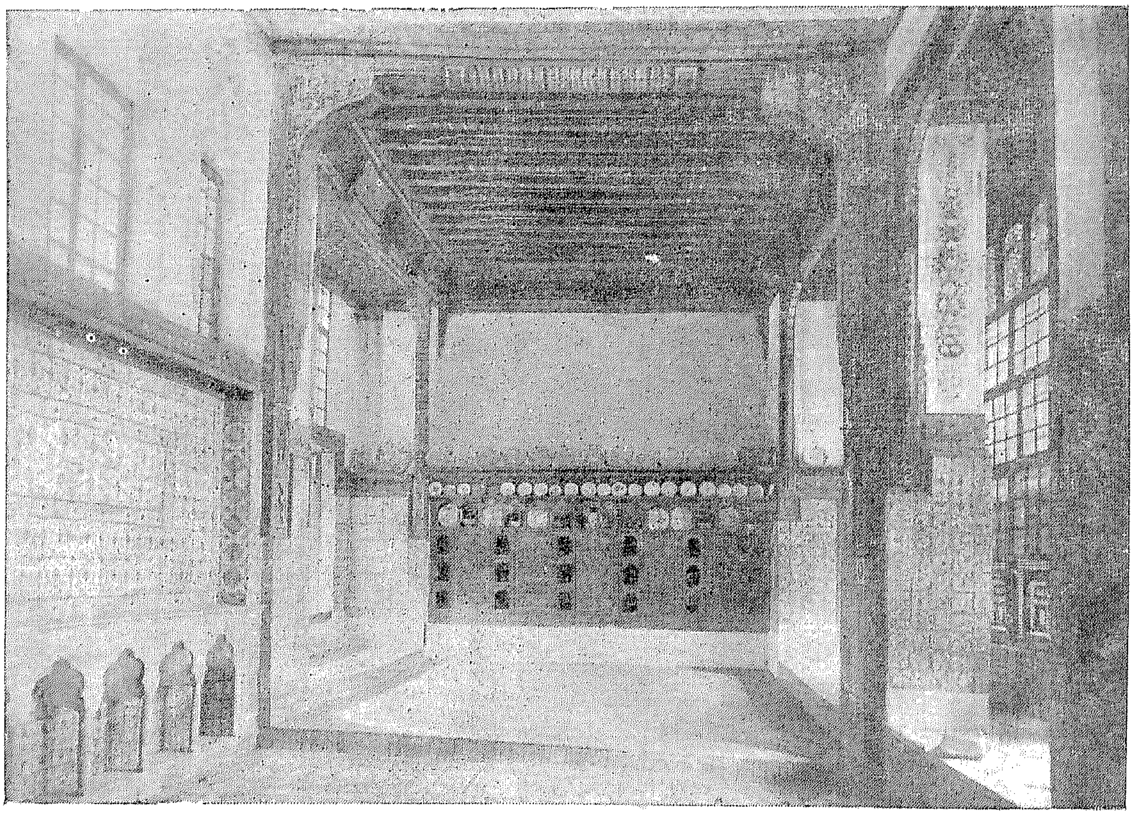
٥٦ — الوجهة التى تطل على فناء دار الطبلاوى
(المعروف بالسحيمى) (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



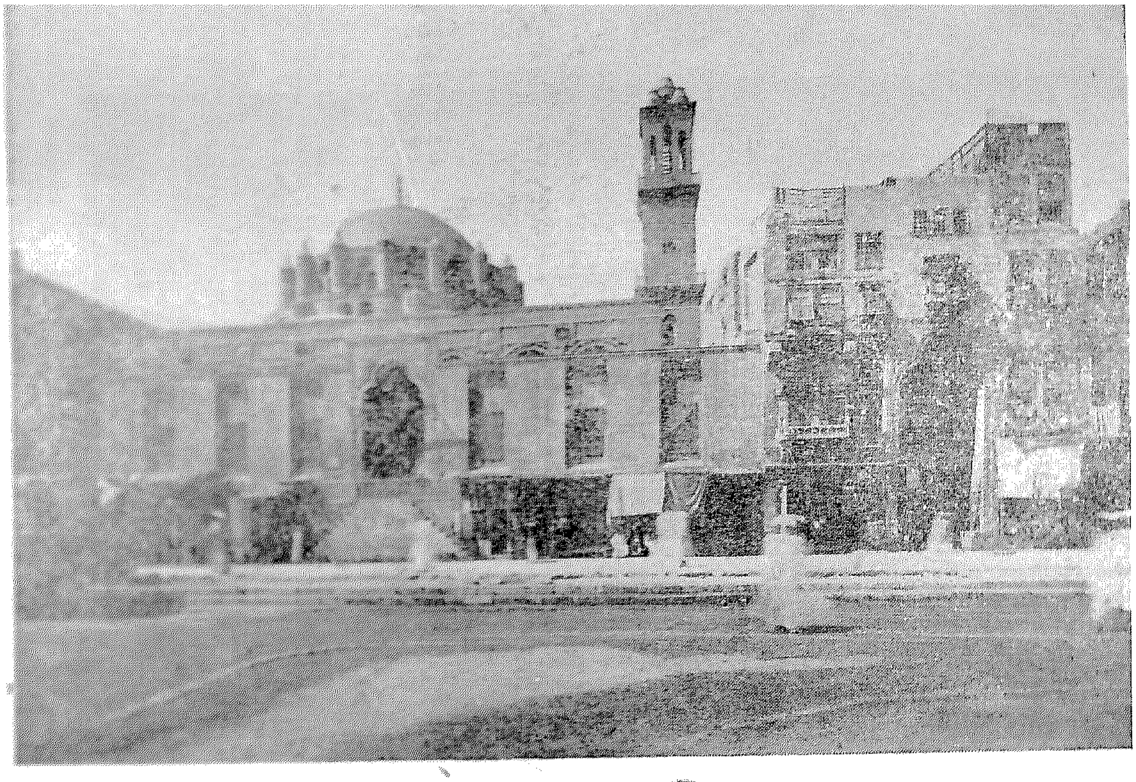
٥٧ ــ زاوية عبد الرحمن كتخدا بشارع المغربلين (١٧٢٩)



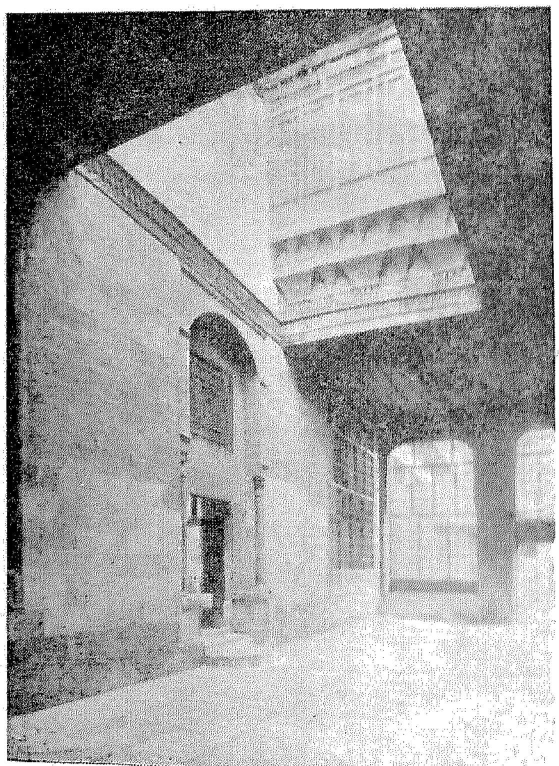
٥٨ — سبيل عبد الرحمن كتخدا
(١٧٤٤)



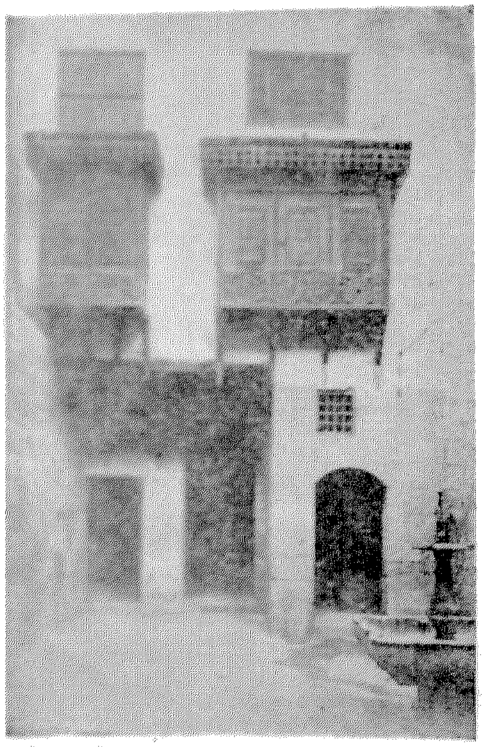
٥٩ — القاعة الكبيرة بمنزل الطبلاوى (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



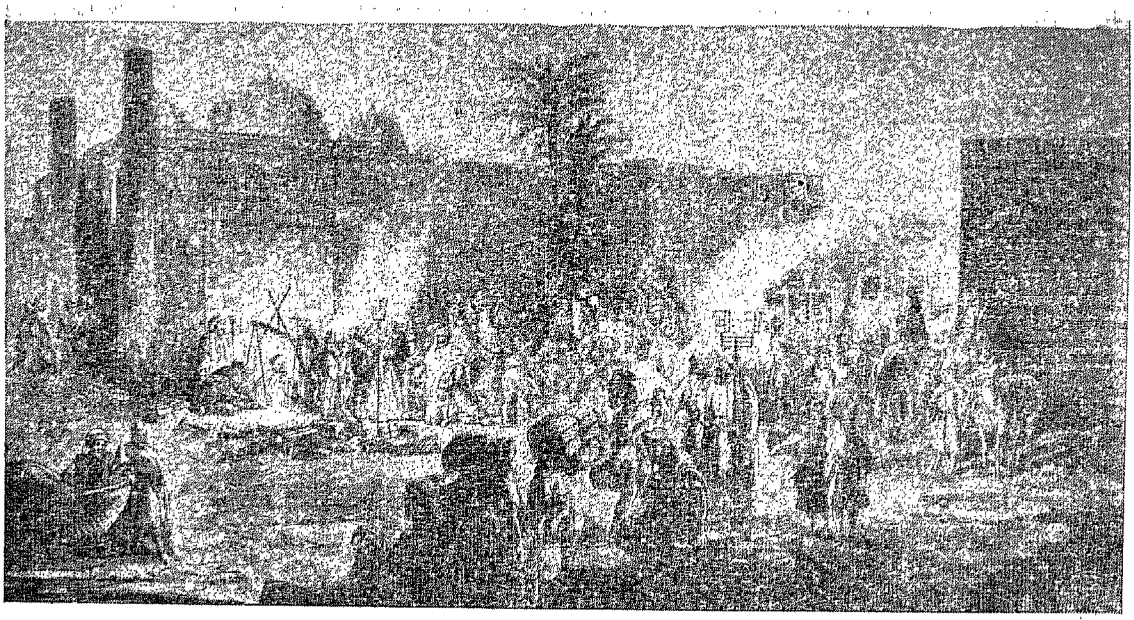
٦٠ — مسجد محمد أبو الذهب المواجه للأزهر (١٧٧٤)



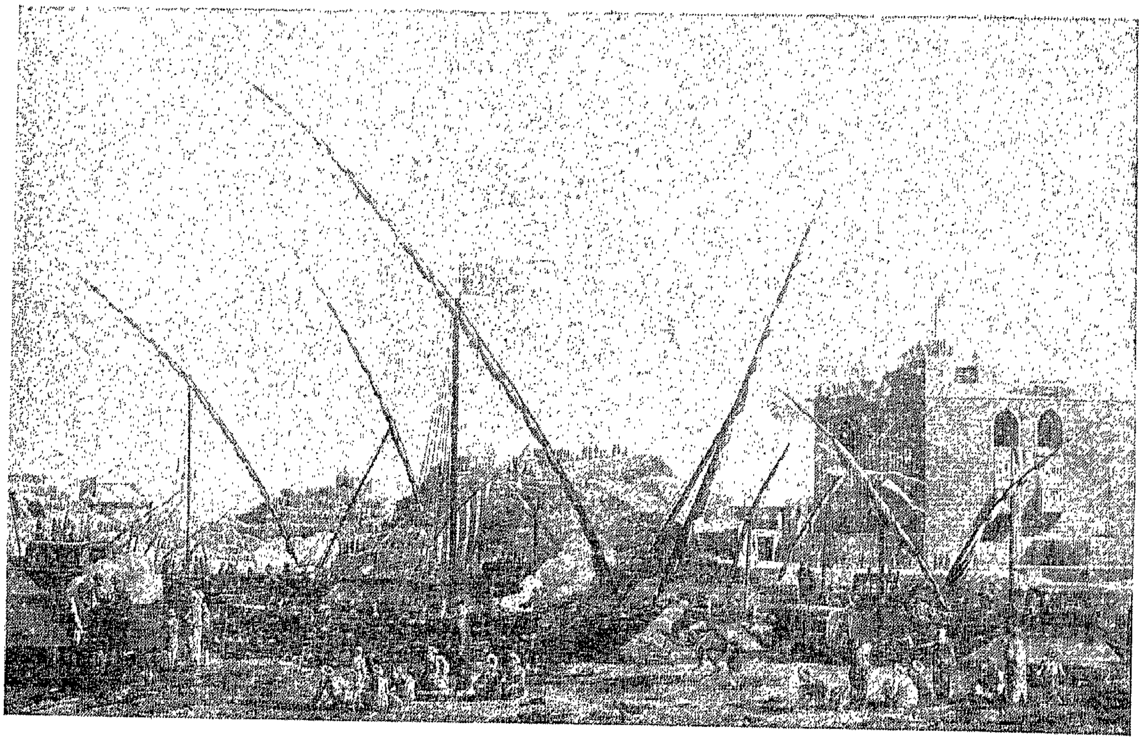
٦١ — دار المسافر خانه (١٧٧٩ — ١٧٨٩)



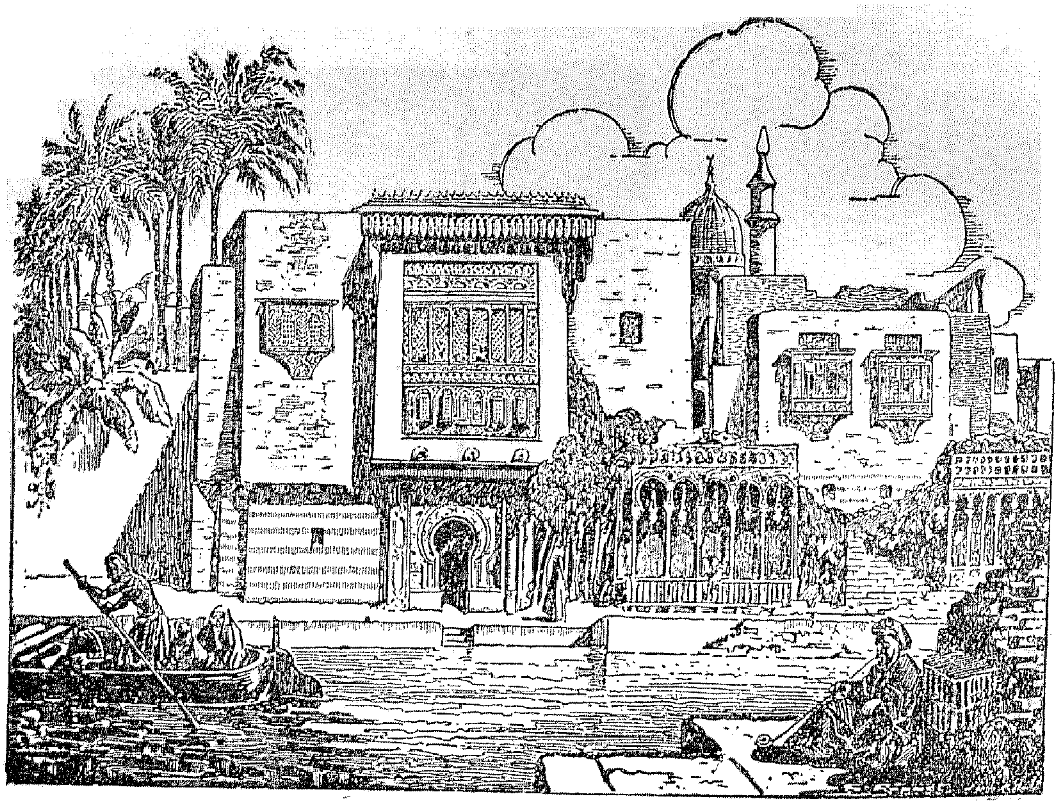
٦٢ — دار السنارى بالسيدة زينب (١٧٩٤)



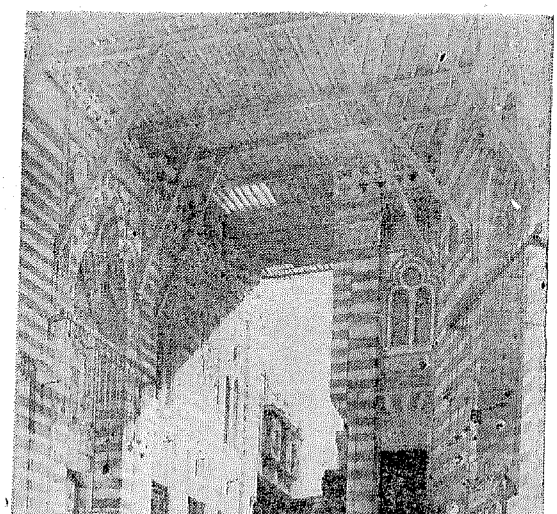
٦٣ ـــ إحدى وكالات القاهرة فى بولاق أيام الحملة الفرنسية



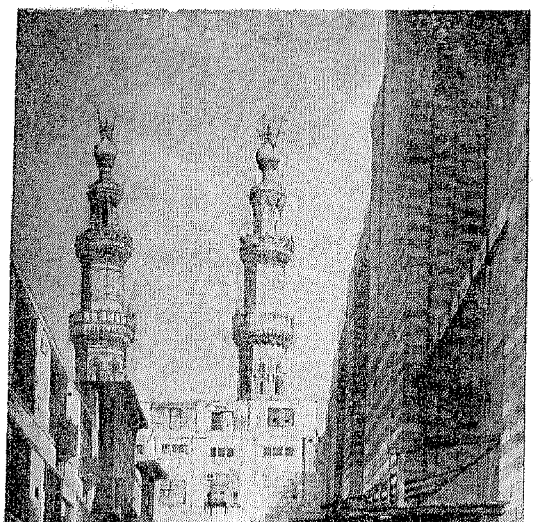
٦٤ ـــ قناطر المياه عند فم الخليج أثناء الاحتفال بقطع السد أيام الحملة الفرنسية



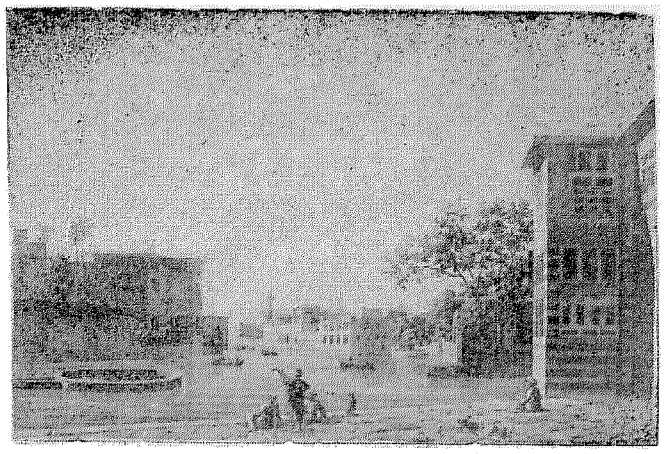
٦٥ — الخليج المصرى وبعض الدور التى كانت تطل عليه



٦٦ — سوق الحرير بالغورية للرسام روبرتس فى القرن ١٩



٦٧ — باب زويلة وقصر رضوان للرسام روبرتس فى القرن ١٩



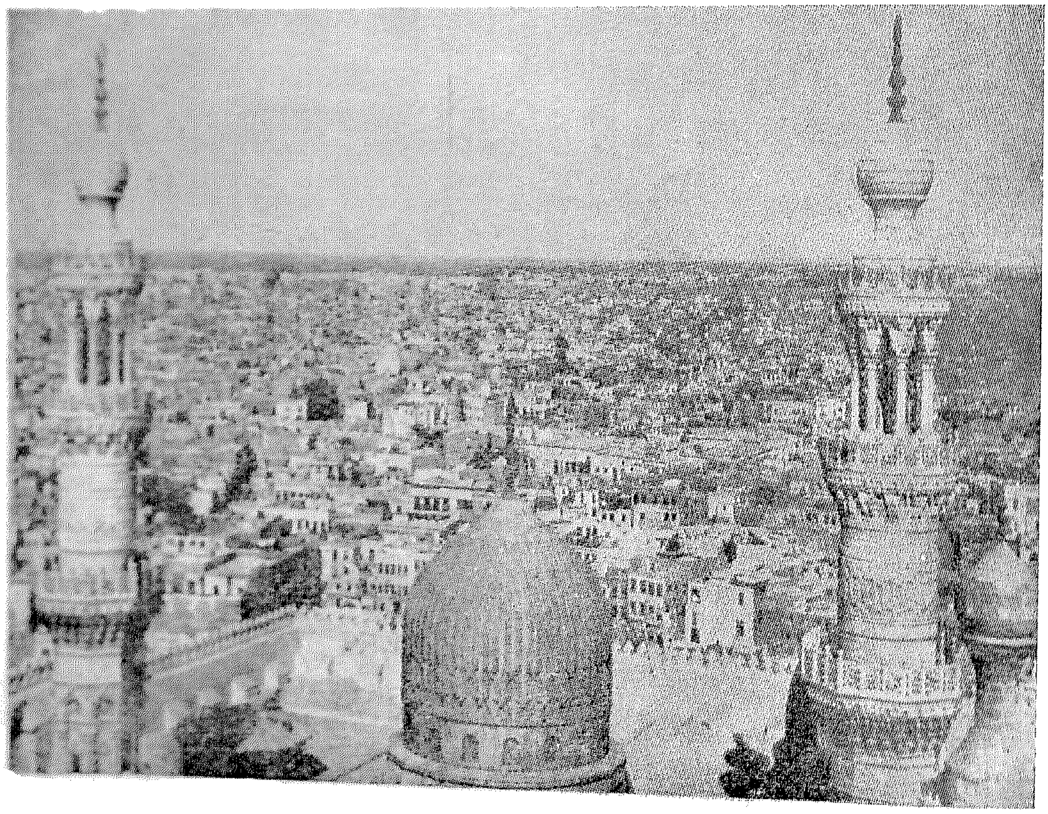
٦٨ — بركة الفيل فى القرن ١٩



٦٩ — مشهد قتال بين طوائف المماليك
فى القاهرة فى القرن ١٨



٧٠ — أحد رجال المماليك يعاين سيفاً فى سوق السلاح



٧١ — منظر عام للقاهرة

مايو ١٩٦٦ الثمن ٧٠ قرشاً

دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
ت ٩٠٨٣١٨ - س . ت ٨٩٦٩١